إتحاف الأنام

بمهمات في الإسلام

ربيع عبد الرؤوف الزاوي

رقم الايداع ٢٢٦:٢ ١٢ ٢٠١م

إتحاف الأنام
بمهمات في الإســـلام

إعـــداد
ربيع عبد الرءوف الزواوي

الطبعة الأولى

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٢٣٦٤٣

الترقيم الدولي: I.N.S.B
978-977-6315-26-6

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــــة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه بحوث إسلامية كنت قد نشرت بعضها في كتيبات صغيرة الحجم، ومنها ما تمَّ طباعته أكثر من مرة لما كان لها من القبول عند القارئ بفضل الله وحمده، ومنها ما لم يطبع من قبل.

واليوم نخرجها جميعًا في هذا المجلد تحت عنوان: (إتحاف الأنام بمهمات في الإسلام)، وذلك رغبة في جمعها في كتاب واحد، بعد النظر فيها وتمحيصها، والإضافة إليها، وتعديل بعض الفقرات، فما من مؤلِّف يؤلِّف كتابًا إلا كلما نظر فيه غيَّر وبدَّل وأضاف وحذف، وهذا هو العقل البشري الذي يحاول ويسعى جاهدًا الوصول إلى الكمال، وهو محال من المحال، فسبحان مَن له الكمال، وله الجلال، لا نحصي ثناءً عليه، سبحانه هو كما أثنى على نفسه.

غير أني حافظت على بعض ما كتبت من فترة زمنية ليست بالقصيرة، ولا أرضى عنه الآن، كما كنت أرى فيما مضى من العمر؛ لتبقى فيه روح الشباب آنذاك، ولتبقى فيه رائحة الماضي، ووهج التحمُّس للدِّين، الذي فقدناه في هذه الأيام.

وقد قسَّمت الكتاب إلى ابواب ستة:

الباب الأول: مع القرآن الكريم، وفيه خمسة فصول: الفصل الأول: عن تاريخ المصاحف، والفصل الثاني: بحوث مهمة حول القرآن الكريم، والفصل الثالث: عن أسماء الله وصفاته في القرآن، والفصل الرابع: عن الأنبياء والرسل

الذين ذكروا في القرآن، والفصل الخامس: حول القصص القرآني.

الباب الثاني: مع الرسول ﷺ، وفيه تكلَّمت عن صفات الرسول ﷺ الخِلْقية والخُلُقية، وجعلت فيه بعض المباحث المهمة حول الرسول ﷺ.

الباب الثالث: مع الصحابة والتابعين، وفيه فصلان، جعلت الفصل الأول لذكر نماذج من الصحابة والتابعين ، والفصل الثاني جعلته تصحيحًا لبعض الشبهات التي تثار من فترة لأخرى حول الخلافات والمعارك التي وقعت بين أصحاب الرسول ﷺ.

الباب الرابع: تاريخ الحرمين والأقصى: وهو سرد تاريخي لقصة بناء المساجد الثلاثة؛ الكعبة، ومسجد الرسول ﷺ، والمسجد الأقصى، وذلك تحقيقًا للجزء الخاص بها من مخطوطة (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري -رحمه الله.

الباب الخامس: رسالة المنبر في الإسلام، وهو حول خطبة الجمعة، وما يتعلق بها من بحوث مهمة. **والباب السادس: بحوث تربوية للشباب**، وهي بحوث هادفة لشباب الصحوة الإسلامية المتعجل.

هذا؛ وقد جعلت لكلِّ باب أو فصل مقدمة خاصة بين يديه تقريبًا للمراد منه، ومن المهم أن نذكر هنا أنه من الأهمية بمكان قراءة هذه المقدمة بين يدي قراءة كل باب أو فصل. والله وحده المسئول أن ينفع بها، وأن يتقبلها، وهو حسبي ونعم الوكيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

الفقير إلى الله .. ربيع الزواوي

القاهرة في ١٠/٤/٢٠٠٧م

الباب الأول

مع القرآن الكريـــم

الفصل الأول
تاريخ المصاحف

مقدمة:

الحمد لله، حمد مقدر نعمه، عارف آلاءه، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين؛ إمام المتقين، وقائد الغُرِّ المحجَّلين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

وبعد:

فهذه ورقات في تاريخ المصاحف؛ ألفيتها طيبة النفع عظيمة الفائدة، وكيف لا وفي تاريخ أعظم كتاب نزل، ووحي الله تعالى وكلامه، الكتاب المنزل على أفضل المرسلين، كتاب الهداية ومنهج الحياة، فيه كل خير، أفاض في شرح الحقوق والواجبات، وضع الله فيه الأحكام الجامعة والقواعد الكلية التي يندرج تحتها كل ما يجد في شئون الحياة.

وهذه الورقات كانت عبارة عن مقالات نُشرت في مجلة (المنار) عام (١٣٢٥هـ- ١٩٠٧م)، جعلتها في مبحثين؛ المبحث الأول منها هو مقال الدكتور: محمد توفيق صدقي -رحمه الله، نُشر في العدد (٢) من السنة العاشرة لمجلة (المنار)، الصادر في شهر صفر عام ١٣٢٥هـ - الموافق لشهر أبريل عام ١٩٠٧م، والمبحث الثاني منها هو مقال الأستاذ: موسى جار الله الروسي - رحمه الله، نُشر في العدد (٣) من السنة العاشرة الصادر في شهر ربيع الأول عام

١٣٢٥هـ - الموافق لشهر يونيه عام ١٩٠٧م.

جمعتها لنفسي ولمن رام معرفة تاريخ أعظم كتاب أخرج للناس منذ بدية الخليقة حتى يرث الله الأرض ومَن عليها.

ولقد دفعني لنشرها رغبة الكثير ممن اطلع على مادتها عندي في كشكول خاص، أو ممن أرشدته إلى مكانها في المجلة المذكورة، والتي توقفت منذ سنين، والتي كان يصدرها العلامة محمد رشيد رضا -رحمه الله.

والله من وراء القصد محيط.

كتبه الفقير إلى الله

ربيع عبد الرءوف الزواوي

آخر شعبان عام ١٤١٧هـ

* * *

المبحث الأول

غير خافٍ على أحد أن الأمة العربية قبل الإسلام كانت أمة أمية، يقل فيها وجود مَن يعرف القراءة والكتابة معرفة جيدة، وكان جلُّ اعتمادهم في جميع ما يروونه من أنسابهم وأشعارهم وغيرها على حفظهم لها في صدورهم، ولم نعرف أنه كان عندهم كتاب ما من الكتب في أيٍّ موضوع كان، وغاية ما كانوا يفهمونه من لفظ (كتاب) أنه أي صحيفة مكتوب عليها من نحو الجلود أو العظام أو الحجارة أو الجريد، بل إنَّ الصالح للكتاب من كلِّ هذه الأشياء كان لديهم قليلاً، ولذلك لم يستغنوا بنوع واحد منها على باقيها، ولم يكن عندهم الورق الذي نعرفه الآن، وهذا اللفظ[1] ما كان يطلق عندهم إلا على ورق الشجر وعلى رقاع من الجلود رقيقة، والإطلاق الأخير مستعار من الأول.

ولا تجد في اللغة العربية اسمًا خاصًّا بها يشبه ورقنا المعروف سوى لفظ واحد وهو (الكاغد)، وهو فارسي معرَّب، وقد أدخلته العرب في لغتها بعد النبي ﷺ، فلذا لم يرد في كلامهم قبله ﷺ، ولا في عصره ولم يرد في أحاديثه، ولم نسمع أنه كان مما يكتب عليه القرآن في حياته ﷺ، والغالب أن هذا اللفظ دخل في اللغة العربية بعد فتح المسلمين لبلاد فارس.

وأما لفظ (القرطاس)؛ فهو أقدم في اللغة، وورد في القرآن الشريف، وكان

---

(١) يعني لفظ: الورق.

معناه عندهم الصحيفة من الأشياء التي كانوا يستعملونها للكتابة، ثم أطلقوه فيما بعد على الكاغد أيضًا حينما عرفوه وصاروا يسمون به كل ما يكتبون عليه من الصحف.

هذا؛ وإنَّ ما ورد في كلامهم من لفظ (كتاب) كانوا يريدون به ما يطلق عليه في عرفنا اليوم (خطاب) أو (جواب)، ومنه قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٢٨]، ومنه كتب النبي ﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، ومثل الكتاب السفر والزبور والسجل والدفتر، فإنَّ معانيها كلها متقاربة، وما كانوا يفهمونها كما نفهمها الآن.

ولذلك لما جمع القرآن بعد النبي ﷺ اختلفت الصحابة في ماذا يسمونه به، وتوقفوا لأنهم لم يعهدوا مثله من قبل، ثم استقر رأيهم أخيرًا على تسميته بالمصحف تبعًا لأهل الحبشة في تسمية مجموعاتهم بذلك.

والمصحف: الكتاب بالمعنى الذي نفهمه نحن الآن عند الإطلاق؛ لأنه مأخوذ من أصحف أي جمع الصحف.

وكل صحيفة كتاب عند العرب كما ذكرنا، وكانت أيضًا كتب بعض الأمم غير العربية عبارة عن قطع من الجلود أو القماش يختلف عرض الواحدة منها من (١٢) إلى (١٤) قيراطًا، وكانوا يلفونها على قضيب من الخشب ملصق بأحد أطرافها، كما تلف الخرائط الجغرافية الآن، وهذا هو الطي المذكور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ولا تزال التوراة مطوية كذلك عند السامريين إلى اليوم.

هذا الذي تقدَّم ليس خاصًّا بمشركي العرب، بل يشمل أيضًا أهل الكتاب منهم، ولذلك لا نسمع بوجود نسخة كاملة من التوراة أو الإنجيل بينهم كالنسخ الموجودة الآن، ولم يكن عندهم سوى أجزاء قليلة منها مكتوبة على قطع متفرقة من الجلود أو العظام أو الخشب أو نحوه، فلذا وصفهم القرآن الشريف بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٢٣]، وخاطبهم بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال فيهم: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال لهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ أي: صحفًا متفرقة، ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال أيضًا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩].

وهذا كلُّه يدل على أن كتبهم المقدسة ما كانت تامة ولا محصورة بين دفتين بحيث لا تقبل الزيادة ولا النقصان، وإنما كانت مبعثرة في رقاع منشورة، وإن بعض صحفهم كان حقًّا، والبعض الآخر كان باطلاً.

أما ما ورد في القرآن من نحو قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣]؛ فمعناه أن عندهم أجزاء من التوراة فيها حكم الله في المسألة التي تحاكموا فيها إلى النبي ﷺ، فكما يطلق لفظ القرآن ويراد به أجزاء منه، كذلك يطلق لفظ التوراة أو الإنجيل ويراد به بعضها أو أجزاء منها، وهذه مسألة شائعة في القرآن الشريف وفي اللغة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي: بعضه أو جزء منه.

قدَّمنا لك هذه المقدمة لتعلمَ أن العرب ما كانت تعرف الكتاب ولا الورق بمعنييها عندنا، وأوضحنا لك فيها درجة معرفتهم بالقراءة والكتاب، وذكرنا لك ما كانوا عليه يكتبون.

بُعث محمد ﷺ فيهم وحالتهم كما علمت، وأوحى إليه هذا القرآن ليبلغهم إياه، فانظرْ ماذا فعله هذا الرسول الأمين ﷺ حتى نشر بينهم الكتاب المبين.

علم قوة ذاكرتهم واعتمادهم عليها في نقل أخبارهم وأشعارهم، حتى أن كثيرًا منهم كان يسمع الأبيات من الشعر أو القصيدة الطويلة تتلى عليه فيحفظها من أول مرة، فداوم ﷺ على حضِّهم على تلاوة القرآن، وبالغ في حثِّهم على حفظه وضبطه، وفرض عليهم قراءته في الصلوات، وبقى على هذه الحالة بضعًا وعشرين سنة، حتى كثر فيهم القُراء، وكانت السورة الواحدة يحفظها الألوف من الناس، والقرآن كله يحفظه الكثيرون منهم، ولم يكتف ﷺ بذلك، بل أمر بكتابته واختار طائفة منهم لتكتبه له على ما تيسر لهم إذ ذاك من الجلود والعظام والجريد والحجارة وغيرها مما كانوا يعرفونه، وأكثر من ترغيبهم في التعلُّم، ومدح القراءة والكتابة بنحو قوله: «يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ بِدَمِ الشُّهَدَاءِ»، ومثل ذلك في الأحاديث كثير.

ورد في القرآن أيضًا قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، وقوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣ - ٥]، وذمَّ الله تعالى أهل الكتاب بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، وألزم تعالى المؤمنين بكتابة الدَّين في الآية المشهورة في آخر سورة «البقرة».

وبذلك وُجدت فيهم الرغبة في تعلُّم القراءة والكتابة، وأخذ عدد الكاتبين فيهم يزداد شيئًا فشيئًا، وكتب كل ما نزل من القرآن كثير من المسلمين في عهده ﷺ، ولم يمت ﷺ إلا بعد أن كانت جميع السور مرتبة الآيات مكتوبة في السطور عند الكثير منهم، محفوظة في صدور الجماهير، وبعد أن سمعوها منه[1] مرات عديدة في الصلوات والخطب وغيرها، وسمعها هو أيضًا منهم.

والخلاصة: أن النبي ﷺ تبع أقرب الطرق لتعميم نشر القرآن المجيد بين جميع أفراد الأمة العربية، وعمل أحسن ما يمكن عمله بالنسبة لمعلوماتهم وحالتهم.

سمت نفوسهم بعد ذلك للعُلا بما بثَّه فيهم، واستعدت للرقي، فلما كَثُرَ اختلاطهم بمَن جاورهم من الأمم أخذوا ينقبون ويفتشون في أحوالهم بعيون مبصرة وعقول مفكرة، كي يعثروا على جديد يقتبسونه أو إصلاح إلى بلادهم يسوقونه، فبصروا بما لم يبصروا به من قبل، ووجدوا أن لتلك الأمم طريقة أخرى في تدوين معلوماتهم لم تكن تخطر على بالهم، وهي أن يكتبوها على صفحات صحف من نوع واحد يضمُّون بعضها إلى بعض، مرتبة على حسب ترتيب عباراتها، وربما رأوا أنواعًا أخرى من القرطاس؛ أحسن من التي كانوا يعرفونها كأوراق البردي بمصر مثلاً.

دعاهم داعي الفزع عند قتل سبعين من القراء يوم اليمامة إلى المبادرة والإسراع في جمع القرآن على طريقة تلك الأمم؛ خوفًا عليه من الضياع من

---

(١) أي: من الرسول ﷺ.

تلك الرقاع المختلفة الأنواع، فعقدوا في الحال اجتماعًا واستقر رأيهم إجماعًا على العمل على تلك الطريقة، وهكذا جُمع القرآن، ووُجِدَ بين العرب أول كتاب بالمعنى الذي نفهمه نحن الآن، وتحقق وعد الرحمن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

اختلف المسلمون في ترتيب سور القرآن وطرق قراءته، وتبع ذلك اختلاف مصاحفهم؛ لأن الرسول ﷺ لم يلزمهم باتباع ترتيب مخصوص في السور[١]، ولم يجمعهم على قراءة واحدة، سور القرآن كل منها ككتاب قائم بذاته كما قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢ - ٣]، فليس ثَمَّ فائدة كبيرة في التزام ترتيب مخصوص، ولفظ (سورة) مأخوذ من سور المدينة سُمِّيت به القطعة المخصوصة من القرآن؛ لأنها طائفة مستقلة بذاتها، فكأنه ﷺ ترك بين المسلمين (١١٤) كتابًا كل منها محفوظ مكتوب مرتبة آياته، وجمعها بالطريقة الحاضرة لم يكن معروفًا في عهده، وإنما حدث بعد بقليل، وإنْ كانت في زمنه مجموعة عند بعضهم في الصحف المتنوعة التي ذكرناها.

أما اختلاف القراءات؛ فهو نوعان:

* اختلاف بسبب اللهجات كالإمالة وعدمها.

* واختلاف آخر في الكلمات كتغيير شكلها أو إعرابها أو بعض حروفها أو نحو ذلك.

---

(١) ثمة رأي لبعض العلماء من أن ترتيب السور كان توقيفيًا من الرسول ﷺ، (وسيأتي بيان ذلك في الفصل الثاني).

ولكلٍّ من النوعين فوائد، ففوائد الاختلاف بسبب اللهجات هي:

١- تسهيل نطقه وفهمه وحفظه لقبائل العرب المختلفة.

٢- إظهار أنهم يعجزون جميعًا عن الإتيان بمثل سورة منه، كما تحداهم بذلك، ولو بلغاته المختلفة، وأن عجزهم عن المعارضة ليس ناشئًا عن نزوله بلهجة واحدة لا يعرفها كثير منهم.

وفوائد اختلاف الكلمات هي:

١- تسهيل حفظه على كلِّ أحد، وبيان ذلك أن مَن أراد حفظ القرآن كثيرًا ما يسبق لسانه بنطق مخصوص، فإذا علم أن قراءته جائزة لم يحتج إلى هذا العناء، مثلاً إذا أراد أن يحفظ قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الفجر: ١٧-١٨] قد يسبق لسانه ويقول: «كلا، بلا يكرمون اليتيم * ولا يحضون على طعام المسكين»، فيجهد نفسه في العدول عن ذلك، ولكن إذا علم أن هذه قراءة جائزة لا يحتاج إلى التعب، وهذا الأمر يدركه جيدًا مَن عانى حفظ القرآن الشريف، ومَن ألزم بإصابة غرض واحد لا غير، ليس كمَن أبيح له إصابة أي غرض من بين بضعة أغراض.

ولا تنس ما لتسهيل حفظ القرآن على الأمة من الفوائد؛ فإنه أعظم طريق القرآن في نقله وروايته، وخصوصًا في الأزمنة القديمة وبين الأمم الساذجة.

٢- تكثير المعاني، فبتعدُّد القراءات تكثر المعلومات وتزداد الفوائد، وقد يكون بعض المعاني مبينًا للبعض الآخر.

٣- تخفيف بعض الأحكام؛ فمثلاً قوله تعالى في آية الوضوء: ﴿وَٱمۡسَحُواْ

﴿بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ [المائدة: ٦] بالكسر، يفهمنا أن الغسل من قراءة الفتح غير واجب على التعيين، وأن المسح يكفي.

فلهذه الأسباب وغيرها كان الرسول ﷺ يقرئ المسلمين القرآن بأوجه مختلفة، ولذلك قال كما تواتر عنه: «أُنزِلَ القُرآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ..» الحديث[1]، ولفظ السبعة تستعمله العرب أحيانًا للمبالغة في الكثرة، فيحتمل أن يكون هذا هو المراد هنا، أو أن المراد سبع لهجات العرب الشهيرة، وهو لا ينافي أن هناك قراءات أخرى غير اللهجات؛ إذ لفظ الحديث لا يفيد القصر[2].

وقع الخلاف بين المسلمين في هذه القراءات إلى أن اشتد في زمان عثمان ﷺ؛ إذ كان بعضهم إذا تلقى قراءة وسمع من غيره ما يخالفها نازعه في ذلك واتهمه بالتحريف، فخشي أن يحصل بينهم من الاختلاف في القرآن ما حصل بين أهل الكتاب، ورأى أن يجمع المسلمين على مصحف واحد ينسخون عنه، ويرجعون إليه في ضبط مصاحفهم؛ حتى لا يكون فيها اختلاف، ولا تكثر فيها هذه القراءات، وأخبر جمهورًا عظيمًا من أصحاب رسول الله ﷺ بذلك، فوافقوا على رأيه، فأمر بكتابة المصحف على طريقة قريش في الرسم، وكان الكُتَّاب فريقًا من الصحابة أيضًا.. فكتب عدة مصاحف بهذه الطريقة بعد التحري والتدقيق ومراجعة ما كتب قبل ذلك وبعد السماع من الحُفَّاظ، وإنْ كان الكاتبون هم أيضًا من الحفظة، ثم أرسلت هذه المصاحف إلى الآفاق التي

---

(١) رواه البخاري في «فَضَائِلِ القُرْآنِ»، باب: «أُنْزِلَ القُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»، ح(٤٩٩٢)، ومسلم في «صَلَاةِ المُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا»، باب: «بَيَانِ أَنَّ القُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ وَبَيَانِ مَعْنَاهُ»، ح(٨١٨).

(٢) لعله أراد الحصر.

انتشر فيها الإسلام وفيها الجماهير من الصحابة، ومَن أخذ القرآن عنهم حفظًا وكتابةً، فوافقوا جميعًا على استعمالها والتعويل عليها، وأعدموا غيرها مما عندهم، وكان ذلك بعد وفاة النبي ﷺ بخمس عشرة سنة (أي: سنة ٢٥هـ).

هذا؛ ومَن علم طباع العرب وغلظها وشدة إيمانهم وتمسُّكهم بدينهم، وعرف ما كان عليه الخلفاء الراشدون من الأخلاق، وأنهم ما كانوا ليستبدوا بالأمر في شيء -حتى لو أرادوه لما قروا عليه- وعرف حال عثمان وسبب قتله، مَن عرف ذلك كله أيقن أنهم لو كانوا وجدوا في مصاحف عثمان عيبًا لرفضوه ولأثيرت حروب وأريقت دماء، وكان دم عثمان في أولها، ولارتد كثيرٌ من الناس عن الإسلام لهذا السبب، ولعاب المسلمين بتحريف القرآن مَن خالفهم أو دخل فيهم من أهل الكتاب وغيرهم، ولما اتفقوا جميعًا على قبول هذه المصاحف، ولوجدت مصاحف مختلفة بينهم إلى اليوم، فعدم حصول شيء من ذلك يدل على أن هذه المصاحف هي عين ما تلقوه عن رسول الله ﷺ، وخصوصًا لأن الذين تلقوها بالقبول ما كانوا جاهلين حرفًا واحدًا من القرآن، بل كانوا حافظين له حفظًا جيدًا في الصدور من قبل وجود هذه المصاحف، وكثير منهم كانوا ممن تلقوه كله أو بعضه مباشرة عن النبي ﷺ.

هذه المصاحف العثمانية لم تكن منقوطة ولا مشكولة، ورسمها في كثير من المواضع يخالف ما اصطلح عليه الناس فيما بعد من قواعد رسم الكلمات العربية، ولكن جرى المسلمون على تقليد هذا الرسم في جميع بقاع الأرض[1]

---

(١) يحاول البعض اليوم ترك هذا الالتزام.

على مخالفة بعضه لما وضعوه من القواعد، يعد محافظة منهم على عمل الصحابة -رضوان الله عليهم، وتحاشيًا لعمل أي تصحيح أو تحرير في الكتاب، ولم يخرجوا عنه إلا في الأزمنة الأخيرة في كلمات قليلة كتبوها على مقتضى طريقتهم، على أن أكثر مصاحفهم لا يزال إلى اليوم كالكتبة الأولى، لكنها في الغالب منقوطة ومشكولة.

أما القراءات؛ فاستمرت مختلفة بين المسلمين إلى زمننا هذا، فهُمْ وإنْ كانوا أجمعوا على المصاحف العثمانية إلا أن القراءات التي كانوا يقرءون بها من قبل -وكانت غير مخالفة للرسم العثماني مخالفة يعتد بها- استمروا على القراءة بها فيما بعدُ، أما التي تخالفه؛ فأخذته تتلاشى من بينهم شيئًا فشيئًا.

وعليه؛ فوجود المصاحف العثمانية أفاد المسلمين ثلاث فوائد:

الأولى: إجماعهم على مصحف واحد في الكتابة.

الثانية: تقليل الاختلاف بينهم في القراءة.

الثالثة: اتفاقهم على ترتيب مخصوص للسور، ولعل هذا الترتيب كان يستحسنه الرسول ﷺ، وإنْ لم يوجبه كما سبق.

تواتر من هذه القراءات المختلفة سبع[1]، روى كلًّ منها عن رسول الله ﷺ الجمّ الغفير من أصحابه، وأخذ عنهم في البقاع المختلفة الجماهيرُ من التابعين، فأخذ عنهم من بعدهم، وهكذا إلى اليوم.

وهذه القراءات المتواترة يحتملها رسم المصاحف ولا تخالفه كما قلنا مخالفة

---

(١) هناك ثلاث قراءات أخرى تواترت سوى هذه السبع.

يعتد بها أو صريحة إذا جردت من النقط والشكل كما كانت.

اشتهر بين التابعين ومَن تبعهم أناس بإتقان هذه القراءات وتعليمها لغيرهم، فنسبت إليهم وسموا أئمتها، وإنْ كانت متواترة بين المسلمين في جميع البلاد، وهؤلاء هُمْ عبد الله بن كثير بمكة، وعبد الله بن عامر بالشام، وعاصم بالكوفة، وكذلك حمزة والكسائي ونافع بالمدينة، وأبو عمرو بن العلاء بالبصرة، وفيهم الثلاثة الأول تابعيون.

بقى المصحف غير منقوط ولا مشكول إلى أن كثرت الأعاجم واختلطت بالعرب؛ ففشا فيهم اللحن حتى اضطروا إلى ضبطه، فكان أول مَن وضع عليه الضبط أبو الأسود الدؤلي في أوائل حكم بني أمية، وكان ضبطه أن يضع نقطة فوق الحرف إنْ كان مفتوحًا، وتحته إنْ كان مكسورًا، وبجانبه إنْ كان مضمومًا، واستمرت الحال على ذلك إلى زمن الخليل بن أحمد النحوي المشهور، فوضع للمصحف شكلاً آخر كان أساسًا للشكل الحالي الذي جرى عليه المتأخرون، وكانت وفاة الخليل هذا سنة (١٧٠هـ).

أخذت طرق كتابة المصاحف تتحسن شيئًا فشيئًا إلى أن اخترعت المطابع، فطبع أول مصحف في مدينة همبورغ بألمانيا سنة ١٦٩٤ للميلاد، أي: في أوائل القرن الثاني عشر الهجري، وبعد ذلك انتشرت المصاحف المطبوعة في العالم وحلت محل المنسوخة باليد، وقد أخذوا الآن يرسمونها بواسطة المصورات الشمسية (الآلات الفوتوغرافية)، وهكذا حفظ الله تعالى كتابه حتى وصل إلينا بدون تحريف ولا تبديل.

وكان المصحف في جميع هذه الأطوار المختلفة التي وصفناها لك مهيمنًا

عليه بآلاف الألوف من الحفظة في جميع البقاع الإسلامية، ولا تزال الحال كذلك إلى عصرنا هذا مع ضعف المسلمين وتأخرهم، ومن عجيب عناية الله بهذا الكتاب المجيد أن قيَّض لنا اليوم في مصر مَن يحثنا من غير أهل ديننا ومن غير جنسنا على تعميم الكتاتيب في جميع الأقاليم من بعد أن ظننا أن زمن الحفظة انقضى أو كاد ينقضي من بيننا، فأجيب دعاء الداعي إلى ذلك، وانتشرت الكتاتيب في البلاد، وكثرت الحفاظ مرة أخرى، وتجدَّد عندنا ألوف من الأطفال يحفظونه كله في صدورهم فضلاً عن الرجال والشيوخ.

نظرنا في هذا الكتاب المتواتر عن صاحبه نظرة، فأيقنا بسببه -بدون نظر إلى شيء سواه- من صدقه ﷺ في دعواه، وأنه مبلغ عن الله[1]، ثم وجدنا فيه أن الله يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فعلمنا أن كلَّ رواية يفهم منها أن القرآن ضاع منه شيء لا بدَّ أن تكون موضوعة مدسوسة، وإنْ لم يتضح هذا الأمر من سندها؛ لأنها تنافي ذلك القول المتواتر عن النبي الصادق ﷺ، على أن جميع هذا الروايات منقولة عن الآحاد، وقد اتضح كذب كثير من رواتها، وهي أيضًا معارضة بأمثالها كالذي روى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في صحيح البخاري أنه قال: «مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا مَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ»[2]، وناهيك بابن عباس ثقة في هذا الموضوع.

وقد أجمع المحققون من المسلمين أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، فما زعم الآحاد أنه كان قرآنًا وضاع أو نسخ لا يقبل منهم، فقد وجد بين الرواة مَن هو

(١) راجع مقال: الدين في نظر العقل الصحيح للمؤلف.

(٢) رواه البخاري في «فَضَائِلِ القُرْآنِ»، باب: «مَنْ قَالَ: لَمْ يَتْرُكِ النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا مَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ»، ح(٥٠١٩).

ضعيف الفهم أو سخيف الرأي، أو كذوب يريد تشكيك المسلمين في دينهم، أو يريد أن يؤيد دعوى أو مذهبًا له بأمثال هذا الرواية، ولكن العقلاء لا يقبلونها لئلا يؤدي بهم ذلك إلى رفض المتواتر، فيكون ممن يرجح الدلالة الظنية على الدلالة المقطوع بها، ومَن كان كذلك كان من الأخسرين أعمالاً، الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

بقي عليَّ نقطة واحدة في هذا الموضوع لا بدَّ لي من الكلام عليها قبل الانتهاء منه؛ وهي دعوى بعض الجهلة الغافلين أن في القرآن لحنًا، ويذكرون من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢]؛ لأن مقتضى الظاهر نصب (الصابئين)، ورفع (المقيمين الصلاة) طبقًا لقواعد النحو المعروفة، وما مثلهم في هذا الدعوى إلا كمثل تلميذ في مكتب، سمع من أستاذه بعض نظريات يفسر بها ظواهر وجودية طبيعية، فظن أنه عرف كل شيء، وأن أستاذه لا تخفى عليه خافية، وبعد ذلك رأى في الوجود شيئًا يخالف ما وضعه له المعلم من القواعد، فصاح قائلاً: الطبيعة أخطأت، النظام اختل، الكون فسد!! لأنه خالف قواعد أستاذي!! وما دري أن عقله في الحقيقة هو الذي اختلف وفسد، فكذلك شأن هؤلاء القوم.

القرآن ينبوع الفصاحة والبلاغة، وحجة اللغة الناهضة، وهو أساس ما وضع من القواعد النحوية بعده، فلا يليق أن نلزمه بالجري عليها، وأن نجعلها

أصلاً له ونحكم بخطئه إذا هو خالفها، بل الواجب إذا لم نطبّق شيئًا منه على بعضها أن نعلم أنها معيبة أو أنها غير وافية بالغرض في بعض المسائل لعدم إحكام وضعها، هذا إذا لم يمكننا التطبيق، وما من لغة إلا وفي أشهر كتبها القديمة وأبلغها ما يخالف ما وضع من القواعد فيها بعدُ؛ حتى يضطر الواضعون إلى استثنائه أو تطبيقها عليها بوجه ما، وكذلك فعل علماء اللغة العربية في أمثال هذه الآيات حتى أجروها على قواعدهم كما هو مبين في التفاسير، ولا حاجة بنا لنقل ذلك هنا لعدم أهميته.

فإن قيل: نحن لا نقول: إنَّ هذا الخطأ كان في أصل القرآن، وإنما كان من نُسَّاخ المصاحف في زمن عثمان، قلنا: إنَّ هؤلاء النُّسَّاخَ كانوا من الفصحاء اللد، فكيف يقعون في هذا الخطأ، ويتفقون عليه في جميع المصاحف التي كتبوها وأرسلوها إلى الأقطار الإسلامية؟! بحيث لا يوجد مصحف واحد خاليًا من الغلط في هذه الآيات بعينها!! وكيف تتفق الحفظة في جميع الأزمنة على قراءة هذه الألفاظ المتنازع فيها كما كتبت في المصاحف؟ مع العلم بأن القُراء إنما ينقلون قراءتهم عمن قبلهم بقطع النظر عن مرسوم الخط، وعما وضع من القواعد النحوية، وقد توارثوا هذه القراءات بالتوتر عن النبي ﷺ قبل وجود مصاحف عثمان كما بيّنا ذلك فيما سبق.

ومن علم عناية المسلمين بالتجويد وضبط القراءات وأحكام نطق اللهجات المختلفة، وأنهم لا يأخذون ذلك من الكتب، بل بسماع مَن أتقنها من تقدمهم -علم فساد أمثال تلك الانتقادات الباردة وسقوطها.

وصفوة المقال أن القرآن وصل إلينا بدون تحريف حرف واحد منه أو

تبديله، فهو مكتوب اليوم كما كتبه الصحابة أنفسهم، مقروء كما قرأه النبي ﷺ، ولا نعرف كتابًا آخر في الدنيا بلغت العناية به من أهله مبلغنا بالقرآن، فإنَّ الكتب الأخرى التي نعرفها لا يخلو كتاب منها من الوصمات الآتية كلها أو بعضها:

١- أنها لم تكتب في زمن الآتي بها أو لم يعرف باليقين من هو.

٢- لم تحفظ في الصدور لا من العامة ولا من الخاصة.

٣- لم تكن نسخها كثيرة، وفي أغلب الأزمنة القديمة لم تكن في أيدي العامة.

٤- رواها الآحاد، واختلفت رواياتهم.

٥- فقدت وانقطع سندها؛ إما بسبب الارتداد العام من أصحابها، أو بسبب الاضطهادات الشديدة وقصد الأعداء إبادتها وإحراقها.

٦- وجد أمثالها معارضًا لها، وكثير منها لا يرجح عليها بزيادة في قوة إسنادها.

٧- وجود بعض فقرات فيها تدل على بطلان النسبة إلى مَن نسب إليه الكتاب.

٨- مملوءة بخط النُّساخ.

٩- مملوءة بالتناقض والزيادة والنقصان والتبديل.

١٠- وجود اختلافات بين نسخها قديمًا وحديثًا.

١١- اختلاف الطوائف في قبول بعضها أو رفضه، بل اختلاف الطائفة الواحدة في قبول بعض الكتب أو ترجمتها في بعض الأزمنة ورفضها في الأخرى.

١٢- وجود ما يقطع بعدم صحتها فيها والغلطات التاريخية والعلمية وغيرها، واشتمالها على ما ينافي الآداب ويفسد الأخلاق.

١٣- وجود كثير من اللغو فيها وما لا فائدة فيه، وما يناقض البراهين العقلية القطعية.

١٤- وجودها منذ أزمنة بعيدة، وخلو أهلها إذ ذاك من العلم والتحقيق والتمحيص.

١٥- مناداة مخالفيهم في العصور الأولى بأنهم يخفون كتبهم ويبدلونها ويغيرونها كما جاهر بذلك «سكسوس» الفيلسوف الشهير.

فهذه خمسة عشر وجهًا مما تنتقد به تلك الكتب، وجميعها يتنزه عنها القرآن الشريف.

***

المبحث الثاني

قال العلماء: أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، ولم ينزل بعده شيء إلى ثلاث سنوات، وتسمَّى هذه السنوات (فترة[1] الوحي)، ثم أخذ القرآن ينزل في تضاعيف عشرين سنة: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، فمنه ما نزل مفرَّقًا وهو غالب القرآن، ومنه ما نزل جمعًا كـ«الفاتحة» و«الإخلاص» و«الكوثر»، وأغلب «الأنعام»، وكلما نزل عليه ﷺ آية أو سورة، وسُري عنه كان يقرئ الصحابة ما نزل ويستحفظهم فيحفظونه على الفور عن ظهر قلب، ويعتنون بذلك تمام الاعتناء؛ لأن الحفظ الحرفي في عصر الرسالة وزمن النزول كان من أعظم العبادات، وأقرب القرب، وكانوا إذا حفظوا آية من النبي ﷺ يترددون عليه غير مرة، ويتلونها أمامه حتى يزداد تثبتهم من حفظها وأدائها، ويسألونه هل حفظت كما أنزلت حتى يقرهم عليها، وبعد إتقان الحفظ والتثبُّت في تمام الضبط أخذ كل واحد منهم ينشر ما حفظ، كانوا يعلِّمونه للأولاد والصبيان الذين لم يشهدوا النزول ساعة الوحي من أهل مكة والمدينة ومَن حولهم من الناس، فلا يمضي يوم أو يومان إلا وما نزل

---

(١) من فتَرَ، يفتر، فتورًا، أي: انقطع.

محفوظ في صدور جماعة غير محصورين.

وقد عيَّن جماعة عظيمة من الصحابة على حفظ القرآن وإقرائه، وبعث رسول الله ﷺ إلى المدينة قبل الهجرة جماعة من حفظة الصحابة يعلِّمون القرآن لأهل المدينة وأولادها، وكان الرجل إذا هاجر إلى المدينة دفعه النبي ﷺ إلى رجل من أولئك الحفظة يعلِّمه القرآن، ولما فتح مكة ترك فيها معاذ بن جبل ﷺ لذلك، وكان من أكابر الصحابة -وهم ألوف- ممن يعتني بتعرُّف فقه القرآن ومعانيه وإتقانه حفظًا وكتابةً.

كانوا لا يأكلون نهارهم، ولا ينامون ليلهم، باهتمامهم واشتغالهم بضبط الآيات وحروفها ووجوهها، وكان بمسجد رسول الله ﷺ صيحة وزجل بتلاوة القرآن، وكان النبي ﷺ يسمع إلى الملأ منهم، ويحمد الله على أن جعل في أمته أمثالهم، ويمثل هذا الاهتمام التام لإتقان القرآن في صدر الإسلام، حفظه ألوف من الصحابة في تضاعيف عشرين سنة.

وحيث إنَّ القرآن كان ينزل مفرَّقًا منجمًا، ويحفظه الذين يعتنون به على مهل ومُكث في تضاعيف سنوات كثيرة، وذلك أعون في الحفظ، وأيسر للذكر وأكثر من حفظه كان شرع في حفظه من صباه، وزد عليه ما كان للنبي ﷺ المعصوم من نسيان القرآن من كمال الاعتناء والاهتمام بالترغيب في حفظه والأمر بتعاهده، فكلُّ مَن تأمل يتبيَّن ويقطع أن القرآن قد حُفظ في الصدور بتمام الاتفاق وأرسخ الحفظ، وأتم الضبط وكامل البيان، وقد نطقت الأحاديث ودلت الآثار على أن النبي ﷺ كان يوقف أصحابه على ترتيب آيات السور ويعلِّمهم مواضعها من السورة نصًّا، وكان يقرأ السورة في الصلوات وغيرها

ويسمعونه، فيعرفون من ذلك ترتيب الآيات، فالصحابة ضبطت عنه ﷺ ترتيب أي كل سورة ومواضعها، كما ضبطت عنه نفس الآيات وتلاوتها، وكانت السور مرتبة؛ لحديث أحمد وأبي داود في تحزيب القرآن، وحديث واثلة في إعطاء السبع الطوال والمئين والمثاني بدل الكتب الثلاثة السماوية التفضيل بالحواميم والمفصل، والأحاديث تدل على أن النبي ﷺ كان يختم القرآن، وأن الصحابة كانوا يختمون عنده عدة ختمات.

وكلُّ ذلك يدلُّ دلالة واضحة على أن القرآن كان محفوظًا في صدور ألوف من الصحابة، مجموعًا مرتبًا على ترتيب معلوم عند كلِّ واحد منهم؛ قال معاذ: «عرضنا القرآن على النبي ﷺ، فلم يعب منا أحدًا».

وكان للنبي ﷺ كَتَبة يكتبون فورًا كلَّ ما نزل إليه على الصحائف والقراطيس من الرقوق والأوراق غالبًا، وعلى الألواح وعسب النخل أحيانًا، وكان النبي ﷺ يملي عليهم مباشرةً بقول: «إنَّ هذه الآية تُكتب عقيب آية كذا، وفي سورة كذا».

وكان كتابة ما نزل من القرآن ملتزمة منهم حتى زمن الاختفاء في أوائل الإسلام؛ إذ كان المسلمون يتدارسون القرآن من الصحائف في البيوت، وكان المشركون يدعون الدراسة؛ إذ ذاك (الهينمة)[1]، ومن شواهده حديث عمر رضي الله عنه قبل إسلامه مع أخته وختنه.

وكانت العرب تكتب كلَّ شيء نفيس أو مهم عندهم كالأشعار الفصيحة

(١) الهينمة: ما كانوا يسمون كل قراءة هينمة، بل القراءة الخفية، والهينمة الصوت الخفي.

والخطب البليغة، ومن شواهد ذلك القصائد المعلقة والصحيفة التي أكلتها الأرضة، وكان كثير من الصحابة لهم علم بالقلم، وكان أنس بن مالك ﷺ يقول: «هذه أحاديث سمعتها من رسول الله ﷺ وكتبتها وعرضتها»، وكثير من هؤلاء كانوا يكتبون في الصحائف كلَّ آية حفظوها ويعرضونها على النبي ﷺ، وعيَّن من هؤلاء جماعة على كتابة الوحي، كانوا متمكنين من الكتابة باللسان العربي كل التمكُّن، كعليٍّ وعثمان وعمر وزيد بن ثابت وابن مسعود وأنس بن مالك، وعبد الله بن سلام ﷺ، وغيرهم.

فكان النبي ﷺ يملي عليهم مباشرةً؛ فيكتبون ما نزل بحضرته، ويعرضونه عليه مرة بعد أخرى حتى يقرّهم، بهذه الكيفية كُتب القرآن من أوله إلى آخره في حياة الرسول ﷺ على صحائف وقراطيس متفرقة، وكانت هذه الصحائف والقراطيس أغلى عندهم من أنفسهم وأنفس من كل نفيس، وأحب إليهم من كل حبيب جليس، يدل عليه أحاديث رويناها في تنافسهم في حفظ هذه الصحائف والقراطيس، وفي حبهم التبرُّك بها أحيانًا في المجالس.

وكلُّ ما ذكرته عن شأن حفظ القرآن في الصدور وما أجملته بعد ذلك في كيفية جمعه في الصحائف وأثبته في السطور يدل دلالة قطعية باهرة على أن القرآن زمن النبي ﷺ كان مجموعًا مرتبًا على ترتيب معلوم، ومحفوظًا في الصدور، مكتوبًا على ترتيب الحفظ في السطور، والأحاديث متضافرة متساعدة في ذلك.

ولأن إهمال الحفظ والكتاب والترتيب من النبي ﷺ ومن ألوف مؤلفة من الصحابة الذين يتيقنون أن السبب في عزهم وسعادتهم هو القرآن، وأنه أساس

دينهم وشريعتهم، وأنه هو الذي قربهم إلى الله ﷻ، والذين كانوا يبذلون جميع ما يستطيعون وما يتصوره العقل في سبيل حفظه، كما أنزل مصونًا عن أدنى شائبة، والإهمال من مثل هؤلاء شيء محال لا ريب فيه.

ثم توفي رسول الله ﷺ يوم أكمل الله لنا ديننا، ورضي لنا الإسلام دينا، والإسلام قد ظهر في جميع جزيرة العرب، وفيها مدن وقرى كثيرة كاليمن والبحرين وعمان ونجد وجبلي طيئ وبلاد مضر وربيعة وقضاعة والطائف ومكة، كلهم قد أسلم وبنوا المساجد، ليس فيها مدينة ولا قرية ولا حلة أعراب إلا وقد قرئ فيها القرآن في الصلوات وعلمه الصبيان والنساء، وكُتِبَ.

ومات رسول الله ﷺ والمسلمون كذلك ليس بينهم اختلاف في شيء أصلاً، كلهم أمة واحدة، ودين واحد، ومقالة واحدة، ثم تولى الأمر أبو بكر ﷺ سنتين وستة أشهر، فغزا فارس والروم، وفتح اليمامة، وزادت قراءة الناس القرآن، وجمع الناس المصاحف جمعًا مبتدأ كأبي وعمر وعثمان وعلي وزيد وأبي زيد، وابن مسعود وسالم ﷺ، ولم يكن بين المسلمين اختلاف في شيء زمن خلافته.

ولما كان ظهور الأسود العنسي في صنعاء ومسيلمة باليمامة، وانقسم العرب أربعة أقسام: طائفة ثابتة على الطاعة، وطائفة مانعة للزكاة، وطائفة معلنة بالردة، وطائفة متوقفة متربصة لمن تكون الغلبة، فقد أخرج إليهم أبو بكر ﷺ البعوث، وجهَّز إليهم عصابة من المسلمين، فقتل الأسود ومسيلمة، ولم يمض عام واحد حتى راجع الجميع الإسلام، فلم تكن هذه الفتن إلا كنار اشتعلت فانطفأت للساعة.

فبعد أن سكنت هذه الفتن أحس عمر الفاروق ﷺ بضرورة جمع القرآن في

كتاب واحد على مشهد من جميع الصحابة، وملأ من الحَفَظة والكَتَبة، ولما استقر رأي أبي بكر وعمر على ذلك، أحضرا زيد بن ثابت، وأبديا له ما عزماه واستعظم زيد ذلك أولاً، واستسهل نقل الجبل، شأن كل مقتدر على عظام الأمور، يقدر الأمر حق قدره، محتاط عاقل، لا يغفل عما يلزم عليه في القيام بأعظم المصالح عن كمال الاقتدار وواجب الاحتياط وعظيم التثبُّت، وبالغ الجد والاجتهاد ووفور السعي، غير مغتر بما له من الخصال، وإنْ كان فردًا مفردًا فائقًا على أقرانه وأهل عصره.

ووافق أخيرًا، فعزم على ما عزم عليه، والإنسان مهما بلغ في الاقتدار وعلو الهمة قد يكون إذا وقع عليه أمر عظيم وعزمه وتصوره من جميع وجوهه، غير غافل عن وسائل تحصيله وأسباب الوصول إليه، يعتريه طبعًا نوع من التردُّد وشيء يشبه التوقُّف، لكنه لا يلبث فيزول، ويمضي العازم على عزمه، وجمع أبو بكر ﷺ الحَفَظَة المشهود لهم بالضبط والإتقان، وكان أهمهم زيد، وأُبي بن كعب، وعثمان، وعلي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن السائب، وخالد بن الوليد، وطلحة، وسعد، وحذيفة، وسالم، وأبو هريرة، والصامت، وأبو زيد، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، واجتمعوا برئاسة زيد بن ثابت في منزل عُمر ليتشاوروا في كيفية جمعه وتخصيص أعمال كل واحد منهم، ثم أخذوا يوالون اجتماعهم في مسجد المدينة لكتابة القرآن.

وكلُّهم كانوا يحفظونه عن ظهر قلب، وكانوا قد اعتنوا قبل بكتابته جملة مرارًا من ذاكرتهم ليتحققوا من ضبطهم له حفظهم إياه، وجاء مَن كان كتب مصحفًا بمصحفه وأحضروا كل الصحائف والقراطيس التي كتبوا فيها القرآن

بحضرة النبي ﷺ وإملائه، وعهدوا إلى بلال ﷺ أن ينادي بأنحاء المدينة أن مَن كانت عنده قطعة عليها شيء من القرآن؛ فليأت بها إلى الجامع، وليسلمها إلى الكَتَبة المجتمعين لجمع القرآن على مشهد الصحابة، وجيء بعدد كثير من القطع، وما كانوا يقبلون قطعة حتى يتحققوا أنها كتبت بين يدي النبي ﷺ وحضرته؛ إذ كان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كتب بين يديه، وما كانوا يفعلون ذلك إلا مبالغة في الاحتياط ومغالاة في التحفُّظ وإيغالاً في الضبط، وكانوا يقابلون القطع بعضها ببعض؛ لئلا يبقى مجال شك في تمام الضبط.

وكتب القرآنَ جميعه زيدُ بن ثابت ﷺ، قال زيد: «حتى وصلنا إلى آية: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] من سورة «التوبة»، ففقدناها، وفتشنا لنجدها مكتوبة، ثم وجدناها مكتوبة عند أبي خزيمة بن أوس بن زيد الأنصاري».

وقال زيد: «حتى وصلنا إلى سورة «الأحزاب»، ففقدت آية من سورة «الأحزاب» حين نسخت الصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها لنجدها مكتوبة، فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﷺ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فألحقناها في سورتها في المصحف وتمَّ جمعه».

وجمع عمر ﷺ جميع الحفَظَة والصحابة وقرأه عليهم، ولم يقع من أحد منهم اعتراضٌ حين العرض، ولم يسمع ولم يظهر بعد أيضًا، وبعد إجماع أكابر الصحابة على هذا الترتيب في هذا المصحف لا يمكن أن يقال: إنهم رتَّبوا ترتيبًا سمعوا النبي ﷺ يقرأه على خلافه.

وإجماعهم على هذا الترتيب وإقرارهم عليه بلا خلاف من أحد منهم أقوى

برهان على أنهم وجدوا ما أفادهم علمًا لا يدع عندهم ريبًا، فتقرَّر أمر القرآن تقريرًا قطعيًّا في هذا المصحف، وكان ذلك أعظم فرض قام به سلفنا الصحابة، وأهم شيء حدث في الإسلام، وأفضل مَنٍّ لهم علينا إلى يوم القيامة.

وتوفي أبو بكر ﷺ وهو أعظم الناس أجرًا في المصاحف، وتولى الأمر بعده عمر ﷺ، ففتحت بلاد الفرس طولاً وعرضًا، وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها، ولم يبق بلد إلا وبقيت فيه المساجد ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة القرآن وعلمه الصبيان في المكاتب شرقًا وغربًا، وبقي كذلك عشرة أعوام وأشهرًا، والمسلمون لا اختلاف بينهم في شيء، ملة واحدة ومقالة واحدة، والمسلمون إذ مات عمر ولم يكن عندهم زيادة على مائة ألف مصحف من مصر إلى العراق إلى الشام إلى اليمن، فما بين ذلك، فلم يكن أقل من ذلك، لأن الخليفة عمر الذي كان كاد يموت همًّا بأمر المسلمين والذي حفر الخليج بعد عام الرمادة، فساقه من النيل إلى القلزم، فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام لأهل المدينة ومكة وما بينهما، خليفة هذا شأنه؛ لم يكن ليترك بلدًا فتحها ومدينة وقرية تولى أمرها بلا مصحف يقرأ فيه أهلها.

ثم أصيب الإسلام بموت عمر وولي عثمان ﷺ، فزادت الفتوح واتسع الأمر، وسعى الساعون في إيقاع الخلاف بنشر الاختلافات، فدعت الحال إلى نشر المصاحف المكتوبة على مشهد من الصحابة عظيم، فجمع الصحابة وكانت عدتهم يومئذٍ بالمدينة تزيد على اثني عشر ألفًا، فطلب[1] المصحف من

---

(١) أي: عثمان بن عفان ﷺ.

حفصة أم المؤمنين، وأحضر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فكتبوا خمسة مصاحف من غير تغيير ولا تبديل عما كان عليه المصحف الذي كتبه زيد بأمر أبي بكر.

وما ورد عن عثمان في «الأنفال» و«براءة»، فإبداء عما كان يراه قبل، من أنهما سورة واحدة إذا لم يقف على بيان من النبي ﷺ، وقد شهد عثمان النسخ الأول، وقد وقع الإجماع فيه على هذا الترتيب، ولم يبد عثمان خلافًا فيه، ولو كان له رأي يراه لوجب عليه أن يظهره، وما جرى بين عبد الله بن عباس وبين عثمان من سؤال وجواب؛ فحكاية لما كان يراه عثمان من قبل.

وعيَّن زيدًا أن يقرأ بالمدني، وبعث عبد الله بن السائب مع المكي، والمغيرة بن شهاب مع الشامي، وأبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي، وعامر بن قيس مع البصري، وقرأ كل مصر بما في مصحفه على هؤلاء الصحابة، ونسخوا من هذه المصاحف الخمسة مصاحف لا يحصى عددها، فلم يبق في الإمكان كيد الكائدين، ولا وهم الواهمين، بقي عثمان كذلك اثني عشر عامًا حتى مات، وبموته حصل الاختلاف وابتدأ أمر الروافض.

ثم تولى الأمر علي ﷺ وبقي خمسة أعوام وتسعة أشهر خليفةً مطاعًا، غالب الأمر، ساكنًا بالكوفة والقرآن يُقرأ في المساجد، في كل مكان وهو يؤم به الناس، والمصاحف معه وبين يديه، ثم بعده ابنه الحسن.

وكان عليٌّ يثني ثناء على أبي بكر وعثمان فيما فعلاً في المصاحف، ولو كان وقع من أبي بكر وعثمان تغيير في شيء بنقص أو زيادة -ولا يمكن ذلك لامتناع تواطؤ الكثير المتفرق على التغيير في شيء، فلو وقع من أحد لظهر ولافتضح

المرتكب من ساعته- لما قدر على مذلة التحمُّل والصبر عليه بعدما تولى الأمر وهو الذي قاتل أهل الشام في رأي يسير ورأوا خلافه، وعليٌّ شهد النسختين، ورأس في كلا الوقتين:

غَالِبُ القَولِ فَيصلٌ فِي القَضايَا نَافِذُ الرَّأي حَائِزُ الجلايَا

فلا يمكن أن أبا بكر وعثمان قد أسقطا بعض ما نزل في أهل البيت، ولم يكن أبو بكر وعثمان إلا كغيرهما من الصحابة في شأن جمع القرآن، ولو كان نزل في أهل البيت لتواتر كسائر الآيات، وكتم ما شاع وذاع أمر محال لا يستطاع.

وعلماء الإمامية -رحمهم الله تعالى- أجل من أن يقولوا قد وقع نقص في القرآن بمكر أبي بكر أو أمر عثمان، والشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه، والسيد المرتضي علم الهدي ذو المجد؛ أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي والقاضي نور الله في (مصائب النواصب)، والإمام الطبرسي في (مجمع البيان)- هؤلاء أعلم علماء الإمامية، وأعلام أمتنا الإسلامية[1]- قد قالوا بامتناع وقوع التغيير في القرآن، وقالوا: إنَّ العلم بتفاصيل القرآن وأبعاضه كالعلم بكلِّه وجملته، فمَن رام في إسقاط بعض آيات نزلت، فليسع أولاً في رفع كلِّ القرآن، وكتم أخبار انتشرت، وما نقل عن بعض علماء الشيعة من سقوط بعض آيات نزلت، فلا أرى أن ذلك كان رأيًا لهم يرونه إنما ذلك من جملة بقايا أخبار كانت تنشر من عند الذين يحبون أن تشيع الفاحشة والفتنة في المسلمين، ومن عند الذين يبغون خبالاً ويسعون فسادًا في الدِّين[2].

---

(١) وإنْ كان لنا تحفُّظ على هذا الثناء، وإنْ كانت شهادتهم شهادة حق.

(٢) لا نوافقه -رحمه الله- على هذا الكلام؛ لأن للشيعة لليوم كلام أسوأ من ذلك، ولكنها التقية.

وقد كانت مثل هذه الأخبار أنفع وسيلة في الحصول على أغراضهم السياسية، ففازوا فوزًا عظيمًا في دعوتهم، ونالوا فوق ما أملوا في كسر شوكة الأمة الإسلامية وتفريق وحدتهم، وقد دسَّ هؤلاء من أباطيل الأخبار شيئًا كثيرًا في الدين قد تلقاه واغتر به قوم من أهل الخير، فأدخلوه في دواوين الأحاديث والأخبار وأسفار السنن والآثار.

وقد منَّ الله علينا؛ إذ جعل رجالاً ميَّزوا سُنن نبينا ﷺ عن موضوعات الأخبار وأكاذيب الآثار، فسقونا من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين.

هذا، وكل ما ذكرته من تاريخ القرآن والمصاحف؛ فهو حق لأن الأمر كان ووقع كذلك، ومَن ادعى انتصاف الشمس في النهار؛ فإنما عليه أن يشير إلى ما هنالك، ومَن خالف فلا يعتد به، فإنَّ الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم نقلوا أخبار ظنوا صحتها، لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع بصحته، وإلى قوم أتوا بأقوال لا يقوم لها من عالم الشهود شاهد.

ولو أننا سلكنا مسلكهم واستجزنا التدليس على أنفسنا، وارتكبنا ما لم يرتكبه سلفنا لأتينا بما يبلس به خصومنا أسفًا، لكن يكفينا في بيان الحق أن نأتي بما كان، وليس من شأن العاقل أن يتمسك بما بَعُد عن الحق وبان، وحيث وفَّينا الموضوع بعون الله تعالى بما استطعنا من البيان، وكان ذلك خير ما جنينا وخيار ما اقتطفنا من حدائق الأعيان؛ رأينا من واجب الإحسان علينا أن نأتي بما يدل على امتناع وقوع التحريف في القرآن.

ونحن الآن نأخذ بحول الله وقوته في إجمال ما فصَّله العلماء في ذلك، وأن نجمع ونلتقط ما انتشر في صحائف الدواوين من هنا وهنالك:

* **البرهان الأول:** أن النبي ﷺ انتقل إلى ربِّه والصحابة ألوف مؤلفة، ما منهم أحد إلا وهو يحفظ قسطًا وافرًا من القرآن، وفيهم مئات يحفظونه كله بتمام الضبط والإتقان عن ظهر قلب، ثم إنَّ الكثير منهم تشتتوا إثر ذلك في الأقاليم وانتشروا في الأقطار استيطانًا بمواطنهم الأصلية، أو تعينًا لعمل من الأعمال المُلْكية والدينية، ثم نسخت المصاحف ووصلت إلى هذه الأعداد الكثيرة في المدن والبلاد، فلو كان وقع تغيير في كلمة أو تحريف في حرف لظهر ولثارت الأمة، ولارتد كثير من الناس؛ لأن اندساس أقل تغيير فيه بجهل العباد، أو وقوع تصرُّف فيه بالأفكار وكيد أهل الفساد يقضي بأنه غير منزل من عند الله ﷻ، لكنا لم نسمع أن أحدًا من مسلم وغيره عارض في شيء من القرآن وادعى ذلك فيه، ولو وقع حبة تغيير فيه في العصر الأول لوقع تغييرات في العصور الأخيرة على سُنن قانون الطبيعة في النمو، لكن القرآن قضى من أجله ثلاثة عشر قرنًا وزيادة[1]، وملأت المصاحف وجه الأرض وطباقها، ولم يوجد مصحف يختلف عن الآخر بحرف واحد.

* **البرهان الثاني:** إنَّ القرآن أكبر دلائل النبوة؛ به ظهر الدين وعزَّ شوكة المسلمين، هو آية ظلت أعناق الجبابرة لها خاضعين، فأذعنوا له بخفض الجناح طائعين لأوامره، عاملين بأحكامه، فلا يمكن أن يرضي الأمة تحريف شيء منه، ولو كان دونه بذل المُهج والنفوس.

---

(١) هي الآن أربعة عشر قرنًا وزيادة.

* **البرهان الثالث:** من أَلَمَّ بتاريخ الصحابة ونظر نظرة في صحاح الأحاديث يعلم أتم العلم، ما كانت عليه الصحابة من غاية الاعتناء، ونهاية الاهتمام في حفظ القرآن وضبطه، حتى مقادير المدات، وتفاوت الإمالات، ويعرف ما لهم من مزيد العناية في ضبط الأحاديث والرواية، حفظًا وكتابةً، ومن وفور الاحتياط وعظيم التثبُّت عند أدائها وتبليغها للأمة.

والعقل يحكم طوعًا بالقطع، وضرورة باليقين أن الجَمَّ الغفير والجمع الكثير الذين أخذوا القرآن تلقيًا عنه ﷺ في تضاعيف عشرين سنة، وضبطوه حفظًا في الصدور، وثبتًا في الصحائف والسطور، لا يجوز عليهم التخليط فيه ولا التغيير، وشعر الأقدمين مع أنه لا يمكن أن يظهر ظهور القرآن ولا أن يحفظ كحفظه، ولا أن يضبط مثل ضبطه، ولا أن تمس الحاجة إليه مساسها للقرآن لو زيد فيه لفظ أو غُيِّر فيه حرف أو حركة لتبرأ منه أصحابه وأنكره أربابه وطعن فيه عارفوه وجحده راووه، وقد شوهد ذلك في كثير من الأشعار والخطب والأراجيز يعرفه مَن يعتني بلغة العرب ورواياتها.

فإن كان ذلك مما لا يمكن في شعر الأقدمين، فكيف يجوز وقوعه في القرآن مع العناية الصادقة والضبط المتقن والعلم بأنه دليل النبوة ونور الشريعة وملجأ الأمة.

* **البرهان الرابع:** إنَّ العلم بالقرآن كله وجملته فاق في الوضوح والاشتهار أشهر المتواترات من كتاب الحوادث وعظائم الوقائع ومهمات الأمور وحواضر الأحوال، والعلم بآيات القرآن وسوره وتفاصيله وأبعاضه عند حفاظه ورواته في العصر الأول كالعلم به كله وجملته، فإنَّ العناية إذ ذاك توفرت والدواعي اشتدت والقرائح انبعثت إلى حفظه الراسخ وضبطه المتقن،

والغايات تباينت والأغراض اختلفت؛ فمنهم مَن يضبطه لإتقان قراءته ومعرفة وجوهها وصحة أدائها، ومنهم مَن يحفظه لاستنباط الأحكام وبيان تعاليم الإسلام، ومنهم مَن يقصد بحفظه معرفة تفسيره ومعانيه والوقوف على غوامضه وغرائبه، ومنهم مَن يعجبه بالغ فصاحته وفائق بلاغته ورائق أسلوبه وشائق نظمه وعجيب تأليفه، ومنهم مَن يحفظه استلذاذًا بتلاوته واستحبابًا في كرامته، وتقرُّبًا بقراءته، وتعبُّدًا بدراسته، ومنهم مَن يحفظه لمجرد التشرُّف بشرف حمله والقيام بواجب أدائه وتعليمه وهو الأغلب.

فبالضرورة لا يمكن على أهل هذه الهمم العالية والأغراض المتفاوتة والغايات المتباينة مع كثرة أعدادهم وتباعُد بلادهم أن يجتمعوا على التحريف والتغيير ويتواطئوا على التبديل.

* **البرهان الخامس**: لا يخفى على الخبير بعلوم القرآن وطرقه الثابتة أنه لم ينقض عصر الرسالة إلا وتتابع التابعون، وأخذوا عن الصحابة مباشرة وقَلَّ فيهم مَن لا يحفظ كل القرآن، وكان الرجل لا يكون عظيمًا في الأعين، ولا يعدّ صاحب حديث ما لم يحفظ عشرات الآلاف من الحديث، فتتبعوا حفظة الصحابة في كلِّ زمان ومكان، فما بلغهم أن صحابيًّا كذا يحفظ آية كذا بلغة كذا من اللغات التي نزل بها القرآن، إلا ارتحلوا إليه وتلقوا عنه حتى يجمعوا القراءات التي قرئ بها القرآن بين يدي النبي ﷺ، ثم جاء قرن كان حفظ القرآن عندهم كأنه أمر لازم، وكان أقطار حوافظهم قد امتدت ودوائر إحاطتهم قد اتسعت، فكثر فيهم مَن يحفظ مئات ألوف من الحديث، ومَن يحفظ من أشعار الجاهلية وأيام العرب وخطبها وأمثالها وأراجيزها ما لا تسعها

ضخام الأسفار كانوا يحفظون كل ذلك لأجل القرآن وعلومه، فوضعوا علوم الرسوم والتجويد والقراءات وعلوم الدين وكل مبادئها.

وكان من أساس دينهم في الله تشديد النكير على البدع وشدة الاعتصام بالسنة الثابتة والمحافظة على ما ورد، والوقوف عند حدٍّ أمر ثبت، وما مضى قرن إلا وجاء في الذي بعده محققًا باحثًا في علوم القرآن، جاريًا على ما جرى عليه سلفه، كل إنسان أحاط بعلوم القرآن خبرًا يعلم أن طرقه ورسمه واختلاف رواياته كلها توقيف فيها أحد بشيء، فوقوع التحريف في القرآن من مثل هذه الأمة غير ممكن.

* **البرهان السادس:** الصدر الأول كان محاطًا بالأعداء من اليهود وغيرهم، وكانوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا عمومًا، وللنبي ﷺ خصوم واقفين له ولقومه بالمرصاد، ناصبين لهم حبائل الفتن، موغرين عليهم صدور الناس، فلو عثروا على أدنى تحريف أو تغيير لشنوا على جامعي المصاحف غارة الفتنة، وشنَّعوا عليهم في جميع القبائل، ولكان ذلك من أعظم الفرص المساعدة على اتهامهم في نظر الأمة، أو أكبر الوسائل المؤدية إلى تفريق الجماعة الإسلامية وتشتيت كلمتها.

كانت مدينة النبي ﷺ غاصة بالمنافقين، كان عرفهم بسيماهم ويعرفهم في لحن أقوالهم، كانوا يحضرون في مجالسه يسمعون منه ويقرءون فيمن قرأ ويصلون مع مَن صلّى.

وهُمْ في كلِّ لحظة يتوقعون هفوة تصدر منه ليتخذوها ذريعة إلى رد الناس عن الإيمان به، وقد صاحبوا أصحابه بعده، ولم يُسمَع أن واحدًا منهم قال

بتغيير حرف من القرآن، وهُمْ أولى الناس بذلك، وأقدرهم على فرض وقوعه، لسماعهم الأصل من النبي ﷺ، وتتابع الفتن المساعدة لهم في طعن الدين بأكبر المطاعن.

أمة غربلت أقوال نبيِّها ﷺ ونخلتها، وبحثت فيها بحث تدقيق ونقدتها، وروت من أخبار العصر الأول ما عليها قبل نقل ما لها، أمة عنايتها بكلام ربها أضعاف عنايتها بأحاديث نبيِّه ﷺ، يستحيل عليها أنها عكفت على هذا الدين وفي القرآن أقل تغيير قاض أنه ليس من عند الله.

أمة إذا سمع عالمها بيتًا من الشِّعر واستطلع معناه؛ قال: هذا مأخوذ من قول فلان الجاهلي.. أيغيب عنها البحث في القرآن؟! هل وقع فيه تغيير وشيء جديد، أو هو باقٍ على ما كان عليه، تنزيل من حكيم حميد؟! انتهى.

* * *

الفصل الثاني
بحوث مهمة حول القرآن الكريم

المقدمة:

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله؛ فهو المهتد، ومَن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وبعد:

فإنَّ القرآن الكريم هو المعجزة العقلية الباهرة التي أيَّد الله تعالى بها خير خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله -صلوات الله وسلامه عليه.. فهو خالد في إعجازه، لا يزيده التقدُّم العلمي إلا رسوخًا في الإعجاز، وهو حُجة الله البالغة على خلقه، تعبدهم بتلاوته وتدبره وفهمه والعمل به، وأطلعهم من خلاله على بعض أسراره في ملكه وملكوته.

وهو كتاب الهداية، ومنهج الحياة، بيَّن الله تعالى فيه لعباده ما يحل لهم وما يحرم عليهم بأسلوب واضح مشرق لا عوج فيه ولا التواء، فما من شيء يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم إلا شمله تشريعه ووسعه بيانه، فكان بحق كتابًا جامعًا أفاض في شرح الحقوق والواجبات إفاضة واسعة تضمنتها أحكام جامعة وقواعد كلية، يندرج تحتها كل ما جد ويجد من شئون الحياة.

لهذا أجمع المسلمون الأوائل كل قواهم، وكرَّسوا جلَّ حياتهم لخدمة هذا الكتاب العظيم، ولم يدخروا جهدًا في حفظه وتدوينه وتفسيره، واستنباط أحكامه وأسراره، والعمل به والسير على نهجه في عباداتهم وعاداتهم ومعاملاتهم، فتركوا لنا تراثًا خالدًا غصت به المكتبات في مشارق الأرض ومغاربها.

وتتابع الغيث من بعدهم إلى يومنا هذا، يفتح للباحثين في كتاب الله أبوابًا واسعة من العلم والمعرفة، ويتيح لهم أن ينهلوا من معينه ما شاء الله أن ينهلوا في سهولة ويسر، لاسيما بعد أن تقدَّمت أدوات الطباعة ووسائل النشر.

وما على الباحثين إلا أن يشمِّروا عن ساعد الجِدِّ، ويخترقوا أسوار التقليد إلى الأفاق الرحبة التي يفتحها لهم القرآن الكريم بعباراته وإشاراته، فيستنبطوا منه ما ينفع أمتهم في دينها ودنياها، ويستلهموا منه الرُّشد في حل المشكلات المعاصرة التي بلغت العناية في التعقيد والتعجيز.

وهأنذا أحاول أن أسهم بنصيب متواضع في هذا المجال؛ فاذكر بحوثًا علمية حول القرآن الكريم بأسلوب واضح يناسب أهل العصر على اختلاف درجاتهم في الثقافة والفهم، بعيدًا عن التعقيد والتكلُّف في صناعة الألفاظ وتراكيب الجمل.

ثم أذكر بحوثًا إحصائيةً سهلةً ميسورة المتناول؛ ثم أذكر مِلحًا فقهية، ونقاطًا بلاغية، واستنباطات لُغوية، وأبوابًا تخص حَفَظة القرآن الكريم، وبعض الفوائد الأصولية، والقواعد الكلية، وبعض الفوائد العقائدية المتعلقة بالقرآن الكريم، كأصل أن القرآن الكريم كلام الله حقيقة، وأنه غير مخلوق،

ومقدمة مهمة في تفسير القرآن الكريم، وأنواعه، ومصادره، والمقبول منه والمردود، وتاريخ التفسير وتطوره حتى وصل إلى هذا المستوى الموجود بين أيدينا الآن.

ثم إني لم أرتِّب هذه البحوث بنظام معين، فلم أجعلها خاضعة لقانون، وذلك بقصد الانتقال من أمر لآخر؛ تشويقًا للقارئ فلا يمل المطالعة والبحث والاستفادة.

فلك -أيها القارئ الكريم- غُنْمه، وعليَّ غُرْمه، والله -جلَّ شأنه- نسأل ألا يحرمنا من ثواب ذلك بجعله في ميزان الأعمال خالصة الوجهة الكريم، وهذا حُسن ظننا في ربنا -جلَّ وعلا، وهو المرجو أن يجعله نافعًا لكاتبه وقارئه، وأن يكون خدمةً لكتابه الكريم.

وصلّى الله، وسلَّم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ربيع الزواوي

الإسكندرية في ١٣/١٠/١٤١٤هـ

القرآن الكريم

القرآن الكريم هو الأصل الأول من مصادر التشريع الإسلامي، فأيُّ راغب في الاهتداء إلى أيِّ حكم شرَّعه الله تعالى في دين الإسلام يجب أن يتجه أول ما يتجه إلى القرآن الكريم، قبل أن يتجه إلى أيِّ مصدر آخر كالسُّنة أو الإجماع؛ لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولأنه تنزيل من حكيم حميد، ولأن كل ما جاء فيه يقين لا شكَّ فيه، قال تعالى عنه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقال أيضًا: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، كما أنه شامل لكلِّ أصول الدين جملةً وتفصيلاً، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، على قول مَن فسَّر الكتاب هنا في الآية بالقرآن العظيم.

تعريف القرآن:

درج الأصوليون على أنهم يطلقون لفظ الكتاب عندما يريدون القرآن الكريم، ومع أن القرآن العظيم غني عن التعريف إلا أن العلماء عرَّفوه تعريفًا علميًّا دقيقًا، ليبنوا على هذا التعريف أمورًا يجب أن يعرفها الدارسون.

فقالوا: هو كلام الله الذي أنزله بلفظه ومعناه على محمد ﷺ الرسول الأمين، بلسان عربي مبين، ونقل إلينا بالتواتر مشافهة، جماعة عن جماعة، ومكتوبًا في المصاحف، ومبدوءًا بسورة «الفاتحة»، ومختتمًا بسورة «الناس»[1].

(١) أصول الفقه: د/ أحمد الشافعي.

وقالوا: «القرآن كلام الله، المنزل على محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف»[١].

ملاحظات مهمة: من التعريف الأول نستفيد الآتي:

أ- أن القرآن منزل من عند الله تعالى، ولم يخترعه محمد ﷺ من عند نفسه، كما يرى بعض الضُّلال من بعض الطوائف.

وقد اثبت القرآن بنفسه كونه من عند الله تعالى الأمور الآتية:

١- إعجاز القرآن العظيم.

٢- إخباره بالأحوال الماضية والأمم الماضية، وأنبأ بالحوادث الآتية المستقبلية.

٣- كما أنه قرَّر حقائق علمية لم يكن لعربي أمي كنبيِّنا محمد ﷺ أن يعرفها لولا أنها أوحيت إليه.

٤- كما أنه حوى من نظم الحياة للأفراد وللمجتمعات الإنسانية ما ثبت على مر الزمان أنها أصلح النظم لصلاح الفرد والمجتمع وسعادة الناس في الدُّنيا والآخرة.

وسيأتي بحول الله وقوته الكلام بشيء من التفصيل حول كل عنصر من هذه العناصر فيما بعدُ.

كما نستفيد ايضا:

ب- أن لفظه ومعناه نزل من عند الله تعالى.

ج- أنه منقول بطريق التواتر.

---

(١) أصول الفقه للأشقر.

كما نستفيد من التعريف الثاني:

أنه ليس كل كلام الله تعالى قرآنًا؛ لأن التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم ليست قرآنًا، وهي كلام الله تعالى، وكذلك الأحاديث القدسية؛ فهي ليست قرآنًا، وكذلك سائر كلامه تعالى؛ فإنه ليس قرآنًا، وهو تعالى يتكلَّم بما يشاء كيف يشاء، ولم يزل تعالى متكلمًا بما شاء.

١- الكلام حول إعجاز القرآن الكريم:

شاء الله ﷻ أن تكون معجزة كل رسول من جنس ما يمتاز فيه قومه؛ فالمصريون من قوم موسى عليه السلام فاقوا في السحر، فأيَّد الله تعالى موسى عليه السلام بمعجزة تشبه السحر، وليست منه، يلقي عصاه فتكون حية تسعى بقدرة الله تعالى، ولذلك ما استشعر صدق موسى عليه السلام أحد كالسحرة؛ لأنهم يعلمون السحر، وأنه قائم على الكذب والتخيُّل، فأدركوا صدق نبوة موسى عليه السلام، فثبتوا رغم ما قام به فرعون من تعذيب لهم.

وقوم عيسى عليه السلام مهروا في الطب، وبلغوا فيه أعظم الدرجات، لكنهم كانوا لا يستطيعون علاج الأكمه والأبرص، فجعل الله معجزة عيسى عليه السلام أنه يشفي الأكمه والأبرص بإذن الله، بل يحيي الموتى بإذن الله.

وهنا تنبيه حول معجزة نبي الله عيسى عليه السلام في إحياء الموتى، لقد كانت فتنة للجهلة من النصارى؛ حيث اعتقدوا ألوهية عيسى عليه السلام وربوبيته، وأنه كان يحيي الموتى بقدرته وذاته لا بإذن الله وتأييده له، وهنا محل اختلاف العقول واضطراب الأفهام، فلقد شاء الله ذلك، ليناسب تقدُّمهم في الطب، وليلفت الأنظار إلى الخالق منزل تلك العلوم كلها، لا، لكي يكفروا ويشركوا عيسى مع

الله في الخلق والإحياء.

والعرب قوم نبينا محمد ﷺ برعوا وامتازوا بفصاحة ألسنتهم، فكان منهم الشعراء المفلَّقون، والخطباء المفوَّهون، والحكماء المصيبون، فاقتضت حكمة الله تعالى أن تكون معجزة نبيِّنا -عليه الصلاة والسلام- معجزة بيانية، وهي القرآن، وأن تكون هذه المعجزة صالحة للبقاء إلى يوم الدين؛ حيث كان ﷺ خاتم الرسل، وشريعته خاتمة الشرائع إلى الناس أجمعين.

لقد شاء الله -تبارك وتعالى- أن يكون القرآن الكريم معجزة رسوله محمد ﷺ، والإعجاز معناه أن يكون الشيء فوق طاقة مَن يطالب به، والمعجزة أمر خارق للطبيعة، يجريه الله على يد مَن شاء من الرُّسل ويتحدَّى به الرسول قومه ليكون عجزهم عن الإتيان بمثله دليلاً على أنه صادق فيما يبلِّغ عن ربِّه.

يقول الباقلاني -رحمه الله: «ومن حِكَم المعجزات إذ ظهرت على الأنبياء أن يدَّعوا فيها أنها آية صدقهم فيما يبلِّغون عن ربهم؛ لأن النبي لا يتميَّز من الكاذب بشيء سوى البرهان الذي يظهر عليه، فيعرف به صدقه، فإذا قال لهم: هذه آيتي، وعجزوا عن مثالها، صحَّ له ما ادعاه، ولو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن تكون برهانًا له، وليس يكون معجزًا إلا بأن يتحداهم أن يأتوا بمثله، فإذا تحداهم وبان عجزهم صار ذلك معجزًا»[1].

النبي ﷺ يتحدى قومه بالقرآن:

تحدى النبي ﷺ الناس بالقرآن الكريم، وطالبهم بأن يأتوا بسورة من مثله

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني، نقلاً عن أصول الفقه للدكتور أحمد الشافعي.

أو بعشر آيات كآياته، وأخبرهم بأنهم عاجزون عن ذلك، وهذا هو التحدي، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ومع هذا التحدي لم يستطيعوا، كما أخبرهم عن ربِّه أنهم عاجزون أن يأتوا بشيء منه.

موقف العرب الفصحاء من القرآن الكريم:

أحسَّ العربي الفصيح بسليقته ببلاغة القرآن؛ فمنهم مَن دخله الإسلام بروعته، ومنهم مَن شهد له بأنه فوق كلام البشر، ولكنه بقى على كفره كِبرًا وعِنادًا، وأنَفةً من أن يعيِّره قومه بأنه صبا واتبع محمدًا ﷺ، وممن آمنوا لما سمعوا القرآن: جُبير بن مطعم وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما.

أما جبير بن مطعم ﷺ؛ فقد ورد في الحديث أنه وفد إلى النبي ﷺ في أسير له، أراد أن يفاديه، فدخل والنبي ﷺ يقرأ سورة: ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: ١ - ٢] في صلاة الفجر، قال: فلما انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧ - ٨]، قال: خشيت أن يدركني العذاب. فأسلم.

أما عمر بن الخطاب ﷺ؛ فقد سمع سورة «طه»، فأسلم.

أما مَن بقي على كفره بعد سماعه القرآن، وشعوره ببلاغته وإعجازه، فكثيرون منهم: الوليد بن ربيعة المخزومي (والد خالد بن الوليد)، فقد جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه ﷺ القرآن، فكأنه رقَّ له، فخاف قومه أن يسلم، فيسلم كثيرٌ من قومه بإسلامه، وسألوه أن يقول في القرآن قولاً يرضيهم، فقال: ماذا أقول فيه؟! فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا

قصيده.. والله ما يشبه الذي يقوله شيئًا من هذا، والله، إنَّ لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى!!».

وفيه نزل قول الله تعالى في سورة «المدثر»: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ١١-٣٠].

تنبيه مهم:

* أليس هذا الخبيث هو القائل منذ قليل: «والله ما يشبه الذي يقوله محمد ﷺ الشعر ولا السحر وأنه.. وأنه..؟!» أليس هو الذي كذَّب نفسه جحودًا ومكابرةً بقوله: «إنَّ هذا إلا سحر يؤثر، إنَّ هذا إلا قول البشر؟!» اللهم بلى.

والقرآن العظيم يبيِّن أنه لم يقلها هكذا بسهولة، وإنما قالها بعد أن نازع جنبات نفسه وخلجات فؤاده بمصادمة الحق بالباطل، فيصوِّرها القرآن أبلغ تصوير، وهو يفكر ويحسب ويخطط ويعبس وييسر ثم يدبر ثم يستكبر ثم يقولها في خجل وخوف.

إنه ما زال في الأرض أحفاد لهذا الوليد الخبيث، منهم الذي يقر بالقرآن ومنزل القرآن، لكنه عمى البصيرة، والكبر والإعراض والتولي.

* يروى أن أبا جهل وأبا سفيان كانا يستمعان لقراءة النبي ﷺ عند الكعبة، فتعاهدا على عدم الرجوع مرة أخرى، ولكنه في الليلة الثانية تقابلا بعد الانصراف والاستماع، فتسابا بسبب ذلك، وأقر كل منهما للآخر بأنه ما أخرجه

إلا بلاغة الذي يقرأه محمد ﷺ، حتى قال أبو جهل مرة لأبي سفيان: إنَّ فصاحة هذا الكلام لا تبلغها فصاحة، انظرْ إلى قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣]. قال: وضع (كاف) الخطاب في الوداع ولم يضعها في القلى، وهو الهجر!!

* ويروى أن أبا جهل لما نزل قول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. قال: «إنَّ ربَّ محمد لفصيح»!!

* ويروى أن الأصمعي سمع كلام جارية، فقال لها: قاتلك الله!! ما أفصحك!! قالت: أوبعد هذا فصاحة؟! بعد قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين[١].

وهذا الذي قالته الجارية يؤكِّد أن المطبوع على فصاحة القول، المدرك لبلاغة الكلام، يروعه إعجاز القرآن الكريم.

مواطن الإعجاز في القرآن الكريم:

عرف العرب الفصحاء أن القرآن معجز بسليقتهم، وما فطروا عليه من البلاغة وسلامة الملكية اللُّغوية، ولكن لما امتد الإسلام شرقًا وغربًا، واختلط العرب بالعجم، وضعفت الملكة العربية، واحتيج إلى دراسة اللغة وبلاغتها، شرع السلف من علمائنا يكتبون في علو اللُّغة، واهتموا أول ما اهتموا ببلاغة

(١) كتاب الشفا للقاضي عياض.

القرآن الكريم، وكان من أسبق مَن كتبوا في ذلك عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله، فقد ألَّف كتاب (دلائل الإعجاز)، وكتاب (أسرار البلاغة)، ثم اختصرهما الرازي -رحمه الله- فيما بعد، ثم كتب ابن أبي الأصبع كتاب (بدائع القرآن).

ومن أحسن مَن كتب في إعجاز القرآن واستفاد من العلماء السابقين، الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى، فقد كتب كتاب (الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلوم البيان)، ثم جاء مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله- فكتب كتابه العظيم (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية).

وهؤلاء جميعًا ممن ألف في هذا الموضوع، هدفهم الأول أن يعينوا مَن لم تسعفهم فصاحتهم الفطرية وملكتهم اللسانية على إدراك أسرار بلاغة القرآن، أن يتلمسوا بالدراسة تفهم ما يستطيعون تفهمه منها.

بعض مظاهر الإعجاز:

١- نظم القرآن على نسق فريد وتصرف عجيب.

٢- أنه عجيب في نظمه وبديع تأليفه، لا يتفاوت ولا يتباين مع تصرفه في جميع الأغراض، مع أن البليغ الكامل، والشاعر المفلَّق، والخطيب المصقَّع يختلف كلامه بحسب الأغراض التي يتناولها، فقد يجود في غرض، ويتوسط في غرض، ويهبط في غرض آخر، أما القرآن؛ فكلُّه سواء في سمو بيانه.

٣- إحكام التعبير عن المعاني التي تضمَّنت أصول الشريعة وأحكامها.

٤- وأنه سهل تنزَّه عن الحشو المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة

المتكلّفة، وقَرُب على الأفهام، ويبادر معناه لفظه إلى القلب، وهو مع ذلك ممتنع المطلب، عزيز المنال لا يرام.

٥- وأنه يتلألأ في ثنايا الكلام إذا استُشهد به.

وسوف يأتي الكلام بشيء من التفصيل حول بلاغة القرآن الكريم، وتصرفه في الألفاظ بإبداع.

ويثبت كذلك أن القرآن منزل من الله تعالى:

٢- إخباره بأحوال الأمم الماضية وبالأخبار الآتية:

فقد حدَّثنا عن أخبار قوم نوح، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وعن موسى وفرعون، وعن عيسى، وغيرهم من الرسل -صلوات الله عليهم جميعًا، وقصَّ قصصهم وتصرَّف في أساليب القصص تصرُّفًا عجيبًا، وأبدى مواطن العِبرة فيما كان بينهم وبين أقوامهم، وحثنا بأن الله أكرم من آمنوا من الأمم، وأهلك الذين كذبوا الرُّسل، ورفضوا دين الله تعالى، فقال تعالى عمن آمنوا: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقال عمن كفروا بعد أن سرد ما كان من تكذيبهم للرسل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ويلزم الله تعالى كفار مكة بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لأنه جاءهم بأخبار أمم غبرت في سالف الدهر، وما كان له أن يعلم شيئًا من أخبارهم لولا أن الله

أوحاها إليه، ولولا الوحي لظل يجهلها مثل جهلهم بها، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

كما حدَّث الناس عن أمور مستقبلية، قال تعالى: ﴿الم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١ - ٤]، وقد تحقَّق ما أخبر به القرآن الكريم.

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]، وتحققت الرؤيا ودخل المسلمون المسجد الحرام بعد صلح الحديبية بعام، وهذا هو الفتح القريب، ثم كان فتح مكة بعد عام آخر.

وما كان للنبي محمد ﷺ ليخبر بحوادث مستقبلية باجتهاده، فيخاطر بثقة المؤمنين به إذا لم يتحقق ما أخبر به ﷺ، وإنما أخبر وهو مطمئن؛ لأن الله أوحى به إليه، فثبت بذلك أيضًا أن القرآن منزل من عند الله تعالى.

ويثبت أن القرآن من عند الله تعالى أيضًا:

٣- ما حواه من الحقائق العلمية:

التي لم يكن يعرفها العرب؛ كأطوار الجنين التي بيَّنها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

فمن علَّم النبي ﷺ وهو أمي لم يدرس طبًّا، وليس في وطنه جامعة ولا

علماء درسوا هذه الأطوار التي يمر بها الجنين في بطن أمه، ولا يراها إلا الله الذي يعلم الظاهر والباطن؟!

إنه الله تعالى الذي علَّمه ذلك بما أوحى إليه، وهذا من أعظم الأدلة على أن هذا القرآن الكريم منزل من ربِّ العالمين.

وكذلك يثبت أن القرآن من عند الله تعالى:

٤- أنه يحوي منهجًا كاملاً للحياة:

موافقًا للفطرة الإنسانية، ملائمًا للنفوس البشرية، منظمًا للمجتمع تنظيمًا دقيقًا يكفل له الاستقرار والأمن ويُسر التعامل ونقاءه وبقاء الود وصفاءه؛ لأن واضعه الحكيم الخبير الذي يعلم ما جبلت عليه النفوس، وما طبعت عليه من أثره، وشغف بالمال وميل إلى الشهوات، وحب للغلبة والسيطرة، وجنوح إلى البغي والعدوان أحيانًا، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

لقد وضع الله بالقرآن أسلوبًا تستقيم به حياة الفرد والأمة، وشهد التاريخ بما صنعه الله تعالى في صيانة الأفراد والجامعات.

لقد خرَّج القرآن أفذاذًا في إقامة العدل؛ كأبي بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز، وفي الإقدام والشجاعة؛ كخالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وعلي بن أبي طالب، وفي البذل؛ كأبي بكر وعثمان الذي أخرج كل ماله لتجهيز جيوش الإسلام، وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وطلحة، الذين كانوا يبذلون بالآلاف من الدنانير، وبكل ما حملت القوافل من زاد ومتاع وابتغاء رضوان الله، وما عرفنا أمة ظهر فيها أمثال هؤلاء العظماء الكرماء، ومَن شاركهم في صفاتهم هيهات أن يلحق بهم.

أما بناء القرآن للأمة؛ فقد صنع الله من العرب الأميين، أمة فاقت الأمم العريقة في العلم والحضارة، وإشاعة النور في أرجاء الدنيا، وأقامت في الشرق وفي بلاد الأندلس حضارة زاهية قبس منها الغربيون ما أقاموا عليه نهضتهم الحاضرة.

وما كان لمحمد النبي الأمي ﷺ، ليستطيع أن يحدث ذلك الأثر في الأفراد والجماعات لولا أن الله علَّمه فعلَّم الناس، وهداه فهدى الناس، وأدبه فأدَّب الناس.

كما استفدنا من التعريف الأول أيضًا:

ب- أنه نزل لفظه ومعناه من عند الله تعالى:

وبهذا القيد يخرج شيئان من كونهما قرآنًا:

الأول: الترجمة لمعاني القرآن.

الثاني: الأحاديث القدسية.

أما الترجمة لمعاني القرآن؛ فلأن اللسان العربي وصف لازم للقرآن، فإذا زال وصف العربية عنه لم يكن قرآنًا حتى وإنْ كانت ترجمته إلى غير العربية تحوي جميع معانيه.

وذلك لأمرين:

الأول: لأن الله تعالى شاء لكتابه الكريم أن يكون عربيًّا، وأوحاه إلى نبيِّه عربيًّا، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥]، وقال: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ كِتَابٌ

فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣].

الثاني: لأن فهم المترجم لمعاني القرآن ومراميه ليس ميسورًا، ومع عسره يحتمل الخطأ، ونقل هذه المعاني إلى لغة أخرى غير مأمون الخطأ أيضًا، وأنى لنا بمترجم متمكن من فهم لغة القرآن الكريم ومراميه، ومتمكن من اللغة الأخرى التي ينقل إليها، حتى نطمئن إلى سلامة الترجمة من الخطأ؟! أو موافقة الترجمة لما أراده القرآن الكريم؟! على أن من يحسنون العربية تفاوتوا في فهم معانيه، وإدراك مقاصده ومراميه، وكل مهتم بتفهم القرآن رأى من معانيه ومراميه وسمو مقاصده، وروعة إعجازه بمقدار ما أوتي من نور، وأعطي من فهم وبصر باللغة، ولا يستطيع أن يدَّعى مدعٍ مهما بلغ من العلم أن يقول: إنه فهم القرآن فهمًا تامًّا، وعرف كل مقاصده ومراميه، ولن تحمل الترجمة مهما دقَّت كل ما أراده الله بآيات كتابه الكريم.

يقول النووي -رحمه الله- في (المجموع): «ترجمة القرآن ليست قرآنًا بإجماع المسلمين، فليس أحد يخالف في أن مَن تكلَّم القرآن بالهندية لا يكون قرآنًا، ومَن خالف في هذا كان مراغمًا جاحدًا».

كما يترتب على الحكم بأن ترجمة القرآن ليست قرآنًا:

١- أنه لا يصح الاعتماد عليها واستنباط الأحكام منها سواء أكانت ترجمة حرفية أم ترجمة فيها تصرف بعد فهم المعنى؛ لأنه -كما قدَّمنا- من المحتمل أن يخطئ المترجم في فهم المراد من القرآن، ثم يخطئ في أداء المعنى في اللغة التي ينقله إليها، فيكون خطؤه محتملاً مرتين، فكيف يمكن بعد ذلك أن تطمئن إلى أحكام تعتمد على احتمال الخطأ مرتين، مرة في الفهم ومرة في النقل؟

٢- أنه لا تصح الصلاة بترجمة القرآن لمن يستطيع أن يقرأ ما تصح به الصلاة بالقرآن العربي، أما مَن لا يعرف العربية، فيجيز أبو حنيفة أن يقرأ المعاني المترجمة بغير العربية، وتكون صلاته صحيحة.

أما باقي الأئمة غير أبي حنيفة من الفقهاء؛ فلا يجيزون قراءة ترجمة القرآن، فلو صلى وقرأ بغير العربية بطلت صلاته، سواء أمكنه القراءة بالعربية أم عجز عنها، وألزموا أي مسلم أن يتعلم الفاتحة باللغة العربية، وأن يبذل ما استطاع ليتعلمها.

يقول النووي من الشافعية: «مذهبنا ألا تجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب سواء أمكنه العربية أم عجز عنها وسواء في الصلاة أم في غيرها، فإن أتى بترجمة في الصلاة بدلاً عنها لم تصح صلاته، سواء أحسن القراءة أم لا، وبه قال جماهير العلماء»[1].

وللمالكية في ذلك رأي طريف وهو: أن مَن لا يستطيع أن يتعلم الفاتحة بالعربية يقتدي في صلاته بمَن يحسن قراءتها بالعربية، فإنْ لم يجد إمامًا يقرؤها بالعربية ليصلي خلفه سقطت عنه قراءتها بالعربية، وندب له أن يفصل بين تكبيرة الإحرام وبين الركوع بذكر الله تعالى وتسبيحه بأيٍّ عبارة يستطيعها.

وأما الأحاديث القدسية:

فلأن الأحاديث كلها وحي من الله تعالى بالمعنى فقط، واللفظ للنبي ﷺ وليس من عند الله تعالى، وإذا لم يؤمر ﷺ بنسبته إلى الله تعالى، أي إذا لم يكن

---

(١) انظر: المجموع، (٣/ ٣٧٩).

الحديث قدسيًّا، كان نبويًّا، نسبة إلى النبي ﷺ، وكلا النوعين من لفظ النبي ﷺ، ومعنى ذلك أن الأحاديث قدسية ونبوية، تتفق مع القرآن في أن كليهما من وحي الله تعالى، فالله تعالى يقول عن القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢]، ويقول عن كلام النبي ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم:٣].

وتختلف الأحاديث القدسية عن القرآن الكريم في أن الأحاديث بلفظ النبي ﷺ، والقرآن بلفظ المولى ﷻ.

وعلى ذلك؛ فلا يجوز قراءة القرآن بالمعنى، بل إنَّ أي كلام يؤدي معاني القرآن غير كلام الله يحرم أن نسمِّيه قرآنًا، كما لا يجوز إبدال لفظ مكان لفظ من القرآن، وإنْ كان مرادفًا له.

يقول السيوطي في (الإتقان): «لا تجوز قراءة القرآن بالمعنى؛ لأن جبريل أداه إلى الرسول ﷺ باللفظ، ولم يبح له أداءه بالمعنى».

كما نستفيد من التعريف الأول أيضًا:

ج- أن القرآن نقل إلينا بطريق التواتر:

لقد وصل إلينا القرآن الكريم بطريق التواتر، وذلك أنه رواه الصحابة عن رسول الله ﷺ شفاهةً وكتابةً كما أنزل عليه، ثم رواه عنهم التابعون، وظل على مر القرون يرويه عدد عظيم يستحيل تواطئهم على الكذب إلى أن وصل إلينا محفوظًا في الصدور ومكتوبًا في المصاحف.

أي أن الذين رووا لنا القرآن الكريم منذ عهد النبي ﷺ حتى الآن جموع

كبيرة لا يمكن أن تتواطأ على الكذب، فوصل إلينا القرآن كما قرأه النبي ﷺ وبالترتيب الذي عرضه به جبريل عليه السلام، بلا تبديل ولا تحريف ولا زيادة ولا نقصان، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فالقرآن قطعي الثبوت بلا خلاف بين المسلمين؛ لأن النقل بطريق التواتر يفيد اليقين، وقد نُقل إلينا بالتواتر منذ عهد النبي ﷺ وحتى الآن، وها نحن نرى في كلِّ بلد من بلدان الإسلام عددًا كبيرًا من حفظة القرآن وهؤلاء يحفِّظون غيرهم، وهكذا.

وهذه نبذة مهمة في الفرق بين القرآن والحديث القدسي:

* القرآن نزل مقرونًا بالتحدي، والحديث القدسي ليس كذلك، فقد تحدى الله بالقرآن الإنس والجن بأن يأتوا بحديث مثله ولو بمثل أقصر سوره، فعجزوا جميعًا، ولا يزال عجزهم قائمًا.

* القرآن الكريم متعبدٌ بتلاوته، والحديث القدسي ليس كذلك؛ فقد فرض الله على المصلّي أن يقرأ فاتحة الكتاب في كلِّ ركعة، وأوجب عليه أن يتلوه في ليله ونهاره بقدر وسعه، مع تدبُّره على قدر فهمه، وعلمه تعبدًا مبتغيًا بذلك الأجر العظيم.

* القرآن متواترٌ، نقَلَه الجمع الغفير ممن بلغ الغاية في العدالة والضبط عن مثلهم إلى النبي ﷺ، والحديث القدسي منه الصحيح ومنه الحسن ومنه الضعيف.

* لا تجوز رواية القرآن بالمعنى، بخلاف الحديث القدسي؛ فإنه يجوز أن

يروى بمعناه، بشرط أن يكون الراوي محيطًا بالمعاني، فقهيًا بمعاني الألفاظ واشتقاقها.

* لا يجوز للجُنب قراءة القرآن ولا مسّ المصحف، ويجوز له قراءة الحديث القدسي ومسَّ الكتاب الذي يحويه.

* الله تعالى تكفل بحفظ القرآن، فلا يضيع حرف من حروفه بخلاف الحديث القدسي.

* مَن أنكر لفظًا من ألفاظ القرآن الكريم كَفرَ؛ لأنه متواتر كله بخلاف الحديث القدسي.

المُحكَم والمُتَشابِه

إنَّ الناظر في كتاب الله تعالى يجد أن الله تعالى قد وصف كتابه بأنه محكم؛ كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، وهذا يشمل الكتاب كله.

وأنه وصفه في موضع آخر بأنه متشابه، فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهذا يشمل الكتاب كله أيضًا.

ووصفه في موضع آخر بأن منه مُحكَمًا ومنه مُتَشابِهًا، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران: ٧].

وهذا؛ والحمد لله ليس تعارُضًا، بل هو تعارُض ظاهري لفظي فقط، فإنَّ القرآن كلَّه محكمٌ، أيْ: إحكام معانيه وألفاظه، وعدم وجود اختلاف واختلال فيه، وهو متشابه بمعنى أن آياته متشابهة في الكمال والإعجاز والإحكام والنفع

والصدق والهداية إلى الخير[١].

وأما كون بعض آياته محكمًا وبعضها متشابهًا؛ فيوضِّحه سبب نزول هذه الآية؛ فقد جاء وفد نصارى نجران إلى النبي ﷺ، فجادلوه في الله، فكان من جدالهم له أن قالوا له محتجين على التثليث: إنَّ في القرآن نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] يعنون أن (نحن) في اللُّغة للجماعة، أي: فالله جماعة تَعَالَى اللهُ عَمَّا يقولون، فنزلت هذا الآية تبيِّن أن سبب مصيرهم إلى هذا الاستدلال الأعوج ما في قلوبهم من الزيغ.

وبيان ذلك ان لفظة (نحن) في اللُّغة تستعمل استعمالين:

الأول: أنها تكون للجماعة.

الثاني: أنها تكون للواحد الفرد، إنْ عبَّر عن نفسه معظمًا لها.

فهذه اللفظة متشابهة؛ لأن لها احتمالين: أحدهما: حق هو مراد الله تعالى، وهو أنها للواحد المعظم نفسه، والثاني: باطل غير مراد وهو للجماعة، ومن هنا قيل لها: (متشابهة) تشبه الحق من وجه، والباطل من وجه، فأما الذين في قلوبهم زيغ، فيحملونها على الوجه الباطل، يؤيدون بها دعاواهم الباطلة وأهواءهم، وأما تأويلها الحق، فيعلمه الله والراسخون في العلم، فإنَّ الراسخين في العلم يقولون: آمنا بكتاب الله كلِّه، لا نكفر بشيء منه، وهو تعالى قال في مواضع أخرى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام:١٩]، ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١]، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٥]، ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ [النساء:١٧١]... إلى غير ذلك

(١) الواضح للأشقر.

من الآيات التي هي صريحة واضحة غير محتملة، وبعبارة القرآن هي محكمة، تدل على أن الله واحد غير متعدد، فيقول الراسخون: لما كان المتشابه آتيًا من الله، والمحكم من الله كذلك، كل من عند ربنا، فلا يمكن أن يختلف، فنرد المتشابه إلى المحكم، أي نفسر المتشابه بالمحكم، فنرد الوجه بالباطل، وإنْ احتملته للغة، ونثبت الوجه الآخر. وبذلك يكون المحكم (أم الكتاب)؛ لأن المتشابه يعود ويرجع إليه كما يرجع الطفل إلى أمه.

ومن هنا يتبيَّن أن المتشابه يعلمه الراسخون في العلم، وهذا معنى ما أثر عن ابن عباس -رضي الله عنهما: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله»، ويكون الوقف على قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

وعلى هذا لا يكون في القرآن شيء لا يمكن معرفة تفسيره، وإن كان قد يتيسر ذلك لبعض الناس دون بعض، وهذا القول معقول؛ إذ كيف يخاطبنا الله بما لا يمكن معرفة معناه، وهو المطابق لدلالة آيات كثيرة، منها: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، إلى غير ذلك.

ومما تقدَّم يتبيَّن الآتي:

* أن المحكم: هو الواضح الدلالة على معناه، ولا يحتمل تأويلاً ولا تخصيصًا، ولا نسخًا في زمن الرسالة أو بعدها.

ومن المحكم: الآيات الدالة على العقائد؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله تعالى:

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٤]، ألفاظ محكمة ثابتة أبدًا مع وضوحها، ولا تقبل تأويلاً ولا تخصيصًا ولا نسخًا.

ومن المحكم أيضًا ما انقطع احتمال نسخه بما يدل على التأييد والدوام؛ كقول النبي ﷺ: «الْجِهَادُ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1]، فلفظ (إلى يوم القيامة)، أفاد تأبيد وجوب الجهاد، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فقوله تعالى: (أبدًا) دالٌّ على تأبيد حرمة الزواج بأي زوجة من زوجات الرسول ﷺ، وتأبيد حرمة إيذاء الرسول ﷺ.

* وأن المتشابه: هو اللفظ الذي يخفى معناه، ولا توجد قرينة تبيِّنه أو استأثر الشارع بعلمه فلم يبيِّنه، هذا على القول الثاني.

وقد رأى السلف أن يتوقفوا فيه لعدم بيان الشارع له مع الإيمان به، وتفويض العلم به إلى الله تعالى، مسلكهم في هذا أسلم ممن حاول تأويل شيء منه.

والمتشابه موجود في القرآن الكريم، وقد دعانا الله تعالى إلى الإيمان به ورمى الذين يجادلون في تأويل المتشابه بأن في قلوبهم زيغًا، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء»، (٥/ ٣٤٦).

أنواع المتشابه:

المتشابه نوعان: متشابه اللفظ، ومتشابه المعنى:

* متشابه اللفظ؛ كالحروف المتقطعة التي في أوائل السور، مثل: (ألم، كهيعص، ألمص، ألر، ق)، ونحوها.

* ومتشابه المعنى: هو ما تستحيل إرادة معناه الحقيقي الموضوع له لغة، كما تقدَّم.

وينبغي أن نعلم أن الآيات التي حوت التكاليف الشرعية؛ التي هي أساس الشريعة كلها من المحكم وقد خلت من المتشابه، وكلها من الواضح بنفسه، أو المجمل الذي بيَّنه الرسول ﷺ[1].

النسخ في القرآن

وضع الله -تبارك وتعالى- الشريعة كلَّها بالتدرُّج؛ ليسهل القبول والعمل بها عند الناس، وتقديم الأهم على المهم، وتشريع شيء لكونه مناسبًا في وقته، ثم إذا انتقل الناس إلى مرحلة جديدة من الإيمان أو القوة أو غير ذلك تغيَّر ذلك عند حينه، ولما كان القرآن الكريم هو أساس الدين، فقد راعى القرآن التدرُّج في التشريع، فوقع النسخ في القرآن في عدة مواضع منه يأتي ذكرها إنْ شاء الله.

ورد في سورة «البقرة» قول الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وورد في سورة «النحل»

---

(١) أصول الفقه: د. الشافعي.

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠١- ١٠٢]، وفي سورة «الأعلى» قوله سبحانه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦-٧].

ومن هنا أثبت العلماء وقوع النسخ في القرآن الكريم في فترة نزول الوحي، وأنكر ذلك بعض العلماء قديمًا وحديثًا، ولا ينبغي الالتفات إلى قولهم.

تعريف النسخ:

النسخ: رفع الشارع حكمًا من أحكامه بخطاب لاحق.

ومن معاني النسخ في اللغة: الإزالة والنقل.

فمن الأول: قولنا: نسخت الشمس الظل إذا أزالته، وقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقيل: هو في الأول حقيقة، وفي الثاني مجاز، وقيل بالعكس؛ وقيل: هو مشترك بينهما.

وأما النسخ في اصطلاح الأصوليين: رفع حكم شرعي بدليل شرعي متأخر، وأول مَن حرَّر الكلام في النسخ الإمام الشافعي في (رسالة الأصول)، إذ اعتبر النسخ من قبيل بيان الأحكام لا من قبيل إلغاء النصوص. أي أنه لا يعتبر النسخ إلغاء للنص، ولكنه يعتبره إنهاء لحكم النص. وقد تبعه في هذا النظر ابن حزم الظاهري بدليل أنه عرَّف النسخ بقوله: «حد النسخ أنه بيان انتهاء زمان الأمر الأول»[1].

---

(١) الناسخ والمنسوخ لابن حزم (د. الشافعي).

ونفهم مما سبق أنه إذا ورد نصٌّ شرعيٌّ وعُمل به، ثم جاء بعد العمل به نصٌّ آخر ينهي حكم النص الأول كله أو بعضه سُمِّي هذا الإنهاء أو الرفع (نسخًا)، والنص الأول يسمَّى منسوخًا، والنص الثاني يسمَّى (ناسخًا).

واعلمْ -وفقك الله- أنه قد ينسخ حكم الآية وتبقى تلاوتها، كنسخ آية الاعتداد بالحول، بالاعتداد أربعة أشهر وعشرًا، وفائدة بقاء لفظ الآية المنسوخة معرفة تدرُّج التشريع، وأنه قد تنسخ التلاوة ويبقى الحكم؛ كآية الرجم، وآية الرضاع، وأنه قد ينسخ التلاوة والحكم جميعًا.

حكم النسخ:

النسخ واقع وجائز عقلاً، ولم يخالف في إثبات النسخ ووقوعه من أرباب الشرائع السابقة سوى اليهود، ومن المسلمين سوى أبو مسلم الأصفهاني، فقد حُكي عنه أنه ينكر وقوع النسخ في القرآن.

* أما اليهود: فيُرد عليهم بأمور كثيرة منها: ما ورد في التوراة: أن الله تعالى أمر آدم عليه السلام أن يزوِّج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك في شريعة من بعده، وأيضًا ما ورد فيها من أن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه ثم قال له: لا تذبح.

* وأما مثل أبي مسلم فاحتجَّ على عدم وقوع النسخ في القرآن بقول الله تعالى عن القرآن: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، فلو نسخ بعض القرآن لتطرق إليه البطلان، وذلك محال!!

ولكن يُرد عليه بالأمور الآتية:

١- يقول الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ

أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

٢- وما وقع من نسخ الاتجاه إلى بيت المقدس؛ حيث كانت قبلة المسلمين بعد الهجرة إلى المسجد الحرام، وبعد ستة عشر شهرًا تقريبًا، أنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فنسخت هذه الآية حكم الاتجاه إلى بيت المقدس، وحل محله حكم الاتجاه إلى المسجد الحرام.

٣- وآية المواريث نسخت استحقاق الوارثين لوصية، فقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] يثبت وجوب الوصية للوالدين والأقربين، فلما نزلت الآيات التي بيَّنت أنصباء الوارثين نسخت وجوب الوصية لمن لهم حق ونصيب في الميراث، وبقي وجوب الوصية لغيرهم من الأقربين.

٤- وقد أوجب الله الصدقة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [المجادلة: ١٢]، ونسخ الوجوب بما جاء بعد ذلك من قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٢-١٣].

الحكمة في النسخ:

١- المصلحة:

إنما تشرع الأحكام لمصالح الناس، فإذا شرع الدين حكمًا لمصلحة، ثم زال السبب الداعي إلى هذا الحكم نسخ إذا كان نسخه يحقِّق مصلحة.

ومثالاً على ذلك أن جماعات من المسلمين جاءوا إلى المدينة في أيام عيد الأضحى، فأراد الرسول ﷺ أن يوسّع عليهم، ويبالغ في إكرامهم، فنهى المسلمين عن أن يدخروا لحوم الأضاحي، فلما عادت هذه الجماعات إلى أوطانها أباح الرسول ﷺ للمسلمين أن يدخروا لزوال المصلحة التي نهى من أجلها عن الادخار، ولوجود مصلحة للمقيمين في أن يدخروا.

وهكذا نرى حكم الإباحة ينسخ حكم الحُرمة لداعي المصلحة، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَلَى لُحُومِ الأَضَاحِي مِنْ أَجْلِ الدَّافَّةِ (الوفود) الَّتِي دَفَّتْ، فَكُلُوا وَادَّخِرُوا»[١].

٢-التدرُّج في التشريع:

تدرج التشريع رفقًا بالمكلفين؛ لأن الناس إذا خوطبوا بالأحكام الشرعية دفعة واحدة لن يطيقوها، ولكن الله لحكمة استدرج الناس لتقبُّل أحكامه، فكان يشرع حُكمًا ثم ينهيه بحكم آخر، وقد ينهي الحكم الثاني بحكم ثالث، ثم ينهي الحكم الثالث بحكم رابع كالذي حدث في تحريم الخمر، وقد كان من مفاخرهم، وعاداتهم الموروثة المستقرة في بيئتهم شرب الخمر ولعب الميسر[٢].

مراحل تحريم الخمر:

لم يكن تحريم الخمر وما يتصل بها من الميسر أمرًا مفاجئًا، فقد سبقت هذا التحريم القاطع مراحل في علاج هذه التقاليد الاجتماعية المتغلغلة المتلبسة

---

(١) رواه البخاري في «الأَضَاحِيّ»، باب: «مَا يُؤْكَلُ مِنْ لُحُومِ الأَضَاحِيِّ وَمَا يُتَزَوَّدُ مِنْهَا»، ح(٥٥٦٩)، ومسلم في «الأَضَاحِيّ»، باب: «بَيَانِ مَا كَانَ مِنَ النَّهْيِ عَنْ أَكْلِ لُحُومِ الأَضَاحِيِّ بَعْدَ ثَلَاثٍ فِي أَوَّلِ الإِسْلَامِ»، ح(١٩٧١).

(٢) أصول الفقه: د. الشافعي.

بعادات النفوس ومألوفاتها، والمتلبسة كذلك ببعض الجوانب الاقتصادية وملابساتها.

المرحلة الأولى:

كانت المرحلة الأولى مرحلة إطلاق سهم في الاتجاه حين قال الله ﷻ في سورة «النحل» المكية: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، فكانت أول ما يطرق حسّ المسلم من وضع السكر وهو الخمر في مقابل الرزق الحسن، فكأنما هو شيء والرزق الحسن شيء آخر.

المرحلة الثانية:

ثم كانت المرحلة الثانية بتحريك الوجدان الديني عن طريق المنطق التشريعي في نفوس المسلمين حين نزلت التي في سورة «البقرة»: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، وفي هذا إيحاء بأن تركها هو الأولى ما دام الإثم أكبر من النفع؛ إذ إنه قلما يخلو شيء من نفع، ولكن حله أو حرمته إنما ترتكز على غلبة الضر على النفع.

المرحلة الثالثة:

ثم كانت الثالثة بكسر عادة الشراب، وإيقاع التنافُر بينهم وبين فريضة الصلاة حين نزلت في سورة «النساء»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، والصلاة في خمسة أوقات معظمها متقارُب، ولا يكفي ما بينها للسُّكر ثم الإفاقة، وفي هذا تطبيق لفرض المزاولة العملية لعادة الشرب، وخاصة عادة الصبوح في الصباح والغبوق بعد العصر

أو المغرب، كما كانت عادة الجاهلين، وفيه كسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي، وفيه وهو أمر له وزنه في نفس المسلم ذلك التناقض بين الوفاء بفريضة الصلاة في مواعيدها والوفاء بعادة الشراب في مواعيدها.

المرحلة الرابعة:

ثم كانت هذه المرحلة الرابعة والحاسمة والأخيرة، وقد تهيأت النفوس لها تهيؤًا كاملاً، فلم يكن إلا النهي حتى تتبعه الطاعة الفورية والإذعان(١).

ومن التدرُّج في التشريع أن الصلاة شُرعت ركعتين في الغداة وركعتين في العشي، فلما ألفها المسلمون وذاقوا حلاوة مناجاتهم لله ﷻ، واعتادوا أداءها فرض الله خمس صلوات في اليوم والليلة.

٣- التدرج في تشريع العقوبات:

ومن التدرُّج في تشريع العقوبات أن عقوبة الزنا كانت في أول عهد الإسلام الحبس في البيوت للنساء، والإيذاء للرجال، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ۝١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥-١٦].

ثم جعل الله عقوبة الزنا الرجم للمحصن والجلد مائة جلدة لغير المحصن، وثبتت عقوبة الجلد بقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٢]،

---

(١) أصول الفقه: د. الشافعي، (والكلام لسيد قطب في «ظلال القرآن»).

والرجم ثبت بسُنة رسول الله ﷺ القولية والعملية[1].

أنواع النسخ:

١-النسخ الكلي:

وهو الذي يبطل حُكمًا شرَّعه الله تعالى من قبل إبطالاً كليًا، أي: يشمل جميع المكلفين، ومثاله قول الله تعالى عن عدة المتوفى عنها زوجها: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فإنه أبطل الحكم السابق الوارد في قوله تعالى قبل ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

فهذه الآية جعلت عدة المتوفى عنها زوجها حولاً كاملاً تبقى فيه في بيت الزوجية، فنسختها الآية السابقة بأن جعلت عدة كل زوجة يتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام.

٢-النسخ الجزئي:

وهو ما نسخ به الشارع بالنسبة لبعض المكلفين حكمًا كان يشتمل جميع الأفراد، ومثاله: أن من يرمي المحصنات الغافلات المؤمنات يجلد ثمانين جلدة وتسقط عدالته، فلا تقبل له شهادة، وقد ثبت هذا الحكم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

والحكم في هذه الآية الكريمة يشمل جميع أفراد المكلفين، وجاء بعد ذلك

---

(١) أصول الفقه: د. الشافعي.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦-٩].

فاستثنت هذه الآيات الكريمة الأزواج إذا رموا أزواجهم بالزنا؛ فإنهم لا يقام عليهم حد القذف، وإنما تكون بينهم وبين زوجاتهم الملاعنة التي بيَّنتها الآية السابقة.

٣- النسخ الصريح:

وهو ما صرَّح فيه النص برفع ما شرَّعه الدين أولاً، ومنه قوله ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَلَى لُحُومِ الأَضَاحِي مِنْ أَجْلِ الدَّافَّةِ (الوفود) الَّتِي دَفَّتْ، فَكُلُوا وَادَّخِرُوا»[1].

٤- النسخ الضمني:

وهو أن يشرِّع حُكمًا بنصٍّ، ثم يشرِّع بعد ذلك حُكمًا بنصٍّ آخر يتعارض مع النص الأول، ولا يمكن التوفيق بين الحكمين إلا بإلغاء أحدهما، فيعتبر اللاحق ناسخًا للسابق ضمنًا.

ومثله الآية التي شرَّعت الوصية للوالدين والأقربين، وهي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

---

(١) سبق تخريجه.

والآيات التي نزلت بعدها تبيِّن نصيب مَن يرث من الأقارب، وهي قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء: ١١]، فالحكم في الآية الثانية معارض للحكم في الآية الأولى، ولا يمكن التوفيق بينهما، فيكون الحكم الثاني ناسخًا للحكم الأول، والنسخ في هذا المثال ضمني؛ لأنه غير صريح، وجزئي؛ لأنه رفع الحكم بالنسبة لبعض دون بعض، ولذلك قال الرسول ﷺ بعد نزول آيات المواريث: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ»[١].

شروط النسخ:

للنسخ ثلاثة شروط هي:

١- أن يكون النص متأخرًا في النزول عن النص المنسوخ؛ لأن النسخ رفع لحكم النص الذي نسخ حكمه، فكان لا بدَّ أن يقع بعده.

٢- أن يكون النصان (الناسخ والمنسوخ) في قوة واحدة، أو يكون الناسخ أقوى من المنسوخ.

٣- ألا يكون المنسوخ حكمه مقيدًا بوقت معين؛ فإنْ كان مقيدًا بوقت انتهى الحكم بانتهاء وقته، ولا يكون هذا نسخًا.

فيما يكون النسخ؟

يكون النسخ في الأحكام الشرعية، فهي محل النسخ، ولكن من الأحكام ما يقبل النسخ، ومنها ما لا يقبله.

---

(١) أصول الفقه، د. الشافعي.

فمن الأشياء التي لا تقبل النسخ:

١- الأحكام الأساسية كأصول العقيدة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث والحساب والجنة والنار.

٢- النصوص التي اشتملت على الفضائل التي لا تتغير والرذائل المستقبحة في كلِّ زمان ومكان، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]، فالفضائل التي دعت إليها الآية والرذائل التي نفَّرت منها ليست مما يُنسخ؛ لأن مصلحة العباد في شيوع الفضائل والبُعد عن الرذائل، والدين شُرعت أحكامه لمصلحة الناس؛ فلا يلغى، وينسخ أحكامًا تصلح حالهم وتدرأ المفاسد عنهم.

٣- الأحكام التي وردت نصوص بتأييدها، وإنْ كانت أحكامًا فرعيةً كالجهاد فرض على المؤمنين، لكن حديث المصطفى ﷺ يفيد أن فرضه ثابت لا ينسخ؛ إذ قال: «الْجِهَادُ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[١]. أما الأحكام الفرعية التي لم يرد النص بتأييدها؛ فيمكن نسخها، ويلاحظ أن النسخ لا يكون إلا في حياة الرسول ﷺ، وما لم ينسخ في حياته من نصوص يصير من المحكم.

٤- النصوص التي وردت بقصص الأمم السابقة لا تُنسخ؛ لأن أخبار الله تعالى صادقة ثابتة، فلا يمكن أن يطرأ عليها تغيير.

حالات النسخ:

١- أن يكون الحكم الناسخ خلفًا للحكم المنسوخ، أي: يكون بدلاً منه مثل

---

(١) سبق تخريجه.

حكم الميراث للوالدين والأقربين حل محل الوصية كما بيَّنا آنفًا.

٢- قد ينسخ الحكم الأخير حكمًا، فيبطل العمل به، ولا يحل محله؛ كتحريم المتعة بعد إباحتها، وذلك أن النبي ﷺ في بعض غزواته ترك الناس على ما اعتادوه من الاستمتاع من النساء (بطريق زواج المتعة)، فلما استقرت أحوال المسلمين نهى عنها بقوله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ فِي الِاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا»[1].

٣- وقد يكون الناسخ مساويًا للحكم المنسوخ من الناحية العلمية كنسخ الاتجاه إلى بيت المقدس بالأمر بالاتجاه إلى المسجد الحرام.

٤- وقد يكون الناسخ أيسر من المنسوخ؛ كحل الأكل والاستمتاع في ليالي رمضان بعد العشاء، وقد كان محرمًا قبل أن يأتي الناسخ؛ وهو قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

٥- وقد يكون الناسخ أشق من المنسوخ؛ كتحريم الخمر بعد إباحتها[2].

ما يتم به النسخ:

القاعدة العامة أن الدليل لا ينقضه إلا دليل في قوته أو أقوى منه، وبناءً على ذلك نقول: لا ينسخ النص الدال على الحكم إلا نص يماثله في القوة أو أقوى منه، فنصوص القرآن الكريم يجوز أن ينسخ بعضها بعضًا إذا تساوت في

---

(١) رواه مسلم في «النِّكَاحِ»، باب: «نِكَاحِ الْمُتْعَةِ، وَبَيَانِ أَنَّهُ أُبِيحَ، ثُمَّ نُسِخَ، ثُمَّ أُبِيحَ، ثُمَّ نُسِخَ، وَاسْتَقَرَّ تَحْرِيمُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، ح(١٤٠٦).

(٢) أصول الفقه، د. الشافعي.

الدلالة؛ لأنها في قوة واحدة.

ما ينسخ القرآن:

يجوز نسخ نصوص القرآن بالسُّنة المتواترة لتساويهما في القوة، ولأن القرآن الكريم وحي من الله تعالى، وسُنة النبي ﷺ وحي أيضًا من الله بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، غير أن القرآن متلو، والسُّنة غير متلوة.

وقد صحَّ وقوع نسخ القرآن بالسُّنة المتواترة في قول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٨٠]، ولما شرع المواريث، وبيَّن نصيب كل وارث، قال النبي ﷺ حديثًا نسخ الوصية للوالدين والأقربين الوارثين، ونصه: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ»(١)، وهو حديث متواتر أخذ به الفقهاء، وقال عنه الشافعي في كتاب (الأم): «إنه نقل كافة عن كافة، وهو أقوى من نقل واحد؛ فيصلح أن يكون ناسخًا للقرآن».

وسُنة الآحاد لا يجوز نسخ نصوص القرآن بشيء منها؛ لأنها أقل منها قوة، والأدنى لا ينسخ الأقوى، وهذا هو القول الراجح.

أما السُّنة المشهورة؛ فقد جوَّز بعض الأحناف أن تنسخ القرآن لقُربها من السُّنة المتواترة.

ويرفض الإمام الشافعي نسخ السُّنة للقرآن، وإنْ كانت السُّنة متواترة أو

---

(١) سبق تخريجه.

مشهورة، ولكن مذهب الجمهور أنه لا مانع عقلاً من نسخ القرآن بالسُّنة.

تنبيه مهم:

تعرضنا في كلامنا حول نسخ القرآن إلى النسخ في الشريعة عمومًا، وهذا من باب إدراك معنى النسخ الواسع عن نطاق النسخ في القرآن الكريم فقط.

بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم كله:

سوف نذكر ما تمَّ فيه النسخ في القرآن الكريم كله، إنْ شاء الله، فنقول:

يحدِّد السيوطي -رحمه الله- في (الإتقان) عدد وأماكن النسخ في القرآن الكريم، فيقول:

قَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي الْمَنْسُوخِ مِنْ عَدَدٍ ... وَأَدْخَلُوا فِيهِ آيًا لَيْسَ تَنْحَصِرُ

وَهَاكَ تَحْرِيرُ آيٍ لَا مَزِيدَ لَهَا ... عِشْرِينَ حَرَّرَهَا الْحُذَّاقُ وَالْكُبَرُ

آيُ التَّوَجُّهِ حَيْثُ الْمَرْءِ كَانَ وَأَنْ ... يُوصِيَ لِأَهْلِيهِ عِنْدَ الْمَوْتِ مُحْتَضِرُ

وَحُرْمَةُ الْأَكْلِ بَعْدَ النَّوْمِ مِنْ رَفَثٍ ... وَفِدْيَةٌ لِمُطِيقِ الصَّوْمِ مُشْتَهِرُ

وَحَقُّ تَقْوَاهُ فِيمَا صَحَّ مِنْ أَثَرٍ ... وَفِي الْحَرَامِ قِتَالٌ لِلْأُلَى كَفَرُوا

وَالِاعْتِدَادُ بِحَوْلٍ مَعْ وَصِيَّتِهَا ... وَأَنْ يُدَانَ حَدِيثُ النَّفْسِ وَالْفِكَرُ

وَالْحِلْفُ وَالْحَبْسُ لِلزَّانِي وَتَرْكُ أُولَى ... كَفَرُوا شَهَادَتِهِمْ وَالصَّبْرُ وَالنَّفَرُ

وَمَنْعُ عَقْدٍ لِزَانٍ أَوْ لِزَانِيَةٍ ... وَمَا عَلَى الْمُصْطَفَى فِي الْعَقْدِ مُحْتَظَرُ

وَدَفْعُ مَهْرٍ لِمَنْ جاءتْ وَآية نجواه ... كَــذَاكَ قِيَــامُ اللَّيْــلِ مُسْــتَطَرُ
وَزِيــدَ آيَــةُ الِاسْـتِئْذَانِ مَـنْ مَلَكَـتَ ... وَآيَةُ الْقِسْمَةِ الْفُضْلَى لِمَنْ حَضَرُوا[1]

ويقول الشيخ الشنقيطي -رحمه الله- في شرح تلك الأبيات:

- قولــه: (آيُ التَّوَجُّــهِ) يشــير إلى قولــه تعــالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥] منسوخة على رأي ابن عباس بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

- وقوله: (وَأَنْ يُوصِيَ لِأَهْلِيهِ): أشار به إلى أن آية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة:١٨٠] الآية، منسوخة، قيل: بآية المواريث، وقيل: بحديث «لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ»[2]، وقيل: بالإجماع، حكاه ابن العربي.

- وقولــه: (وَحُرْمَــةُ الْأَكْــلِ بَعْــدَ النَّــوْمِ مِــنْ رَفَــثٍ) يشير إلى أن آية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] المتضمنة حرمة الأكل والجماع بعد النوم، كما في صوم مَن قبلنا منسوخة بآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧].

- وقوله: (وَفِدْيَةٌ لِمُطِيقٍ) يشير إلى أن آية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة:١٨٤] منسوخة بآية: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقيل: محكمة و(لا) مقدرة، ويعني: وعلى الذين لا يطيقونه.

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن، (٣/ ٧٧).
(٢) سبق تخريجه.

- وقوله: (وَحَقِّ تَقْوَاهُ) يشير إلى أن قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] منسوخ بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقيل: محكمة.

- وقوله: (وَفِي الْحَرَامِ قِتَالٌ) يشير إلى أن قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، منسوختان بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] الآية، أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة.

- وقوله: (وَالِاعْتِدَادُ بِحَوْلٍ مَعْ وَصِيَّتِهَا) يعني أن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠] منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

- وقوله: (وَأَنْ يُدَانَ حَدِيثُ النَّفْسِ وَالْفِكَرُ)، يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، منسوخ بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

- وقوله: (وَالْحِلْفُ) أي: المحالفة، يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] الآية.

- وقوله: (وَالْحَبْسُ لِلزَّانِي)، يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: ١٥]، منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

- وقوله: (وَتَرْكُ أُولَي كَفَرُوا)، يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢] منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

- وقوله: (شَهَادَتِهِمْ)، يشير إلى أن قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦]، منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

- وقوله: (وَالصَّبْرُ)، يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، منسوخ بما بعده وهو قوله تعالى: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦].

- وقوله: (وَالنَّفْرُ) يشير إلى أن قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة:٤١] منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢].

- وقوله: (ومنع عقد لزانٍ أو لزانية) يشير إلى قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣]، ومنسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

- وقوله: (وَمَا عَلَى الْمُصْطَفَى فِي الْعَقْدِ مُحْتَظَرٌ) يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ [الأحزاب:٥٢]، منسوخ بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ [الأحزاب:٥٠].

- وقوله: (وَدَفْعُ مَهْرٍ لِمَنْ جاءتْ) يشير إلى أن قوله تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾

[الممتحنة: ١١] منسوخ، قيل: بآيات السيف، وقيل: بآيات الغنيمة.

- وقوله: (وَآية نجواه) يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ [المجادلة: ١٢] منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: ١٢]، وبقوله: ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المجادلة:١٣].

- وقوله: (كَذَاكَ قِيَامُ اللَّيْلِ)، يشير إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٣]، منسوخ بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبقوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، وهذا الناسخ أيضًا منسوخ بالصلوات الخمس.

- وقوله: (وَزِيدَ آيَةُ الِاسْتِئْذَانِ مَنْ مَلَكَتْ) آية الاستئذان: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾ [النور: ٥٨]، والأصح فيها عدم النسخ، لكن تساهل الناس بالعمل بها.

- وقوله[(١)]: (وَآيَةُ الْقِسْمَةِ) يشير إلى قوله تعالى[(٢)]: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ [النساء: ٨]، والصحيح فيها عدم النسخ.

ثم يقول -رحمه الله: «ومثال نسخ الناسخ آخر سورة «المزمل»، فإنه منسوخ بفرض الصلوات الخمس، وقوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]؛ فإنه ناسخ لآية «الكهف» منسوخ بآية

(١) زيادة من عندي ليستقيم الشرح والبيان.
(٢) زيادة من عندي ليستقيم الشرح والبيان.

العذر»[١].

(١) تتمة أضواء البيان للشنقيطي (٩/ ٧٠٠) من عمل الشيخ عطية محمد سالم.

فصل في بلاغة القرآن الكريم

تنوُّع المعنى للفظ الواحد في القرآن الكريم:

القرآن الكريم بديع في تصرُّفه بالألفاظ، فمن عجيب إعجازه البلاغي، الذي تقدَّم الكلام عليه أنه يستخدم الكلمة الواحدة أو اللفظ الواحد أو الحرف الواحد لأكثر من معنى، ومن ذلك:

١ - حرف «أو»:

* يأتي غالبًا للتخيير؛ كقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]، وكقوله تعالى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

* ويكون بمعنى (الواو) العاطفة؛ كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

* وتأتي (أو) أيضًا في القرآن بمعنى (بل)؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧]، وكقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩].

* وتأتي أيضًا وتكون للإبهام؛ كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

٢- لفظ أدني:

* يكون بمعنى أجدر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وفي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء:٣]، وفي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ [المائدة: ١٠٨].

* ويكون بمعنى (أقرب)، وذلك في قوله تعالى: ﴿مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، وفي قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩].

* ويكون بمعنى (أقل)، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

* ويكون بمعنى (دون)، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

٣- الإنزال:

* ويكون بمعنى (الحط من العلو)، وذلك في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨].

* ويكون بمعنى (الخلق)، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [يونس: ٥٩]، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥][1].

---

(١) رغم أن العلم الحديث يشير إلى أن الحديد سقط من السماء؛ لكونه ليس من جنس الأرض.

* ويكـون بمعنـى (القـول)، وذلـك في قولـه تعـالى: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

* ويكون بمعنى (البسط)، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

٤- كلمة (الأرض):

* يراد بها أحيانًا القبر، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢].

* ويراد بها أحيانًا أرض الأردن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

* ويراد بها أحيانًا أرض مكة، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧].

* ويراد بها أحيانًا أرض المدينة، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

* ويراد بها أحيانًا أرض الإسلام، وذلك في قولـه تعـالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣].

* ويراد بها أحيانًا أرض التيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦].

* ويـراد أحيانـا أرض الشـام، وذلـك في قولـه تعـالى: ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

* ويراد بها أحيانًا الأرضون السبع، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

* ويراد بها أحيانًا أرض مصر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥].

* ويراد بها أحيانًا أرض الحِجر، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ [هود: ٦٤].

* ويراد بها أحيانًا القلب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

* ويراد بها أحيانًا الجنة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

* ويراد بها أحيانًا أرض الروم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ٣].

* ويراد بها أحيانًا أرض بني قريظة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

* ويراد بها أحيانًا أرض فارس، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

* ويراد بها أحيانًا أرض المحشر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

٥- كلمة (الأمر):

* ويراد بها أحيانًا النصر، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

* ويراد بها أحيانًا قتل بني قريظة وجلاء بني النضير، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

* ويراد بها أحيانًا الخصب، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

* ويراد بها أحيانًا الذنب، وذلك في قوله تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥].

* ويراد بها أحيانًا المشورة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠].

* ويراد بها أحيانًا قتل كفار مكة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

* ويراد بها أحيانًا فتح مكة، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

* ويراد بها أحيانًا الحذر، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠].

* ويراد بها أحيانًا القضاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣].

* ويراد بها أحيانًا القول، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

* ويراد بها أحيانًا الغرق، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

* ويراد بها أحيانًا العذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

* ويراد بها أحيانًا الشأن، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧].

* ويراد بها أحيانًا يوم القيامة، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

٦- حرف الباء:

وكذلك الباء تأتي، فتنوب عن حروف أخرى فهي:

* تأتي أحيانًا بمعنى (اللام)، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

* وتأتي أحيانًا بمعنى (عند)، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

* وتأتي أحيانًا بمعنى (في)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

* وتأتي بمعنى (بعد)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

* وتأتي بمعنى (على)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

* وتأتي وتكون صلة، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: ٤٣].

* وتأتي بمعنى المصاحبة، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٦١].

* وتأتي بمعنى (إلى)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

* وتأتي سببية، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

* وتأتي بمعنى (عن)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

* وتأتي بمعنى (مع)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩]، أي: مع جنده.

* وتأتي بمعنى (من)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

٧- كلمة (حق):

* تأتي بمعنى الجزم، مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

* وتأتي بمعنى البيان، مثل قوله تعالى: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

* وتأتي بمعنى المال، مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

* وتأتي بمعنى القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

* وتأتي بمعنى الصدق، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

* وتأتي بمعنى العدل، مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

* وتأتي بمعنى الإسلام، مثل قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

* وتأتي بمعنى المنجز، مثل قوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة: ١١١].

* وتأتي بمعنى الحاجة، مثل قوله تعالى: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩].

* وتأتي بمعنى لا إله إلا الله، مثل قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ [الرعد: ١٤].

* وتأتي ويراد بها الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

* وتأتي بمعنى التوحيد، في قوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

* وتأتي بمعنى حظ ونصيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: ٢٤].

٨- كلمة (الخير):

* تأتي بمعنى القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥].

* وتأتي بمعنى المال؛ كقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

* وتأتي ويراد بها الأنفع؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

* وتأتي ويراد بها ضد الشر؛ كقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

* وتأتي بمعنى الإصلاح؛ كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

* وتـأتي بمعنـى الولـد الصـالح؛ كـما في قولـه تعـالى: ﴿وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

* وتأتي بمعنى العافية؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

* وتأتي بمعنى المنافع كلها؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

* وتأتي بمعنى الإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

* وتأتي بمعنى رخص الأسعار؛ كقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

* وتأتي بمعنى النوافل؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

* وتأتي بمعنى الأجر؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦].

* وتأتي بمعنى الأفضل؛ كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

* وتأتي بمعنى العفة؛ كقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

* وتأتي بمعنى الصلاح؛ كقولـه تعـالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ

﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [النور: ٣٣].

* وتأتي بمعنى الطعام؛ كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤].

* وتأتي بمعنى الظفر؛ كقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

* وتأتي بمعنى القوة، كقوله تعالى: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ [الدخان: ٣٧].

* وتأتي بمعنى حُسن الأدب، في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠].

* وتأتي بمعنى الدنيا والمال، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

٩- كلمة (الدِّين):

* تأتي بمعنى الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

* وتأتي بمعنى الإسلام والملة، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

* وتأتي بمعنى العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦].

* وتأتي بمعنى الطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [التوبة: ٢٩].

* وتأتي بمعنى التوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف:٢٩].

* وتأتي بمعنى الحكم، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦].

* وتأتي بمعنى الحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢].

* وتأتي بمعنى الحساب، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

* وتأتي بمعنى العبادة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجرات: ١٦].

* وتأتي بمعنى الملة، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

١٠- كلمة (الذكر):

* تأتي بمعنى ذكر اللسان، كما في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

* وتأتي بمعنى الحفظ، كما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٦٣].

* وتأتي بمعنى الطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

* وتأتي بمعنى الصلوات الخمس، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

* وتأتي بمعنى تذكر القلب، كما في قوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

* وتأتي بمعنى البيان، كما في قوله تعالى: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

* وتأتي بمعنى الخبر، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣].

* وتأتي بمعنى التوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

* وتأتي بمعنى القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢].

* وتأتي بمعنى الشرف، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

* وتأتي بمعنى العيب، كما في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

* وتأتي بمعنى صلاة العصر، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ

عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [ص: ٣٢].

* وتأتي بمعنى صلاة الجمعة، كما في قوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة: ٩].

١١- كلمة (الروح):

* تأتي كلمة الروح بمعنى جبريل ، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

* وتأتي بمعنى الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١].

* وتأتي بمعنى الريح، كما في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١].

* وتأتي بمعنى روح الحيوان، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

* وتأتي بمعنى الحياة، كما في قوله تعالى: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٩]، على قراءة من قرأ بالضم.

١٢- كلمة (الصلاة):

* تأتي كملة الصلاة أحيانًا بمعنى الدعاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

* وتأتي بمعنى الصلوات الخمس المعروفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣].

* وتأتي بمعنى صلاة الجنازة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة: ٨٤].

* وتأتي بمعنى الدين، كما في قوله تعالى: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ [هود: ٨٧].

* وتأتي بمعنى القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ١١٠].

* وتأتي بمعنى موضع الصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠].

* وتأتي بمعنى المغفرة والاستغفار، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

* وتأتي بمعنى صلاة الجمعة فقط، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة: ٩].

١٣- حرف (عن):

* يأتي بمعنى (من)، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٤].

* ويأتي بمعنى (الباء)، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ٥٣].

* ويأتي بمعنى (على)، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [محمد: ٣٨].

* ويأتي بمعنى (بعد)، كما في قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩].

* ويأتي بمعنى الصلة، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١].

١٤- كلمة (الفتنة):

* تأتي كلمة فتنة أحيانًا بمعنى الشِّرك، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

* وتأتي بمعنى القتل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء:١٠١].

* وتأتي بمعنى المعذرة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

* وتأتي بمعنى الضلال، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١].

* وتأتي بمعنى القضاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

* وتأتي بمعنى الإثم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

* ويراد بها المرض، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

* وتأتي بمعنى العبرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

* وتأتي بمعنى العقوبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

* وتأتي بمعنى الاختبار، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

* وتأتي بمعنى العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

* وتأتي بمعنى الإحراق، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣].

* وتأتي بمعنى الجنون، كما في قوله تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦].

١٥- حرف (في):

* يأتي بمعنى الظرفية، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

* وتأتي بمعنى (نحو)، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

* وتأتي بمعنى (الباء)، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠].

* وتأتي بمعنى (إلى)، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

* وتأتي بمعنى (مع)، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

* وتأتي بمعنى (عند)، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١].

* وتأتي بمعنى (عن) كما في قوله تعالى: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١].

* وتأتي بمعنى (على) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

* وتأتي بمعنى (اللام) كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨].

* وتأتي بمعنى (من) كما في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

١٦- كلمة (القرية):

* تأتي كلمة (قرية) بمعنى مصر، كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢].

* وتأتي بمعنى (أريحاء)، كما في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨].

* وتأتي بمعنى (إيليا)، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

* وتأتي بمعنى (مكة -شرَّفها الله)، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢].

* وتأتي بمعنى مكة والطائف، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

* وتأتي بمعنى جميع البلاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

* وتأتي بمعنى قرية لوط عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠].

* وتأتي بمعنى إنطاكية، كما في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣].

١٧ - كلمة (كان):

* يأتي الفعل بمعنى وجد، في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

* ويأتي بمعنى الماضي، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [آل عمران: ٩٣].

* ويأتي بمعنى ينبغي، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَٰبَ

وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

* ويأتي صلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦].

* ويأتي بمعنى (هو)، كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

* ويأتي بمعنى صار، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦].

١٨ - لفظ (كلا):

تأتي (كلا) في القرآن الكريم بمعنيين:

الأول: بمعنى (لا). **والثاني**: بمعنى (حقًّا).

فأما التي بمعنى (لا)، فقد جاءت (١٤) مرة، ويحسن الوقوف عليها.

وأما التي بمعنى (حقًّا)، فقد جاءت (١٩) مرة، ولا يحسن الوقوف عليها. فجملة ورود كلمة (كلا) في القرآن (٣٣) مرة، وليس في النصف الأول منه شيء منها، وأول (كلا) في القرآن التي في سورة «مريم» في قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا﴾ [مريم: ٧٨ - ٧٩].

فالتي بمعنى (لا) هي:

* ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا﴾ [مريم: ٧٨ - ٧٩]، ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢] في سورة «مريم».

* ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] في سورة «المؤمنون».

* ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٤-١٥]، في سورة «الشعراء»، وفيها أيضًا: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

* ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سبأ: ٢٧]، في سورة «سبأ».

* ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ [المعارج: ١٤-١٥]، في سورة «المعارج».

* ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١٥-١٦]، ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ [المدثر:٥٢-٥٣]، في سورة «المدثر».

* ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١٠-١١]، في سورة «القيامة».

* ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففون: ١٣-١٤]، في سورة «المطففين».

* ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٦-١٧]، في سورة «الفجر».

* ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ٣-٤]، في سورة «الهمزة».

والتي بمعنى (حقًا) هي:

* ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢]، في سورة «المدثر».

* ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١]، في سورة «المدثر».

* ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦]، في سورة «القيامة».

* ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤ - ٥]، في سورة «النبأ».

* ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١]، في سورة «عبس».

* ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣]، في سورة «عبس».

* ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]، في سورة «الانفطار».

* ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففون: ٧]، في سورة «المطففين».

* ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففون: ١٥]، في سورة «المطففين».

* ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففون: ١٨]، في سورة «المطففين».

* ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١]، في سورة «الفجر».

* ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ [العلق: ٦]، في سورة «العلق».

* ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥]، في سورة «العلق».

* ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]، في سورة «العلق».

* ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣]، في سورة «التكاثر».

* ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٤]، في سورة «التكاثر».

* ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] في سورة «التكاثر».

١٩ - كلمة (لولا):

تأتي كلمة (لولا) في القرآن بمعنيين:

الأول: يفيد امتناع شيء لوجود آخر، وأتت في القرآن بهذا المعنى ثلاثين مرة.

والثاني: بمعنى (هلّا)، وأتت في القرآن بهذا المعنى أربعين مرة.

فأما التي أتت بمعنى إفادة الامتناع لوجود شيء فهي:

* في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة:٦٤]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، في سورة «البقرة».

* وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، في سورة «النساء».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٨]، في سورة «الأنفال».

* وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في سورة «يونس»، و«هود»، و«طه»، و«الشورى».

* وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ [الحج: ٤٠]، في سورة «الحج».

* وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، سورة «النور» ثلاث مرات.

* وفي قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان:٤٢]، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]، في سورة «الفرقان».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:١٠]، وفي قوله: ﴿لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢]، في سورة «القصص».

* وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، في سورة «العنكبوت».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١]، في سورة «سبأ».

* وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧]، وفي قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣]، في سورة «الصافات».

* وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٢١]، في سورة «الشورى».

* وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الزخرف: ٣٣]، في سورة «الزخرف».

* وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ [الفتح: ٢٥]، في سورة «الفتح».

* وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: ٣]، في سورة «الحشر».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩]، في سورة القلم.

وأما التي بمعنى (هلا) فهي:

* في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨]، في سورة «البقرة».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧]، في سورة «النساء».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣]، في سورة «المائدة».

* وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، و﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الأنعام: ٣٧]، و﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣] في سورة «الأنعام».

* وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، في سورة «الأعراف».

* وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، و﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ [يونس: ٩٨]، في سورة «يونس».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ [هود: ١١٦]، في سورة «هود».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، في سورة «الرعد».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: ١٥]، في سورة «الكهف».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، في سورة «طه».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، في سورة «النور».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، و﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، و﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، في سورة «الفرقان».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦]، في سورة «النمل».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [القصص: ٤٧]، ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٤٨]، في سورة «القصص».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، في سورة «العنكبوت».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]، في سورة «فصلت».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣] في سورة «الزخرف».

* وفي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، في سورة «الأحقاف».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ [محمد: ٢٠]، في سورة «محمد ﷺ».

* وفي قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]، و﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]، و﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠]، و﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]، و﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦]، في سورة «الواقعة».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، في سورة «المجادلة».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠]، في سورة «المنافقون».

* وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨]، في سورة «القلم».

٢٠- حرف (مِنْ):

* يأتي حرف (من) أحيانًا، فيكون صلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

* ويأتي بمعنى التبعيض، كما في قوله: ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة:٢٦٧].

* ويأتي بمعنى (عن)، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

* ويأتي بمعنى (الباء)، كما في قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

* ويأتي بمعنى (على)، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٧].

* ويأتي لبيان الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١].

* ويأت بمعنى (في)، كما في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠].

٢١- كلمة (الهدى):

* تأتي كلمة (الهدى) أحيانًا بمعنى البيان، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

* وتأتي بمعنى الثبات، كما في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

* وتأتي بمعنى الرسول، كما في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

* وتأتي بمعنى السُّنة، كما في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

* وتأتي بمعنى الإصلاح، كما في قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

* وتأتي بمعنى الدعاء، كما في قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

* وتأتي بمعنى القرآن، كما في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ [الإسراء: ٩٤].

* وتأتي بمعنى الإلهام، كما في قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

* وتأتي بمعنى التوحيد، كما في قوله: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ﴾ [القصص: ٥٧].

* وتأتي بمعنى التوراة، كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [غافر: ٥٣].

وغيرها كثير في كتاب الله -تبارك وتعالى.

ونكتفي بما تقدَّم إشارة إلى باقيه في الكتاب الكريم، ولكن هناك تنبيهًا ينبغي أن يتنبه له كل قارئ؛ ألا وهو أن كل ما تقدَّم تحت بند: (تنوُّع المعنى للفظ واحد في القرآن الكريم) مستفاد من كتاب (المدهش) لابن الجوزي -رحمه الله تعالى، ولا ننسى ما عند ابن الجوزي -رحمه الله- من هفوات بسيطة في بعض أمور العقيدة، ولذلك كان يرى تفسيرات لبعض ألفاظ القرآن الكريم وفق مذهبه؛ فتنبه لهذا.

ثم إنَّ لبعض ما ذكرنا من ألفاظ وحروف، قد يكون لها تفسيرات أخرى كثيرة، ولكن ما ذكرناه إنما هو تفسير ابن الجوزي -رحمه الله تعالى، فليس ما تقدَّم في معنى أي حرف أو كلمة هو نهاية المطاف، والله تعالى أعلم.

* * *

فصل خاص لحفظة القرآن الكريم

١- المتشابه لفظًا في القرآن الكريم:

من العقبات التي تقابل كلَّ حافظ للقرآن الكريم؛ الآيات المتشابهات في الألفاظ، والتي بينها فروق بسيطة تحتاج إلى فطنة وحُسن حفظ وسرعة بديهة، وهذا الفصل يذلل -إنْ شاء الله- أمام حفظة القرآن الكريم تلك العقبات.

* قال الله تعالى في سورة «البقرة»: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال في سورة «فصلت»: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].

* وقال الله تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال في «الأعراف»: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩].

* وقال الله تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقال في «الأعراف»: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

* وقال الله تعالى في سورة «البقرة»: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]، وقال في «الأعراف»: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

* وقال الله تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾

[البقرة: ١٢٠]، وقال في «الرعد»: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

* وقال الله تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال في «الحج»: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

* وقال الله تعالى في سورة «البقرة»: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة:١٣٦]، وقال في «آل عمران»: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [آل عمران:٨٤].

* وقال الله تعالى في سورة «البقرة»: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣]، وقال في «المائدة»: ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة:١٠٤].

* وقال الله تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، وقال في «الحديد»: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

* وقال الله تعالى في سورة «النساء»: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وقال في «الأعراف»: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

* وقال الله تعالى في سورة «النساء»: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ [النساء: ١٤٩]، وقال في «الأحزاب»: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٤].

* وقال الله تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال في «الإسراء»: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

* وقال الله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، وقال في «طه»: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧].

* وقال الله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١]، وقال في «الشعراء»: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦].

* وقال الله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤]، وقال في «طه»: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

* وقال الله تعالى في سورة «التوبة»: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقال في «الصف»: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الصف: ٨].

* وقال الله تعالى في سورة «يونس»: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: ٩٠]، وقال في «طه»: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ [طه: ٧٨].

* وقال الله تعالى في سورة «هود»: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]، وقال في «الحجر»: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

* وقال الله تعالى في سورة «الحجر»: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: ١١]، وقال في «الزخرف»: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦].

* وقال الله تعالى في سورة «الحجر»: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر:١٢]، وقال في «الشعراء»: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٠].

* وقال الله تعالى في سورة «الكهف»: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، وقال في «فصلت»: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

* وقال الله تعالى في سورة «الكهف»: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال في «السجدة»: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢].

* وقال الله تعالى في سورة «طه»: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: ٥٣]، وقال في «الزخرف»: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

* وقال الله تعالى في سورة «الأنبياء»: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٧٠]، وقال في «الصافات»: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات:٩٨].

* وقال الله تعالى في سورة «الأنبياء»: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣]، وقال في «المؤمنون»: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

* وقال الله تعالى في سورة «النمل»: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال في «الزمر»: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

* وقال الله في سورة «القصص»: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا

عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص: ٦٠]، وقال في «الشورى»: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورى: ٣٦].

* وقال الله تعالى في سورة «العنكبوت»: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، وقال في «القمر»: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٥].

* وقال الله تعالى في سورة «فصلت»: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ [فصلت: ٥٢]، وقال في «الأحقاف»: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ [الأحقاف: ١٠].

* وقال الله تعالى في سورة «المدثر»: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴾ [المدثر: ٥٤]، وقال في «عبس»: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس: ١١][(١)].

وهذا آخر ما تيسر جمعه من التشابه في آيات القرآن العظيم، وثمة آيات أخرى فيها تشابه؛ كقوله تعالى في سورة «الإسراء»: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال في «الكهف»: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]، وكقوله تعالى في سورة «الإسراء» أيضًا: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٦]، وقال في «الكهف»: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٥٧].

---

(١) مستفاد من (المدهش) لابن الجوزي -رحمه الله.

وغيرها كثيرٌ في كتاب الله.

٢- المقدم والمؤخر في الألفاظ:

* قال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقال في «الأعراف»: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:١٦١].

* وقال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وقال في «الحج»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

* وقال تعالى في سورتي «البقرة» و«الأنعام»: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال في «آل عمران»: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٣].

* وقال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال في «الحج»: ﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

* وقال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقال في باقي القرآن: ﴿لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام:١٤٥].

* وقال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقال في «إبراهيم»: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم:١٨].

* وقال تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال في «الأنفال»: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

* وقال تعالى في سورة «النساء»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وفي «المائدة»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

* وقال تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وفي «غافر»: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢].

* وقال تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وفي «الإسراء»: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

* وقال تعالى في سورة «النحل»: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤]، وفي «فاطر»: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢].

* وقال تعالى في سورة «الإسراء»: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١]، وفي «الكهف»: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

* وقال تعالى في سورة «الإسراء»: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦]، وفي «العنكبوت»: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

* وقال تعالى في سورة «المؤمنون»: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٣]، وقال في سورة «النمل»: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨].

* وقال تعالى في سورة «القصص»: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]، وفي «يس»: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠].

٣- آيات بينها اختلاف في زيادة حرف أو نقصه:

* قال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي «يونس»: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨].

* قال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وفي «ص»: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧٤].

* وقال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وفي «طه»: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

* وقال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩]، وفي «الأعراف»: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٤١].

* وقال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، وفي «إبراهيم»: ﴿إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦].

* وقال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، وفي «الأعراف»: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ [الأعراف: ١٦١].

* وقال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]، وفي «الأعراف»: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١].

* وقال تعالى في «البقرة»: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]، وفي «الأعراف»: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢].

* وقال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣]، وفي «النساء»:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦].

* وقال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وفي «آل عمران»: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٤].

* وقال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال في «الأنفال»: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

* وقال تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [آل عمران: ٩٩]، وقال في «الأعراف»: ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦].

* وقال تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وفي «الأنفال»: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠].

* وقال تعالى في سورة «النساء»: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، وقال في «الإسراء»: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

* وقال تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]، وقال في باقي القرآن: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

* وقال تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وفي «هود»: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١].

* وقال تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠]، وفي «الشعراء»: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

* وقال تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤]، وفي «الشعراء»: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢].

* وقال تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وفي «طه»: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

* وقال تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وفي «طه»: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ [طه: ٩٤].

* وقال تعالى في سورة «التوبة»: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٣٩]، وفي «هود»: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ [هود: ٥٧].

* وقال تعالى في سورة «هود»: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، وفي «العنكبوت»: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [العنكبوت: ٣٣].

* وقال تعالى في سورة «يوسف»: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف:٢٢]، وفي «القصص»: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص:١٤].

* وقال تعالى في سورة «النحل»: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠]، وفي «الحجر»: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

* وقال تعالى في سورة «النحل»: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢]، وفي «العنكبوت»: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت:٦٧].

* وقال تعالى في سورة «الحج»: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢]، وفي «السجدة»: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

* وقال تعالى في سورة «الحج»: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وفي «لقمان»: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

* وقال تعالى في سورة «الشعراء»: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء:٧٠]، وفي «الصافات»: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٨٥].

* وقال تعالى في سورة «الرعد»: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وفي «العنكبوت»: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

* وقال تعالى في سورة «النازعات»: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ [النازعات:٣٥]، وفي «الفجر»: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

حول القراءات الشاذة

أولاً: تعريفها:

وهي قراءات رواها بعض الصحابة؛ كقراءة عبد الله بن مسعود ﷺ في آية كفارة اليمين وهي: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، والقراءة المتواترة هي: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، فزاد عبد الله ﷺ كلمة: (متتابعات).

وكقراءته ﷺ في نفقة الوالدات: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] (ذي الرحم المحرم) ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ بزيادة (ذي الرحم المحرم) على النص المتواتر.

هل يصح الاحتجاج بالقراءات الشاذة؟

جعلها الأحناف ملحقة بالسُّنة، فيصح الاحتجاج بها، واستنباط الأحكام منها، وقالوا: لا يقرأ صحابي عدل كعبد الله بن مسعود شيئًا، ولا يثبته في مصحفه إلا إذا كان قد سمعه عن النبي ﷺ، ويظن أن ما ألحق بالنص من زيادة كان من كلام رسول الله ﷺ بيانًا للمعنى، وتحديدًا للمراد من الآية.

وقال مخالفوهم من المالكية والحنابلة وبعض الشافعية الذين يرفضون الاحتجاج بغير المتواتر[1]، وجعله أساسًا للأحكام.

(١) القرآن الكريم؛ إذ كله متواتر النقل.

* أن غير المتواتر ليس قرآنًا باتفاق العلماء، ولا يمكن أن نعده سُنة؛ لأن راويه لم يروه على أنه سُنة، وإذا انتفى من غير المتواتر أنه قرآن أو سُنة؛ فلا يصح الاحتجاج به ولا لاستنباط الأحكام منه.

* إنَّ الأحناف اعتمدوا على قراءة ابن مسعود في آية الكفارة، واشترطوا في كفارة اليمين أن يكون الصوم ثلاثة أيام متتابعات، فقيَّدوا الصوم المطلق في الآية بالتتابع عملاً بكلمة متتابعات التي زادها ابن مسعود ﷺ.

* ولكن الجمهور أبقوا الصوم على إطلاقه، ولم يشترطوا التتابع، فإنْ شاء الحانث صام الأيام الثلاثة متتابعة أو متفرقة.

* وينبغي أن نعلم أن غير المتواتر لا يسمَّى (قرآنًا) بإجماع العلماء.

* لذلك لا تصح الصلاة بقراءته، ولا يُحكم بكفر مَن قال أنه ليس قرآنًا[1].

تاريخ القرآن الكريم

نزول القرآن الكريم:

شاء الله تعالى ألا ينزل القرآن جملة واحدة، لتستعد القوى الإنسانية، لتلقي هذا القبس الإلهي، وتقوى على وعيه وفهمه، ولتتيسر كتابته وحفظه[2]، ولهذا نزل القرآن منجمًا بحسب الوقائع والمناسبات خلال ثلاث وعشرين سنة، يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

---

(١) أصول الفقه: د. أحمد الشافعي.

(٢) المصدر السابق.

كيفية النزول:

* نزل القرآن الكريم أولاً إلى اللوح المحفوظ بكيفية لا نعلمها، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

ومعنى إنزاله في اللوح المحفوظ إثباته فيه، وحِكمة هذا الإنزال ترجع إلى الحكمة من وجود اللوح المحفوظ نفسه، فإنه السجل الجامع لما كان وما سيكون إلى يوم القيامة.

* ثم نزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة واحدة في ليلة مباركة هي ليلة القدر، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وليلة القدر من ليالي شهر رمضان كما هو معلوم، فهذا الآيات الثلاث تدل بمجموعها أن هذا القرآن العظيم قد نزل غير منجم مما يدل على أنه نوع آخر من أنواع التنزيلات غير النوع الذي أنزل على محمد ﷺ[١].

وإنما قلنا ذلك جمعًا بين هذه النصوص في العمل بها ودفعًا للتعارُض فيما بينها، ومعلوم بالأدلة القاطعة -كما سيأتي- أن القرآن أنزل على النبي ﷺ مفرقًا لا في ليلة واحدة، بل على مدى سنين عَددًا- فتعيَّن أن يكون هذا النزول الذي نوَّهت به هذه الآيات الثلاث نزولاً آخر غير النزول على النبي ﷺ.

أخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: «فُصِلَ الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ (أي: من اللوح المحفوظ)، فَوُضِعَ فِي

(١) علوم القرآن أصولاً ومنهجًا، د. محمد بكر إسماعيل (بتصرف) نشره بمجلة «التوحيد».

بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَجَعَلَ جِبْرِيلُ ﷺ يُنْزِلُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَيُرَتِّلُهُ تَرْتِيلاً»(١).

ورويت روايات أخرى كثيرة عن ابن عباس في هذا الشأن، يرى بعض أهل العلم أن لها حكم المرفوع؛ لأنها أمور غيبية لا مجال للرأي فيها.

* والمرحلة الثالثة هي نزوله من بيت العزة على قلب النبي ﷺ حسب الحوادث والأحوال، وعلى حسب ما تتطلبه الحاجة في وقتها، والذي يجب الجزم به أن جبريل ﷺ نزل بألفاظ القرآن المعجزة من أول «الفاتحة» إلى آخر سورة «الناس»، وتلك الألفاظ هي كلام الله وحده، لا دخل لجبريل ﷺ ولا لمحمد ﷺ في إنشائها ولا في ترتيبها، فالألفاظ التي نقرؤها ونكتبها هي من عند الله، وليس لجبريل ﷺ في هذا القرآن سوى حكايته للرسول ﷺ، وليس للرسول ﷺ سوى وعيه وحفظه وتبليغه، ثم بيانه وتفسيره ثم تطبيقه وتنفيذه.

وقد تلقاه النبي ﷺ عن الله بواسطة جبريل ﷺ بقلبه؛ إذ هو المالك لجميع جوارحه به يسمع وبه يعقل وبه يبصر، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]، وقد قال: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ للدلالة على أن ما نزل عليه محفوظ بعناية الله، وأن الرسول ﷺ متمكن من تلقيه واستيعابه حفظًا وفهمًا.

هذا؛ وقد كان الوحي ينزل على قلب النبي ﷺ بكيفيات مختلفة، ويلقي إليه

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين»، (٢/ ٢٤٢)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»، ووافقه الذهبي.

القرآن فيسمعه بأذنيه، والناس من حوله لا يسمعون شيئًا(١).

حفظه في الصدور:

كان جبريل عليه السلام إذا نزل بآية أو سورة على النبي ﷺ وسُري عنه ما كان يجده عند الوحي سارع الرسول ﷺ إلى القراءة مع جبريل عليه السلام حرصًا على حفظ ما يوحى إليه، وخشية أن يفلت منه شيء، فنهاه الله عن هذا التسرُّع، وعلَّمه كيف يتلقى القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ووعده ﷺ بأن يجمعه في قلبه ويبيِّن له معانيه، فقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

فكان النبي ﷺ يستمع لجبريل عليه السلام، ثم يقرأه عليه كما أقرأه، ثم يبلِّغه من حضر من أصحابه، ثم يستحفظهم إياه، فكانوا يتنافسون في حفظه، ثم يتلون أمام الرسول ﷺ ما حفظه ليثبتوا من حفظه على نحو ما سمعوا منه ﷺ، وكان ذلك من أعظم ما يتقربون به إلى ربهم، وكانوا يعلِّمون مَن لم يشهدوا النزول من إخوانهم، وكان النبي ﷺ يغريهم بتعليم القرآن بقوله: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(٢)، ولهذا حفظ القرآنَ كثيرٌ من الصحابة -رضوان الله عليهم(٣).

كتابة القرآن وجمعه:

لم يكن الرسول ﷺ يكتفي بحفظ أصحابه ما يوحي إليه من القرآن، بل

---

(١) علوم القرآن أصولاً ومنهجًا، د. محمد بكر إسماعيل (بتصرف) نشره بمجلة «التوحيد».
(٢) رواه البخاري في «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ»، باب: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»، ح(٥٠٢٧).
(٣) أصول الفقه: د. الشافعي.

كان يأمر كُتَّاب الوحي بكتابة ما ينزل وقت نزوله؛ مبالغةً في التوثيق والضبط، وحرصًا على تسجيله حتى لا يضيع منه شيء.

وكان هؤلاء الكُتَّاب من أعلام الصحابة وخيرتهم؛ منهم: زيد بن ثابت، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب ﷺ جميعًا، وغيرهم، وكانوا يكتبون ما يمليه عليهم في الرقاع وعلى عسف النخل واللخاف وغيرها، ثم يوضع ما كُتب في بيت رسول الله ﷺ.

وقد ثبت أنه ﷺ عرض القرآن بعد تمامه عرضتين على جبريل ﷺ في آخر رمضان من حياته، ثم قرأه الرسول ﷺ على أصحابه بعد ذلك، محفوظًا مرتبًا، بحسب العرضة الأخيرة، وعلى الترتيب الذي نعرفه الآن، أي أنه ﷺ لم ينتقل إلى جوار ربه حتى كان القرآن كله محفوظًا في صدور عدد كبير من أصحابه؛ منهم مَن يحفظه كله، ومنهم مَن يحفظ بعضه، لكن الألواح التي كتب عليها لم تكن مجموعة بين دفتين في مصحف واحد، وإنما حدث ذلك بعدُ.

إذن؛ كان القرآن مكتوبًا في الرقاع وغيرها في حياته ﷺ، لكنه كان مفرقًا غير مجموع في مصحف واحد، ولا مكان واحد، حتى لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، وإنما جمع في خلافة أبي بكر ﷺ بعد معركة اليمامة سنة (١٢) هجرية، التي نشبت بين المسلمين والمرتدين عن الإسلام أتباع مسيلمة الكذاب، وقتل فيها عدد كبير من القراء والحافظين لكتاب الله، فخيف أن يضيع القرآن بموت حملته شهداء في سبيل الله.

وقام بجمع القرآن: زيد بن ثابت ﷺ، يعاونه بعض أصحابه، فكتبوا القرآن سوره وآياته على الترتيب والضبط اللذين تلقوهما عن رسول الله ﷺ، وبهذا

حفظ القرآن وجمعت أصوله في مكان واحد عند أبي بكر ﷺ، فلما توفي كان عند عمر ﷺ من بعده، ثم وضع عند أم المؤمنين حفصة -رضي الله عنها، بوصية عمر، وبقيت هذه الصحف عندها إلى أن توفيت سنة (٤٥هـ).

ما فعله عثمان ﷺ:

قلنا: إنَّ الصحف التي كُتب فيها القرآن كانت عند حفصة بعد وفاة أبيها - رضي الله عنهما، فلما كان عثمان ﷺ، أشار عليه بعض الصحابة أن يكتب للناس مصاحف، ويرسلها إلى الآفاق التي انتشر فيها الإسلام، ليجتمع الناس على مصحف واحد، حتى لا يقع في القرآن زيادة ولا نقص، ولا تبديل في آياته، ولا تغيير في ترتيبه، فأرسل عثمان إلى حفصة -رضي الله عنها- أن أرسلي إلينا الصحف؛ ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليكِ، فأرسلت بها إليه، فعهد بنسخها في المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحُفاظ، وهم زيد بن ثابت، وهو أحد الجامعين للقرآن في عهد أبي بكر كما قدَّمنا، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث، فنسخوها في المصاحف، ثم ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة -رضي الله عنها، وأرسل إلى كل قُطر من أقطار الإسلام مصحفًا؛ فأرسل إلى مكة، والكوفة، والبصرة، ودمشق، وأبقى بالمدينة مصحفًا، وأمر بإحراق ما عداها من المصاحف، وصار الناس يقرءون على مصحف واحد هو مصحف عثمان، ويكتبون منه مصاحفهم، وتتابعوا على ذلك حتى يومنا هذا.

وقد اشتهر ما كتب بأمر عثمان المصحف (الإمام) أو (مصحف عثمان)، وهو المعروف الآن بـ(المصحف العثماني)، نسبة إلى عثمان ﷺ.

تنبيه:

المصاحف التي أمر عثمان ﷺ بإحراقها، مصاحف فردية، كان بعض الصحابة كتبوها لأنفسهم، ولم يلتزموا في كتابتها توالي السور وترتيبها، كما كان بعضها غير مشتمل على القرآن كله، فكان في بعضها ما ليس في البعض الآخر(١).

والذي فعله عثمان ﷺ، واجتهاد مصيب فيه، إنْ شاء الله، لجمع كلمة الأمة ولمنع التنازُع في كتاب الله، ولقد كان من مزاعم القوم الذين خرجوا على عثمان ﷺ بحجج واهية، هذا الزعم؛ بأنه حرق المصاحف، ولا يدرون أن في فعله هذا خير كبير للأمة كلها، ولذلك ردَّ عليٌّ ﷺ على هذا الزعم بقوله: «وأما المصاحف؛ فإنما حرق ما وقع فيه اختلاف، وأبقى لهم المتفق عليه، كما ثبت في العرضة الأخيرة من رسول الله ﷺ»(٢).

تطوير المصحف:

كان المصحف الذي كُتب بأمر عثمان ﷺ غير مشكول ولا منقوط؛ إذ لم تكن حاجة تدعو في هذا الوقت إلى ذلك، إلا أنه حين اختلط العرب بالفرس، وغيرهم وطرأ فساد على المَلَكة العربية، وفشا اللحن على الألسنة، وخيف على القرآن أن يشيع اللحن في قراءته ظهرت الحاجة إلى النقط والشكل، وكان أول مَن فعل ذلك (أبو الأسود الدؤلي) قاضي البصرة؛ إذ وضع علامات تضبط أواخر الكلمات(٣)، ثم جاء بعده (نصر بن عاصم الليثي)، فوضع نقطًا على

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تصحيح الأفهام: ربيع الزواوي، ص(٢٨).

(٣) قيل: إن ذلك كان بأمر من علي بن أبي طالب ﷺ.

الحروف المتشابهة، لتميز بعضها عن بعض، ثم قام (الخليل بن أحمد) في العصر العباسي سنة (١٧٠هـ) بوضع علامات التشكيل المعروفة لنا الآن، ثم عنى الحُفَّاظ والقُرَّاء من بعد ذلك بوضع أحكام التجويد والقراءات[١].

تاريخ تفسير القرآن الكريم

لم يصل تفسير القرآن الكريم إلى هذا المستوى العظيم الذي بين أيدينا هذه الأيام، في لمح البصر، إنما مرَّ بمراحل طويلة من الدراسة والعناية حتى وصل إلى هذا المستوى، ولقد بدأ تفسير القرآن منذ زمن النبي ﷺ، فكان ﷺ هو المفسِّر الأول للقرآن العظيم، كيف لا وقد قال الله تعالى له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، ثم كان تفسير الصحابة ثم التابعين ثم تابعيهم، وهكذا حتى صُنفت فيه المراجع والتفاسير المطولة ودون ذلك.

ولما كان تفسير القرآن الكريم هو الأساس من علوم الشرع؛ إذ به يعرف مراد الله تعالى من كتابه الكريم، ويعرف كذلك معاني ما تعبدنا الله بتلاوته بالليل والنهار، سِرًّا وجهرًا، فقد كانت العناية به عظيمة؛ حيث عُني العلماء بالقرآن حفظًا ودراسةً وتفسيرًا، وحتى وصل علم التفسير إلى هذا المستوى المشرِّف الموجود بين أيدينا الآن، وسيظل تراثًا خالدًا ما بقي الزمان.

ووضع العلماء قواعد وضوابط وحدودًا ومناهج للتفسير، تناقلوها وساروا على هديها عند تفسيرهم لكتاب ربهم، وسنتعرض هنا لشيء من ذكر تلك القواعد، إنْ شاء الله تعالى:

---

(١) أصول الفقه: د. أحمد الشافعي.

أولاً: لا بدَّ أن نعلم أن النبي ﷺ بيَّن لأصحابه تفسير القرآن ومعانيه، كما بيَّن لهم ألفاظه ومبانيه، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ولقد حدَّث المحدث عن حال الصحابة ﷺ مع القرآن فقال: «إنهم كانوا إذا تعلَّموا عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلَّموا ما فيها من العلم والعمل..»، ثم يقول: «فتعلَّمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا»(١)؛ فهذا الأثر يدل على أنهم كانوا يتعلَّمون ما في القرآن من العلم والعمل، وهذا يعني أنهم كانوا يتعلمون تفسير القرآن، وبطبيعة الحال كان ذلك على يد النبي ﷺ.

ثانيًا: معنى التفسير

التفسير علم يُعرف به فهم كتاب الله تعالى المنزل على نبيِّه ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والصرف، وعلم البيان، وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ(٢).

ثالثًا: بيان أقسام التفسير:

ينقسم التفسير إلى أربعة أقسام هي:

١- تفسير باعتبار معرفة الناس له، وهذا بدوره ينقسم إلى:

أ- تفسير تعرفه العرب من كلامها.

ب- تفسير لا يعذر أحد بجهالته.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية، (١٣/ ٣٣١).

(٢) مقدمة تفسير النسائي.

ج- تفسير يعلمه العلماء.

د- تفسير لا يعلمه إلا الله.

٢- تفسير باعتبار العناية باللفظ والمعنى، وينقسم إلى قسمين:

أ- تفسير لفظي.

ب- تفسير معنوي.

٣- تفسير باعتبار مذاهب التفسير، وينقسم أيضًا إلى قسمين:

أ- تفسير بالمأثور.

ب- تفسير بالرأي.

٤- تفسير باعتبار جوازه، وينقسم إلى قسمين:

أ- تفسير جائز.

ب- تفسير غير جائز (وهو ما كان بالهوى، ويحمِّل الآيات أكثر مما تتحمل)[1].

رابعًا: نشأة علم التفسير وتطوُّره:

١- التفسير على عهد النبي ﷺ:

* كان الرسول ﷺ هو مهبط الوحي، ومبلغ الرسالة، فقد فهمه ﷺ، جملةً وتفصيلاً، فكان ﷺ هو المرجع الوحيد لشرح معانيه واستنباط أحكامه، وقام ﷺ بالأمر خير قيام، وبلغ الرسالة وأدَّى الواجب.

---

(١) المصدر السابق.

* كان ﷺ إذا نزلت عليه آية بادر أحيانًا بتوضيح ما خفي منها؛ مثل لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، قال: «عدلاً».

ب- كانت سيرته ﷺ في حياته، وعبادته تفسيرًا لما حمله القرآن، ففسّر الصلاة بعمله، وقال: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[(١)]، وفسّر الحج بعمله ﷺ، وقال: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»[(٢)]، وكذلك بهذه الطريقة فسّر الجهاد والأحكام حتى الآيات المتعلقة بالأخلاق، «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»[(٣)].

ج- كان السائل يأتيه ﷺ، فيسأله عن شيء مما في القرآن، فأحيانًا يجيبه فورًا، وأحيانًا يتوقف في الإجابة حتى يأتيه خبر السماء، وقد يأتي الوحي حالاً، وقد يتأخر بأمر الحكيم العليم، وقد يسألونه للاختبار، والتأكيد من صدق رسالته، فيأتيه المدد من السماء.

وقد يسألونه في أمور يخبر الوحي أن علمها عند الله، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

ملاحظات مهمة:

١- المصدر في هذه الفترة هو الوحي من السماء.

---

(١) رواه البخاري في «الأذان»، باب: «الأَذَانِ لِلْمُسَافِرِ، إِذَا كَانُوا جَمَاعَةً..»، ح(٦٣١).

(٢) رواه مسلم في «الحج»، باب: «اسْتِحْبَابِ رَمْيِ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ يَوْمَ النَّحْرِ رَاكِبًا، وَبَيَانِ قَوْلِهِ ﷺ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ»، ح(١٢٩٧).

(٣) رواه أحمد في «مُسْنَدِ الصِّدِّيقَةِ عَائِشَةَ بِنْتِ الصِّدِّيقِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا»، ح(٢٣٤٦٠) ومواضع أخر، والحديث أصله في مسلم في «صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا»، باب: «جَامِعِ صَلَاةِ اللَّيْلِ وَمَنْ نَامَ عَنْهُ أَوْ مَرِضَ»، ح(١٢٣٣)، من طريق حَكِيمَ بْنَ أَفْلَحَ ﷺ قال: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ الله ﷺ. قَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ».

٢- كان هذا التفسير هو الفيصل في كلِّ خلاف يمكن أن يقع.

٣- لم يكن ذلك التفسير مدوَّنًا وقتئذٍ، والله أعلم.

٢- التفسير على عهد الصحابة ﷺ:

حين قبض الرسول ﷺ، فالتحق بالرفيق الأعلى صار الناس في حاجة إلى معرفة كلام الله تعالى، فكانوا يلجئون إلى أصحاب الرسول ﷺ ليعرفوا منهم التفسير.

وقد اشتهر بالتفسير من الصحابة: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبي بي كعب ﷺ جميعًا.

مصادر الصحابة في التفسير:

١- القرآن الكريم: كان تفسير القرآن بالقرآن هو مصدرهم الأول؛ حيث أطبقت الأمة سلفًا وخلفًا على أن أصح التفسير؛ أن يفسر القرآن بالقرآن؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة: ٣]، فُسِّر بقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] فُسِّره بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [النساء: ٦].

٢- السُّنَّة النبوية: فقد ساروا على تفسير ما ورد عنه ﷺ من أخبار وأفعال حول الآيات، فكانوا يسألون بعضهم عما ورد فيها عنه ﷺ.

٣- الاجتهاد والاستنباط: وذلك إذ لم يجدوا آيةً أو حديثًا يفسر لهم ما أرادوا، فيجتهدون في معرفة الأحكام، وعُدتهم في ذلك:

١- الفهم الواسع.

٢- الإدراك العميق.

٣- المعرفة المحيطة باللغة العربية وأسرار البلاغة.

تنبيه مهم:

ذهب بعض العلماء من المتأخرين إلى أن مصدر الصحابة الرابع في التفسير؛ كان هو الإسرائيليات، وهذا كلام خطأ جداً للأمور الآتية:

١- أن الإسرائيليات تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد.

فهي تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

أ- ما وافق شرعنا، فذلك صحيح.

ب- ما خالف شرعنا، فذلك مردود، وعُلم كذبه بما عندنا.

ج- ما سكت عنه شرعنا، فلا نصدقه ولا نكذبه، وتجوز حكايته، وغالب ذلك لا فائدة فيه.

٢- ورع الصحابة وخوفهم من الكلام في القرآن بالرأي والنظر.

٣- لم تنتشر الإسرائيليات إلا في عهد التابعين.

٤- ما عرف عنهم ﷺ من أنهم يتركون تفسير مَن كان يسأل أهل الكتاب.

فقد جاء في (ميزان الاعتدال) عند ترجمة مجاهد بن جبر ﷺ ما يلي: «عن أبي بكر بن عياش قال: قلت للأعمش: ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو: ما بالهم يتقون تفسير مجاهد؟! فقال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب».

فإذا كان التابعون يجرحون مَن يعتمد على أهل الكتاب في نقل الأخبار، ويجعلون ذلك سببًا كافيًا للتجريح، فما بالنا بالصحابة ﷺ.

٥- ثم إنَّ الإسرائيليات لو كانت فعلاً مصدرًا معتمدًا عند السلف في التفسير لأثرت في منهجه أو غيرت من وجهته، ولكنها لم تؤثر على الفكر الإسلامي، ولا على عقيدته، وبقيت اللعنة على بني إسرائيل يتقرَّب بها المسلمون إلى الله، بترديدها فيما يتلونه من القرآن.

سمات التفسير على عهد الصحابة ﷺ:

١- لم يفسر القرآن كله لقُرب عهدهم بالرسول ﷺ، وفهمهم للقرآن ولمعاصرتهم لنزوله.

٢- قلة الاختلاف في فهم معانيه، وذلك للأسباب الآتية:

- نقاء عقيدتهم.
- توحُّد اتجاهاتهم.
- تقارُب أفكارهم.
- خلوهم من التكلُّف والشطط.
- سلامة صدورهم.

٣- كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالي، وعدم إلزام أنفسهم بتفهم معانيه على سبيل التفصيل.

٤- كان التفسير في هذه المرحلة جزءًا من الحديث النبوي وفرعًا من فروعه.

٥- لم يكن مرتبًا حسب النزول، بل كانت تفاسيرهم متناثرة كما كان الشأن في رواية الحديث.

٦- ندرة الاستنباط الفقهي من الآيات لعدم جهلهم في الغالب بالأمور الفقهية.

٧- خلو تفسيرهم من المذاهب الكلامية.

حكم تفسير الصحابي:

قال الزركشي: «تفسير الصحابي بمنزلة المرفوع إلى النبي ﷺ، كما قاله الحاكم في تفسيره».

وقال النووي: «وأما قول مَن قال أن تفسير الصحابي مرفوع، فذاك في تفسير يتعلق بسبب النزول ونحوه».

وقال ابن الصلاح: «والحق أن ضابط ما يفسره الصحابي ﷺ، إنْ كان مما لا مجال للاجتهاد فيه، ولا منقولاً عن لسان العرب، فحكمه الرفع، وإلا فلا، كالأخبار عن الأمور الماضية من بدء الخلق، وقصص الأنبياء، وعن الأمور الآتية، كالملاحم، والفتن والبعث وصفة الجنة والنار، والإخبار عن عمل يحصل به ثواب مخصوص أو عقاب مخصوص؛ فهذه الأشياء لا مجال للاجتهاد فيها، فيحكم لها بالرفع».

٢-التفسير على عهد التابعين:

أولاً: مَن هو التابعي؟

التابعي هو الذي شاهد الصحابي وعاش في زمانه، ولكنه لم يشاهد الرسول ﷺ.

ثانيًا: اشتداد الحالة في زمانهم إلى التفسير، للآتي:

١- انتشار الإسلام في الأقاليم الواسعة في المشرق والمغرب.

٢- دخول الأمم الكثيرة في الإسلام.

٣- خروج الصحابة بسبب الفتوح إلى تلك الأقاليم لهداية الناس وتعليمهم.

ثالثًا: انتشار مذاهب التفسير ومدارسه:

التف التابعون حول الصحابة ﷺ وتتلمذوا عليهم، فقام الصحابة بواجبهم

خير قيام، فكانت هناك حركة علمية واسعة لتفسير القرآن وتعليمه الناس، انتشرت في الأمصار المترامية الأطراف، بل كان لكلِّ صحابي تبوأ هذه المهمة دور كبير في هذه الحركة، فكانت هناك للتفسير مراكز منتشرة تشد إليها الرحال، برز من بينها ثلاث مدارس:

١ - مدرسة مكة: على يد عبد الله بن عباس ﷺ:

وكان من أشهر تلاميذه:

١- سعيد بن جبير.
٢- مجاهد بن جبر.
٣- عكرمة مولى ابن عباس.
٤- طاووس بن كيسان اليماني.
٥- عطاء بن أبي رباح.

٢ - مدرسة المدينة:

واشتهر فيها:

١- زيد بن أسلم.
٢- أبو العالية.
٣- محمد بن كعب القرظي.

٣- مدرسة العراق:

واشتهر فيها:

١- علقمة بن قيس.
٢- مسروق بن الأجدع.
٣- الأسود بن يزيد بن قيس النخعي.
٤- مُرة الهمداني الكوفي.
٥- الشعبي.
٦- قتادة.

حكم تفسير التابعي:

إذا انفرد التابعي بقول ليس له شاهد أو ما يؤيده رُفض، أما إذا اجتمع التابعون على شيء؛ فلا شكَّ في اعتباره حجة، وأما إذا اختلفوا؛ فلا يكون قول بعضهم على بعض حجة، ولا من بعدهم.

مصادرهم في التفسير:

١- الكتاب. ٢- السُّنة.

٣- أقوال الصحابة. ٤- ما يفتحه الله عليهم من الفهم والاستنباط.

سمات تفسير التابعين:

ظل تفسير التابعين محتفظًا بطابع التلقي، وكان يغلب على روايات التفسير أسانيدها إلى علماء البلد الواحد.

بعض المآخذ على تفسير التابعين:

تسرب كثير من الروايات الإسرائيلية إلى التفسير عن طريق اليهود والنصارى الذين أسلموا، وعلى كلٍّ حال؛ فهذه الروايات لم تؤثر في الفكر الإسلامي، ولم تغيِّر من عقليته، ولم تكن إحدى مصادره البتة.

٤-التفسير على عهد تابعي التابعين:

يعرف بعهد (التدوين).

وأشهر مَن عرف في عهد تابعي التابعين بالتفسير هم:

١- سفيان بن عيينة. ١- ابن وهب.

٣- عبد الرازق الصنعاني. ٤- سعيد بن منصور.

٥- عبد بن حميد. ٦- وكيع بن الجرَّاح.

٧- شُعبة بن الحجَّاج. ٨- يزيد بن هارون.

ثم ظهرت التفاسير المدونة: كتفسير النسائي، وابن جرير، والطبري، والقرطبي، وغيرهم.

فصل حول كتب التفسير

سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى: أيُّ التفاسير أقرب إلى كتاب الله والسُّنة؟

فأجاب[1]: «التفاسير التي في أيدي الناس أصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين؛ كمقاتل بن بكير والكلبي، والتفاسير غير المأثورة بالأسانيد كثيرة؛ كتفسير عبد الرازق وعبد بن حُميد، ووكيع، وابن أبي قتيبة، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه.

ثم بعد ذلك هناك تفاسير كثيرة، وإليك نبذة عن كلٍّ منها:

* **تفسير الزمخشري -رحمه الله**: تفسير محشو بالبدعة، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية والقول بخلق القرآن، وأنكر أن الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد وغير ذلك من أصول المعتزلة[2].

* **تفسير البغوي -رحمه الله**: أسلم قليلاً من البدع والأحاديث الضعيفة، لكنه مختصر من تفسير الثعلبي، فحذف منه الأحاديث الموضوعة، والبدع التي فيه، وحذف أشياء غير ذلك.

* **تفسير الواحدي -رحمه الله**: وهو تلميذ الثعلبي، وهو أخبر منه

---

(١) مجموع الفتاوى، (١٣/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) مجموع الفتاوى، (١٣/ ٣٨٥، ٣٨٦).

باللغة العربية، لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع، وإنْ ذكرها تقليدًا لغيره، وتفسيره وتفسير الواحدي فيها فوائد جليلة، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة.

* **تفسير القرطبي -رحمه الله:** خير من التفاسير السابقة بكثير وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسُّنة، وأبعد عن البدع، وإنْ كان فيه بعض الأخطاء البسيطة.

* **تفسير ابن عطية -رحمه الله:** خير من تفسير الزمخشري وأصح نقلاً وبحثًا، وأبعد عن البدع، وإنْ اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير، ولكن تفسير ابن جرير الطبري أصح هذه التفاسير كلها[1].

* **تفسير الرازي -رحمه الله:** وهو المعروف بـ(مفاتيح الغيب) أو (التفسير الكبير)، يعيبه الطول والحشو في كلِّ فروع العلوم، وهو ليس بالعمل اليسير؛ فهو يحوي في داخله عدة علوم، انتصر فيه الرازي لمذهب أهل السُّنة والجماعة، وحارب معظم الطوائف، إلا أنه لم ينج من بعض الأمور التي تؤخذ عليه خاصة وهو أشعري المذهب.

* **تفسير القرآن العظيم لابن كثير -رحمه الله:** وهو المعروف بتفسير ابن كثير، يعتبر من أنفس التفاسير وأقربها لمنهج أهل السُّنة والجماعة، سلك فيه الإمام ابن كثير -رحمه الله- مسلك تفسير القرآن بالقرآن، فإنْ لم يجد فبالسُّنة،

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٣/ ٣٨٨).

فإنْ لم يجد، فبتفسير السلف -عليهم رحمة الله، وهو يعتبر تلخيصًا لتفسير ابن جرير الطبري -عليه رحمة الله، وهو من أكثر التفاسير بركةً وأوسعها انتشارًا، يعرفه القاصي والداني والعالم والعامي على حد سواء، إلا إنه لم يسلم من ضعاف الآثار، وبعض الأخبار الغريبة.

* **تفسير الشنقيطي -رحمه الله:** وهو المعروف بـ(أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)، وقد سلك فيه مؤلفه -عليه رحمة الله- كما هو ظاهر اسمه- تفسير القرآن بالقرآن، وبالتالي؛ فهو لم يشمل كل آيات القرآن؛ لأنه ليس كل آيات القرآن مفسرة بالقرآن، وهو من أجل الكتب في التفسير، بل يكاد يتميَّز وينفرد في موضوعه، ولذلك لا نكون قد تجاوزنا الحق إذا قلنا: إنه لم يؤلَّف قبله مثله في إيضاح معاني القرآن بالقرآن، وقد عرض فيه مؤلفه تنبيهات عظيمة رفيعة المنال عالية القدر، قلما يتنبه إليها العلماء فضلاً عن الطلاب.

* **تفسير الشوكاني -رحمه الله:** وهو المعروف بـ(فتح القدير) جمع فيه مؤلفه خبرته العلمية في الأصول والفقه والحديث ومختلف الفنون، وحاول فيه مؤلفه أيضًا أن يجمع بين فني الرواية والدراية.

* ثم تفاسير أخرى كثيرة؛ كتفسير ابن الجوزي والماوردي، وتفاسير حديثة منها ما فيه خير كبير جدًا.

دراسة إحصائية في القرآن الكريم

* مجموع كلمات القرآن الكريم = ٧٧٨٤٥ كلمة.

* مجموع الأحرف التي وردت في القرآن الكريم = ٣٣٠٧٣٣ حرفًا.

- سورة الفاتحة: ٢٩ كلمة، ١٤٣ حرفًا.
- سورة البقرة: ٦١٤٤ كلمة، ٢٦٢٥١ حرفًا.
- سورة آل عمران: ٣٥٠٣ كلمة، ١٤٩٨٧ حرفًا.
- سورة النساء: ٣٧٦٢ كلمة، ١٦٣٢٨ حرفًا.
- سورة المائدة: ٢٨٣٧ كلمة، ١٢٢٠٦ حرفًا.
- سورة الأنعام: ٣٠٥٥ كلمة، ١٢٧٢٧ حرفًا.
- سورة الأعراف: ٣٣٤٤ كلمة، ١٤٤٣٦ حرفًا.
- سورة الأنفال: ١٢٤٣ كلمة، ٥٣٨٨ حرفًا.
- سورة التوبة: ٢٥٠٦ كلمة، ١١١١٥ حرفًا.
- سورة يونس: ١٨٤١ كلمة، ٧٥٩١ حرفًا.
- سورة هود: ١٩٤٧ كلمة، ٧٨١٩ حرفًا.
- سورة يوسف: ١٧٩٥ كلمة، ٧٣٠٣ حرفًا.
- سورة الرعد: ٨٥٤ كلمة، ٣٥٤٥ حرفًا.
- سورة إبراهيم: ٨٣١ كلمة، ٣٥٣٩ حرفًا.
- سورة الحجر: ٦٥٨ كلمة، ٢٨٨٣ حرفًا.
- سورة النحل: ١٨٤٥ كلمة، ٧٨٣٤ حرفًا.

- سورة الإسراء: ١٥٥٩ كلمة، ٦٦٤٢ حرفًا.
- سورة الكهف: ١٥٨٣ كلمة، ٦٥٥٤ حرفًا.
- سورة مريم: ٩٧٢ كلمة، ٣٩٣٥ حرفًا.
- سورة طه: ١٣٥٤ كلمة، ٥٣٩٩ حرفًا.
- سورة الأنبياء: ١١٧٤ كلمة، ٥٠٩٣ حرفًا.
- سورة الحج: ١٢٧٩ كلمة، ٥٣١٤ حرفًا.
- سورة «المؤمنون»: ١٠٥١ كلمة، ٤٤٨٣ حرفًا.
- سورة النور: ١٣١٧ كلمة، ٥٧٥٥ حرفًا.
- سورة الفرقان: ٨٩٦ كلمة، ٣٨٧٧ حرفًا.
- سورة الشعراء: ١٣٢٢ كلمة، ٥٦٣٠ حرفًا.
- سورة النمل: ١١٦٥ كلمة، ٤٧٩٤ حرفًا.
- سورة القصص: ١٤٤١ كلمة، ٥٩٣٢ حرفًا.
- سورة العنكبوت: ٩٨٢ كلمة، ٤٣٢٠ حرفًا.
- سورة الروم: ٨١٨ كلمة، ٣٤٧١ حرفًا.
- سورة لقمان: ٥٥٠ كلمة، ٢١٧١ حرفًا.
- سورة السجدة: ٣٧٤ كلمة، ١٥٦٤ حرفًا.
- سورة الأحزاب: ١٣٠٣ كلمة، ٥٧٨٧ حرفًا.
- سورة سبأ: ٨٨٤ كلمة، ٣٩٣ حرفًا.
- سورة فاطر: ٧٨٠ كلمة، ٣٢٣٧ حرفًا.
- سورة يس: ٧٣٣ كلمة، ٣٠٦٨ حرفًا.

- سورة الصافات: ٨٦٥ كلمة، ٣٩٠١ حرفًا.
- سورة ص: ٧٣٥ كلمة، ٣١٧١ حرفًا.
- سورة الزمر: ١١٧٧ كلمة، ٤٨٧٠ حرفًا.
- سورة غافر: ١٢٢٨ كلمة، ٥١٠٩ حرفًا.
- سورة فصلت: ٧٩٦ كلمة، ٤٤٦٤ حرفًا.
- سورة الشورى: ٨٦٠ كلمة، ٣٥٢١ حرفًا.
- سورة الزخرف: ٨٣٧ كلمة، ٣٦٠٨ حرفًا.
- سورة الدخان: ٣٤٦ كلمة، ١٤٧٥ حرفًا.
- سورة الجاثية: ٤٨٨ كلمة، ٢٠٨٥ حرفًا.
- سورة الأحقاف: ٦٤٦ كلمة، ١٤٧٥ حرفًا.
- سورة محمد: ٥٤٢ كلمة، ٢٤٢٤ حرفًا.
- سورة الفتح: ٥٦٠ كلمة، ٢٥٠٩ حرفًا.
- سورة الحجرات: ٣٥٣ كلمة، ١٥٣٣ حرفًا.
- سورة ق: ٣٧٣ كلمة، ١٥٠٧ حرفًا.
- سورة الذاريات: ٣٦٠ كلمة، ١٥٤٦ حرفًا.
- سورة الطور: ٣١٢ كلمة، ١٣٢٥ حرفًا.
- سورة النجم: ٣٥٩ كلمة، ٤١٣٢ حرفًا.
- سورة القمر: ٣٤٢ كلمة، ٤١٧٠ حرفًا.
- سورة الرحمن: ٣٥٢ كلمة، ١٦٤٨ حرفًا.
- سورة الواقعة: ٣٧٩ كلمة، ١٧٥٦ حرفًا.

- سورة الحديد: ٥٧٥ كلمة، ٢٥٤٥ حرفًا.
- سورة المجادلة: ٤٧٥ كلمة، ٢٠٤٦ حرفًا.
- سورة الحشر: ٤٤٧ كلمة، ١٩٧٠ حرفًا.
- سورة الممتحنة: ٣٥٢ كلمة، ١٥٦٠ حرفًا.
- سورة الصف: ٢٢٦ كلمة، ٩٦٦ حرفًا.
- سورة الجمعة: ١٧٧ كلمة، ٧٦٨ حرفًا.
- سورة «المنافقون»: ١٨٠ كلمة، ٨٠٠ حرفًا.
- سورة التغابن: ٢٤٢ كلمة، ١٠٩١ حرفًا.
- سورة الطلاق: ٢٨٩ كلمة، ١٢٠٣ حرفًا.
- سورة التحريم: ٢٥٤ كلمة، ١١٠٥ حرفًا.
- سورة الملك: ٣٣٧ كلمة، ١٣٥٠ حرفًا.
- سورة القلم: ٣٠١ كلمة، ١٢٨٨ حرفًا.
- سورة الحاقة: ٢٦١ كلمة، ١١٣٣ حرفًا.
- سورة المعارج: ٢١٧ كلمة، ٩٧٢ حرفًا.
- سورة نوح: ٢٢٧ كلمة، ٩٦٥ حرفًا.
- سورة الجن: ٢٨٦ كلمة، ١١٠٩ حرفًا.
- سورة المزمل: ٢٠٠ كلمة، ٧٥٣ حرفًا.
- سورة المدثر: ٢٥٦ كلمة، ١٠٣٦ حرفًا.
- سورة القيامة: ١٦٤ كلمة، ٦٧٦ حرفًا.
- سورة الإنسان: ٢٤٣ كلمة، ١٠٨٩ حرفًا.

- سورة المرسلات: ١٨١ كلمة، ٨١٤ حرفًا.
- سورة النبأ: ١٧٤ كلمة، ٧٩٧ حرفًا.
- سورة النازعات: ١٧٩ كلمة، ٧٨٥ حرفًا.
- سورة عبس: ١٣٣ كلمة، ٥٥٣ حرفًا.
- سورة التكوير: ١٠٤ كلمة، ٤٣٤ حرفًا.
- سورة الانفطار: ٨١ كلمة، ٣٣٣ حرفًا.
- سورة المطففين: ١٦٩ كلمة، ٧٥١ حرفًا.
- سورة الانشقاق: ١٠٨ كلمة، ٤٤٦ حرفًا.
- سورة البروج: ١٠٩ كلمة، ٤٧٠ حرفًا.
- سورة الطارق: ٦١ كلمة، ٢٥٤ حرفًا.
- سورة الأعلى: ٧٢ كلمة، ٢٩٦ حرفًا.
- سورة الغاشية: ٩٢ كلمة، ٣٨٢ حرفًا.
- سورة الفجر: ١٣٩ كلمة، ٥٨٤ حرفًا.
- سورة البلد: ٨٢ كلمة، ٣٤٢ حرفًا.
- سورة الشمس: ٥٤ كلمة، ٢٥٣ حرفًا.
- سورة الليل: ٧١ كلمة، ٣٤١ حرفًا.
- سورة الضحى: ٤٠ كلمة، ١٦٥ حرفًا.
- سورة الشرح: ٢٧ كلمة، ١٠٢ حرفًا.
- سورة التين: ٣٤ كلمة، ١٦٢ حرفًا.
- سورة العلق: ٧٢ كلمة، ٢٨٨ حرفًا.

- سورة القدر: ٣٠ كلمة، ١١٥ حرفًا.
- سورة البينة: ٩٤ كلمة، ٤٠٤ حرفًا.
- سورة الزلزلة: ٣٦ كلمة، ١٥٨ حرفًا.
- سورة العاديات: ٤٠ كلمة، ١٦٩ حرفًا.
- سورة القارعة: ٣٦ كلمة، ١٦٠ حرفًا.
- سورة التكاثر: ٢٨ كلمة، ١٢٣ حرفًا.
- سورة العصر: ١٤ كلمة، ٧٣ حرفًا.
- سورة الهمزة: ٣٣ كلمة، ١٣٤ حرفًا.
- سورة الفيل: ٢٣ كلمة، ٩٧ حرفًا.
- سورة قريش: ١٧ كلمة، ٧٧ حرفًا.
- سورة الماعون: ٢٥ كلمة، ١١٤ حرفًا.
- سورة الكوثر: ١٠ كلمة، ٣٤ حرفًا.
- سورة الكافرون: ٢٧ كلمة، ٩٩ حرفًا.
- سورة النصر: ١٩ كلمة، ٨٠ حرفًا.
- سورة المسد: ٢٣ كلمة، ٨١ حرفًا.
- سورة الإخلاص: ١٥ كلمة، ٤٧ حرفًا.
- سورة الفلق: ٢٣ كلمة، ٧٣ حرفًا.
- سورة الناس: ٢٠ كلمة، ٨٠ حرفًا.

ملاحظات على ما تقدم:

أقصر سورة في كتاب الله تعالى هي سورة «الكوثر»، فعدد آياتها (٣) آيات،

وعدد كلماتها (١٠) كلمات، وعدد حروفها (٤٣) حرفًا، وهي تتساوى مع سورتي «العصر» و«النصر» من حيث الآيات، ولكن سورة العصر (١٤) كلمة، و(٧٣) حرفًا، والنصر (١٩) كلمة، و(٨٠) حرفًا[1].

هناك سور تساوت من حيث الكلمات هي:

- سورة الزلزلة = سورة القارعة.
- سورة العاديات = سورة الضحى.
- سورة العلق = سورة الأعلى.
- سورة الفيل = سورة المسد.

وهناك سورة تساوت من حيث الحروف هي:

- سورة الناس = سورة النصر فقط.

* سورة القدر = (٣٠) كلمة، كلمة (هي) في السورة هي الكلمة (٢٧)، ولذلك كان ابن عباس يقول: «إنها ليلة السابع والعشرين»، أي: ليلة القدر؛ حيث الشهر ثلاثون يومًا على الأكثر.

سور القرآن الكريم من حيث النزول:

- العلق.
- القلم.
- المزمل.
- المدثر.

(١) ملاحظة: يفضل ألا يقال: سورة صغيرة، أو أقل سورة، أو أصغر سورة؛ تأدبًا مع كتاب الله.. نصَّ على ذلك بعض السلف.

- الفاتحة.
- المسد.
- التكوير.
- الأعلى.
- الليل.
- الفجر.
- الضحى.
- الشرح.
- العصر.
- العاديات.
- الكوثر.
- التكاثر.
- الماعون.
- الكافرون.
- الفيل.
- الفلق.
- الناس.
- الإخلاص.
- النجم.
- عبس.

- القدر.
- الشمس.
- البروج.
- التين.
- قريش.
- القارعة.
- القيامة.
- الهمزة.
- المرسلات.
- ق.
- البلد.
- الطارق.
- القمر.
- ص.
- الأعراف.
- الجن.
- يس.
- الفرقان.
- فاطر.
- مريم.

- طه.
- الواقعة.
- الشعراء.
- النمل.
- القصص.
- الإسراء.
- يونس.
- هود.
- يوسف.
- الحجر.
- الأنعام.
- الصافات.
- لقمان.
- سبأ.
- الزمر.
- غافر.
- فصلت.
- الشورى.
- الزخرف.
- الدخان.

- الجاثية.
- الأحقاف.
- الذاريات.
- الغاشية.
- الكهف.
- النحل.
- نوح.
- إبراهيم.
- الأنبياء.
- المؤمنون.
- السجدة.
- الطور.
- الملك.
- الحاقة.
- المعارج.
- النبأ.
- النازعات.
- الانفطار.
- الانشقاق.
- الروم.

- العنكبوت.
- المطففون.
- البقرة.
- الأنفال.
- آل عمران.
- الأحزاب.
- الممتحنة.
- النساء.
- الزلزلة.
- الحديد.
- محمد.
- الرعد.
- الرحمن.
- الإنسان.
- الطلاق.
- البينة.
- الحشر.
- النور.
- الحج.
- المنافقون.

- المجادلة.
- الحجرات.
- التحريم.
- التغابن.
- الصف.
- الجمعة.
- الفتح.
- المائدة.
- التوبة.
- النصر.

* المكي منها: من أول سورة «العلق» حتى سورة «المطففين»، يعني المكي منها (٨٦) سورة.

* المدني منها: من أول سورة «البقرة» حتى سورة «النصر»، أي المدني منها (٢٨) سورة.

تنبيه مهم: حول الأحاديث الموضوعة في فضل سور القرآن

قال القرطبي -رحمه الله تعالى:

«لا التفات لما وضعه الواضعون، واختلقه المختلقون، من الأحاديث الكاذبة والأخبار الباطلة، في فضل سور القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال؛ قد ارتكبها جماعة كثيرة، اختلفت أغراضهم ومقاصدهم في ارتكابها، فمنهم قوم من الزنادقة؛ مثل: المغيرة بن سعد الكوفي، ومحمد بن سعيد

الشامي، المصلوب في الزندقة، وغيرهما وضعوا أحاديث وحدَّثوا بها ليوقعوا بذلك الشك في قلوب الناس، فما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك ﷺ في قوله ﷺ: «أَنَا خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي إِلا مَا شَاءَ اللهُ»، فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة.

وقلت (أي: القرطبي): وقد ذكره ابن عبد البر في كتاب (التمهيد)، ولم يتكلَّم عليه؛ بل تأول الاستثناء على الرؤيا، فالله أعلم».

ومنهم قوم قد وضعوا الحديث لهوى يدعون الناس إليه؛ قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب: إنَّ هذه الأحاديث دين، فانظروا ممن تأخذون دينكم، فإنا كنا إذا هوينا أمرًا صيَّرناه حديثًا.

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حِسْبةً[1] كما زعموا، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال، كما روي عن أبي عصمة نوح بن أبي مريم المروزي، ومحمد بن عكاشة الكرماني، وأحمد بن عبد الله الجويباري، وغيرهم، قيل لأبي عصمة: من أين لك عن عكرمة عن عباس في فضل سور القرآن سورة سورة؟ فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة، ومغازي محمد بن إسحاق؛ فوضعت هذا الحديث حسبة.

قال أبو عمرو عثمان بن الصلاح في كتاب (علوم الحديث) له: «وهكذا الحديث الطويل الذي يُروى عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ في فضل القرآن سورة سورة، وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى مَن اعترف بأنه

---

(١) أي: من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وجماعة وضعوه، وأن أثر الوضع عليه لبيِّن، وقد أخطأ الواحدي المفسِّر ومَن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم.

ومنهم قوم من السّؤّال والمكيدين يقفون في الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله ﷺ أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد، قال جعفر بن محمد الطيالسي: صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين في مسجد الرصافة، فقام بين أيديهما قاص فقال: حدَّثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا: أنبأنا عبد الرزاق قال: أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَالَ لَا إِلَه إِلا الله يخلق مِنْ كُلِّ كَلمةٍ مِنْهَا طَائر منقاره مِنْ ذَهبٍ وَريشه مرجان..»، وأخذ في قصه نحو من عشرين ورقة، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى، ويحيى ينظر إلى أحمد، فقال: أنت حدَّثته بهذا؟ فقال: والله ما سمعت به إلا هذه الساعة. فقال: فسكتا جميعًا حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى: مَن حدَّثك بهذا الحديث؟ فقال: ابن حنبل ويحيى بن معين، فقال: أنا ابن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله ﷺ، فإنْ كان لا بدَّ من الكذب فعلى غيرنا؛ فقال له: أنت يحيى بن معين؟ قال: نعم، قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وما علمته إلا هذه الساعة، فقال له يحيى: وكيف علمت أني أحمق؟ قال: كأنه ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا، فوضع أحمد كُمَّه على وجهه وقال: «دعه يقوم؛ فقام كالمستهزئ بهما!!.

فهؤلاء الطوائف كذبة على رسول الله ﷺ، ومَن يجري مجراهم، ويذكر أن الرشيد كان يعجبه الحمام واللهو به، فأُهدي إليه حمام وعنده أبو البختري

القاضي، فقال: روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «لا سبق إلا في خف أو حافر أو جناح» (فزاد: أو جناح)، وهي لفظة وضعها للرشيد، فأعطاه جائزة سنية، فلما خرج قال الرشيد: والله لقد علمت أنه كذاب، وأمر بالحمام أن يذبح، فقيل له: وما ذنب الحمام؟ قال: من أجله كذب على رسول الله ﷺ، فترك العلماء حديثه لذلك وغيره من موضوعاته، فلا يكتب العلماء حديثه بحال.

قلت (أي: القرطبي): فلو اقتصر الناس على ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التي تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم في ذلك غُنية، وخرجوا عن تحذيره ﷺ؛ حيث قال: «اتَّقُوا الحَدِيثَ عَلَيَّ إِلاَّ مَا عَلِمْتُمْ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1].

فتخويفه ﷺ أمته بالنار على الكذب، دليلٌ على أنه كان يعلم أنه سيُكذب عليه، فحذار مما وضعه أعداء الدين وزنادقة المسلمين في باب الترغيب والترهيب وغير ذلك، وأعظمهم ضررًا أقوام من المنسوبين إلى الزهد، وضعوا الحديث حسبة فيما زعموا، فيقبل الناس موضوعاتهم، ثقة منهم بهم، وركونا إليهم فضلوا وأضلوا، ولا حول ولا قوة إلا بالله». انتهى كلام القرطبي -رحمه الله.

ومما تقدَّم يتبيَّن أن بعض الأحاديث الموضوعة في فضائل بعض السور غير

---

(١) رواه أحمد في «مسند عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما»، ح(٣٠٣٠)، والترمذي في «تفسير القرآن»، باب: «مَا جَاءَ فِي الذي يُفَسِّرُ القُرْآنَ بِرَأْيِهِ»، ح(٣١٦٢)، قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ»، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي»، ح(٢٩٥١).

ثابت؛ فلا يصح العمل بها، وإنما نقلنا كلام القرطبي -عليه الرحمة؛ لأنا وجدنا في صحبتنا للناس أن منهم مَن كان لا يقرأ إلا سورة «الواقعة» اتكالاً على حديث غير صحيح في فضلها، وآخر لا يقرأ إلا سورة «يس» لنفس الأمر، وإنْ صحَّ حديثها لا يفيد أن الإنسان يكتفي بها ويهجر باقي القرآن، وآخر لا يقرأ في كل ليلة إلا سورة «الدخان»، وهكذا، والثلاثة رأيناهم وسمعنا منهم هذا، وغيرهم وغيرهم كثير.

فالحاصل أن المسلم يعلم أن كتاب الله كله نفع وخير في الدنيا والآخرة، وصحيح أن بعضه أفضل من بعض، كفضل «الفاتحة» أو سورة «البقرة» و«آل عمران» أو «الإخلاص» و«المعوذتين»، أو بعض الآيات أفضل من بعض كفضل آية الكرسي على باقي آي القرآن، ولكن هذا لا يعني هجران الكتاب لفضل البعض على البعض الآخر، وليس ذلك من هدي السلف عليهم - رحمهم الله، وما لم يكن للسَّلف دينًا لا يكون للخلف دينًا، وكل الخير في اتباع من سلف.

القرآن كلام الله حقيقة، وانه ليس مخلوقًا:

قال أبو جعفر الطحاوي -رحمه الله: «القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحيًا، وصدَّقه المؤمنون على ذلك حقًّا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمَن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، قد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر» انتهى.

وقال العلامة ابن أبي العز الحنفي في شرح هذا الكلام: «هذه قاعدة شريفة، وأصل كبير من أصول الدين، ضلَّ فيه طوائف كثيرة من الناس، وهذا الذي حكاه الطحاوي -رحمه الله- هو الحق الذي دلَّت عليه الأدلة من الكتاب والسُّنة لمن تدبرهما، وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تُغيَّر بالشبهات والشكوك الباطلة.

وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال:

أحدها: إنَّ كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معانٍ، إما من العقل الفعَّال عند بعضهم، أو من غيره، وهذا قول الصائبة والمتفلسفة.

وثانيها: أنه مخلوق، خلقه الله منفصلاً عنه، وهذا قول المعتزلة.

وثالثها: أنه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإنْ عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإنْ عبر عنه بالعبرانية كان توراةً، وهذا قول ابن كلاب، ومَن وافقه كالأشعري وغيره.

ورابعها: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام، ومن أهل الحديث.

وخامسها: أنه حروف وأصوات، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلمًا، وهذا قول الكرَّامية وغيرهم.

وسادسها: أنَّ كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب (المعتبر)، ويميل إليه الرَّازي في (المطالب العالية).

وسابعها: أن كلامه يتضمن معنى قائمًا بذاته هو ما خلقه في غيره، وهذا

قول أبي منصور الماتريدي.

وثامنها: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي ومَن اتبعه.

وتاسعها: أنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلَّم به بصوت يُسمع، وأن نوع الكلام قديمٌ، وإنْ لم يكن الصوتُ المُعيَّنُ قديمًا، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسُّنة»[1]، انتهى.

مما تقدَّم يتبيَّن أن قول أهل السُّنة هو الصواب والصحيح المرتضي، وأن الأقوال الثمانية الأولى معظمها فلسفي معقد، لا يعرفه سلف الأمة والصحابة على رأسهم، وإنما نقلناه حتى يعرف القارئ أقوالهم؛ فيجتنبها إنْ شاء الله.

ثم يقول العلامة ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله: «وقوله: (كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولاً) ردٌّ على المعتزلة وغيرهم، فإنَّ المعتزلة تزعم أن القرآن لم يبد منه، كما تقدَّم حكاية قولهم، قالوا: وإضافته إليه إضافة تشريف، كبيت الله، وناقة الله، يحرِّفون الكلام عن مواضعه، وقولهم باطل، فإنَّ المضاف إلى الله تعالى معانٍ وأعيان، فإضافة الأعيان إلى الله للتشريف وهي مخلوقة له، كبيت الله، وناقة الله، بخلاف إضافة المعاني، كعلم الله وقدرته وعزته وجلاله، وكبريائه، وحياته، وعلوه، وقهره، فإنَّ هذا كله من صفاته لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقًا.

والوصف بالتكلُّم من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص، قال

---

(١) العقيدة الطحاوية بشرح أبي العز الحنفي، ص(١٦٨).

تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فكان عُبَّاد العجل -مع كفرهم- أعرف بالله من المعتزلة، فإنهم لم يقولوا لموسى: وربك لم يتكلَّم أيضًا، وقال تعالى عن العجل أيضًا: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه: ٨٩]. فعلم أن نفي رجوع القول ونفي التكلُّم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل، وغاية شُبهتهم (أي عدم إقرارهم بأن الله تكلَّم به حقيقة)، أنهم يقولون: يلزم منه التشبيه والتجسيم، فيقال لهم: إذا قلنا: إنه تعالى يتكلَّم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥]، فنحن نؤمن أنها تتكلَّم، ولا نعلم كيف تتكلَّم، وكذا قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ٢١]، وكذلك تسبيح الحصى والطعام، وسلام الحجر، كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من لديه المعتمد على مقاطع الحروف.

وإلى هذا أشار الشيخ -رحمه الله- بقوله: «منه بدا بلا كيفية قولاً»، أي: ظهر منه ولا ندري كيفية تكلمه به، وأكد هذا المعنى بقوله: (قولا)، أتى بالمصدر المعرف للحقيقة، كما أكَّد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت النافي للمجاز في قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

وقال: قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء- أحد القُراء السبعة: أريد أن تقرأ: (وكلم اللهَ موسى)، بنصب اسم الله، ليكون موسى هو المتكلم لا الله!! فقال أبو عمرو: هب أني قرأت هذه الآية هكذا، فكيف تصنع بقوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟! فبهت المعتزلي!!

وكم في الكتاب والسُّنة من دليل على تكليم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم، وحول موضوع (خلق القرآن)، يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله: «وبالجملة، فأهل السُّنة كلهم، من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف، متفقون على أن كلام الله غير مخلوق».

وأما العلامة محمد خليل هراس، فقد أفاد وأجاد في شرحه المبارك على (العقيدة الواسطية) لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله، حول إثبات الكلام لله تعالى، وأن القرآن غير مخلوق، وأن الله تكلَّم به حقيقة، فقال: «وقد تنازع الناس حول هذه المسألة نزاعًا كبيرًا، فمنهم مَن جعل كلامه سبحانه مخلوقًا منفصلاً، وقال: إنَّ معنى (متكلم) خالق للكلام وهم المعتزلة، ومنهم مَن جعله لازمًا لذاته أولاً وأبدًا لا يتعلق بمشيئته وقدرته، ونفى عنه الحرف والصوت وقال: إنه معنى واحد في الأزل، وهم الكلابية والأشعرية.

ومنهم مَن زعم أنه حروف وأصوات قديمة لازمة للذات وقال: إنها مقترنة في الأزل، فهو سبحانه لا يتكلم بها شيئًا بعد شيء وهم: بعض الغُلاة. ومنهم مَن جعله حادثًا قائمًا بذاته تعالى ومتعلقًا بمشيئته وقدرته، ولكن زعم أن له ابتداءً، وأن الله لم يكن متكلمًا في الأزل، وهم الكرامية، ويطول بنا القول لو اشتغلنا بمناقشة هذه الأقوال وإفسادها على أن فسادها بيِّن لكلِّ ذي فهم سليم ونظر مستقيم.

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة: أن الله تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء، وأن الكلام صفة له قائمة بذاته، يتكلَّم بها بمشيئته

وقدرته، فهو لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء، وما تكلَّم الله به؛ فهو قائم به ليس مخلوقًا منفصلاً عنه، كما تقول المعتزلة، ولا لازمًا لذاته لزوم الحياة لها، كما تقول الأشاعرة، بل هو تابع لمشيئته وقدرته.

والله سبحانه نادى موسى عليه السلام بصوت، ونادى آدم وحواء -عليهما السلام- بصوت، وينادي عباده يوم القيامة بصوت، ويتكلَّم بالوحي بصوت، ولكن الحروف والأصوات التي تكلَّم الله بها صفة له غير مخلوقة ولا تشبه أصوات المخلوقين وحروفهم، كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده، فإنَّ الله لا يماثل المخلوقين في شيء من صفاته[1].

ثم يقول -رحمه الله: «وخلاصة القول في ذلك (أي: مسألة كلام الله بالقرآن وعدم خلقه): أن القرآن العربي كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، والله تكلَّم به على الحقيقة، فهو كلامه حقيقة لا كلام غيره، وإذا قرأ الناس القرآن أو كتبوه في المصاحف لم يخرج ذلك عن أن يكون كلام الله، فإنَّ الكلام إنما يضاف حقيقة إلى مَن قاله مبتدئًا لا إلى مَن بلَّغه مؤديًا، والله تكلَّم بحروفه ومعانيه بلفظ نفسه ليس شيء منه كلامًا لغيره لا لجبريل عليه السلام ولا لمحمد ﷺ ولا لغيرهما، والله تكلَّم به أيضًا بصوت نفسه، فإذا قرأه العباد قرءوه بصوت أنفسهم، فإذا قال القارئ مثلاً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه، وإنْ كان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله تعالى».

---

(١) العقيدة الواسطية، طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة، ص(٨٧-٨٩).

القرآن في نظر العلماء

يقول الشنقيطي -رحمه الله-:

«الحمد لله الذي أنزل على خاتم الرسل والأنبياء أكمل كتاب، فكشف به ظلمات الجهل وأسباب العذاب، وأماط به عن نفائس العلوم وذخائرها الحجاب، وكشف به حقائق الدين وأسراره ومحاسنه النقاب، وأخلق به العبادة للعزيز الوهاب، وفتح به لنيل مآرب الدارين الباب، وأغلق باتباعه والعمل به دون الشر جميع الأبواب، تحيا بوابل علومه القلوب النيرة أعظم ما تحيا الأرض بوابل السحاب، يتميز بتدبير آياته الخطأ من الصواب، والقشور من اللباب، وتجل ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره عن الوصمة والعاب، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وعدَّ الله متبعه ما هو خير وأبقى، وقال فيه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، وأوعد المعرضين عنه من جميع الأحزاب النار، قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وهو عام للكفار، وشبَّه بالحمر المعرضين عنه من الكفرة، قال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ [المدثر: ٤٩-٥٠]، فيكفي المعرض عنه أنه حمار، وأنه من حمير النار، وبيَّن تعالى أن المعرض عنه يحمل يوم القيامة ما لا يستطيع له حملاً، قال: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩ - ١٠١].

فتح الله به قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذانًا صُمًا، وقال فيه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] لا تنقضي

عجائبه، ولا يَخْلَق على طول التكرار، ما تعاقب الليل والنهار، رفع الله به قومًا ووضع به آخرين، وقال: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤-٤٥].

وهو آخر الكتب السماوية عهدًا بربِّ العالمين، فكلُّ الشَّر في الإعراض عنه، وكلُّ الخير في الإقبال عليه، فطوبى لمن كان حُجة له، وويل لمن كان حجة عليه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، ففيه للمطيع أعظم وعد، وللعاصي أشد وعيد، ومع هذا كله؛ فإنَّ أكثر المتسبين للإسلام اليوم في أقطار الدنيا معرضون عن التدبُّر في آياته غير مكترثين بقول من خلقهم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]؛ لا يتأدَّبون بآدابه، ولا يتخلقون بما فيه من مكارم الأخلاق، يطلبون الأحكام في التشريعات الضالة المخالفة له، غير مكترثين بقول ربهم: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، بل المتأدب بآداب القرآن المتخلق بما فيه من مكارم الأخلاق محتقر مغمور فيه عند جلهم إلا مَن عصم الله، فهم يحتقرونه واحتقاره لهم أشد؛ كما قال الشافعي -رحمه الله-:

فَهَـذَا زَاهِـدٌ فِي قُـرْبِ هَـذَا   وَهَـذَا فِيـهِ أَزْهَـدُ مِنْـهُ فِيـهِ

وإياك -يا أخي ثم إياك- أن يزهدك في كتاب الله تعالى كثرة الزاهدين فيه، ولا كثرة المحتقرين لمن يعمل به ويدعو إليه، واعلمْ أن العاقل الكيس الحكيم

لا يكترث بانتقاد المجانين»[1].

ويقول الشوكاني -رحمه الله-:

«الحمد لله الذي جعل كتابه المبين كافلاً ببيان الأحكام، شاملاً لما شرعه لعباده من الحلال والحرام، مرجعًا للأعلام عند تفاوت الأفهام وتباين الأقدام وتخالف الكلام، قاطعًا للخصام، شافيًا للسقام، مرهمًا للأوهام، فهو العروة الوثقى التي مَن تمسَّك بها فاز بدرك الحق القويم، والجادة الواضحة التي مَن سلكها فقد هُدي إلى الصراط المستقيم، فأيُّ عبارة تبلغ أدنى ما يستحقه لكلام الحكيم من التعظيم، وأي لفظ يقوم ببعض ما يليق به من التكريم والتفخيم، كلا والله، إنَّ بلاغات البلغاء المصاقع (المهرة) وفصاحات الفصحاء البواقع (الدواهي)، وإنْ طالت ذيولها، وسالت سيولها، واستنت بميادينها خيولها، تقاصر عن الوفاء بأوصافه، وتتصاغر عن التثبيت بأدنى أطرافه، فيعود جيدها عنه عاطلاً، وصفات ضوء الشمس تذهب باطلاً، فهو كلام مَن لا تحيط به العقول علمًا، ولا تدرك كُنهه الطباع البشرية فهمًا، فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقه من الأوصاف العظام أولى بالمقام، وأوفق بما يقتضيه الحال من الإجلال والإعظام، والصلاة والسلام على مَن نزل إليه الروح الأمين، بكلام ربِّ العالمين، محمد سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله المطهرين وصحبه المكرمين»[2].

ويقول ابن القيم -رحمه الله-:

«القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه، قال الله تعالى:

---

(١) أضواء البيان، (١/ ٢).

(٢) الشوكاني: فتح القدير، (١/ ٥، ٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].. إنَّ جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين.

ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبيِّن الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النِّحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن، فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول وأفصحها بيانًا؛ فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه، فمَن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانًا بقلبه، وكما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومقولاتهم بين علوم لا ثقة بها، وإنما هي آراء وتقليد، وبين ظنون كاذبة لا تغني عن الحق شيئًا، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها، بين علوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، ومع قلة نفعها فهي لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل، وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم؛ فهو في القرآن أصح تقديرًا وأحسن تفسيرًا، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد».

ثم يقول: «وأما شفاؤه لمرض الشهوات، فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال

والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عما يضره، فيصير القلب محبًّا للرشد، مبغضًا للغي، فالقرآن مزيل للأمراض المواجهة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية كما يعود البدن بصحته، وصلاحه إلى الحال الطبيعي»[1].

ويقول الإمام شاه ولي الله الدهلوي في العلوم الخمسة التي بيَّنها القرآن العظيم: «إنَّ معاني القرآن لا تخرج عن خمسة علوم:

١- علم الأحكام: من الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام من قسم العبادات أو من قسم المعاملات، أو من تدبير المنزل، أو من السياسة المدنية، وتفصيل هذا العلم منوط بذمة الفقيه.

٢- وعلم المخاصمة والرد على الفرق الضالة: الأربع من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين، وتبيان هذا العلم منوط بذمة المتكلم.

٣- وعلم التذكير بآلاء الله: من بيان خلق السموات والأرضين وإلهام العباد ما ينبغي لهم، ومن بيان صفات الله سبحانه الكاملة.

٤- وعلم التذكير بأيام الله: يعني بيان الوقائع التي أوجدها الله ﷻ من جنس تنعيم المطيعين وتعذيب المجرمين.

٥- وعلم التذكير بالموت وما بعده: من الحشر والنشر والحساب والميزان والجنة والنار»[2].

---

(١) إغاثة اللهفان: لابن القيم -رحمه الله (١/ ٥٧ - ٥٨).

(٢) الفوز الكبير في أصول التفسير للدهلوي (ط الأزهر).

فصل مهم في أخلاق حملة القرآن الكريم

هناك آداب وأخلاق ينبغي لحامل القرآن أن يتأدب ويتخلق بها حتى يكون حقًّا ممن حفظ عن الله كلامه، وممن صار أهلاً لأن يكون أهل لله وخاصته.

يقول الإمام الآجري -رحمه الله- في كتابه الماتع (آداب حملة القرآن):

«ينبغي له أن يجعل القرآن ربيعًا لقلبه، يعمر به ما خرب من قلبه، يتأدب بآداب القرآن، ويتخلق بأخلاق شريفة، يتميَّز بها عن سائر الناس، ممن لا يقرأ القرآن، فأول ما ينبغي له أن يستعمل تقوى الله في السِّر والعلانية، باستعمال الورع في مطعمه وملبسه ومكسبه، بصيرًا بزمانه وفساد أهله، فهو يحذِّرهم على دينه، مقبلاً على شأنه، مهمومًا بإصلاح ما فسد من أمره، حافظًا للسانه، مميزًا لكلامه، إنْ تكلَّم تكلَّم بعلم، إذا رأى الكلام صوابًا، وإنْ سكتَ سكتَ بعلم إذا كان السكوت صوابًا، قليل الخوض فيما لا يعنيه، يخاف من لسانه أشد مما يخاف من عدوه، يحبس لسانه كحبسه لعدوه، ليأمن من شره وسوء عاقبته، قليل الضحك فيما يضحك منه الناس، لسوء عاقبة الضحك، إنْ سُر بشيء مما يوافق الحق تبسم، يكره المزاح خوفًا من اللعب[1]، فإنْ مزح قال حقًّا، باسط الوجه، طيب الكلام، لا يمدح بما فيه، فكيف بما ليس فيه.

يحذر نفسه أن تغلبه على ما تهوى مما يسخط مولاه، ولا يغتاب أحدًا، ولا يحقر أحدًا، ولا يسب أحدًا، ولا يشمت بمصيبة، ولا يبغي على أحد، ولا

(١) هكذا بالأصل، ولعل الصواب: «خوفًا من اللغو».

يحسده، ولا يسيء الظن بأحد إلا لمن يستحق، قد جعل القرآن والسُّنة والفقه دليله إلى كلِّ خُلق حسن جميل، حافظًا لجميع جوارحه عما نهى عنه، إنْ مشى مشى بعلمٍ، وإنْ قعد قعد بعلمٍ، يجتهد ليسلم الناس من لسانه ويده، ولا يجهل، فإن جُهِل عليه حَلِم، ولا يظلم، فإنْ ظُلِم عفا، ولا يبغي، وإن بُغِيَ عليه صبر، يكظم غيظه ليرضي ربه ويغيظ عدوه، متواضعًا في نفسه، إذا قيل له الحق قبله من صغير أو كبير، يطلب الرفعة من الله تعالى لا من المخلوقين، ماقتًا للكِبر، خائفًا على نفسه منه، لا يتآكل بالقرآن، ولا يحب أن تقضي له به الحوائج، ولا يسعى به إلى أبناء الملوك، ولا يجالس به الأغنياء ليكرموه، إنْ كسب الناس من الدنيا الكثير بلا فقه ولا بصيرة، كسب هو القليل بفقه وعلم، إنْ لبس الناس اللين والفاخر، لبس هو من الحلال ما يستر عورته، وإنْ وُسِّع عليه وسع، وإنْ أمسك عليه أمسك، يقنع بالقليل فيكفيه، ويحذر على نفسه من الدنيا ما يطغيه، يتبع واجبات القرآن والسُّنة، يأكل الطعام بعلم، ويشرب بعلم، ويلبس بعلم، وينام بعلم، ويجامع أهله بعلم، ويصحب الإخوان بعلم، ويزورهم بعلم، ويستأذن عليهم بعلم، ويسلِّم عليهم بعلم، يجاور جاره بعلم.

ويلزم نفسه برَّ والديه، فيخفض لهما جناحه، ويخفض لصوتهما صوته، ويبذل لهما ماله، وينظر إليهما بعين الوقار والرحمة، يدعو لهما بالبقاء، ويشكر لهما عند الكبر، لا يضجر بهما، ولا يحقرهما، إنْ استعانا به على طاعة أعانهما، وإنْ استعانا به على معصية لم يعنهما، ورفق بهما في معصيته إياهما، يحسن الأدب ليرجعا عن قبيح ما أرادا مما لا يسحن بهما فعله.

يصل الرحم، ويكره القطيعة، مَن قطعه لم يقطعه، ومَن عصا الله فيه أطاع

الله فيه، يصحب المؤمنين بعلمٍ، ويجالسهم بعلمٍ، مَنْ صَحِبَهُ نفعَهُ، حَسنُ المجالسة لمن جَالسَ، إنْ علَّم غيره رفق به، لا يعنِّف مَن أخطأ ولا يخجله، رفيق في أموره، صبور على تعليم الخير، يأنس به المتعلم، ويفرح به المجالس، مجالسته تفيد خيرًا، مؤدِّبٌ لمن جالسه بأدب القرآن والسُّنة، إنْ أصيب بمصيبة فالقرآن والسُّنة له مؤدبان، يحزن بعلم، ويبكي بعلم، ويصبر بعلم، ويتطهر بعلم، ويصلي بعلم، ويكتسب بعلم، وينفق بعلم، وينبسط في الأمور بعلم، وينقبض عنها بعلم، قد أدَّبه القرآن الكريم والسُّنة، يتصفح القرآن ليؤدِّب به نفسه، ولا يرضى من نفسه أن يؤدِّي ما فرض الله عليه بجهل، قد جعل العلم والفقه دليله إلى كلِّ خير، إذا درس القرآن فبحضور فهم وعقل، همته إيقاع الفهم لما ألزمه الله من اتباع ما أمر والانتهاء عما نهى.

ليس هِمَّتُهُ: متى أختمُ السورة؟ هِمَّتُهُ: متى استغنى بالله عن غيره؟ متى أكون من المتقين؟ متى أكون من المحسنين؟ متى أكون من المتوكلين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصابرين؟ متى أكون من الصادقين؟ متى أكون من الخائفين؟ متى أتوب من الذنب؟ متى أعرف النِّعم المتواترة؟ متى أشكر عليها؟ متى أعقل عن الله الخطاب؟ متى أفقه ما أتلوه؟ متى أغلب نفسي على ما تهوى؟ متى أجاهد في الله حق الجهاد؟ متى أحفظ لساني؟ متى أغض طرفي؟ متى أحفظ فرجي؟ متى أستحي من الله حق الحياء؟ متى أتزود ليوم معادي؟ متى أكون عن الله راضيًا؟ متى أكون بالله واثقًا؟ متى أكون بزجر القرآن متعظًا؟ متى أكون بذكره عن ذكر غيره مشتغلاً؟ متى أحب ما أحب؟ متى أبغض ما أبغض؟ متى أنصح لله؟ متى أخلص له عملي؟ متى أقصر أملي؟ متى

أتأهب ليوم موتي وقد غُيِّب عني أجلي؟ متى أعمر قبري؟ متى أفكِّر في الموقف وشدته؟ متى أفكِّر في خلوتي مع ربي؟ متى أفكِّر في المنقلب؟ متى أحذر ما حذَّرني منه ربي من نار حَرُّهَا شديدٌ، وقعرُها بعيدٌ، وعُمقُها طويلٌ، لا يموت أهلها فيستريحوا، ولا تُقالُ عثرتُهم، ولا تُرحم عَبْرَتُهم، طعامُهم الزَّقومُ، وشرابُهم الحميمُ، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، ندموا حيث لا ينفعهم الندم، وعضُّوا على الأيدي أسفًا على تقصيرهم في طاعة الله وركوبهم لمعاصي الله، فقال منهم قائلٌ: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]، وقال قائلٌ آخر: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، وقال قائلٌ: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال قائلٌ: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٨]، وقالت فرقة منهم، ووجوههم تتقلب في أنواع من العذاب، فقالوا: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٦].

فهذه النار يا معشر المسلمين!! يا حملة القرآن!! حذَّرها الله المؤمنين في غير موضع من كتابه، رحمة منه للمؤمنين، فقال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حَسُن من فعله وما قَبُح منه، فما حذَّره مولاه حَذِره، وما خوَّفه من عقابه خافه، وما رغَّبه فيه مولاه رغب فيه ورجاه.

فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة، فقد تلاه حق تلاوته،

ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهدًا وشفيعًا وأنيسًا وحِرزًا؛ فإنْ كان هذا وصفه نفع نفسه ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كل خير في الدنيا والآخرة.

ثم ساق بسنده إلى سهل بن معاذ الجهني عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، أُلْبِسَ وَالِدَيْهِ تَاجًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ضَوْءُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ، فِي بُيُوتِ الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ فِيهِ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهَذَا؟».

وروي عن خيثمة قال: «مَرَّتِ امْرَأَةٌ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَقَالَتْ: طُوبَى لِحِجْرٍ حَمَلَكَ وَلِثَدْيٍ رَضَعْتَ مِنْهُ فَقَالَ عِيسَى: «طُوبَى لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ عَمِلَ بِهِ».

وروي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه: عن النبي ﷺ قال: «يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الرَّجُلِ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا الَّذِي أَظْمَأْتُ نَهَارَكَ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ».

وروي عن موسى بن أيوب، عن عمه إياس بن عامر، أن علي بن أبي طالب ؓ قال له: «إِنَّكَ إِنْ بَقِيتَ فَسَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٍ للهِ، وَصِنْفٍ لِلدُّنْيَا، وَصِنْفٍ لِلْجَدَلِ، فَمَتَى طُلِبَ بِهِ أُدْرِكَ».

ثم قال -رحمه الله: «قد ذكرت أخلاق الصِّنف الذين قرءوا القرآن يريدون الله ﷻ بقراءتهم، وأنا أذكر الصنفين اللذين يريدون بقراءتها الدنيا والجدل، وأصف أخلاقهم حتى يعرفها مَن اتقى الله فيحذرهما.

اخلاق مَن قرأ القرآن لا يريد به الله ﷻ:

قال -رحمه الله: فأما مَن قرأ القرآن للدنيا ولأبناء الدنيا، فإنَّ من أخلاقه أن

يكون حافظًا لحروف القرآن، مضيعًا لحدوده، متعظمًا في نفسه، متكبرًا على غيره، قد اتخذ القرآن بضاعة يتآكل به الأغنياء، وستقضي به الحوائج، يعظِّم أبناء الدنيا، ويحقِّر الفقراء، إنْ علم الغني رفق به طمعًا في دنياه، وإن علم الفقير زجره؛ لأنه لا دينا له يطمع فيها، يستخدم به الفقراء، ويتيه به على الأغنياء، إنْ كان حسن الصوت أحب أن يقرأ للملوك ويصلي بهم طمعًا في دنياهم، وإنْ سأله الفقراء الصلاة بهم ثقل عليه، لقلة الدنيا في أيديهم، إنما طلبه الدنيا؛ حيث كان ربض عندها، يفخر على الناس بالقرآن، ويحتج على مَن دونه في الحفظ بفضل ما معه من القرآن، فزيادة المعرفة بالقراءة من القراءات التي لو عقل لعلم أنه يجب عليه ألا يقرأ بها، فتراه تائهًا متكبرًا، كثير الكلام بغير تمييز، يعيب مَن لم يحفظ كحفظه، ومَن علم أنه يحفظ كحفظه طلب عيبه، متكبرًا في جلسته، متعاظمًا في تعليمه لغيره، ليس للخشوع في قلبه موضع، كثير الضحك والخوض فيما لا يعنيه، يشتغل عمن يأخذ عليه بحديث مَن يجالسه، هو إلى استماع حديث جليسه أصغى منه إلى استماع مَن يجب عليه أن يستمع له، يوري أنه لما يسمع حافظًا، فهو إلى كلام الناس أشهى منه إلى كلام الربِّ ﷻ، لا يخشع عند استماع القرآن، ولا يبكي ولا يحزن، ولا يأخذ نفسه بالفكر فيما يُتلى عليه، وقد ندب إلى ذلك.

راغب في الدنيا، وما قرب منها، لها يغضب ويرضى، إنْ قصر رجل في حقِّه قال: أهل القرآن لا يقصر في حقوقهم، وأهل القرآن تقضي حوائجهم، يستقضي من الناس حق نفسه، ولا يستقضي من نفسه ما لله عليه، ويغضب على غيره، زَعَمَ لله، ولا يغضب على نفسه لله، ولا يبالي من أين اكتسب من حرام أو

حلال، قد عظمت الدنيا في قلبه، إنْ فاته منها شيء لا يحل له أخذه حزن على فوته، لا يتأدب بأدب القرآن، لا يزجر نفسه عند الوعد والوعيد.

لاهٍ غافلٌ عما يتلو أو يُتلى عليه، هِمّته حفظ الحروف، إنْ أخطأ في حرف ساءه ذلك، لئلا ينقص جاهه عند المخلوقين، فتنقص رتبته عندهم، فتراه محزونًا مغمومًا بذلك، وما قد ضيَّعه فيما بينه وبين الله وما أمر به في القرآن أو ما نهي عنه غير مكترث به، أخلاقُه في كثير من أموره أخلاق الجُهَّال الذين لا يعلمون، لا يأخذ نفسه بالعلم بما أوجب عليه القرآن؛ إذا سمع الله تعالى قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، فكان الواجب عليه أن يلزم نفسه طلب العلم لمعرفة ما نَهى عنه رسول الله ﷺ فينتهي عنه.

قليل النظر في العلم الذي هو واجبٌ عليه فيما بينه وبين الله ﷻ، كثير النظر في العلم الذي يتزيّن به عند أهل الدنيا ليكرموه بذلك، قليل المعرفة بالحلال والحرام الذي ندبه الله إليه، ثم الرسول ﷺ، ليأخذ الحلال بعلم، ويترك الحرام بعلم، لا يرغب في معرفة علم النعم، ولا في علم شكر المنعم، تلاوته القرآن تدل على كبر في نفسه وتزين عند السامعين منه، ليس له خشوع، فيظهر على جوارحه، إذا درس القرآن أو درسه عليه غيره، هِمّته متى يقطع، ليس هِمّته متى يفهم؟ لا يتفكر عند التلاوة بضروب أمثال القرآن، ولا يقف عند الوعد والوعيد، يأخذ نفسه برضا المخلوقين، ولا يبالي بسخط ربِّ العالمين.

يحب أن يُعرف بكثرة الدرس، ويظهر ختمه للقرآن ليحظى عندهم، قد فتنه حُسْن ثناء من جهله، يفرح بمدح الباطل، وأعماله أعمال أهل الجهل، يتبع هواه فيما تحب نفسه، غير متصفح لما زجره القرآن عنه، إنْ كان ممن يُقرِئُ، غَضِبَ

عَلى مَن قرأ على غيره، إنْ ذُكر عنده رجل من أهل القرآن بالصلاح كَرِهَ ذلك، وإنْ ذُكر عنده بمكروه سرَّه ذلك، يسخر ممن دونه ويستهتر بمَنْ فوقه، يتبع عيوب أهل القرآن ليضع منهم ويرفع نفسه، يتمنى أن يخطئ غيره ويكون هو المصيب، ومن كانت هذه صفته؛ فقد تعرَّض لسخط مولاه الكريم.

وأعظم من ذلك، أن أظهر على نفسه شعار الصالحين بتلاوة القرآن، وقد ضيع في الباطن ما يجب لله، وركب ما نهاه عنه مولاه، كل ذلك بحب الرئاسة والميل إلى الدنيا، قد فتنه العجب بحفظه القرآن والإشارة إليه بالأصابع، إنْ مرض أحد أبناء الدنيا أو ملوكها؛ فسأله أن يختم عليه سارع إليه وسُرَّ بذلك، وإنْ مرض الفقير المستور، فسأله أن يختم عليه ثقل ذلك عليه[1].

يحفظ القرآن ويتلوه بلسانه، وقد ضيَّع الكثير من أحكامه، أخلاقه أخلاق الجُهَّال، إنْ أكل فبغير علم، وإنْ شرب فبغير علم، وإنْ نام فبغير علم، وإنْ لبس فبغير علم، وإنْ جامع أهله فبغير علم، وإنْ صحب أقوامًا أو زارهم أو سلَّم عليهم أو استأذن عليهم، فجميع ذلك يجري بغير علم من كتاب أو سُنة، وغيره ممن يحفظ جزءًا من القرآن مطالب لنفسه بما أوجب الله عليه من علم أداء فرائضه واجتناب محارمه، وإنْ كان لا يُؤْبَهُ له ولا يُشارُ إليه بالأصابع».

قال الآجري -رحمه الله:

«فمَن كانت هذه أخلاقه صار فتنةً لكلِّ مفتونٍ؛ لأنه إذا عمل بالأخلاق التي لا تحسن بمثله اقتدى به الجُهَّال، فإذا عيب على الجاهل، قال: فلان الحامل

---

(١) تنبيه: أمر الختمة على المريض أو الميت فيه خلاف كبير، والراجح أنه ليس له أصل، وهو غير معروف عند أكثر أهل العلم.

لكتاب الله فعل هذا، فنحن أولى أن نفعله، ومَن كانت هذه حاله؛ فقد تعرَّض لعظيم، وثبتت عليه الحجة، ولا عذر لديه إلا أن يتوب».

قلت: ومن أغرب ما سمعته من بعض إخواننا بما يصدق كلام الآجري -رحمه الله، أن بعض مَن عُرف بحفظ القرآن الكريم في بعض البلدان، ويقرأ في السرادقات عند أهل الميت، كان يلبس خاتمًا من ذهب، فقام هذا الناصح بتبليغه بحُرمة الذهب على الرجال، فردَّ في استعلاء: يباح للرجال ما لا يزيد على ثلاثة جرامات!! رباه أي جهل هذا، وأي فتنة هذه، رحماك يا كريم!!

ثم قال الآجري -رحمه الله:

«وإنما حداني على ما بيَّنت من قبيح هذه الأخلاق نصيحة مني لأهل القرآن، أن يتعلَّقوا بالأخلاق الشريفة، ويتجافوا عن الأخلاق الدنيئة، والله موفقنا وإياهم للرشاد».

* ثم ساق بسنده -رحمه الله- آثارًا كثيرة عن السلف منها: عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «لَقَدْ أَتَى عَلَيْنَا حِينٌ وَمَا نَرَى أَنَّ أَحَدًا يَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ يُرِيدُ بِهِ إِلَّا اللهَ، فَلَمَّا كَانَ هَاهُنَا بِأَخْرَةٍ، خَشِيتُ أَنَّ رِجَالاً يَتَعَلَّمُونَهُ يُرِيدُونَ بِهِ النَّاسَ وَمَا عِنْدَهُمْ، فَأَرِيدُوا اللهَ بِقُرْآنِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، وَإِنَّا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ، وَإِذْ يُنْبِئُنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَقَدْ مَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَانْقَطَعَ الْوَحْيُ، وَإِنَّمَا أَعْرِفُكُمْ بِمَا أَقُولُ: مَنْ أَعْلَنَ خَيْرًا أَجْبْنَاهُ عَلَيْهِ، وَظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا، وَمَنْ أَظْهَرَ شَرًّا بَغَضْنَاهُ وَظَنَنَّا بِهِ شَرًّا، سَرَائِرُكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللهِ ﷻ».

* ثم قال -رحمه الله تعالى: «فإذا كان عمر بن الخطاب ﷺ قد خاف على

قوم قرءوا القرآن في ذلك الوقت بميلهم إلى الدنيا، فما ظنك بهم اليوم، وقد أخبرنا النبي ﷺ أنه: «إِنَّهُ يَكُونُ أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقِيمُونَ الْقِدْحَ، يَتَعَجَّلُونَهُ، وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ، يَطْلُبُونَ بِهِ عَاجِلَةَ الدُّنْيَا، وَلَا يَطْلُبُونَ بِهِ الْآخِرَةَ».

* وساق بسنده أيضًا عن العباس بن عبد المطلب، قال: قال رسول ﷺ: «يَظْهَرُ هَذَا الدِّينُ حَتَّى يُجَاوِزَ الْبِحَارَ، وَحَتَّى يُخَاضَ بِالْخَيْلِ فِي سَبِيلِ الله، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، فَإِذَا قَرَءُوهُ قَالُوا: قَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟ فَمَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولَئِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ».

* وأيضًا عن ابن عمر -رضي الله عنهما، قال: «كُنَّا صَدْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْ خِيَارِ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ مَا مَعَهُ إِلَّا السُّورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ شِبْهُ ذَلِكَ، وَكَانَ الْقُرْآنُ ثَقِيلاً عَلَيْهِمْ وَرُزِقُوا الْعَمَلَ بِهِ، وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُخَفَّفُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ حَتَّى يَقْرَأَهُ الصَّبِيُّ وَالْأَعْجَمِيُّ فَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ».

* وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لَيُرَتِّلُ هَذَا الْقُرْآنَ قَوْمٌ يَشْرَبُونَهُ كَمَا يُشْرَبُ الْمَاءُ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ».

* وعن الحسن، قال: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَدْ قَرَأَهُ عَبِيدٌ وَصِبْيَانٌ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِتَأْوِيلِهِ، وَلَمْ يَتَأَوَّلُوا الْأَمْرَ مِنْ أَوَّلِهِ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩] وَمَا تَدَبُّرُ آيَاتِهِ إِلَّا اتِّبَاعُهُ، وَاللهُ يَعْلَمُ، أَمَا وَاللهِ مَا هُوَ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ، فَمَا أَسْقِطُ مِنْهُ حَرْفًا، وَقَدْ وَاللهِ أَسْقَطَهُ كُلَّهُ، مَا تَرَى الْقُرْآنَ لَهُ مِنْ خُلُقٍ وَلَا عَمِلٍ،

حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: إِنِّي لَأَقْرَأُ السُّورَةَ فِي نَفَسٍ وَاحِدٍ، وَاللهِ مَا هَؤُلَاءِ بِالْقُرَّاءِ وَلَا الْحُكَمَاءِ وَلَا الْوَرَعَةِ، مَتَى كَانَتِ الْقُرَّاءُ تَقُولُ مِثْلَ هَذَا؟ لَا أَكْثَرَ اللهُ فِي النَّاسِ مِثْلَ هَؤُلَاءِ».

* وبسنده أيضًا عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال: «يعملون به حق عمله».

* وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إِذِ النَّاسُ نَائِمُونَ، وَبِنَهَارِهِ إِذِ النَّاسُ مُفْطِرُونَ، وَبِوَرَعِهِ إِذِ النَّاسُ يَخْلِطُونَ، وَبِتَوَاضُعِهِ إِذِ النَّاسُ يَخْتَالُونَ، وَبِحُزْنِهِ إِذِ النَّاسُ يَفْرَحُونَ، وَبِبُكَائِهِ إِذِ النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِصَمْتِهِ إِذِ النَّاسُ يَخُوضُونَ».

ثم قال الآجري -رحمه الله تعالى-:

«هذه الأخبار كلها تدل على ما تقدَّم ذكرنا له من أن أهل القرآن ينبغي أن تكون أخلاقهم مُباينةً لأخلاق مَن سواهم ممن لم يعلم كعلمهم إذا نزلت بهم الشَّدائد لجئوا إلى الله فيها، ولم يلجئوا فيها إلى مخلوق، وكان الله سبحانه أسبق إلى قلوبهم، قد تأدَّبوا بأدب القرآن والسُّنة، فهم أعلام يقتدي بفعالهم؛ لأنهم خاصة الله وأهله، ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

* ثم ساق بسنده عن الفضيل بن عياض -رحمه الله تعالى- قال: «ينبغي لحامل القرآن ألا يتكون له حاجة إلى أحد من الخلق، إلى الخليفة فمن دونه، وينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه».

* وعن الفضيل أيضًا قال: «حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي له أن يلغو مع مَن يلغو، ولا يسهو مع مَن يسهو، ولا يلهو مع مَن يلهو».

* وعنه أيضًا قال: «إنما نزل القرآن ليُعمل به (أي: ليحلّوا حلاله، ويحرِّموا حرامه، ويقفوا عند متشابهه»، فاتخذ الناس قراءته عملاً».

* وبسنده أيضًا: كتب حذيفة المرعشي إلى يوسف بن أسباط: «بَلَغَنِي أَنَّكَ بِعْتَ دِينَكَ بِحَبَّتَيْنِ، وَقَفْتَ عَلَى صَاحِبِ لَبَنٍ فَقُلْتَ: بِكَمْ هَذَا؟ فَقَالَ: هُوَ لَكَ بِسُدُسٍ، فَقُلْتَ: لَا بِثُمُنٍ، فَقَالَ: هُوَ لَكَ، وَكَانَ يَعْرِفُكَ، اكْشِفْ عَنْ رَأْسِكَ قِنَاعَ الْغَافِلِينَ، وَانْتَبِهِ مِنْ رَقْدَةِ الْمَوْتِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ آثَرَ الدُّنْيَا لَمْ آمَنْ أَنْ يَكُونَ بِآيَاتِ اللهِ مِنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ».

* وعن ميمون بن مهران قال: «لو صَلُحَ أهلُ القرآن صَلُحَ الناسُ».

وبعد:

فهذه أخلاق أهل القرآن الذين أرادوا وجه الله والآخرة، والذين أرادوا الدنيا والرفعة عند المخلوقين، والله تعالى أسأل أن يرزقنا أحسنها، ويصرف عنا سيئها، إنه نعم المولى ونعم النصير.

* * *

أخلاق الذي يعلِّم الناس القرآن

قال الآجري -رحمه الله-:

«ينبغي لمن علَّمه الله كتابه، فأحبَّ أن يجلس في المسجد يُقرِئُ القرآنَ لله ﷻ، يغتنم قول النبي ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(١)، فينبغي له أن يستعمل من الأخلاق الشريفة ما يدل على فضله وصدقه، وهو أن يتواضع في نفسه إذا جلس في مجلسه، ولا يتعاظم في نفسه، وأحب له أن يستقبل القبلة في مجلسه؛ لقول النبي ﷺ: «أَفْضَلُ المَجَالِسِ مَا اسْتُقْبِلَ بِهِ القِبْلَةُ»(٢)، ويتواضع لمن يلقنه القرآن، ويقبل عليه إقبالاً جميلاً، وينبغي له أن يستعمل مع كلِّ إنسان يلقنه ما يصلح لمثله، إذا كان يتلقن عليه الكبير والصغير والحدث، والغني والفقير، فينبغي له أن يوفي كل ذي حق حقه، ويعتقد الإنصاف إنْ كان يريد الله بتلقينه القرآن، فلا ينبغي له أن يقرِّب الغني ويباعد الفقير، ولا ينبغي له أن يرفق بالغني ويخذق على الفقير، فإنْ فعل هذا؛ فقد جار في فعله، فحكمه أن يعدل بينهما، ثم ينبغي له أن يحذر على نفسه التواضع للغني، والكبر على الفقير، بل يكون متواضعًا للفقير مقربًا لمجلسه متعطفًا عليه، يتحبب إلى الله ﷻ بذلك».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد «الزهد»، (١/ ٢٩٥)، والحاكم في «المستدرك»، (٤/ ٣٠١)، والقضاعي في «مسند الشهاب»، (١/ ١٢٠)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي»، (٢/ ٦١)، والسمعاني في «أدب الإملاء»، (ص٤٤).

ثم ساق بسنده عن الربيع بن أنس ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]، قال: «يكون الغني والفقير عندك في العلم سواء».

ثم قال -رحمه الله-:

«ويتناول فيه ما أدَّب الله به نبيَّه ﷺ؛ حيث أمره أن يُقرِّب الفقير: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]، إذا كان قومٌ أرادوا الدنيا فأحبُّوا من النبي ﷺ أن يُدني منهم مجلسهم، وأن يرفعهم على مَن سواهم من الفقراء، فأجابهم النبي ﷺ إلى ما سألوا، لا لأنه أراد الدنيا، ولكنه يتألفهم على الإسلام، فأرشد الله نبيَّه ﷺ على أشرف الأخلاق عنده، فأمره أن يقرِّب الفقراء وينبسط إليهم، ويصبر عليهم، وأن يباعد الأغنياء الذين يميلون إلى الدنيا، ففعل ﷺ، وهذا أصل يحتاج إليه جميع مَن جلس يعلِّم الفقراء العلم، يتأدَّب به، ويلزم نفسه ذلك، إنْ كان يريد الله بذلك».

ثم قال -رحمه الله-:

«وأحبُّ لمن جلس يعلِّم القرآن إذا جاءه مَن يريد أن يقرأ عليه من صغير أو حدث أو كبير أن يعتبر كل واحد منهم قبل أن يلقنه من سورة «البقرة»، يعتبره بأن يعرف ما معه من سورة «الفاتحة» إلى مقدار ربع سبع أو أكثر مما يؤدي به صلاته، ويصلح أن يؤم به في الصلوات إذا احتيج إليه، فإن كان يحسنه وكان تعلمه في الكتاب أصلح من لسانه وقومه حتى يصلح أن يؤدي فرائضه، ثم يبتدئ فيلقنه من سورة «البقرة».

وأحبُّ لمن يُلقن إذا قُرئ عليه أن يحسن الاستماع إلى مَن يقرأ عليه، ولا يشتغل عنه بحديث غيره؛ فبالحري أن ينتفع به مَن يقرأ عليه، وكذا ينتفع به

أيضًا، ويتدبر ما يسمع من غيره، وربما كان سماعه للقرآن من غيره فيه زيادة منفعة وأجر عظيم، ويتأول قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فإذا لم يتحدَّث مع غيره وأنصت إليه أدركته الرحمة من الله، وكان أنفع للقارئ عليه، وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود ﷺ: «اقرأ عليَّ»، قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أُنزل؟! قال: «إني أحبُّ أَنْ أَسمعَهُ مِنْ غَيري».

وأحبُّ لمن كان يقرئ القرآن فأخطأ فيه أو غلط ألا يعنِّفه، وأن يرفق به، ولا يجفوا عليه، ويصبر عليه، فإني لا آمن أن يجفو عليه فينفر عنه، وبالحري ألا يعود إلى المسجد».

وساق بسنده عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «تعلَّموا العلم، وتعلَّموا للعلم السكنية والحلم، وتواضعوا لمن تعلَّمون، وليتواضع لكم مَن تعلِّمون، ولا تكونوا جبابرة العلماء، فلا يقوم علمكم بجهلكم»، فمَن كانت هذه أخلاقه انتفع به مَن يقرأ عليه».

ثم قال -رحمه الله-:

«إنه ينبغي لمن يقرئ القرآن لله ﷻ أن يصون نفسه عن استقصاء الحوائج ممن يقرأ عليه القرآن، وألا يستخدمه، ولا يكلفه حاجة يقوم فيها، أحب له إذا عرضت له حاجة سأل مولاه الكريم قضاءها، ثم يشكر لمن أجري ذلك على يديه، فإنَّ هذا واجب عليه».

* وساق بسنده -رحمه الله- عن الحسن بن الربيع، قال: «كُنتُ عند عبد الله

بن إدريس، فلما قُمْتُ قال لي: سَلْ عَن سِعْرِ الْأُشْنَانِ(١)، فلما مشيتُ ردَّني، فقال لي: لا تسأل، فإنك تكتب مني الحديث، وأنا أكره أن أسأل مَن يسمع مني الحديث حاجةً».

* وعن خلف بن تميم، قال: «مات أبي وعليه دين، فأتيت حمزة الزيات، فسألته أن يكلِّم صاحب الدين أن يضع عن أبي من دينه شيئًا، فقال لي حمزة: «ويحك، إنه يقرأ عليَّ القرآن، وأنا أكره أن أشرب من بيت مَن يقرأ عليَّ القرآن».

* وعن الفضيل بن عياض قال: «ينبغي لحامل القرآن ألا يكون له حاجة إلى أحد من الناس، إلى الخليفة فمن دونه، وينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه».

* وعن الربيع بن أنس، قال: «مكتوب في التوراة: علِّم مجانًا كما عُلِّمت مجانًا».

* وأيضًا روى بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عُرْفَاتِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

* إلى آخر ذلك من الآثار، فإنها بمجموعها تفيد استحباب تعليم القرآن لوجه الله، غير أن بعض السلف رخَّص في تعليمه بالأجر، وعليه معظم العلماء، أما قراءته بالأجر؛ فهذا محرَّمٌ بالإجماع، جعلنا الله من الذين يقرءون القرآن لا يريدون إلا وجه الله، ولا يبتغون إلا رضاه.

---

(١) الأُشْنَانُ: فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ، وَهُوَ فِي الْعَرَبِيَّةِ الْحُرُضُ أَوْ الْغَسُولُ الَّذِي تُغْسَلُ بِهِ الثِّيَابُ. وَشَجَرُ الأُشْنَانِ يُقَالُ لَهُ: الْحُرُضُ، وَهُوَ مِنَ الْحَمْضِ، وَمِنْهُ يُسَوَّى الْقِلْيُ الَّذِي تُغْسَلُ بِهِ الثِّيَابُ، وَيُحَرَّقُ الْحَمْضُ رَطْبًا، ثُمَّ يُرَشُّ الْمَاءُ عَلَى رَمَادِهِ، فَيَنْعَقِدُ وَيَصِيرُ قِلْيًا.

(٢) آداب حملة القرآن: للآجري -رحمه الله.

أسماء القرآن الكريم

للقرآن الكريم أسماء كثيرة أشهرها (القرآن)، ومنها:

الفرقان: وذلك لأنه فارق بين الحق والباطل، ولقد قال الله تعالى عنه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

الكتاب: وهو مصدر لكتب بمعنى الجمع والضم، أريد به القرآن الكريم؛ لجمعه العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

التنزيل: مصدر أريد به المنزل؛ لنزوله من عند الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

الذكر: سمِّي به القرآن؛ لاشتماله على المواعظ والزواجر، وقيل: لاشتماله على أخبار الأنبياء والأمم الماضية، وقيل: من الذكر بمعنى الشرف، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أي: شرف؛ لأنه نزل بلغتكم، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وهذه الأربعة هي أشهر الأسماء بعد لفظ (القرآن)[١].

* * *

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم: د/ محمد أبو شهبة.

كيف كان الصحابة يقسِّمون القرآن؟

روى أبـو داود -رحمه الله- في سننه (باب تحزيب القرآن الكريم)، قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ، كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده.

ومعنى ذلك: (ثلاث): أي: «البقرة»، و«آل عمران»، و«النساء».

و(خمس): أي: «المائدة»، و«الأنعام»، و«الأعراف»، و«الأنفال»، و«براءة».

و(سبع): أي: «يونس»، و«هود»، و«يوسف»، و«الرعد»، و«إبراهيم»، و«الحجر»، و«النحل».

و(تسع): أي: «الإسراء»، و«الكهف»، و«مريم»، و«طه»، و«الأنبياء»، و«الحج»، و«المؤمنون»، و«النور»، و«الفرقان».

و(إحدى عشر): أي: «الشعراء»، و«النمل»، و«القصص»، و«العنكبوت»، و«الروم»، و«لقمان»، و«السجدة»، و«الأحزاب»، و«سبأ»، و«فاطر»، و«يس».

و(ثلاث عشرة): أي: «الصافات»، و«ص»، و«الزمر»، و«غافر»، و«فصلت»، و«الشورى»، و«الزخرف»، و«الدخان»، و«الجاثية»، و«الأحقاف»، و«محمد»، و«الفتح»، و«الحجرات».

و(وحزب المفصل): أي: من أول سورة (ق) حتى آخر القرآن.

ومعنى ذلك أنهم كانوا يقسِّمون القرآن سبعة أجزاء فقط، لعلهم كانوا يختمونه كل أسبوع مرة لهذا التقسيم.

كيف نحفظ القرآن ونثبته في الصدور؟

* أكثر دائمًا من الدعاء بحفظ القرآن، فإنَّ القرآن كما قال محمد بن واسع: «بستان العارفين، فأينما حلوا منه حلوا في نزهة»، واعلمْ أن الإلحاح في الدعاء من أعظم آداب الدعاء، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ»[١]، وكما قيل: مَن أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له، ويمكنك -والله أعلم- أن تدعو بهذا الدعاء: «اللهم حفِّظني كتابك، واجعلني من العاملين العاملين به».

* لا يشغلنك الحفظ عن التلاوة، فإنَّ التلاوة وقود الحفظ.

* لماذا يحفظ كثير من المسلمين سورة «الكهف»؟ لأنهم يقرءونها في كلِّ أسبوع مرة، فإنْ استطعت أن تعامل سور القرآن كلها معاملتك سورة «الكهف» فافعلْ.

* يمكنك قبل الحفظ أن تصلي ركعتين لله تعالى: (صلاة الحاجة) تسأل الله فيها العون والصواب والإخلاص، ويا حبذا لو صليت أيضًا صلاة التوبة.

* قراءة تفسير الآيات التي تريد حفظها.

* اجعلْ وردك اليومي في القرآن مرتبطًا بالشهر العربي، أو الأسبوع، فبالنسبة للشهر العربي يمكنك قراءة جزء أو جزأين أو ثلاثة أجزاء في اليوم،

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل»، (١/ ١٢٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان»، (٢/ ١٤٥).

وأما بالنسبة للأسبوع؛ فيمكنك ختم القرآن في كلِّ أسبوع مرة، ومن المعلوم جواز ختم القرآن في ثلاثة أيام.

* لا تبدأ عملك اليومي في مدارسة العلم إلا بعد الانتهاء من ورد القرآن.

* اشترط مع نفسك أنه عند الإخلال بهذا الورد، تقوم بمعاقبتها بشيء مباح؛ كالصيام والصدقة ونحوهما، مع القيام به أيضًا.

* ويمكنك أن تلتزم بالقراءة في مصحف واحد، أي طبعة واحدة، لا تقرأ في غيرها من طبعات، وذلك حتى تتذكر مكان الآيات.

* احرصْ على أن تقرأ بما تحفظه في الصلاة، خاصة السُّنن، ويا حبذا صلاة الجماعة، خاصة صلاة الصبح، ويا حبذا أيضًا صلاة التراويح، مع مراعاة هدي النبي ﷺ في الصلاة ومقدار ﷺ فيها.

* داومْ على أذكار الصباح والمساء والنوم، وأيضًا المداومة على الإحراز التي تحفظك بإذن الله تعالى من الشيطان.

* في بداية الحفظ لا بدَّ من المراجعة على يد مجيد لتلاوة القرآن.

* لا تتخلفن عن مجالس العلماء، خاصة مجالس القرآن.

* عليك بالصاحب الذي يساعدك على ذلك الله، فإنَّ بعض الأصحاب إذا دعوته لتلاوة القرآن أخبرك بأنه يريد الانصراف لأمر ما، ولو أنك استرسلت معه في حديث غيره ما أخبرك بالانصراف، فاظفر بالصديق الذي يعينك على تلاوة القرآن؛ فإنه كنز نفيس.

* إذا صليت وراء إمام، وكنت تحفظ الآيات التي يتلوها في الصلاة، فقف

مستمعًا لا مصحِّحًا، فإذا أحسست أن الآيات قد تلتبس عليه، فادع الله له بقلبك دون تحريك الشفتين، ثم بعد ذلك كما قيل: «إنْ استطعمك الإمام فأطعمه»، ولتكنْ نيتك عند التصحيح إجلال كلام الله تعالى وحفظه، وإلا كما جاء في كتاب (الزهد) للإمام أحمد -رحمه الله- مرفوعًا: «مَن تكلم رياءً؛ فهو في سخط الله حتى يسكت».

* واعلمْ أن بداية العلم هو حفظ القرآن، وكلُّ آية تحفظها باب مفتوح إلى الله تعالى، وكلُّ آية لا تحفظها أو نسيتها باب مغلق، حال بينك وبين ربك، واعلمْ أن المسلم لو عرض عليه ملء الأرض ذهبًا لا يساوي نسيانه لأقصر سورة في القرآن، بل لا يساوي حرفًا واحدًا من كتاب الله ﷻ، فينبغي إذًا أن يكون حرصك على ما لا تحفظه من القرآن أكثر من حرصك على أقصر سورة في القرآن.

* المحافظة على الوضوء مع إحسانه، ومعنى الإحسان هنا اتباع هدي النبي ﷺ في الوضوء.

* المحافظة على الاستغفار والإكثار منه، فإنَّ نسيان القرآن من الذنوب.

* احذرْ الغرور، وتعلَّم القرآن، وتعلَّم للقرآن السكينة والوقار[1].

* * *

(١) مستفادٌ باختصار من كتاب (عون الرحمن في حفظ القرآن) لشيخنا أبي ذر القلموني.

حرمات القرآن الكريم

- من حرمته ألا يمس إلا على طهارة، وهذا هو الأحوط.
- أن يستاك له ويتخلل؛ لأن الفم هو طريق القرآن.
- أن تستقبل القبلة عند تلاوته.
- إذا تثاءب القارئ؛ فله أن يمسك عن القراءة.
- الاستعاذة في أوله.
- الخلوة عند قراءته حتى يفرغ له قلبه.
- عدم تقطيع القراءة بحديث الآدميين.
- أن يقرأ على تؤدة وترسيل وترتيل.
- أن يقف قارئه عند آيات الوعد والوعيد متعظًا متفكرًا راغبًا مستجيرًا.
- إتمام السور عند البدء فيها وعدم التقاط الآيات المتفرقة منه.
- يوضع على شيء مرتفع عند القراءة فيه، ولا يوضع على الأرض.
- عند وضع المصحف مع غيره من الكتب يكون هو أعلاها.
- لا يخلو يوم من الأيام إلا بالنظر فيه.
- عدم تأويل الآيات على أمور الدنيا التي تجري.
- عدم تلاوته منكسًا.
- لا يقرأ بالألحان والتطريب.
- تجليل تخطيطه عند كتابته، وحتى يظهر على غيره من الكلام.
- لا يقرأ في الأسواق ولا في مواطن اللغو واللغط.

- لا يُتوسّد، ولا يُرمي به، ولا يُعتمد عليه عند القيام.
- لا يخلط فيه ما ليس منه.
- لا يحلي بالذهب فتختلط به زينة الدنيا.
- لا يكتب على الحوائط ولا الجدران ولا الأرض.
- تحسين الصوت عند تلاوته.
- تعليم تجويده وطرق تعلمه أفضلها التلقين والتلقي.

هَدية لحافظ القرآن

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إِذِ النَّاسُ نَائِمُونَ، وَبِنَهَارِهِ إِذِ النَّاسُ مُفْطِرُونَ، وَبِوَرَعِهِ إِذِ النَّاسُ يَخْلِطُونَ، وَبِتَوَاضُعِهِ إِذِ النَّاسُ يَخْتَالُونَ، وَبِحُزْنِهِ إِذِ النَّاسُ يَفْرَحُونَ، وَبِبُكَائِهِ إِذِ النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِصَمْتِهِ إِذِ النَّاسُ يَخُوضُونَ».

الرسول ﷺ يبيِّن الثواب:

قال رسول الله ﷺ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ الله ﷻ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ»[(١)].

---

(١) رواه مسلم في «صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا»، باب: «فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ وَتَعَلُّمِهِ»، ح(٨٠٣).

تنبيه مهم نختم به الكلام:

لا نكتفي بالقرآن فقط ونترك السُّنة: فالسنة مصدر من مصادر الأحكام؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وعندما يرتب العلماء مصادر الشريعة قائلين: القرآن ثم السُّنة، فإنَّ هذا لترتيب في الذكر والشرف، ولا يؤخذ بمعنى أن السُّنة متأخرة في مصدريتها عن القرآن الكريم، ولقد عَنْوَن الخطيب البغدادي فصلاً من كتابه (الكفاية) فقال: «باب: ما جاء في التسوية بين حكم كتاب الله تعالى وحكم سُنة رسول الله ﷺ من حيث وجوب العمل ولزوم التكليف»(١).

ولا ريب أن السُّنة في معظمها تأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم من حيث ثبوتها؛ إذ القرآن الكريم كله متواتر، وقليل من السُّنة ما نقل بالتواتر، وأما ثبوتها من حيث إفادتها للأحكام الشرعية، فالقرآن يحلل والسنة تحلل، والقرآن يحرم والسُّنة تحرم، والقرآن الكريم يندب والسنة تندب، والقرآن الكريم يبيح والسُّنة تبيح، فالسنة مثل القرآن الكريم في التشريع وإفادة الأحكام.

وقد روى المقداد بن معد يكرب ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ، وَلَا كُلُّ

وبطحان العقيق: مكان بالمدينة، وكوماوين: أي اثنين من الإبل عظيمة السنام.

(١) الكفاية للخطيب البغدادي ص ٣٩.

ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ، وَلَا لُقَطَةٌ مِنْ مَالِ مُعَاهَدٍ، إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا»[١].

ولما كان القرآن الكريم كتاب تعبد وتلاوة كانت آياته محدودة، وكلماته معددة، وهو دستور مجمل، يُعنى بالكليات أكثر مما يُعنى بالفرعيات والجزئيات، وما ورد فيه من تفاصيل الأحكام قليل كما في آيات المواريث[٢]، ولذا فقد أحال القرآن الكريم على السُّنة لتبيِّن الأحكام، على وجه الابتداء، أو التفريع، أو النسخ.

والقرآن الكريم من غير سُنة لا يمكن فهمه، ولا يمكن تطبيقه، والذين يقبلون القرآن وحده، ويشككون في السُّنة إنما يحاربون القرآن بأسلوب ذكي، قد يغيب عن كثير من المسلمين، وهُمْ يعملون على تعطيل القرآن عن العمل، فالقرآن أحوج إلى السُّنة من السُّنة إلى القرآن، هكذا قال مكحول[٣].

وروى الخطيب البغدادي بسنده إلى الحسن أن عمران بن حصين ﷺ كان جالسًا ومعه أصحابه، فقال رجلٌ من القوم: لا تحدِّثونا إلا بالقرآن، قال: فقال له: ادن، فدنا، فقال: أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك إلى القرآن، أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعًا، وصلاة العصر أربعًا، والمغرب ثلاثًا، تقرأ في اثنتين؟ أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك إلى القرآن؟! أكنت تجد الطواف بالبيت

(١) رواه الترمذي (٥/ ٣٧)، وأبو داود (٥/ ١١)، ومحمد بن نصر في «السنة»، ص(١١٦).

(٢) حيث جاء في القرآن الكريم ثلاث آيات فقط في المواريث جمعت كل فقه المواريث في ثناياها، فسبحان من هذا كلامه، فكل ما تفرع بعد ذلك من كتب المواريث؛ فإنه من هذه الآيات الثلاث.

(٣) إمام أهل الشام، وأحد كبار التابعين توفي سنة (١١٣هـ) (تهذيب التهذيب، (١٠/ ٢٨٩)، وهذا الخبر جاء في «الكفاية»، ص(٤٧).

سبعًا، والطواف بالصفا والمروة؟! ثم قال: أي قوم، خُذوا عنا؛ فإنكم والله إلا تفعلوا لتضلن».

وهكذا يتبيَّن لنا أن القرآن لا يمكن أن نستغني به عن سُنة الرسول ﷺ، كما أنه لا تعرف أحكامه إلا من خلال السُّنة، وأنَّ الإسلام لا يتكامل بناؤه ونظامه إلا من خلال السُّنة، ورحم الله عبد الرحمن بن مهدي؛ إذ يقول: «الرجل إلى الحديث أحوج منه إلى الأكل والشرب»[(١)]، ولسنا مخيرين بأخذ السُّنة أو تركها، فلا إسلام بلا سُنة، وكما قال الإمام الشافعي -رحمه الله: «القرآن وعاء، والسُّنة غطاء»، ومعنى كلامه أن السُّنة هي الكاشفة عن معاني القرآن وأحكامه[(٢)].

***

(١) السنة: للإمام محمد بن نصر المروزي.
(٢) الفكر المنهجي عند المحدثين، د. همام عبد الحميد.

الخاتمة

وهذا آخر ما فتح الله تعالى به علينا من تلك المباحث التي نسأل الله -جلَّ في علاه- أن يتقبلها خدمة لكتابه، آملين أن نجد ثوابها يوم الدين، قاصدين بها التشويق إلى كتابه الكريم، ودفعًا لهمم الزاهدين فيه، وإيقاظًا لقلوب الغافلين عن قدر كتاب الله العظيم، فاللهم اجعلنا من أهل القرآن، واجعله لنا في الدنيا قائدًا إلى كلِّ الخيرات، ومرشدًا إلى كلِّ عمل صالح، واجعله مؤنسًا لنا في قبورنا إذا وارانا التراب، واجعلنا ممن يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويؤمنون بمتشابهه، ويعملون بمحكمه، يا رب العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على المبعوث رحمة للعالمين.

ربيع بن عبد الرءوف الزواوي

غفر الله له

الإسكندرية في ١٥/٦/١٤١٥هـ

***

ثبت مراجع الفصل الثاني
من هذا الباب

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير -رحمه الله.
- الواضح في أصول الفقه للأشقر.
- مناهل العرفان للزرقاني.
- أصول الفقه للدكتور أحمد محمود الشافعي.
- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.
- أضواء البيان للشنقيطي -رحمه الله- مع التتمة لعطية محمد سالم.
- مجموعة مقالات في علوم القرآن للدكتور محمد بكر إسماعيل نشرتها مجلة التوحيد.
- المدهش لابن الجوزي -رحمه الله.
- تفسير النسائي بتحقيق سيد الجليمي وصبري الشافعي.
- تفسير القرطبي (طبعة الشعب).
- العقيدة الطحاوية بشرح ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: الألباني.
- العقيدة الواسطية لابن تيمية -رحمه الله- بشرح الشيخ هراس.
- أخلاق حملة القرآن وأهله للآجري، بعناية: بسام عبد الوهاب الجابي.
- مقالات للشيخ محمد أبي شهبة نشرتها مجلة التوحيد.
- عون الرحمن في حفظ القرآن لأبي ذر القلموني.
- الفكر المنهجي في حفظ القرآن لأبي ذر القلموني.
- الفكر المنهجي عند المحدثين، دكتور همام عبد الرحيم.
- مجموع فتاوى ابن تيمية -رحمه الله.
- إغاثة اللهفان لابن القيم -رحمه الله.
- إعجاز القرآن للباقلاني.
- الفوز الكبير في أصول التفسير لولي الله الدهلوي.

* * *

الفصل الثالث
أسماء الله وصفاته الواردة في القرآن

تقديم:

الحمد لله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا، سبحانه تفرَّد بالكمال والجلال المطلقين، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

والصلاة والسلام على مَن بعثه ربه رحمة للعالمين، وهداية لمن جاء بعده إلى يوم الدين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

وبعد:

فقد وجدتُ الناس مولعين بجمع أسماء الله الحسنى، ومن الأسف أن فيها ما لم يأت في كلامه تعالى أو كلام نبيِّه ﷺ، يدفعهم في ذلك الولع حديث الرسول ﷺ الصحيح الثابت: **«إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»**[(١)].

وهأنذا قد استخرت الله تعالى بجمع ما ورد من أسمائه الحسنى وصفاته العليا في القرآن الكريم، فكان الذي بين يديك، سائلاً الله تعالى أن يفسح في

---

(١) رواه البخاري في «التَّوْحِيدِ»، باب: «إِنَّ لله مِائَةَ اسْمٍ إِلا وَاحِدًا..»، ح(٢٥٣١)، ومسلم في «الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ»، باب: «في أَسْمَاءِ الله تَعَالَى وَفَضْلِ مَنْ أَحْصَاهَا»، ح(٤٨٣٥).

العمر حتى أجمع ما ورد منها في أحاديث الرسول ﷺ.

وقد جعلتها مرتبة على الحروف الهجائية، فقدَّمت فيها ما جاء بالألف ثم الباء ثم التاء، وهكذا حتى الياء، ولم أجعله مقصورًا على الأسماء الحسنى التسعة والتسعين المتعارف عليها، بل ذكرت فيه كل صفة وكل نعتٍ نعتَ الله به نفسه في كتابه الكريم؛ مثل: ذي الطول، ذو العرش، له المثل الأعلى، ذو الجلال والإكرام، له الكبرياء، فالق الإصباح، فالق الحب والنَّوى، رب الفلق، فعَّال لما يريد، خير الفاتحين، فاطر السموات والأرض، خير الغافرين، غافر الذنب، غالب على أمره، ذي المعارج، وهكذا.

وقد ألحقناها أيضًا بكتابنا (معجم الأسماء التي وردت في القرآن الكريم)؛ حيث أفردنا أسماء الله تعالى وصفاته الحسنى في باب خاصٍّ، ولم أجعله مندرجًا تحت التقسيم الذي جعلنا الكتاب عليه هناك، والذي كنا قد استفدنا ترتيبه من كتاب العلامة الشيخ محمد إسماعيل إبراهيم -رحمه الله- (معجم الألفاظ والأعلام القرآنية).

هذا؛ والله تعالى أسأل أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره، وكلَّ مَن ساعد في إخراجه بالصورة التي بين يديك، والله وحده ولي كل توفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ونسأله -جلَّ وعلا- القبول.

ربيع عبد الرءوف الزواوي

مدينة نصر - القاهرة

* * *

- **الأحد والواحد**: الأحد والواحد من أسماء الله الحسنى، ومعناهما: الفرد المتصف بالوحدانية في الذات والصفات والأفعال والألوهية، وورد لفظ (أحد) في سورة [الإخلاص: ١]، ولفظ (الواحد) في سورة [الرعد: ١٦].

- **الآخر**: ضد الأول: والآخر: من أسماء الله الحسنى بمعنى: الباقي بعد كلِّ شيء؛ إذ لا نهاية ولا انتهاء له سبحانه؛ لأنه منزه عن الزمان، ورد اسم الآخر في سورة [الحديد: ٣].

- **الله**: لفظ الجلالة، علم على الذات العلية، وهو اسم جامع لكلِّ صفات الجلال والكمال، ونرجح أنه اسم الله الأعظم الذي قال فيه ﷺ فيما صحَّ عنه: «الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»[(١)]، وورد لفظ الجلالة (الله) تسعمائة وثمانين مرة في كتاب الله ﷻ.

- **المؤمن**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: واهب الأمن، أو أنه سبحانه المؤمن بعزته وجلاله، وورد اسم (المؤمن) في سورة [الحشر: ٢٣].

- **الأول**: ضد الآخر، وهو من أسماء الله الحسنى، بمعنى الأزلي الذي لا أوَّل له ولا ابتداء له مطلقًا، وورد الاسم الكريم في سورة [الحديد: ٣].

- **البديع**: من أسماء الله الحسنى، معناه الموجد للخلق على غير مثال، وورد لفظ (بديع السموات والأرض) في سورة [البقرة: ١١٧]،

---

(١) رواه أبو داود في «تَفْرِيعِ أَبْوَابِ الْوِتْرِ»، باب: «الدُّعَاءِ»، ح(١٤٩٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، ح(١٤٩٥).

والأنعام: ١٠١].

-**الباري**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى الخالق من العَدَم، وورد الاسم في سورة [الحشر: ٢٤]، وفي سورة [البقرة: ٥٤] مرتين.

-**البَرُّ**: من أسماء الله الحسنى، ومعناه الكثير الإحسان الذي فضله وخيره فوق ما يتصوَّره المتصدقون والمحسنون، وورد الاسم في سورة [الطور: ٢٨].

-**الباسط**: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: موسِّع الرزق، وناشر السحاب وماء الأرض، وغير ذلك من صفات العظمة والجلال، وورد اللفظ في سورة [المائدة: ٢٨].

-**البصير**: من أسماء الله تعالى الحسنى، بمعنى الخبير الذي يرى كلَّ شيء، وورد اللفظ في سورة [البقرة: ٩٦]، و[النساء: ٨٥].

-**الباطن**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: العالم بالسرائر والخفيات، والمحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم، وورد الاسم الكريم في سورة [الحديد: ٣].

-**التواب**: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: أنه هو الذي يوفِّق عباده إلى أسباب التوبة ويقبلها منهم، وورد اللفظ في سورة [البقرة: ٣٧، ٥٤، ١٨٧]، و[المائدة: ٣٩، ٧١]، و[الأنعام: ٥٤]، و[التوبة: ١٦٧، ١١٨]، و[هود: ١١٢]، و[مريم: ٦]، و[طه: ٨٢، ١٢٢]، و[الفرقان: ٢٧٠، ٢٧١]، و[القصص: ٦٨]، و[المجادلة: ١٣]،

و[المزمل: ٢٠].

-**الجبار**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الذي يجبر أمور عباده، أي: يصلحها، والذي يقهر الجبابرة ويخضعهم لإراداته، وورد الاسم الكريم في سورة [الحشر: ٢٣].

-**ذو الجلال**: ذو العظمة والاستغناء المطلق، وورد اللفظ في سورة [الرحمن: ٢٧، ٧٨].

-**المجيب**: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الملبي للدعاء، وورد الاسم الكريم في سورة [هود: ٦١]، و[الصافات: ٧٥].

-**الحسيب**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: مَن يقوم بالمحاسبة، وورد اللفظ في سورة [النساء: ٦٠، ٨٦]، و[الأحزاب: ٣٩].

-**الحفيظ**: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: العليم بما في الكون جملةً وتفصيلاً، وهو الذي يحفظه من التلف والاختلال والرقيب المحافظ، وورد اللفظ في سورة [هود: ٥٧]، و[سبأ: ٢١]، و[الشورى: ٦].

-**الحافظ**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الحفيظ مِنْ حَفِظَ الشيء: صانه ومنعه من الضياع والتلف، وورد الاسم الكريم في سورة [يوسف: ٦٤].

-**الحق**: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الثابت الوجود سرمدًا، مشتق مِنْ حَقَّ الأمر: ثبت ووجب وصحَّ، وورد الاسم الكريم في سورة [طه: ١١٤]، و[المؤمنون: ٧١].

-**الحكيم**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: ذو الحكمة البالغة المنطوية على إتقان التدبير وإحسان التقدير، وورد (الحكيم) واحدة وثمانين مرة، و(حكيمًا) ست عشرة مرة في القرآن الكريم.

-**الحليم**: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الذي لا يستفزه غضب ولا يعجل بعقوبة، بل يصفح ويسامح، وورد الاسم الكريم خمس عشرة مرة في كتاب الله تعالى.

-**الحميد**: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: المحمود الذي يستحق كل حمد وشكر على ما ينعم به دائمًا، وعلى كلِّ حالٍ، وورد الاسم الكريم في سورة [البقرة: ٢٩٧]، و[هود: ٧٣]، و[الحج: ٢٤]، و[النساء: ١٣١].

-**الحي**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الدائم الحياة، فلا يجوز عليه موت أو فناء؛ لأنه سبحانه واجب الوجود تلازمه الحياة السرمدية ملازمة أبدية، وورد الاسم الكريم في سورة [البقرة: ٢٥٥]، و[آل عمران: ٢]، و[طه: ١١١]، و[الفرقان: ٥٨]، و[غافر: ٦٥].

-**الخبير**: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: العالم بكافة الأشياء وبواطن الأمور والمطلع على مخلوقاته ظاهرًا وباطنًا، وورد الاسم الكريم ست وعشرين مرة في القرآن الكريم.

-**الخالق**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الذي خلق المخلوقات كلها بذاتها ونوعها على مقتضى إرادته وحكمته على غير مثال سابق، وورد

الاسم الكريم في سورة [الحشر: ٢٤].

-**الرءوف**: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الرحيم أشد رحمة، الذي يدفع السُّوء، وورد الاسم الكريم في سورة [البقرة: ١٤٣، ٢٠٧]، و[آل عمران: ٣٠]، و[التوبة: ١١٧، ١٢٨]، و[النحل: ٧، ٤٧]، و[الحج: ١٥]، و[النور: ٢٠]، و[الحديد: ٩]، و[الحشر: ١٠].

-**ربُّ العالمين**: من أسماء الله تعالى، ومعناه: المالك السيد والمصلح المنعم، والمربِّي، وورد الاسم في أكثر من ستمائة آية في القرآن الكريم.

-**الرحمن**: اسم من أسماء الله الحسني، ولا تقال إلا لله تعالى، والرحمة من الله: الإحسان منه -جلَّ وعلا، وورد الاسم الكريم في سورة [الإسراء: ١١٠]، و[الفاتحة: ٣]، و[الرَّحمن: ١]، وغيرها.

-**الرحيم**: اسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته تعالى، والرحمة من الله: الإحسان منه -جلَّ وعلا، وورد الاسم الكريم في سورة [الفاتحة: ٣]، وغيرها كثير جدًّا.

-**الرزاق**: اسم من أسماء الله الحسنى، بمعنى: خالق الأرزاق، والمتكفل بإمداد خلقه بها، وورد اللفظ في سورة [الذاريات: ٥٨].

-**رفيع الدرجات**: عظيم الصفات، أو رافع مقام عباده الصالحين، وورد اللفظ في سورة [غافر: ١٥].

الرقيب: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الحارس الحافظ، وورد اللفظ في سورة [النساء: ١٠]، و[الأحزاب: ٥٢].

-**السلام**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: واهب السَّلام والسَّلامة، وأنه الذي سلمت ذاته وصفاته وأفعاله من أيٍّ وصف لا يليق بجلاله وكماله، وورد الاسم الكريم في سورة [الحشر: ٢٣].

-**السميع**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: المدرك لكلِّ مسموع خلقه، وورد الاسم الكريم في سورة [الحجرات: ١]، و[الأعراف: ٢٠٠]، وغيرهما.

-**الشكور**: اسم من أسماء الله الحسنى، بمعنى: المثيب على الطاعة بخير الجزاء، وورد الاسم الكريم في سورة [البقرة: ١٥٨]، و[النساء: ١٤٧].

-**الشهيد**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الشاهد الحاضر الذي لا يغيب أبدًا، ولا يخفى عليه شيء، وورد الاسم الكريم في سورة [آل عمران: ١٨]، و[الحج: ١٧].

-**الصمد**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: السيد الأعلى الذي ليس فوقه أحد، والذي يعمد إليه الخلق في الحوائج والمطالب ويقصدونه؛ لأنه وحده الرفيع في الألوهية، وورد الاسم الكريم في سورة [الإخلاص: ٢].

-**المصور**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الذي أعطي كل الأشياء صورها، وجعلها على هيئات مختلفة من التصوير، وهو التخطيط والتشكيل في أدق صورة وأكمل تقويم، وورد الاسم الكريم في سورة [الحشر: ٢٤].

-**ذوالطول**: صاحب الفضل والإحسان والقدرة المطلقة والغنى الواسع،

وورد اللفظ في سورة [غافر: ٣].

- **الظاهر**: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: أنه هو الجلي وجوده، والذي علا فوق كلِّ شيء، والظاهر الآيات والآثار التي تدل على قدرته وعظمته بلا رؤية لذاته، وورد اللفظ الكريم في سورة [الحديد: ٣].

- **ذو المعارج**: أي صاحب المراقي إلى نهاية الكمالات وعلو الذات، أو هي أمكنة عروج الملائكة من سماء إلى سماء، وورد اللفظ مرة واحدة في سورة [المعارج: ٣].

- **ربُّ العرش**: هو الله -جلَّ جلاله، الذي وسع كرسيه السموات والأرض والأكوان جميعها، واستوى على العرش، استقر عليه واستولى وملك، وعرش الله لا تعلم حقيقته، وإنما أراد الله أن يدل على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره للعالم على الوجه الذي ألفه الناس من ملوكهم مع نفي التشبيه، والعرش: سرير الملك، ووردت (رب العرش) ست مرات، في سورة [التوبة: ١٢٩]، و[المؤمنون: ٨٦، ١١٦]، و[النمل: ٢٦]، و[الزخرف: ١٢].

- **ذو العرش**: هو الله ﷻ؛ بمعنى صاحب العرش وخالقه والمستوي عليه بما يليق بجلاله، وورد اللفظ في سورة [غافر: ١٥]، و[التكوير: ٢٠]، و[البروج: ١٥].

- **العزيز**: اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الغالب الذي لا يقهره شيء، وورد الاسم الكريم ثلاثة وتسعين مرة في القرآن الكريم.

- **العظيم:** من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الكبير، عَظُم الشيء: صار كبيرًا فخمًا.

- **عفوًا، العفو:** العفو: من أسماء الله الحسني، بمعنى: الذي يصفح عن الذنوب، ويترك العقاب إذا شاء، وورد الاسم الكريم خمس مرات في القرآن، في سورة [الحج: ٦٠]، و[النساء: ٤٣، ٩٩، ١٤٩]، و[المجادلة: ٢].

- **العليم:** من أسماء الله تعالى، بمعنى: الكثير العلم، ووردت مادة (علم) ثمانمائة وأربع وخمسين مرة في القرآن الكريم.

- **علام الغيوب:** العلام والعليم: الكثير العلم، وورد اللفظ أربع مرات، في سورة [المائدة: ١٠٩، ١١٦]، و[التوبة: ٧٨]، و[سبأ: ٤٨].

- **عالم الغيب:** هو الله ﷻ، والغيب: خلاف الشهادة، وكل ما غاب عن الإنسان وما لا يدركه، وأخبرنا الله ورسوله به، وورد اللفظ صراحةً ثماني مرات، في سورة [التوبة: ١٠٥]، و[الرعد: ٩]، و[المؤمنون: ٩٢]، و[السجدة:٦]، و[سبأ: ٣]، و[الزمر: ٤٦]، و[الحشر: ٢٢]، و[الجن: ٢٦]، كما ورد اللفظ غير صريح في آيات أخرى كثيرة.

- **عليم:** الله بكلِّ شيء عليم، فعلمه محيط بكلِّ شيء، وورد اللفظ في مائة وواحدة وأربعين آية.

- **العلي:** من أسماء الله الحسنى، بمعنى: المرتفع الغالب القاهر، وورد اللفظ ثمان مرات، في سورة [البقرة: ٢٥٥]، و[الحج: ٦٢]، و[لقمان:

٣٠]، و[سبأ: ٢٣]، و[غافر: ١٢]، و[الشورى: ٤، ٥١]، و[الزخرف: ٤]، وورد لفظ (عليًّا) في [النساء: ٣٤].

- **الأعلى**: من أسماء الله -جلَّ وعلا، بمعنى: الأسمى والأرفع، وورد اللفظ مرتين، في سورة [الأعلى: ١]، و[الليل: ٢٠].

- **له المثل الأعلى، ولله المثل الأعلى**: له سبحانه الوصف الأعلى في الكمال والجلال، وورد ذلك مرتين، في سورة [النحل: ٦٠]، و[الروم: ٢٧].

- **المتعال**: اسم من أسماء الله الحسنى، بمعنى: المستعلي على كلِّ شيءٍ، وورد الاسم الكريم مرة واحدة، في سورة [الرعد: ٩].

- **المستعان**: الذي يُطلب عونه، وهو الله -جلَّ جلاله، استعان فلانًا يستعينه: طلب منه العون، والله تعالى هو المستعان على ما يصفون، وورد اللفظ مرتين، في سورة [يوسف: ١٨]، و[الأنبياء: ١١٢].

- **الغفور**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الذي يستر الذنب ويعفو عنه، غفر الشيء: ستره وصانه من الدنس، وغفر الله ذنبه غفرًا وغفرانًا: ستره وعفا عنه؛ فهو غافر، وللمبالغة غفور وغفار، وورد الاسم الكريم اثنتين وسبعين مرة في القرآن الكريم.

- **الغفار**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: كثير الغفران، وهو مبالغة من غافر، بمعنى الذي يستر الذنب ويعفو عنه، وورد الاسم الكريم أربع مرات في القرآن، في سورة [طه: ٨٢]، و[ص: ٦٦]، و[الزمر: ٥]،

و[غافر: ٤٢].

- **غافر الذنب**: هو الله -جلَّ وعلا، يستر الذنوب ويعفو عنها، وورد اللفظ مرة واحدة في سورة [غافر: ٣٠].

- **خير الغافرين**: هو الله تعالى، بمعنى: خير مَن يستر الذنوب ويعفو عنها، وورد اللفظ مرة واحدة في سورة [الأعراف: ١٥٥].

- **غالب على أمره**: هو الله -جلَّ وعلا، ومعناه: أي لا يقهره شيء وهو قادر على تنفيذ كل ما يريد، وورد اللفظ مرة واحدة في سورة [يوسف: ٢١].

- **الغني**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: أنه لا يحتاج إلى أحد سواه، وكل أحد مفتقر إليه؛ غنى عن الشيء: لم يحتج إليه، وورد الاسم الكريم ثماني عشرة مرة في كتاب الله.

- **الفتاح**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعبادة، ويحكم بين الناس. فتح المغلق: أزال إغلاقه، وأصل الفتح: إزالة الإغلاق حسيًا أو معنويًا، فتح الله قلبه للأمر: شرح صدره له، وفتح الله عليه: هداه وأرشده، وفتح بين الخصمين: قضى بينهما، وفتح القضية: حكم فيها، ووردت مادة (فتح) ثمانية وثلاثين مرة، واسم (الفتاح) في سورة [سبأ: ٢٦].

- **خير الفاتحين**: هو الله -جلَّ وعلا، بمعنى: خير الحاكمين، ووردت مادة (فتح) ثمانية وثلاثين مرة، و(خير الفاتحين) في سورة [الأعراف: ٨٩].

- **فاطر السموات والأرض**: هو الله سبحانه، بمعنى موحد السموات والأرض ومبدعها، فطر الشيء: اخترعه، وفطر الله العالم: أوجده وأنشأه ابتداءه، وورد اللفظ ست مرات، في سورة [الأنعام: ١٤]، و[يوسف: ١٠١]، و[إبراهيم: ١٠]، و[فاطر: ١]، و[الزمر: ٤٦]، و[الشورى: ١١].

- **فعّال لما يريد**: هو الله -جلَّ وعلا، بمعنى: الكثير الفعل مع القدرة المطلقة، وورد اللفظ مرتين، في سورة [هود: ١٠٧]، و[البروج: ١٦].

- **ربُّ الفلق**: هو الله -جلَّ وعلا، فلق الله الصبح: أبداه وأوضحه، والفلق: الصبح ينشق من ظلمة الليل، وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، أي: من جميع المخلوقات؛ لأنه سبحانه فلق عنها ظلمة العدم وأخرجها إلى نور الوجود، وورد الاسم الكريم مرة واحدة في سورة [الفلق: ١].

- **فالق الإصباح**: مخرجه من الليل، وهو ﷻ الذي يشق الصبح عن ظلمة الليل، وورد الاسم الكريم مرة واحدة في سورة [الأنعام: ٩٦].

- **فالق الحب والنوى**: مخرج النبات منه ﷻ؛ فلق الله الحب عن النبات: أبداه وأوضحه، وورد اللفظ مرة واحدة في سورة [الأنعام: ٩٥].

- **القادر**: من أسماء الله -جلَّ وعلا- الحسنى، بمعنى: ذو القدرة، قَدرَ على الشيء: تمكن من تناوله، ووردت مادة (قدر) مائة واثنتين وثلاثين مرة في كتاب الله.

- **القدير**: من أسماء الله -جلَّ وعلا- الحسنى، بمعنى: ذو القدرة البالغة،

ووردت مادة (قدر) مائة واثنتين وثلاثين مرة في القرآن.

- **مقتدر:** المقتدر من أسماء الله -جلَّ وعلا- الحسنى، بمعنى: ذو القدرة البالغة، اقتدر على الشيء: قدر، ووردت مادة (قدر) مائة واثنتين وثلاثين مرة في القرآن.

- **القدوس:** من أسماء الله -جلَّ وعلا- الحسنى، بمعنى: الطاهر المنزَّه عن النقائص، تقدَّس الله: تنزَّه عما لا يليق بجلاله، وورد الاسم الكريم، مرتين في كتاب الله، في سورة [الحشر: ٢٣]، و[الجمعة: ١].

- **القاهر فوق عباده:** القاهر بمعنى الغالب المذل؛ قهر فلانًا: غلبه وأذله فهو قاهر، وورد اللفظ مرتين في سورة [الأنعام: ١٦، ٦١].

- **القهار:** من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الغالب الذي يرغم غيره على الانقياد لأمره، أراد أو لم يرد؛ لأنه لا يجد غلبته شيء؛ قهر فلانًا: غلبه وأذله، فهو قاهر، وقهار للمبالغة في القهر، وورد اللفظ ست مرات في [يوسف: ٣٩]، و[الرعد: ١١]، و[إبراهيم: ٤٨]، و[ص: ٦٥]، و[الزمر: ٤]، و[غافر: ١٦].

- **مقيتا،** المقيت: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: المقتدر الذي يعطي كلَّ شيء قوته، قات الشيء: أطاقه واقتدر عليه، وأقاته: أعطاه قوته، وورد اللفظ مرة واحدة في سورة [النساء: ٨٥].

- **القيوم:** اسم من أسماء الله الحسنى، بمعنى: القائم والحافظ لجميع شئون خلقه؛ قام على الأمر: دام وثبت، وقام للأمر: تولاه، وقام على أهله:

تولى أمرهم وقام بنفقاتهم، وورد اللفظ مرتين في سورة [البقرة: ٢٥٥]، و[آل عمران: ٢].

- **قائم على كلّ نفس**: القائم على كلِّ نفس: هو الله -جلَّ وعلا، بمعنى: الحافظ لجميع النفوس؛ قام للأمر: تولاه، وقام عليه: تولى أمره، وورد اللفظ في سورة [الرعد: ٣٣].

- **القوي**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: ذو القوة الذي لا يعجزه شيء، وورد الاسم إحدى عشرة مرة في القرآن الكريم.

- **المتكبر**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: المتعالي عن صفات الخلق، البليغ الكبرياء والعظمة، كبر يكبر: عظم، وأكبر فلانًا: أعظمه، وورد اللفظ في سورة [الحشر: ٣].

- **الكبير**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: العظيم ذو الكبرياء، كبر يكبر: عظم، وأكبر فلانًا: أعظمه، وورد اللفظ في سورة [الرعد: ٩].

- **له الكبرياء**: ذو الكبرياء هو الله -جلَّ وعلا، بمعنى: العظيم المتكبر، وورد اللفظ في سورة [الجاثية: ٣٧].

- **الكريم**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه، وهو الصفوح عن الزلات، والكريم: صفة لكلِّ ما يرضي ويحمد في بابه، ومنه وجه كريم، وكتاب كريم، ورزق كريم، عرش كريم، ووردت مادة (كرم) سبع وأربعين مرة في القرآن الكريم.

- **ذو الجلال والإكرام**: ذو الجلال: ذو العظمة والاستغناء المطلق، وذو

الإكرام: صاحب الإنعام والإحسان ﷻ، وورد اللفظ مرتين في سورة [الرحمن: ٢٧، ٧٨].

- **لم يكن له كفوًا أحد**: هو الله تعالى ليس له مماثل ولا مكافئ ولا نظير، والكفء: القوي القادر، وتقرأ بتخفيف الهمزة، كافأ فلانًا: ماثله وساواه في القدرة والمنزلة، وورد اللفظ مرة واحدة في سورة [الإخلاص: ٤].

- **كافي عبده**: أليس الله بكافٍ عبده، بمعنى: حافظه وحاميه وساد حاجته ومغنيه عن غيره فهو سبحانه كافٍ؛ كفاه الشيء كفاية: سدَّ حاجته واستغنى به عن غيره؛ فهو كافٍ، ويقال: كفى به، أي: فيه الكفاية، كفى الله فلانًا شرَّ كذا: حفظه وحماه منه، وورد اللفظ مرة واحدة في سورة [الزمر:٣٦].

- **اللطيف، لطيف، لطيفًا**: اللطيف من أسماء الله الحسنى، بمعنى: البر الذي يريد بعباده الخير ويوصله إليهم وهم لا يشعرون، لطف الله بعباده: أحسن إليهم وأنجاهم من الشدائد، وورد الاسم الكريم سبع مرات في القرآن الكريم في سورة [الأنعام: ١٠٣]، و[يوسف: ١٠٠]، و[الجمعة: ١٣]، و[لقمان: ١٦]، و[الشورى: ١٩]، و[الملك: ١٤]، و[الأحزاب: ٣٤].

- **المتين**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: ذو القوة والاقتدار الذي لا يلحقه تعب أو مشقة، وكيده المتين: القوي اللطيف الذي لا يغلب، متن الشيء: صلب واشتد وقوي؛ فهو متين، وورد الاسم الكريم مرة

واحدة في سورة [الذاريات: ٥٨]، وورد لفظ (متين) مرتين في سورة [الأعراف: ١٨٣]، و[القلم: ٤٥].

- **المجيد:** من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الوافر المدد، والعظيم في ذاته وصفاته، مجد فلان مجدًا: اتسع كرمه وشرفه، وصار ذا عزٍّ وشرف ومجد، فهو ماجد ومجيد، ومجد الله: عظَّمه وأثنى عليه، وورد الاسم الكريم مرتين في سورة [هود: ٧٣]، و[البروج: ١٥].

- **شديد المحال:** هو الله -جلَّ وعلا، بمعنى: شديد القوة أو شديد العقاب أو شديد المكر، فالمحال عمومًا هو القوة أو العقاب أو المكر، والمكر من الله سبحانه التدبير بالحق لإهلاك الجاحدين، وورد الوصف الكريم مرة واحدة في سورة [الرعد: ١٣].

- **ممدكم:** معينكم؛ مدَّ الجيش: أعانه بمدد يقويه، ومددته بمدد: قويته وأعنته به، ووردت الصفة الكريمة مرة واحدة في سورة [الأنفال: ٩].

- **خير الماكرين:** هو الله ﷻ، ومكر الله يراد به التدبير اللائق بكماله سبحانه، ومثله: فالله المكر جميعًا، ومكر الله، ومكرنا مكرًا، وهكذا، ووردت مادة (مكر) أربع وأربعين مرة في القرآن الكريم.

- **ملك، مالك، مليك:** الملك والمليك السلطان، والملك من أسماء الله الحسنى، بمعنى: المالك المطلق الذي لا ينازعه منازع، وهو جلَّ شأنه ذو الملك صاحب الأمر والسلطة، وورد اللفظ ثلاث مرات في سورة [الفاتحة: ٤]، و[آل عمران: ٢٦]، و[القمر: ٥٥].

- **ذو انتقام**: ينتقم ويعاقب من أذنب، فالانتقام: العقوبة الشديدة، نقم وانتقم منه: عاقبه على ذنب صدر منه وعابه، وصف الله ﷻ نفسه بهذه الصفة أربع مرات في سورة [آل عمران: ٤]، و[المائدة: ٩٥]، و[إبراهيم: ٤٧]، و[الزمر: ٣٧].

- **المهيمن**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الرقيب المسيطر على كلِّ شيء؛ هيمن على كذا: سيطر عليه وراقبه وحفظه، وورد الاسم الكريم مرة واحدة في سورة [الحشر: ٢٣].

- **الودود**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: المحب الكثير الود لعباده الصالحين، أو المحبوب في قلوب أوليائه؛ ودَّ فلانًا ودًّا ووِدادًا ومودةً: أحبه وهويه، وودِدت كذا: تمنيته ورغبت فيه، وتوادا في الله: تحابا فيه تعالى، وتودَّد إليه: تحبَّب، وورد الاسم الكريم مرتين، في سورة [هود: ٩٠]، و[البروج: ١٤].

- **خير الوارثين**: الوارث من أسماء الله الحسنى بمعنى أنه هو الباقي الدائم الذي يرث الأرض ومَن عليها بعد فناء الخلق، ووردت (خير الوارثين) و(نحن الوارثون) في سورة [الحجر: ٢٣]، و[الأنبياء: ٨٩].

واسع، واسعًا: الواسع: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الكثير العطاء، أو المحيط بكلِّ شيء علمًا، أو الذي وسع رزقه جميع خلقه، ومعنى ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، أي: قادرون قدرة واسعة، ويرى بعض المعاصرين أن في هذا الوصف القرآني دلالة على أن عملية الخلق الكوني وتوسيع أرجاء الكون مستمرة دائمة على ما أثبتته النظريات

العلمية الحديثة عن الكواكب السديمية، وهو رأي جدير بالتأمُّل، وسع الله رزقه: بسطه وكثره وأغناه، ووسع الشيء سعة: لم يضق، ووسعت رحمة الله كلَّ شيء: اتسعت وشملت جميع الخلق، ولم يضق بشيء، وورد اللفظ تسع مرات في كتاب الله في سورة [البقرة: ١١٥، ٢٤٧، ٢٦١، ٢٦٨]، و[آل عمران: ٧٣]، و[النساء: ١٣٠]، و[المائدة: ٥٤]، و[النور: ٣٢]، كما وصف نفسه سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ في سورة [الذاريات: ٤٧].

-**الوكيل، وكيلاً**: الوكيل من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الكفيل بأرزاق العباد، أو مَن يصرِّف أقدارهم ويكفيهم، وورد الاسم الكريم ست وعشرين مرة في القرآن الكريم.

-**المولى**: الربُّ والمالك، وكلُّ مَن ولي أمرًا أو قام به، والناصر والمدبر؛ وليه يليه: دنا منه وقرب، وولاه الشيء وعليه ولاية: ملك أمره وقام به، وولي فلانًا: نصره أو أحبه، وردت مادة (ولي) مائتين وثماني وثلاثين مرة.

-**الوهاب**: من أسماء الله الحسنى، بمعنى: الكثير العطايا والمنن من غير عوض ولا غرض؛ وهب له الشيء: أعطاه إياه بلا عوض؛ فهو واهب ووهاب، وورد الاسم الكريم ثلاث مرات في سورة [آل عمران: ٨]، و[ص: ٩، ٣٥].

***

خاتمة

هذا ما يسَّر الله تعالى وفتح به، وهذه محاولة لوصول إلى تحقيق حديث المعصوم ﷺ: «إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[1]، سائلين اللهَ ﷻ أن يملأ قلوبنا إيمانًا به وتوكلاً عليه؛ فإنَّ ذلك هو المقصود من وراء دراسة أسماء الله تعالى وإحصائها، وليس لحفظها عن ظهر قلب وترديدها بلا وعي، بل وإنشادها والتغني بها.

فاللهم إنا نسألك بكلِّ اسم هو لك، سواء علمناه أو جهلناه، سمَّيت به نفسك، أو أنزلته على أحد من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تتقبل منا، وأن تجزينا خيرًا عن هذا العمل، وإنْ كان لا يرقى لبلوغ الأمل، فإنك تجزي الكثير عن القليل، كما عودتنا وكما وعدتنا، وأن تجزي كلَّ مَن قرأه، أو أهداه أو شارك فيه، إنك نعم الولي ونعم النصير.

ربيع بن عبد الرءوف الزواوي

١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧م

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

الفصل الرابع
الأنبياء والرسل الذين ورد ذكرهم في القرآن

المقدمة:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيد الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإنَّ أفضل من خلقهم الله من جنس الإنسان الذي كرَّمه وجعله خليفته في أرضه هُمْ أنبياء الله ورسله -عليهم جميعًا الصَّلاة والسَّلام، وفي قصصهم ودعوتهم لأقوامهم العبر الكثيرة والمواعظ النافعة.

ولما كان أنبياء الله ورسله أكثر من أن يحصيهم محصٍ أو يعدهم عاد، فقد اكتفينا في هذا المختصر بذكر مَن ذكرهم الله ﷻ في القرآن الكريم.

والأنبياء كما رُوي عن المعصوم ﷺ أنهم مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، وأما الرُّسل منهم؛ فثلاثمائة وثلاثة عشر، روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثَلاثُمِائَةٌ وَبِضعةَ عَشَرَ، جَمًّا غَفِيرًا»، وفي رواية أبي أمامة ﷺ قال أبو ذر ﷺ: قلت: يا رسول الله، كم وفاء عدد الأنبياء؟ قال: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُ مِائَةٍ

وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا» صحَّحه الألباني -رحمه الله- في (مشكاة المصابيح).

وقد ذكر الله تعالى خمسة وعشرين نبيًّا ورسولاً في القرآن الكريم، ذكر منهم في سورة «الأنعام» ثمانية عشر، والباقي في سور متفرقة، ومن هؤلاء الخمسة والعشرين أربعة من العرب؛ هم: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد ﷺ، كما جاء ذلك في (صحيح ابن حبان) عن أبي ذر ﷺ مرفوعًا: «مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْعَرَبِ: هُودٌ، وَشُعَيْبٌ، وَصَالِحٌ، وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ».

وقد اختلف العلماء في ثلاثة ممن ذكرهم القرآن الكريم: هل هُمْ أنبياء أم لا؟ وهُمْ: ذو القرنين وتُبع والخضر.. فذهب طائفة من أهل العلم إلى أن ذا القرنين نبي من الأنبياء، وكذلك تُبّع، والأرجح أن نتوقف في إثبات النبوة لهما؛ لما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا أَدري أَتبعٌ أَنبيًا كَانَ أَم لَا؟ وَمَا أَدرِي أَذَا القَرنين أَنبِيًا كَانَ أَم لَا؟» أخرجه الحاكم بسند صحيح، وأما الخضر؛ فالراجح أنه نبيٌّ؛ لقول الله تعالى في آخر وصفه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، أي: أنه قد أوحي إليه في ذلك الفعل.

وسنذكر الأنبياء والرُّسل -عليهم السَّلام- بترتيب أزمان بعثتهم، فنذكرهم على هذا الترتيب:

(آدم - إدريس - نوح - هود - صالح - إبراهيم - لوط - إسماعيل - إسحاق - يعقوب - يوسف - شعيب - أيوب - ذو الكفل - موسى - هارون - داود - سليمان - إلياس - اليسع - يونس - زكريا - يحيى - عيسى - محمد -عليهم جميعًا الصَّلاة والسَّلام).

وقد استخرجنا هذه الترجمة المختصرة لكلِّ نبيٍّ من كتابنا (معجم الأسماء

التي وردت في القرآن)، والذي كُنَّا قد صنَّفناه على ترتيب العلامة محمد إسماعيل إبراهيم -رحمه الله- في كتابه الماتع (معجم الألفاظ والأعلام القرآنية)، فنذكرهم هنا على ترتيب بعثتهم لا على ترتيب المعجم، كما ذكرناهم هناك.

وقد آثرنا الاختصار والاقتصار على ما ورد هناك، وختمنا هذه الكوكبة المباركة بمحمد -عليه الصلاة والسلام، واكتفينا بالاختصار في الكلام عنه كذلك؛ لعدة أسباب: الأول: تمشيًا مع باقي إخوته الأنبياء والمرسلين الذي سبقوه -عليهم جميعًا الصَّلاة والسَّلام. والسبب الثاني: أن سيرته مشهورة والمؤلفات فيها كثيرة ومتوفرة، والحمد لله. والسبب الثالث: والذي اكتفي به ليكون أخيرًا؛ لأن الهدف من الكتاب الترجمة للأنبياء والرُّسل الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم مع الإشارة إلى عدد مرات ذكرهم والإشارة إلى أماكن الورود إذا كانت في الإمكان، ولم تتجاوز عشر مرات مثلاً.

آدم عليه السلام:

هو أبو البشر، وأول رجل خلقه الله تعالى على هيئته من صلصال من حمأ مسنون، أي: من طين أسود مُنتن، ثم جعل ذريته تمر في خلقها بأطوار من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آخر ما جاء في القرآن الكريم، وبعد أن تكون جسم آدم عليه السلام من الصلصال، نفخ فيه ربُّ العزة من روحه مودعًا إياه سرًّا من أسراره يحيا به، ثم علَّمه الأسماء كلها، وجعله مستعدًا لمعرفة خصائص الأشياء التي تقع تحت حِسِّه.

وقد شاءت إرادة الله تعالى أن يستخلفه في الأرض؛ ليقوم بهداية ذريته إلى

توحيد الله ﷻ وعبادته، وقد أمر الملائكة أن تسجد له سجود تحية وتكريم، وأمر إبليس معهم بالسجود له، فسجد الملائكة كلهم امتثالاً لأمر الله إلا إبليس أبى واستكبر، فطرده الله من رحمته، وأبعده من جنته، وأسكن آدم وزوجه حواء الجنة، وأباح لهما التمتُّع بكلِّ ما فيها من خيرات وطيبات، ونهاهما عن الاقتراب من شجرة معينة وعن الأكل من ثمارها، ولكن إبليس الذي كان قد حقد على آدم؛ لأنه سبب طرده وشقاوته، أراد أن ينتقم منه، فوسوس إليه هو وزوجه أن يأكلا من الشجرة المحرَّمة عليهما، وأقسم مؤكدًا لهما أنها شجرة الخُلد التي لا يموت من أكل منها، فغوى آدم وأخطأ وجه الصواب لاعتقاده أن أحدًا لا يقسم بالله كذبًا، فغضب الله عليهما وسلبهما نعمته، وأنزلهما من الجنة التي كانا بها إلى الأرض، ليعيشا فيها وذريتهما مع إبليس وذريته أعدائهم، عيشة فيها التعب والعناء، بعد ذلك تلقي آدم من ربه كلمات، فتاب عليهما وحذَّرهما من إبليس وجنوده، وأعلمهما أن طور النعيم الخالص الذي مر بهما في الجنة قد انتهى، وأنه هو وذريته قد دخلوا في طور آخر من حياة أرضية فيها طرق الخير والشر ليختار كل ما يشاء، وورد ذكر آدم عليه السلام خمس وعشرين مرة في القرآن الكريم.

إدريس عليه السلام:

أول مَن أعطى النبوة بعد آدم عليه السلام هما إدريس وشيث -عليهما السلام، وكان إدريس عليه السلام أول من خَطَّ بالقلم، وقد أدرك من حياة آدم عليه السلام ثلاثمائة سنة وثماني سنين، وقد ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مرَّ به في السماء الرابعة التي رفعه الله إليها، وفي بعض الروايات أن إدريس عليه السلام

كان أول الأنبياء، ثم تلاه نوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل، وإسحاق، ثم يعقوب، ثم يوسف، ثم لوط، ثم هود، ثم صالح، ثم شعيب، ثم موسى وهارون، ثم إلياس، ولكن الترتيب الذي ذكرناه في هذا الكتاب أصحُّ، والله أعلم، وورد اسم إدريس مرتين في كتاب الله تعالى؛ في سورة [مريم: ٥٦]، وفي سورة [الأنبياء: ٨٦].

نوح عليه السلام:

هو ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ، من ذرية شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام، وهو أول الرسل بعد آدم عليه السلام، كما جاء في حديث الشفاعة عن أبي هريرة رضي الله عنه في (صحيح مسلم): «**يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ**»[١].

وتتلخص قصته حسب نصوص القرآن في أنه عليه السلام أُرسل إلى قوم كانوا يعبدون الأصنام: (ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا، وغيرها)، فلما حذَّرهم وأنذرهم عاقبة كفرهم كذَّبوه بعد طول الإقناع والجدال، وزادهم نصيحته لهم نفورًا وعنادًا، ولما يئس منهم دعا ربه أن يهلكهم، فأمره الله عز وجل أن يصنع سفينة تحمله هو ومَن آمن معه، وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه وهو يبني السفينة سخروا منه، فلما حان وقت إهلاكهم فاضت الأرض بمائها الجوفي، وهطلت السماء، وعمَّ الفيضان جميع اليابس وأغرقه.

وكان نوح عليه السلام قد جمع أتباعه في السفينة وسارت بهم، ولم يركب ابن نوح عليه السلام معهم؛ لأنه كان مع الكافرين، ولبثت السفينة عائمة في موج كالجبال إلى

---

(١) رواه مسلم في «الإيمان»، باب: «أدنى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً فِيهَا»، ح(١٩٤).

أن ابتلعت الأرض ماءها، واستوت السفينة على الجُودِيِّ، وهو جبل بالموصل أحد جبال أراراط في ديار بكر والمتصل بجبال أرمينية، وقال الله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، وخرج نوح عليه السلام ومَن معه من السفينة، وبارك اللهم فيهم فكثروا وملئوا الأرض، ولبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وورد ذكر نوح عليه السلام في القرآن ثلاث وأربعين مرة.

هود عليه السلام:

هو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وقيل غير ذلك، وقد أرسله الله تعالى إلى قوم عاد في أرض الأحقاف شمالي حضرموت، جنوبي الجزيرة العربية؛ حيث نشأ بينهم، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها، كما كان يفعل قوم نوح عليه السلام من قبل، وكان هود عليه السلام من أوسط قومه نسبًا وأصبحهم وجهًا، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وألا يظلم بعضهم بعضًا، ولكنهم أبوا وعتوا وكذَّبوه وضربوه حتى أسالوا الدماء منه، وقالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وخفة عقل.. فخرج من بينهم ودعا الله أن يبتليهم بالقحط والجدب، فأمسك الله عنهم المطر، فهلك الحرث والأنعام، وبعد ذلك عاد إليهم يعظهم ويذكرهم لعل الله أن يرفع عنهم ما نزل بهم من البلاء، ولكن قلوبهم كانت كالحجارة أو أشد قسوة، وقالوا له في تحدٍّ وعنادٍ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٠]، فأرسل الله عليهم ريحًا عاصفًا، فلما رأوه قالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فقال لهم هود عليه السلام: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥]، واستمرت الريح العقيم

سبع ليالٍ وثمانية أيام حسومًا، فأهلكتهم وأبادتهم، وهذه هي قصة عاد.

وورد اسم هود عليه السلام سبع مرات في القرآن الكريم في سورة [هود: ٥٠، ٥٨، ٦٠، ٨٩]، و[الأعراف: ٦٥]، و[الشعراء: ١٢٤].

صالح عليه السلام:

نبي الله صالح عليه السلام، هو عبد الله ورسوله الذي بعثه إلى ثمود، وهي قبيلة مشهورة باسم جدهم ثمود أخي جديس وهما (ثمود وجديس) من أبناء عامر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، كانوا عربًا من العاربة، يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام، فدعاهم نبيهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله وحده، فآمنت طائفة وكفرت طائفة، وقد عاش صالح عليه السلام بين قومه ينصح لهم فآذوه بالمقال والفعال، وهمّوا بقتله، ثم إنهم طلبوا منه أن يخرج لهم من قلب الجبل ناقة لكي يصدقوا دعوته، فتوجه صالح عليه السلام إلى ربّه يدعوه أن يظهر للناس هذه المعجزة، فاستجاب له ربُّه، وخرجت هذه الناقة من الصخر شاهدة على قدرة الله تعالى، ولكنَّ فريقًا من الكافرين قتلوا الناقة، فأنزل الله عليهم عقابه المهلك، ونجا صالح عليه السلام ومَن معه من المسلمين، وورد اسم نبي الله صالح عليه السلام تسع مرات في القرآن الكريم، في سورة [الأعراف: ٧٣، ٧٥، ٧٧]، و[هود: ٦١، ٦٢، ٦٦، ٨٩]، و[الشعراء: ١٤٢]، و[النمل: ٤٥].

إبراهيم عليه السلام:

هو خليل الله عليه السلام، وأبو الأنبياء؛ لأن من ذريته أنبياء كثيرين، وُلد إبراهيم عليه السلام بأرض بابل بالعراق، وهو من سلالة سام بن نبي الله نوح عليه السلام، وكان أهل بابل يعبدون الكواكب والأصنام، ويألهون مَلِكَهم النمروذ بن كنعان،

وكان والد إبراهيم عليه السلام آزر ينحت الأصنام لقومه ويتولى خدمتها، لكن إبراهيم عليه السلام نشأ سليم العقيدة، بعيدًا عن الشِّرك، وقد آتاه الله رشده، فمقت الأصنام، وحارب عبادتها، ودعا إلى نبذها، وإلى عبادة الله الواحد الأحد، وبيَّن لقومه أنها لا تنفع ولا تضر، فأبوا وأصروا على ضلالهم، فانتهز إبراهيم عليه السلام فرصة عيد لهم، خرجوا فيه للتنزُّه فدخل إلى أوثانهم فحطَّمها، فأمر الملك بحرقه، فرموه في النار، لكن الله عز وجل جعل عليه النار بردًا وسلامًا، ثم رحل وزوجه سارة إلى الشام، ثم إلى مصر، فأراد فرعون مصر الاستحواذ والاعتداء على زوجه، فصانها الله -جلَّ وعلا- منه، فأطلق سراحها وأهدى إليها جارية اسمها (هاجر) لخدمتها، ثم عاد إبراهيم عليه السلام بهما إلى فلسطين، ولما كبر إبراهيم عليه السلام، ولم يُرزق الولد من زوجته (سارة) وهبته جاريتها (هاجر)، فأنجبت له ولده (إسماعيل) عليه السلام، وأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يرحل إلى مكة بإسماعيل عليه السلام وأمه؛ حيث موضع البيت الحرام، فكان من قصة زمزم ما كان.

وقد زار إبراهيم عليه السلام مكة مرتين بعد ذلك، في المرة الثانية أمره الله ببناء البيت، وساعده إسماعيل -عليهما السلام- في بنائها، ورزق الله تعالى إبراهيم وزوجه سارة بعد أن شاخا ولدهما إسحاق عليه السلام وبشَّرهما بولده يعقوب عليه السلام، وورد ذكر نبي الله إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم تسع وستين مرة.

إسماعيل عليه السلام:

نبي الله إسماعيل عليه السلام هو الابن الأكبر لنبي الله إبراهيم عليه السلام، وأمه هاجر، ذهب به إبراهيم عليه السلام كما تقدَّم في الكلام عن إبراهيم عليه السلام إلى مكة، فعاش فيها وكبر، وتزوَّج من قبيلة (جرهم)، وكان أبوه عليه السلام يتردد على زيارته من حين

لآخر؛ لحبه الشديد له، وكان إسماعيل عليه السلام بارًّا بأبيه أشد البرّ، وفي إحدى الليالي رأى إبراهيم عليه السلام في منامه أنه يذبحه، ولما كانت رؤيا الأنبياء حقًّا؛ امتثل إبراهيم وولده لأمر الله تعالى، وكان من قصتهما ما كان، وفدى الله تعالى الذبيح عليه السلام بكبش، وفي إحدى الزيارات له أمره الله تعالى ببناء الكعبة، فقام إبراهيم وإسماعيل ببنائها، ومن ذرية إسماعيل عليه السلام نبينا محمد ﷺ، وورد ذكر إسماعيل عليه السلام في القرآن اثنتي عشرة مرة في القرآن الكريم.

إسحاق عليه السلام:

إسحاق عليه السلام هو الابن الثاني لنبي الله إبراهيم عليه السلام خليل الله، بعد ميلاد أخيه إسماعيل عليه السلام، وُلد إسحاق وأبوه شيخ في المائة من عمره، وأمه السيدة سارة، وكانت في التسعين من عمرها!! وكانت تعجب من أمر الله أن تلد وهي عجوز عاقر، ولما بلغ إسحاق الأربعين: تزوَّج من (رفقا) بنت عمه، وكانت هي الأخرى عاقرًا، فدعا إسحاق ربه أن يرزقه الذرية، فحملت زوجته وولدت غلامين توأمين، جاء أولهما (عيصو) وهو الذي تسميه العرب (العيص)، ونزل الثاني آخذ بعقب أخيه، فسُمِّي (يعقوب) وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل، وهو والد رسول الله يوسف عليه السلام، وكان (عيصو) آثرًا عند أمه بينما كان (يعقوب) أحب إلى أبيه، مات إسحاق عند مائة وثمانين عامًا، وقد عَمِي في أواخر أيامه، ودُفن مع والده إبراهيم الخليل في المغارة التي كانت له، ورد اسم إسحاق سبع عشرة مرة في كتاب الله تعالى.

يعقوب عليه السلام:

بعث اللهُ ﷻ إسحاق بن إبراهيم -عليهما السلام- نبيًّا ورسولاً بالأرض

المقدسة، فأقام بها ثمانين عامًا، ورُزق على الكبر غلامين توأمين هما: (عيصو) و(يعقوب)، وكان يعقوب أثيرًا ومحبوبًا عند أمه، وحدث أن دعا إسحاق لابنه يعقوب بالبركة وهو يظنه (عيصو)؛ لأنه كان كفيف البصر، فحقد (عيصو) على أخيه وأراد به شرًّا، فخشيت أمه أن يبطش به، فأشارت إليه أن يرحل إلى خاله، فذهب إليه وأقام عنده يخدمه نظير تزويجه بابنته (راحيل)، ولكن خاله أدخله على ابنته (ليئة) التي لا يريدها يعقوب، فكلَّم خاله في ذلك، فقال له: اخدمني عشر سنين أخرى لأزوِّجك (راحيل)، ففعل وتزوَّج بها، ثم تزوَّج من جاريتها زلفى ويلها، ومنهن كان أولاده، ما عدا يوسف وبنيامين، فكانا من أمها راحيل، وستأتي قصة يعقوب مع قصة ابنه يوسف -عليهما السَّلام.

ويعقوب ﷺ هو إسرائيل وأصله بالعبرية: يسرائيل، ومعناه: المدافع عن الله، وهو تركيب عبراني، وهو ابن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام، وبنو إسرائيل: هم أبناء يعقوب وذريتهم، والاسم يطلق بصفة عامة على قوم موسى ﷺ، وهم اليهود أو العبرانيون، وقد سُمُّوا بالعبرانيين؛ لأنهم عبروا نهر الأردن في إحدى تنقلاتهم القديمة، وكانوا يعيشون عيشة البداوة قبل استقرارهم في أرض كنعان، وورد ذكر يعقوب ﷺ ست عشرة مرة في القرآن الكريم، وورد لفظ إسرائيل في القرآن ثلاث وأربعين مرة.

يوسف ﷺ:

هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ، وكان يوسف وشقيقه بنيامين في حجر أبيهما يعقوب بعد موت أمهما راحيل، ولذا كان شديد العطف عليهما، فأثار ذلك غيرة أخوته لأبيه، وقد بُعث يوسف ﷺ وآتاه الله النبوة

وهو بمصر بعد أن دخلها صغيرًا مع القافلة التي أخرجته من الجُبِّ؛ حيث ألقاه أخوته كيدًا وحسدًا، وقد باعته هذه القافلة لعزيز مصر، فنشأ يوسف في بيته، ويقال: إنه فوطيفار رئيس شرطة مدينة صان، قرب بحيرة المنزلة، وكان ملك مصر وقتئذٍ من العمالقة الذين وفدوا على مصر قبل بعثة إبراهيم عليه السلام بها، وقد قصَّت سورة «يوسف» ما جرى له، وهو ناشئ يكيد له إخوته، ثم وهو سجين، وقد أظهر الله سبحانه طهارته وبراءته، وأخيرًا وهو رسول يبلغ رسالة ربه، ومدبر لأمور مصر يتولى التصرُّف في مواردها وخزائنها، وقد أجبرت المجاعة التي انتشرت بين سكان الأقطار المجاورة لمصر أن يقصدوها للتموُّن منها، وقد جاء إخوة يوسف عليه السلام مع مَنْ وفَد على مصر لشراء الغِلال، فعرفهم يوسف عليه السلام وطلب إليهم إحضار أبيهم، ثم إنه عفا عن إساءتهم له، وبعد ذلك جاء يعقوب عليه السلام وآله، وسكنوا مصر وعاشوا بها يعملون في خدمة فرعون وقومه، ولم يخرجوا منها إلا في عهد موسى عليه السلام إلى أرض سيناء، وورد ذكر يوسف عليه السلام سبع وعشرين مرة في القرآن الكريم.

شُعَيب عليه السلام:

قيل: في نسبه أنه ابن ميكيل بن يشجن، أو أنه ابن يشخر بن لاوي بن يعقوب، وقيل غير ذلك، ويقال: إنَّ أمه بنت لوط عليه السلام، وقد آمن شعيب بإبراهيم عليه السلام، وهاجر معه بعد نجاته من النار إلى الشام، وقد بعثه الله سبحانه إلى أهل مدين، وهم من سلالة إبراهيم عليه السلام، وكانوا يسكنون قريبًا من معان بأطراف الشام (بالأردن الآن)، وهم أصحاب الأيكة، وهي شجرة أيك في بقعة كثيرة من الأشجار بين ساحل البحر الأحمر ومدين. وقيل: إنه بعث لأهل

مدين ولأصحاب الأيكة، وأصحاب هذا القول يرون أن أهل مدين غير أصحاب الأيكة، ولكن الأكثر على أنهم واحد.. أخذ شعيب يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك ما كانوا عليه من الإفساد في الأرض وتطفيف الكيل والميزان والابتعاد عن المنكر، ولكنهم عصوا فأهلكهم الله بظلمهم.

قال السدي وعكرمة: «إنَّ شعيبًا أُرسل إلى أمتين، أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة، وأنه لم يبعث نبي مرتين إلا شعيب ﷺ، واختار ابن كثير أنهما أمة واحدة.

كان من صفات نبي الله شعيب ﷺ أنه كثير الصلاة، وأنه حليم رشيد يحسن الخطابة، حتى عُرف بخطيب الأنبياء، وكان غاية في التلطُّف في دعوته مع قومه ﷺ، وورد ذكر شعيب ﷺ إحدى عشرة مرة في القرآن الكريم.

أيوب ﷺ:

أيوب ﷺ نبي من ذرية إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام، كان يعيش ببلاد الروم، وقيل: في بلاد آدوم الواقعة في شمال خليج العقبة ببلاد الشام، وهو مضرب الأمثال في الصبر، ويصوِّر لنا القرآن الكريم ابتلاء أيوب بالضر الذي أصابه بالأذى في جسده وماله وأهله، وأن الشيطان وسوس له كثيرًا ليفتنه، وينال من إيمانه بعد أن فقد أولاده، وزالت نعمته، ولكنه كان مثالاً للصبر الجميل والإيمان الراسخ، حتى قال الله تعالى عنه في كتابه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وكان أيوب ﷺ قد حلف أن يضرب زوجته بعد أن يشفيه الله من مرضه لشيء حدث بينهما، فلما أذن الله تعالى بشفائه قال له ربُّه: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢].

فلما ضرب الأرض برجله تفجَّرت العين واغتسل بمائها، وشرب منها فبرئ من مرضه، فقال الله تعالى له: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤]، أي: خُذْ حزمة من الحشيش عدد عيدانها مائة عود واضرب بها زوجتك حتى تبر بقسمك، ثم أعاد الله تعالى إليه ما ذهب عنه من مال وولد، وورد اسم أيوب ﷺ أربع مرات في كتاب الله تعالى في سورة [النساء: ١٦٣]، و[الأنعام: ٨٤]، و[الأنبياء: ٨٣]، و[ص: ٤١].

ذو الكفل ﷺ:

يرى جمهور العلماء أن ذا الكفل ﷺ كان عبدًا صالحًا من بني إسرائيل ولم يكن نبيًّا، وقد وردت في شأنه أحاديث في (صحيح الترمذي) وغيره، منها ما يذكر أنه كان عاصيًا لا يتورع من ذنب عمله، ثم تاب توبةً نصوحًا، ومات بعد توبته في ليلته، فغفر الله له، ومنها ما يذكر أنه كان خلفًا لنبي الله اليسع ﷺ في بني إسرائيل حين كبرت سنه، ومنها ما يذكر أنه هو ذكريا ﷺ بكفالته لمريم، إلى غير ذلك من الأقوال، والقول الأول أولى بالصواب فيما نرى، والله أعلم، وورد الاسم مرتين في سورة [الأنبياء: ٨٥]، و[ص: ٤٨].

موسى ﷺ:

موسى بن عمران ﷺ من رسل الله الكرام أولي العزم، ولد من نسل لاوي سبط يعقوب ﷺ، وكانت ولادته بمصر وتربى في قصر فرعون حتى شبَّ وكبر، وأصبح يشار إليه، كما كان شأن يوسف ﷺ من قبل، ولكنه اضطر إلى ترك وطنه مصر فرارًا من وجه فرعون لما اشتدت إساءته لبني إسرائيل، وذهب إلى أرض مدين؛ حيث عاش هناك أجيرًا لشيخ كبير (يرى البعض أنه شعيب

عليه السلام) يرعى غنمه، ويقوم على خدمته عشر سنوات، فزوَّجه إحدى ابنته، ورضي موسى بهذه الحياة على ما فيها من تعب وشظف، وفضلها على الحياة المترفة في ظل فرعون، الذي طغى وفرض نفسه إلهًا يعبده الناس من دون الله تعالى.

وبعد أن أتم موسى عليه السلام الأجل المتعاقد عليه في خدمة الشيخ عاد إلى وطنه مصر، وفي أثناء سَيره إليها ضلَّ الطريق في طور سيناء ووقف حائرًا لا يدري أين يتوجه حتى أبصر من الجهة التي تلي جبل الطور نارًا، فيمَّم نحوها، وهناك في تلك البقعة المباركة نُودي: يا موسى، ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]، فكان ذلك بدء نبوته عليه السلام وفاتحة رسالته، وأمره ربه سبحانه أن يذهب إلى فرعون ليهديه إلى عبادة ربه الأعلى، فطلب موسى عليه السلام من ربِّه أن يؤيده بأخيه هارون؛ لأنه كان أفصح منه لسانًا، وقد أعطاه ربه من البراهين على صدق دعوته معجزتين؛ إحداهما في عصاه، والأخرى في يده.

وقد جاهد موسى عليه السلام في تبليغ دعوته ونشر رسالته، ولكن فرعون لم يؤمن بعد أن رأى من آيات ربه الكبرى ما جعل الناس والسحرة يؤمنون، فتوعدهم فرعون بالعذاب، فقالوا له: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٢-٧٣]، وقد سلَّط الله على فرعون ومَن تبعه من قومه الطوفان والجراد القمل والضفادع والدم، وكانت آيات تدل على صدق موسى عليه السلام، فتوسلوا إليه أن يدعو ربه ليكشف عنهم البلاء، فلما كشف الله عنهم البلاء رجعوا إلى ضلالهم، وعندئذٍ أمر الله موسى عليه السلام أن ينادي بني إسرائيل

بالرحيل عن مصر فارتحلوا.

فلما سمع فرعون برحيلهم، وكانوا من خيرة الفلاحين والصُّنَّاع تعقَّبهم بجنوده، فلما وصل موسى ﷺ إلى خليج السويس أوحى إليه ربه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق وصار فيه اثنا عشر طريقًا، فسار موسى فيها أمامهم وهارون من خلفهم، وبلغ فرعون وجنوده البحر ورأوا تلك الطرق، وبدءوا السير فيها، فأطبق عليهم الماء وأغرقهم، ولما أدرك فرعون الغرق: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، ولكن هيهات، وأنجا الله بدنه ليكون عبرة لمن يعتبر من المشركين والكافرين.

وقد ذكر القرآن الكريم لموسى ﷺ عدة قصص دخوله الأرض المقدسة وقصته ولادته، وغير ذلك من القصص، وورد اسم موسى ﷺ مائة وست وثلاثين مرة في القرآن.

هارون ﷺ:

كان هارون أخًا لموسى -عليهما السلام، وقد شدَّ الله به أزره؛ لأنه كان أفصح لسانًا من موسى ﷺ، وتأتي قصته في القرآن في سياق وقائع موسى مع بني إسرائيل لما واعد موسى قومه ثلاثين ليلة لميقات ربه ﷻ، وزاده الله عشر ليالٍ، فصارت أربعين ليلة، وجعل موسى أخاه هارون ﷺ خليفة له في قومه وقت غيابه عنهم، فلما لم يرجع موسى إلى قومه بعد ثلاثين ليلة حلَّت الفتنة بين بني إسرائيل إذا كان في صفوفهم السامري وهو من عظمائهم من بلدة السامرة، وعاش معهم في مصر، وكان منافقًا، فقال لمن مع هارون من القوم: إنَّ موسى لن يرجع إلينا بعد أن تمَّ الميقات. وصنع لهم من الحُلي الذهبية -التي أخذوها

من أهل مصر باسم الاستعارة- عجلاً جسدًا له خوار، وقال لهم: هذا ربكم. فعكف على عبادته أغلب اليهود، فنهاهم هارون عن ذلك، وقال لهم: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٠]، فقالوا له: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

فلما رجع إليهم موسى عليه السلام اشتد غضبه، وسقطت الألواح التي جاءهم بها، وهي ألواح التوراة فانكسرت، وأخذ برأس أخيه هارون ولحيته يؤنبه، ولما أدرك بنو إسرائيل أنهم فُتنوا وضلوا ندموا على ما فعلوا واستغفروا ربهم، وورد اسم هارون عليه السلام عشرين مرة في القرآن الكريم.

داود عليه السلام:

ظل بنو إسرائيل بعد نبيهم موسى عليه السلام مدة ثلاثمائة وست وخمسين سنة ليس لهم ملك يحكمهم، وفي خلال هذه المدة كانوا عرضة لغزوات جيرانهم من العمالقة والآراميين والفلسطينيين، وفي نهاية هذه المدة حكمهم (طالوت) ودخل في حرب ضد الفلسطينيين الذين هُمْ من ضمن الأجناس البحرية التي جاءت من بحر إيجة، وسيطروا على الإقليم الساحلي، واستطاعوا أن يهزموا العبرانيين، وأن يستقروا في بعض معاقلهم وحصونهم في المناطق الجبلية الداخلية، وتمكنوا من الاستيلاء على تابوت العهد منهم.

وفي تلك الأثناء ظهر في بني إسرائيل شابٌّ متحمس لقتال أعداء قومه، وهو داود، واستطاع على حداثته أن يقتل جالوت أشجع إبطال الأعداء، فكافأه طالوت زعيم العبرانيين بأن زوَّجه ابنته، ودخل داود في معارك أخرى خرج فيها منتصرًا، فزاد إعجاب قومه به وطلبوا زعامته بدلاً من طالوت الذي

فكَّر في التخلُّص منه بالغدر، ولكن الله أيَّد داود بنصره وآتاه الملك والنبوة، وقد اتخذ القدس عاصمة لملكة الذي اتسع إلى درجة كبيرة، وأنزل الله تعالى عليه الزبور، وهو عبارة عن مجموعة من القصائد والأناشيد تتضمن تسبيح الله تعالى وتحميده والثناء عليه، وكان داود عليه السلام يلحِّنها ويرددها بصوته الجميل، فتأخذ بمجامع القلوب وأتت الجبال والطيور ترد تسابيحه التي عُرفت بالمزامير، وقد علمه ربه كيف يصهر الحديد ويلينه، ويصنع منه دروعًا يلبسها وقت الحرب، وقد رُزق داود بولده سليمان، فكان معه في مجلس القضاء يعلِّمه كيف يحكم بين الناس، وهو شابٌّ في الثامنة عشرة، وورد اسم داود ست عشرة مرة في القرآن الكريم.

سليمان عليه السلام:

نبي من أنبياء الله تعالى، وملك من ملوك بني إسرائيل، خلف أباه داود عليه السلام الذي أشركه معه منذ صغره في الحكم والقضاء، وقد ظهرت مواهب سليمان عليه السلام ورجاحة عقله، ولما كبر أتاه الله النبوة، واتسع ملكه، وتوافرت له أسباب العظمة ومظاهر الأبهة، وقد خصَّه الله سبحانه بخصوصيات خارقة للعادة، فقد علَّمه منطق الطير، وسخَّر له الريح، كما سخَّر له الجن تقضي حاجاته، وتصنع له العجائب، وقد أتم سليمان بناء هيكل أورشليم الذي وضع أساسه أبوه، ويعتبر عصر نبي الله سليمان عليه السلام عصر الخوارق والعجائب، وفي القرآن الكريم قصص تشير إلى ذلك، منها: قصة الهدهد وملكة سبأ، وقصة وادي النمل وقصة موته، وقد لُقب سليمان عليه السلام بالحكيم، وورد اسم سليمان سبع عشرة مرة في القرآن الكريم.

إلياس ﷺ:

نبي من أنبياء بني إسرائيل، من نسل هارون ﷺ، أرسله الله -تبارك وتعالى- إلى قومه بني إسرائيل، ويرى بعض المفسرين أنه هو ذو الكفل، وإلي ياسين (إلياسين) نبي أيضًا، أو أنه جمع للفظ إلياس، وقد ورد ذكر إلياس في التوراة باسم (إيليا)، وكان قومه يعبدون صنمًا يقال له: (بعل)، وقيل: إنهم كانوا في بعلبك بالشام، ولكنهم كذَّبوا وعصوا، فأراهم الله العذاب الأليم. وقد ورد ذكر إلياس في القرآن الكريم ثلاث مرات في سورة [الأنعام: ٨٥]، و[الصافات: ١٢٣، ١٣٠].

اليسع ﷺ:

نبي الله في بني إسرائيل، وهو من ذرية إبراهيم ﷺ، ولم يُعلم أنه أُنزل عليه كتاب سماوي، بل كان يعمل بصحف إبراهيم وبالتوراة، وقيل: إنَّ إلياس استخلفه على بني إسرائيل، وورد ذكر اليسع ﷺ مرتين في القرآن الكريم في سورة [الأنعام: ٨٦]، و[ص: ٤٨].

يونس ﷺ:

نبي الله يونس ﷺ من المرسلين، يونس بن متَّى، ويُعرف عند أهل الكتاب باسم (يونان ابن أمتاي) أرسله ربه إلى قوم ليسوا من عشيرته لهدايتهم، ويقول بعض المفسرين: إنهم أهل نينوى، ولما يئس من هدايتهم وظن أن الله لا يلزمه بالبقاء معهم والصبر على إيذائهم وعنادهم تركهم هربًا، ولم ينتظر أمر الله بمفارقتهم، ثم إنه أوى إلى سفينة مشحونة بالمسافرين وركب معهم، ولكن السفينة اضطربت وكادت تغرق حتى اضطر رُكَّابها أن يقترعوا على مَن يُلقى

في البحر منهم، فخرجت القرعة على يونس، وألقوه في اليم، فالتقطه حوت عظيم، وشاء الله أن يمكث يونس في بطنه يسبِّح ويستغفر إلى أن نبذه الحوت بالعراء، وهو سقيمٌ، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فكبرت حتى ظللته، فلما ذوت وماتت حزن عليها يونس، وهي لا قيمة لها، وقال له ربه: لقد أشفقت على يقطينة، أفلا أشفقت على أهل قرية فيها أكثر من مائة ألف لإنقاذهم من الضلال، ثم أرسله إليهم فآمنوا به، وورد اسم يونس ﷺ أربع مرات في القرآن الكريم في سورة [النساء: ١٦٢]، و[الأنعام: ٨٦]، و[يونس: ٩٨]، و[الصافات: ١٣٩]، وهو أيضًا ذو النون، أي: صاحب الحوت، وسُمِّي بذلك لابتلاع الحوت له، ثم إخراجه من جوفه، وورد ذكر (ذو النون) مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة [الأنبياء: ٨٧].

زكريا ﷺ:

نبي من أنبياء بني إسرائيل، وهو من ذرية إبراهيم خليل الله ﷺ، وهو والد نبي الله يحيى ﷺ، وزوج خالة مريم، وقد ذكره الله في قصة امرأة عمران والدة مريم، لما نذرتها لخدمة بيت المقدس، وجاءت بها خُدَّامه، فكل واحد منهم أراد أن يكفلها، وألقوا القرعة على ذلك، فكانت من نصيب زكريا ﷺ، فقام بأمرها وهو زوج خالتها، فبنى لها غرفة في المحراب أسكنها فيها، وكان كلما دخل غرفتها وجد عندها رزقًا من ثمرات غير معهودة في وقتها، فيسألها عنه فتقول: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وكان زكريا ﷺ يعلم أن مواليه وبني عمومته أشرار لا يعملون بالشريعة، لذلك تاقت نفسه أن يكون له ولد صالح يخلفه، فدعا ربه ألا يذره فردًا،

فاستجاب الله له، وبشَّرته الملائكة بولده (يحيى)، وكاد لا يصدق؛ لأنه تجاوز التسعين وامرأته عاقر، فسأل ربَّه أن يجعل له آية، فقال له ربه: آيتك أن يعجز لسانك عن النطق مع الناس ثلاثة أيام، ويكون كلامك معهم بالرمز والإشارة، وقد شبَّ يحيى وترعرع، وكان خير خليفة لأبيه، وورد اسم زكريا سبع مرات في القرآن الكريم.

يحيى عليه السلام:

هو يحيى بن زكريا -عليهما السلام، وكان زكريا قد بلغ من الكِبَر عِتيًّا، أي: بلغ بسبب كبر سنه حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها، وهي اليبس والصلابة في العظام، وكانت امرأته عاقرًا، وخشي على قومه بني إسرائيل أن يبتلوا بحكم مواليه من بعدهم وهم لا يعملون بالشريعة ولا يتمسكون بها، فدعا ربه أن يرزقه ذرية طيبة، فنادته الملائكة أن الله يبشرك بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين، وحملت زوجته بيحيى، ولما شبَّ نشأ على أكمل أوصاف التقى والصلاح، وصار نبيًّا في سن الثلاثين من عمره، وكان يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب، وكان يعمدهم، أي: يغسلهم في نهر الأردن تطهيرًا لهم من خطاياهم، وقد اعتمد منه المسيح، ولذا فهو يسمَّى (يوحنا المعمدان)، وقد مات يحيى عليه السلام مقتولاً بيد حاكم فلسطين الذي كان يريد الزواج من ابنة أخيه، فعارضه يحيى عليه السلام في ذلك، فقتله، وذكر اسم يحيى عليه السلام خمس مرات في كتاب الله تعالى.

عيسى عليه السلام:

هو عبد الله ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، ولا غرابة في

خلق عيسى عليه السلام بغير أب؛ لأن الله قادر على كلِّ شيء، خلق آدم عليه السلام من تراب، وعيسى عليه السلام هو آخر الأنبياء قبل نبيِّنا محمد ﷺ، وهو آخر أنبياء الله ورسله من بني إسرائيل، ولدته أُمه مريم بنت عمران في بيت لحم بفلسطين، على عهد إمبراطور الرومان (أوغسطس) قيصر، وكان الحاكم على بلاد سورية من قِبَله وقتئذٍ الطاغية (هيرودس)، وعاش عيسى عليه السلام معظم أيام حياته في بلدة الناصرة، وقد علَّمه ربه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وكان وهو غلام صغير يحضر مجالس الأحبار والرهبان من علماء اليهود، ويحاورهم ويناظرهم، فيتغلب عليهم ويفحمهم.

وقد رحلت به أمه مع قريبها يوسف النجار إلى مصر، خوفًا عليه من بطش الحاكم هيرودس الذي كان يخشى على سلطته من أن ينازعه فيها منازع، فقتل الأبرياء من شعبه وأبنائه لمجرد الشك أو الوشاية، ولما مات هيرودس عاد عيسى عليه السلام مع أمه ويوسف النجار إلى وطنه؛ حيث قضى بعض وقته يعمل في النجارة مع قريبه هذا، ويصرف معظم تفكيره في ملكوت الله -جلَّ وعلا، واكتساب العلم من العمل والتأمُّل في الكون وقراءة التوراة، ولما بلغ الثلاثين نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي، ويدأ بتبليغ رسالته إلى قومه بني إسرائيل، وقد أيَّده ربه بالمعجزات الباهرة، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وقد ناصبه أحبار اليهود العداء، ولما رأوا في دعوته من الآيات البينات ما سوف يقضي على نفوذهم، ويذهب بالأموال التي يجمعونها بالباطل، فوشوا به وسعوا في قتله والتخلص منه ومن دعوته، ودبَّروا مكيدتهم للقضاء عليه، ولكن الله أحبط تدبيرهم برفعه إلى محل كرامته، وإلقاء شَبهه على مَن خانه من أتباعه وهو يهوذا، فقتلوه.

والحقيقة في نهاية عيسى عليه السلام أنه لم يُقتل ولم يُصلب، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز، والقول بأن عيسى صُلب كفر صريح في نظر الإسلام؛ لأن الله توفاه ورفعه إلى السماء، كما حدَّث القرآن الكريم، والله أعلم بحقيقة ذلك، وكان رفعه إلى السماء، وهو في سن الثالثة والثلاثين، أي أن رسالته عليه السلام لم تدم غير ثلاث سنوات، أنزل الله تعالى خلالها الإنجيل، وورد ذكر عيسى عليه السلام باسمه خمس وعشرين مرة في القرآن الكريم.

وقد لقب عيسى عليه السلام بالمسيح، وقد سمِّي عيسى عليه السلام بالمسيح؛ لأنه ممسوح بالدهن ليكون مباركًا، أو لأنه كان يمسح على الأكمه والأبرص فيبرآن، وورد ذكر المسيح عليه السلام بهذا الاسم إحدى عشرة مرة في القرآن الكريم، فيكون جملة ذكره في القرآن ست وثلاثين مرة.

محمد ﷺ:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي العربي ﷺ، من نسل إسماعيل من إبراهيم -عليهما السلام، وأُمه آمنة بنت وهب، من بني زهرة القرشية، ولد في مكة المكرَّمة بجوار بيت الله الحرام، وقد مات أبوه عبد الله وهو في بطن أُمه، فنشأ يتيمًا في رعاية جدِّه عبد المطلب، وكانت رضاعته ﷺ في بني سعد، ووقعت حادثة شق صدره ﷺ في هذه الفترة، وتوفيت أُمه وهو ابن ست سنين، ثم لما بلغ ثماني سنين مات جدُّه عبد المطلب وتولاه عمُّه أبو طالب، وكان شديد الحبِّ له أيضًا، وعُرف في شبابه بين الناس بالصادق الأمين.

ولما بلغ أربعين سنة أنزل الله عليه الوحي، وجاءه جبريل عليه السلام في غار حراء

بأول الرسالة وأول القرآن الكريم وهو بداية سورة «العلق»، فآمنت به خديجة -رضي الله عنها- وجماعة من العقلاء كأبي بكر ﷺ، وعاداه قومه وعاندوه، وعذَّبوا جماعة من أتباعه، والرسول ﷺ صابرٌ محتسبٌ، يأمر أصحابه بالصبر والتحمُّل، وعاداه على وجه الخصوص أبو جهل وعمُّه أبو لهب وزوجه، فأمر بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، عند النجاشي وكان رجلاً عادلاً، ثم اشتد عداء قومه له وقاطعوه ومَن معه في شِعْب أبي طالب، وكتبوا عهدًا في صحيفة ظالمة جعلوها في جوف الكعبة، ثم مات عمُّه وماتت زوجه خديجة واشتد حزنه ﷺ، فأكرمه الله تعالى بالإسراء إلى المسجد الأقصى والمعراج إلى السموات العُلا، فعُرج به إلى السماء السابعة.

ثم شاء الله تعالى أن تنتقل دولة الإسلام الناشئة من مكة إلى المدينة، فكانت بعض المقدمات لتلك الهجرة، وتهيأ ذلك ببيعة العقبة، وتمت الهجرة، وكان أول ما فعل ﷺ بناء المسجد، وآخى بين المهاجرين معه والأنصار الذين هم أصحاب المدينة، وكان ذلك بداية المجتمع المسلم، ولكن أهل مكة لم يتركوه ومَن معه، فكانت بينهم وبين المسلمين بقيادة الرسول ﷺ عِدّة غزوات وحروب، منها غزوة بدر وأحد والخندق، كما كان بينه وبين يهود المدينة عِدَّة غزوات، كغزوة بني قريظة.

ثم لما أراد والصحابة زيارة بيت الله الحرام منعه أهل مكة، ورجع إلى المدينة بعد أن أبرم معهم صُلح الحديبية، وأكرمه الله بفتح خيبر، واستغل تلك الفترة التي بعد صلح الحديبية فراسل الملوك، ووقعت غزوة مؤتة، وأكرمه الله بفتح مكة فدخلها وأصحابه وطافوا ببيت الله الحرام الذي طال شوقه إليه

والصحابة، ثم كانت غزوة حُنين والطائف، وكانت غزوة تبوك هي آخر غزواته ﷺ، وبعدها جاءت الوفود وخرج للحجِّ، فحجَّ بيت الله الحرام، ثم توفاه الله تعالى بأبي هو وأمي ﷺ، وورد اسمه في القرآن الكريم (محمد) أربع مرات في القرآن الكريم في سورة [آل عمران: ١٤٤]، و[الأحزاب: ٤٠]، و[محمد: ٢]، و[الفتح: ٢٩]، وورد اسم (أحمد) مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة [الصف: ٦].

وبعد:

فقد انتهى الكلام المقصود في سيرة الأنبياء والمرسلين المذكورين في القرآن الكريم، والله أسأل أن يجعله نافعًا لكاتبه وقارئه وناشره، إنه نعم المولى ونعم النصير.

فصلِّ اللهم عليهم جميعًا، وعلى نبيِّنا وأصحابه وآله وسلّم تسليمًا كثيرًا.

ربيع عبد الرءوف الزواوي

* * *

الفصل الخامس
الاعتبار بما في القرآن من القَصص والأخبار

المقدمة:

امتلأت آيات القرآن الكريم بالقصص القرآني، وما ذلك إلا لحكمة اقتضتها إرادة الله ﷻ وهي الاعتبار والاتعاظ، والتفكُّر والتأمل، وفوق ذلك أمور نحن ذاكروها في هذا الفصل من أجل البرهنة على روعة الأسلوب القرآن، ورقي بلاغته، وعلو نظمه وقصصه.

وقد قسَّمت الفصل إلى ثلاثة مباحث:

جعلت المبحث الأول: الاعتبار والاتعاظ.

والمبحث الثاني: التفكُّر والتأمُّل.

والمبحث الثالث: القَصَص... لماذا؟! (وهو أهم المباحث وأطولها).

والله وحده المسئول أن ينفع به، وأن يتقبله، وصلَّى الله وسلَّم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ربيع الزواوي

* * *

المبحث الأول

الاعتبار والاتعاظ

العِبْرة والاعتبار في القرآن الكريم:

وردت الدعوة للاعتبار وأخذ العبرة سبع مرات في القرآن الكريم:

- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].
- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].
- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ [النحل: ٦٦].
- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١].
- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].
- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦].
- ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

العظة والموعظة والاتعاظ في القرآن الكريم:

وردت مادة [وعظ] خمس وعشرين مرة في القرآن الكريم:

- ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].
- ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥].
- ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].
- ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].
- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

- ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧].

- ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠].

- ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥].

- ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور:٣٤].

- ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٣١].

- ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢].

- ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤].

- ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨].

- ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء:٦٣].

- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء:٦٦].

- ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤].

- ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦].

- ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:١٧].

إلى آخر الآيات الكريمة.

والعِبْرة لغةً: الاتعاظ والاعتبار بما مضى من حيث إنها عبور من الجهل إلى العلم، ومن الهلاك إلى النجاة[1].

وكان الوعظ والدعوة للاعتبار موجودًا قبل بعثة النبي ﷺ؛ فقد كان قس بن ساعدة الإيادي وهو خطيب من أكبر حكماء العرب قبل الإسلام، يعظ قومه ويأمرهم بالاعتبار، وقد رآه النبي ﷺ قبيل البعثة يخطب في الناس بسوق عكاظ، ورَوَى خطبته، وعجب من حسنها، وأظهر تصويبها، ويُروى أنه ﷺ قال عنه: «يَرحمُ اللهُ قسًا، أَما إِنَّهُ سيُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ».

وكان يقول: «أيها الناس، اسمعوا وعوا، مَن عاش مات، ومَن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتٍ، إنَّ في السماء لخبرًا، وإنَّ في الأرض لعبرًا، آيات محكمات، ومطر ونبات، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وليل داجٍ، وسماء ذات أبراج، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟! أرضوا فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟! يا معشر إياد، أين ثمود وعاد؟! وأين الآباء والأجداد؟! وأين الفراعنة الشداد؟!

وكان يقول:

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ ... مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا ... لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا ... يَسْعَى الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَابِرْ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيَّ ... وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرْ

---

(١) محمد إسماعيل إبراهيم -رحمه الله: معجم ألفاظ الأعلام القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، ص(٣٢٧).

أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَالَةَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرْ[1]

ويروى أنه كان يعظ قومه، فيقول: «يا معشر إياد، أين الآباء والأجداد؟! وأين المريضُ والعُوَّادُ؟ وأين الفراعنة الشِّداد؟! أين مَن بنى وشيَّد، وزخرف ونجَّد؟! أين مَن بغى وطغى، وجمع فأوعى، وقال: أنا ربكم الأعلى؟! ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً، وأطول منكم آجالاً؟! طحنهم الثرى بكلكله، ومزقهم الدهر بطوله، فتلك عظامهم بالية، وبيوتهم خاوية، عمَّرتها الذئاب العاوية، كلا، بل هو الله الواحد المعبود، ليس بوالد ولا مولود».

ومواطن العبرة والاتعاظ في هذه الحياة كثيرة؛ فمنها على سبيل المثال لا الحصر:

- خلق السموات والأرض.
- خلق الإنسان.
- الزلازل والبراكين.
- إهلاك الظالمين.
- السير في الأرض.
- زيارة القبور.
- نصر المستضعفين.
- إنزال المطر.
- تصريف السحاب.
- إحياء الأرض بعد موتها.

---

(١) الأبيات من مجزوء الكامل، وهي لقس بن ساعدة الإيادي في ديوانه، ص(١٥٠).

- حياة النحل.
- حياة النمل.
- خلق اللبن من بين فَرثٍ ودَمٍ.
- الجبال.
- الإبل.
- قصص السابقين (وهذا الموطن هو محور دراستنا هذه].

وقد امتلأ التاريخ الإسلامي بالواعظين وبالمعتبرين وبالوعظ والعبر، وحفلت دواوين الشعر بما أُثر عن جماعة من الشعراء اهتموا في شعرهم بالناحية الوعظية، والدعوة للاعتبار.

ومنها على سبيل المثال، لا الحصر:

قال الناظم:

وَالْأَرْضُ فِيهَا عِبْرَةٌ لِلْمُعْتَبِرِ ... تُخْبِرُ عَنْ صُنْعِ مَلِيكٍ مُقْتَدِرِ
الشَّمْسُ وَالْهَوَاءُ يَا مُعَانِدُ ... وَالْمَاءُ وَالتُّرَابُ شَيْءٌ وَاحِدُ
تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ أَشْجَارُهَا ... وَبُقْعَةٌ وَاحِدَةٌ قَرَارُهَا
فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ ذَا التَّفَاضُلَا ... إِلَّا حَكِيمٌ لَمْ يُرِدْهُ بَاطِلَا(١)

وقال آخر:

انظرْ إلى الأطلال كيف تغيَّرت ... من بعد سَاكِنِهَا وكَيْفَ تنكَّرتْ

(١) الأبيات من الرجز لابن المبارية في ديوانه، ص(٢١٠).

سَحَبَ البِلَى أذيالَهُ برسومها ... فتساقطتْ أحجارُهَا وَتكسَّرتْ
وَمضتْ جَماعةُ أهلها لسبيلِهم ... وَتغيَّبتْ أخبارُهُمْ وَتنكَّرتْ
لما نَظرتُ تفكُّرًا لديارِهِمْ ... سَحَّتْ جُفُونِي عبرة وَتحدَّرَتْ
لَوْ كُنْتُ أعقلُ مَا أفقتُ مِن البُكَا ... حَسْبِي هُنَاكَ وَمُقلَتِي مَا أبصَرَتْ
نَصَبَتْ لنَا الدُّنيا زَخارفَ حُسنِهَا ... مكرًا بِنَا وَخديعةً مَا فتَّرتْ
وَهِيَ التي لم تحلُ قَطُّ لِذَائِقٍ ... إلا تَغيَّرَ طَعْمُهَا وَتمرَّرَتْ
خدَّاعةٌ بِجَمالِهَا إنْ أقبلتْ ... مَجَّاعةٌ بزَوالِهَا إنْ أدْبرَتْ
وهَّابةٌ سَلَّابةٌ لِهِبَاتِهَا ... خَرَّابةٌ لِجَدِيدِ مَا هِيَ عَمَّرَتْ
وَإذَا بِنتْ أمرًا لِصَاحبِ ثروةٍ ... نَصبتْ مَجانِقَهَا عَلَيه فَدمَّرتْ(١)

وقال آخر:

لَا تَحْقِرنَّ مِنَ الذُّنوبِ صَغِيرًا ... إنَّ الصَّغير غَدًا يَعُودُ كَبِيرًا
إنَّ الصَّغِيرَ وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... عِنْدَ الإِلَهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيرًا
فَازْجُرْ هَوَاكَ عَنِ الْبطَالَةِ لَا تَكُنْ ... صَعْبَ الْقِيَادِ وَشَمِّرَنْ تَشْمِيرًا
إنَّ المُحِبَّ إذَا أحَبَّ إلهَهُ ... طَارَ الْفُؤَادُ وأُلْهِم التَّفْكِيرَا
فَاسْأَلْ هِدَايَتَكَ الإِلَهَ بِنِيَّةٍ ... فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا

---

(١) الأبيات من الكامل في «بستان العارفين»، (١/ ٧).

وقال آخر:

إِذا كُنتَ في نِعمَةٍ فَارعَها ... فَإِنَّ المَعاصي تُزيلُ النِعَم
وَحافِظ عَلَيها بِتَقوى الإِلَهِ ... فَإِنَّ الإِلَهَ سَريعُ النِّقَم
فَإِن تَعطِ نَفسَكَ آمالَها ... فَعِندَ مُناها يَحِلُّ النَّدَم
فَأَينَ القُرونَ وَمَن حَولُهُم ... تَفانوا جَميعًا وَرَبِّي الحَكَم
وَكُن مُوسِرًا شِئتَ أَو مُعسِرًا ... فَلا بُدَّ تَلقى بِدُنياكَ غَمّ
وَدُنياكَ بِالغَمِّ مَقرونَةٌ ... فَلا يُقطَعُ العُمرُ إِلّا بِهَمّ
حَلاوَةُ دُنياكَ مَسمومَةٌ ... فَلا تَأكُلِ الشَّهدَ إِلّا بِسُمّ
مَحامِدُ دُنياكَ مَذمومَةٌ ... فَلا تَكسَب الحَمدَ إِلّا بِذَم
إِذا تَمَّ أَمرٌ بَدا نَقصُهُ ... تَوَقَّ زَوالاً إِذا قيلَ تَمّ
فَكَم آمِنٍ عاشَ في نِعمَةٍ ... بِما حَسَّ بِالفَقرِ حَتّى هَجَم
وَكَم قَدَرٍ دَبَّ في غَفلَةٍ ... فَلَم يَشعُرِ الناسَ حَتّى هَجَم(١)

وقال آخر:

يَا مَن يَرى مَا فِي الضَّميرِ وَيسمَعُ ... أَنتَ المُعَدُّ لكُلِّ مَا يتُوقَّعُ
يَا مَن يُرجَّى للشَّدائِد كُلِّها ... يَا مَن إِليه المُشتكَى وَالمَفزَعُ

(١) الأبيات من المتقارب، وهي للإمام علي بن أبي طالب ﷺ في ديوانه، ص(٣١٠).

يَا مَن خَزائنُ رِزْقِهِ فِي قَولِ كُنْ ... امنُنْ فَإِنَّ الخَيرَ عِنْدَكَ أجمعُ

مَا لي سِوَى فَقرِي إِليكَ وَسيلةٌ ... فَبِالافتقارِ إِليكَ فَقْرِي أَدفعُ

مَا لي سِوى قَرْعِي لِبَابِك حِيلةٌ ... فَلَئنْ رَدَدْتَ فأيَّ بَابٍ أَقرعُ

ومَن الذي أَدعُو وأهْتِف بِاسْمِهِ ... إِنْ كَانَ فَضلُكَ عَنْ فَقيرٍ يُمنعُ

حَاشَا لمِجدكَ أَنْ تُقنِّط عَاصيًا ... الفَضْلُ أَجزلُ وَالمَواهبُ أَوسعُ(١)

وقال آخر:

يَا نَاظِرًا يَرنو بِعَينَي رَاقِدِ ... وَمُشاهِدًا لِلأَمرِ غَيرَ مُشَاهِدِ

مَنَّتكَ نَفسُكَ ضَلَّةً وَأَبحتَهَا ... طُرُقَ الرَّجاءِ وَهُنَّ غَيرُ قَواصِدِ

تَصِلُ الذُّنوبَ إِلى الذُّنوبِ وَترتَجِي ... دَركَ الجِنَانِ بِهَا وَفَوزَ العَابِدِ

وَنَسيتَ أَنَّ اللهَ أَخرَجَ آدَمًا ... مِنْهَا إِلى الدُّنيا بِذَنبٍ وَاحِدِ(٢)

***

(١) الأبيات من الكامل، وهي لأبي القاسم السهيلي الأندلسي في «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» (١/١٢٩).

(٢) الأبيات من الكامل، وهي لمحمود الوراق في ديوانه، ص(١٣٢).

المبحث الثاني

التفكُّر

الدعوة للتفكُّر في القرآن الكريم:

وردت الدعوة للتفكر سبع عشرة مرة في كتاب الله تعالى:

- ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

- ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

- ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

- ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

- ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

إلى ما هنالك من الآيات الكريمات.

التفكُّر لغةً: فكَّر في الأمر مبالغة في فكَر أي أعمل العقل فيه، ورتَّب بعض ما يعلم ليصل إلى مجهول، وافتكر في الأمر: أعمل عقله فيه، والفكر: تردد الخاطر بالتأمُّل والتدبُّر(١).

---

(١) معجم ألفاظ الأعلام القرآنية، ص(٤٠٤).

التفكُّر في خلق الله وفي أمور الدِّين والآخرة من صفات عباد الله الصالحين، ولقد أكثر الله تعالى في القرآن الكريم من لفت الانتباه إلى قضية التفكُّر في هذا الكون الدال على عظمة الله وقوته، وعلى علمه وحكمته.

تَأَمَّلْ فِي رِيَاضِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لجين شَاخِصَاتٌ بأحداق هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ[1]

قال ابن عباس -رضي الله عنهما: «ركعتان مقتصدتان في تفكُّر خيرٌ من قيام ليلةٍ والقلب ساهٍ».

والقرآن الكريم أمر بالنظر والتفكير فيما خلق الله السموات والأرض؛ ليزداد الناس يقينًا بأن الله الخالق العظيم، وليعلموا أن ما خلقه الله كان بدقة ونظام، وأن كلَّ ما فيه يجري بأمر الله، أي وفق ما وضعه له من نظام.. فمن هذه الآيات الداعية إلى النظر في الكون والتأمُّل بما فيه للوقوف على أسراره وكيفية جريانه قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعصى الإِلَـ ـهُ أَم كَيْفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ
وَللهِ فِي كُلِّ تَحريكَةٍ عَلَينا وَتَسكينَةٍ شاهِدُ

(١) الأبيات من الوافر، وهي لعبد الغني النابلسي في ديوانه، ص(١٠٩).

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[١]

قال ابن القيم -رحمه الله: «أصل الخير والشر من قِبَل التفكُّر، فإنَّ الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض، وأنفع الفِكر: الفكر في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار، ويليها أربعة: فكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء، ورأس القسم الأول: الفكر في آلاء الله ونعمه، وأمره ونهيه، وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسُنة نبيِّه وما والاهما، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة، فإذا فكَّر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخستها وفنائها؛ أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا، وكلما فكَّر في قصر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الوقت، وهذه الأفكار تعلي همته وتحييها بعد موتها وسفولها، وتجعله في وادٍ والناس في وادٍ، وبإزاء هذه الأفكار -الأفكار الرديئة- التي تجول في قلوب أكثر الخلق كالفكر فيما لم يكلف الفكر فيه ولا أعطى الإحاطة به من فضول العلم الذي لا ينفع، كالفكر في كيفية ذات الربِّ وصفاته، وغيرها مما لا سبيل للعقول في إدراكه»[٢].

وقد أمر الله تعالى بالتفكُّر والتدبُّر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى،

(١) الأبيات من المتقارب، وهي لأبي العتاهية في ديوانه، ص(١٦٨).
(٢) محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن القيم: الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م، ص(١٩٨).

وأثنى على المتفكرين، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

بل توعَّد رسول الله ﷺ مَن لم يتفكَّر في الكون؛ فعن عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ ﷺ قَالَ: «انْطَلَقْتُ أَنَا وَابْنُ عُمَرَ وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ إِلَى عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَدَخَلْنَا عَلَيْهَا وَبَيْنَنَا وَبَيْنَهَا حِجَابٌ، فَقَالَتْ: يَا عُبَيْدُ، مَا يَمْنَعُكَ مِنْ زِيَارَتِنَا؟ قَالَ: قَوْلُ رَسُولِ الله ﷺ: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا». فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: ذَرِينَا أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، فَبَكَتْ وَقَالَتْ: كُلُّ أَمْرِهِ كَانَ عَجَبًا، أَتَانِي فِي لَيْلَتِي حَتَّى مَسَّ جِلْدُهُ جِلْدِي، ثُمَّ قال «ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي ﷻ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللهِ، إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَعَبَّدَ لِرَبِّكَ، فَقَامَ إِلَى الْقِرْبَةِ فَتَوَضَّأَ وَلَمْ يُكْثِرْ صَبَّ الْمَاءِ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي فَبَكَى حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، ثُمَّ سَجَدَ فَبَكَى حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى جَنْبِهِ فَبَكَى حَتَّى إِذَا أَتَى بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِصَلَاةِ الصُّبْحِ. قَالَتْ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا يُبْكِيكَ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ ذَنْبَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! فَقَالَ: «وَيْحَكَ يَا بِلَالُ، وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِيَ وَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثُمَّ قَالَ: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»(١).

فقيل للأوزاعي: ما غاية التفكير فيهن؟ قال: يقرؤهن ويعقلهن.

وما زال المؤمنون يتفكَّرون فيما خلق لهم ربهم، حتى أيقنت قلوبهم، وحتى

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، (٢/ ٣٦٢)، وقال شعيب الأرناؤوط في تعليقه على «صحيح ابن حبان»: «إسناده صحيح على شرط مسلم»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، ح(٦٨).

كأنما عبدوا الله عن رؤيته، وما رأى العارفون شيئًا من الدنيا إلا تذكروا به ما وعد الله به من جنسه في الآخرة من كلِّ خير وعافية.

وعن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أمِّ ذرٍّ بعد موت أبي ذرٍّ، فسألها عن عبادة أبي ذرٍّ، فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكَّر.

وعن الحسن قال: «تفكُّر ساعة خيرٌ من قيام ليلة».

وعن الفضيل قال: «الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك».

وقيل لإبراهيم بن أدهم: إنك تطيل الفكرة، فقال: «الفكرة مخ العقل».

وكان سفيان بن عيينة كثيرًا ما يتمثل بقول القائل:

إِذَا الْمَرْءُ كَانَتْ لَهُ فِكْرَةٌ ... فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَةٌ

وقال الحسن: «مَن لم يكن كلامه حكمة؛ فهو لغو، ومَن لم يكن سكوته تفكُّرًا فهو سهو، ومَن لم يكن نظره اعتبارًا فهو لهو».

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، «أي: أمنع قلوبهم التفكُّر في أمري».

قلوبُ العَارِفِينَ لَهَا عُيُونٌ ... تَرى مَا لا يُرى للنَّاظِرِينَا

وكان لقمان يطيل الجلوس وحده، فكان يمر به مولاه، فيقول: يا لقمان، إنك تديم الجلوس وحدك؟! فلو جلست مع الناس كان آنس لك، فيقول لقمان: «إنَّ طول الوحدة أفهم للفكر، وطول الفكر دليل على طريق الجنة».

وقال وهب بن منبه: «ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل».

وقال عمر بن عبد العزيز: «الفكرة في نعم الله ﷻ من أفضل العبادة».

وقال عبد الله بن المبارك يومًا لسهل بن عليٍّ -ورآه ساكتًا متفكرًا: «أين بلغت؟! قال: الصراط».

وقال بِشْر: «لو تفكَّر الناس في عظمة الله ما عصوا الله ﷻ».

وقد تقدَّم عن ابن عباس -رضي الله عنهما: «ركعتان مقتصدتان في تفكُّر خيرٌ من قيام ليلة بلا قلب».

وبينما أبو شريح يمشي؛ إذ جلس فتقنع بكسائه، فجعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «تفكَّرت في ذهاب عمري، وقلة عملي، واقتراب أجلي».

وقال أبو سليمان: «عوِّدوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكُّر».

وقال: «الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب».

وقال حاتم: «من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف».

وقال ابن عباس: «التفكُّر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه».

وقال الحسن: «إنَّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة».

وقال إسحاق بن خلف: «كان داود الطائي -رحمه الله تعالى- على سطح في ليلة قمراء، فتفكَّر في ملكوت السموات والأرض، وهو ينظر إلى السماء ويبكي، حتى وقع في دار جار له، قال: فوثب صاحب الدار من فراشه عريانًا وبيده سيف، وظنَّ أنه لصٌّ، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف، وقال: مَن ذا الذي طرحك من السطح، قال: ما شعرت بذلك!!».

وقال الجنيد: «أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، والتنسُّم بنسيم المعرفة، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد، والنظر بحُسن الظن لله ﷻ»، ثم قال: «يا لها من مجالس ما أجلها!! ومن شراب ما ألذه!! طوبى لمن رزقه».

وقال الشافعي -رحمه الله: «استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر».

بيان حقيقة الفكر وفائدته:

التفكُّر هو: تصرُّف القلب وتجوله في معاني الأشياء لدرك المطلوب، وهو سراج القلب يرى به خيره وشره.

وأما فائدة الفكر؛ فهي ما يحصل للمتفكر من معرفة بعض ما أودع الله في هذا الكون من الآيات العظيمة وبداية من هذا الإنسان، قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وما يحصل للمتفكر من زيادة في الإيمان والأعمال الصالحة.

فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذي يكشف لك

فضيلة التفكُّر، وأنه خير من الذكر والتذكُّر؛ لأن الفكر ذكر وزيادة، وذكر القلب خيرٌ من عمل الجوارح، بل شرف العمل لما فيه من الذكر.

فإذن؛ التفكُّر من أفضل الأعمال القلبية، ولذلك قال أبو الدرداء ﷺ: «تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة».

فوائد التفكُّر:

إنَّ التفكُّر طريق موصل إلى رضوان الله ومحبته ومعرفته، ولا أدل على ذلك من الأعرابي الذي نظر في الكون، فهداه الله إلى معرفته، وذلك عندما قال: «البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج!! أفلا يدل على العليم الخبير؟!».

ومن الفوائد كذلك أنه يؤدي إلى انشراح الصدر وطمأنينة القلب وسكينته، وكذلك يورث الخوف والخشية من الله ﷻ.

وكذلك التفكُّر يورث الحكمة، ويحيي القلوب بنور الإيمان الذي يصل إليه الإنسان من خلال التفكُّر.

ومن الفوائد كذلك كثرة الاعتبار والاتعاظ من سير السابقين، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١]، أي: أولي العقول التي تتجول في الكون.

ومن الفوائد العظيمة للتفكُّر أن للتفكُّر قيمة عقلية كبرى تؤدي إلى يقظة الأفراد ونهضة الشعوب، ولذا لا يمكن لأي أمة تريد أن تنهض حتى تفكر في ماضيها وفي الأمم المتطورة من حولها.

المبحث الثالث

القصص... لماذا؟!

القصة التي نريد:

نقصد هنا القصص الواقعي سواء كان في الماضي أو الحاضر، ولا نقصد القصة بمفهومها الأدبي عند الأدباء والروائيين المعاصرين، الذين يعرفونها بقولهم: «سرد واقعي أو خيالي لأفعال قد يكون نثرًا أو شعرًا يقصد به إثارة الاهتمام والإمتاع أو تثقيف السامعين أو القُراء»، وعرَّفها البعض الآخر بأنها: «سرد قصصي قصير نسبيًّا (قد يقل عن عشرة آلاف كلمة) يهدف إلى إحداث تأثير مفرد مهيمن، ويمتلك عناصر الدراما».

ولكن الذي نقصده هنا القصة الحقيقة التي وقعت أحداثها في دنيا البشر؛ كقصص الأنبياء، والصالحين، والسابقين، وما جاء من قصص في التاريخ الإسلامي، أو واقعنا المعاصر، والتي تحوي عبرًا كثيرةً، ودروسًا نافعةً، يمكن الاستفادة بما فيها من دروس وعبر.

لماذا القصة بالذات؟!

أولاً: إنَّ النفوس البشرية تسأم كما تسأم الأجسام، وتمل كما تمل الأبدان، وتصدأ كما يصدأ الحديد، فلا بدَّ لها أن تتسلى وتستجم.

يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: «القلوب تمل كما تمل الأبدان، فاطلبوا لها طرائف الحكم».

وقال الزهري -رحمه الله: «كان رجل يجالس أصحاب رسول الله ﷺ ويذاكرهم، فإذا ثقل عليه الحديث قال: «إنَّ الأذن مجاجة؛ ألا فهاتوا لنا من أشعاركم وحديثكم هذا».

ثانيًا: في القصص عبرة للمعتبرين، وسلوى للمحزونين، وفكاهة -ربما- للمتفكهين، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

ثالثًا: في القصص تثبيت للإنسان على الطريق إلى الله -جلَّ وعلا، قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقال جلت قدرته: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].

رابعًا: في القصص مدعاة لإعمال الفِكر والنظر، قال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

كيفية الاستفادة من القصة:

سنركِّز في دراستنا هذه -إنْ شاء الله- على موضوع مهم، وهو كيف يمكننا أن نستفيد من القصة -أي: قصة- بصورة عملية، أو بمعنى آخر: ما هي كيفية الاستفادة من قصة ما، بصورة عملية يمكن تنفيذها على واقع حياتنا؛ إذ هذا هو بيت القصيد، ومربط الفرس من تناوُل القصص.

والقصة التي يمكنك أن تستفيد بما فيها أنواع أربعة:

- القصة من القرآن.
- القصة من الحديث النبوي الصحيح.
- القصة من التاريخ الإسلامي.
- القصة المعاصرة.

ودراستنا هذه مقصورة على القصص القرآني، مع العلم بأن الرسول ﷺ حدَّث بمجموعة كبيرة من قصص الأولين والسابقين، ليوصل إلى الصحابة ﷺ العظة والعبرة بما في هذه القصص من دروس مستفادة.

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله: «جميع القصص الواردة في القرآن وصحيح السُّنة ليس المقصود بها مجرد الخبر، بل يقصد منها العبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١]»[١].

ومن أمثال هذه القصص: قصة الأبرص والأقرع والأعمى، وقصة الثلاثة في الغار، وقصة قاتل المائة نفس، وقصة الغلام والساحر، وقصة جريج العابد، وقصة صاحب الخشبة التي وضع فيها دَينه وأرسلها في البحر لصاحبه، وغير ذلك مما صحَّ عنه ﷺ.

القصص القرآني:

لم يدع الأسلوب القرآني في مجال الدعوة إلى الله تعالى وتقويمه للنفوس وسيلة من وسائل الإقناع العقلي والتأثير الوجداني إلا سلكها، وقد كان

---

(١) فتاوى ابن عثيمين، المجلد العاشر.

القصص القرآني واحدًا من تلك الوسائل التي برزت بجلاء في كتاب الله تعالى، لتؤدي غرضها فيما يهدف إليه من التوجيه والإرشاد مستخدمًا في ذلك أحداث الحياة ومظاهرها وخفاياها، بما يكفل له تحقيق هذا المقصود.

فكم في الحياة الدنيا من العبر والعظات، وكم فيها من أسباب الفشل والنجاح، وكم فيها من دواعي الرفعة والهبوط، وكم فيها من المواقف والأحداث ما يعد سجلاً حافلاً لتاريخ الحياة والأحياء في هذا الكون الفسيح.

ولم يكن القرآن -وهو كتاب الدعوة وتاريخها- ليغفل هذا الجانب الهام من جوانب الإقناع والتأثير وتقوية دعائم الإيمان في النفوس، فجاء بهذا القصص الحق ليكون خير معين لصاحب الدعوة محمد ﷺ؛ حتى يثبت ويصبر، كما صبر وثبت أولوا العزم من الرُّسل في مواجهة قوى البغي والشِّرك، ولم يكن في هذا مجرد تثبيت للرسول ﷺ فحسب، بل كان دعمًا للإيمان كذلك في قلوب الذين آمنوا معه واتبعوه واهتدوا بهديه، وليقفوا بأنفسهم مع نبيِّهم على سُنة الله في خلقه، من تأييد للمؤمنين والمجاهدين والمستضعفين، وخذلان للكافرين، ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

وبجانب كون القصص القرآني تثبيت للرسول ﷺ على طريق الدعوة، وكونه تدعيمًا ليقين الناس عن طريق الإيمان، فقد كان تأييدًا لصاحب الرسالة -عليه الصلاة والسلام- في توضيح معالم الحق وتصديق دعواه؛ إذ أنى لمثله -وهو الأمي- أن يقف هو أو قومه على أخبار السابقين، لولا كتاب الله الذي جاء مصدقًا لما في الكتب المنزلة على الرُّسل من قبله، وفي هذا يقول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ لَقَدْ

كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

ومعلوم أن القرآن الكريم لم ينزله الله ﷻ ليكون كتاب قصص، وإنما كتاب عقيدة وشريعة، كتاب هداية وإرشاد، ومن ثَمَّ؛ فقد جاءت القصة فيه لا لتكون عملاً فنيًّا مستقلاً في موضوعه وطريقه عرضه وإرادة حوادثه، كما هو الشأن في القصة الفنية الخالصة التي تهدف -قبل كلِّ شيء- إلى تحقيق أغراضها الفنية المجردة.

وإنما جاءت القصة في القرآن لتكون نهجًا وحدها، في موضوعها وفي أسلوب أدائها وفي مقاصدها وغاياتها، بما يحقق للقرآن مقصده الأسمى وهدفه الأصيل، شأنها شأن سائر الصور التي رسمها القرآن الكريم لمواقف القيامة بما فيها من صور النعيم والعذاب، وشأن الصورة الجدلية بما فيها من شواهد منظورة وأدلة باهرة ساقها القرآن الكريم تأكيدًا للبعث وتدليلاً على قدرة الله سبحانه، وشأن الشرائع التي فصَّلها، والأمثال التي ضربها، إلى آخر ما جاء فيه من موضوعات، من أجل تعميق الإيمان في النفوس وتحقيق أسباب الهداية للناس.

ولكن العجيب في هذا القصص الرائع؛ أن التعبير القرآني قد ألف فيه بإبداع لا حد له بين الغرض الديني والجمال الفني معًا، وجعل من هذا الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني -مع التزام الحق في كلِّ ما جاء به- فخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية، ومعلوم أن إدراك هذا الجمال الفني الرفيع ينبع بحُسن الاستعداد لتلقي التأثير الديني[1].

---

(١) د. صلاح الدين محمد عبد التواب: دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، (٣/ ١٠٧-١٠٨).

وقد قصَّ الله ﷻ في القرآن قصص الأمم السابقة، وقال سبحانه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣]، وأمر نبيَّه محمدًا ﷺ والمسلمين أن يقصوا القَصَص بقوله عزَّ شأنه: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].. ليس الغرض من قَصِّ قَصَص الأمم السابقة في كتاب الله هو الثقافة أو الترويح والتسلية، وإنما الغرض منه أن يتأمل الناس ويتفكروا في مصائر الأمم السابقة، كيف كانت نهاية كل أمة وكل دولة حاربت حزب الرحمن، وأهل الإيمان، أتباع أنبياء الله ورسله، وأن يعلموا أن هذه هي سنته على الدوام مع حزب الرحمن وحزب الشيطان؛ ليتبين بعدها مَن من الفريقين هُمْ المؤمنون وأهل الخير، ومَن هُمْ الكافرون وأهل الشَّر؛ لعل الناس المخالفين لهم يحذرون أن يكونوا من حزب الشيطان؛ حتى لا ينالوا العقاب نفسه، ويكونوا من الخاسرين، ويحرصون على أن يكونوا من حزب الرحمن؛ لينالوا النجاة، ويكونوا من المفلحين.

وقد تقدَّم كلام العلامة ابن عثيمين -رحمه الله: «جميع القصص الواردة في القرآن وصحيح السُّنة ليس المقصود بها مجرد الخبر، بل يقصد منها العبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١]»[١].

القصص القرآني له مقصد وهدف:

إنَّ الذي يتدبر القرآن الكريم، يرى جانبًا كبيرًا من آياته وسوره، قد اشتمل

(١) فتاوى ابن عثيمين، المجلد العاشر.

على قصص الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام، وعلى قصص غيرهم من الأخيار والأشرار.. يرى ذلك بصورة أكثر تفصيلاً في السور المكية، التي كان نزولها قبل الهجرة؛ لأنها في الأعم والأغلب اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وعلى صدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربِّه، وعلى أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وعلى أن البعث وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب حق وصدق، وهذه الأدلة ساقتها السور المكية تارة عن طريق قصص الأنبياء مع أقوامهم، وتارة عن غير ذلك من الطرق الأخرى، كالنظر في ملكوت السموات والأرض، وفي خلق الإنسان وغيره من سائر المخلوقات.

أما السور المدنية، وهي التي كان نزولها بعد الهجرة، فهي في الأعم والأغلب اهتمت بعد أن رسخت العقيدة السليمة في قلوب المؤمنين، بتفصيل أحكام الشريعة العملية، كالعبادات، والمعاملات، والحدود، والعلاقات الاجتماعية، وتنظيم شئون الدولة الإسلامية داخليًّا وخارجيًّا؛ فمثلاً من السور المكية التي اشتمل معظمها أو جانب كبير منها على قصص الأنبياء، سور: (الأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والشعراء، والقصص، والصافات... إلخ).

والقصة في كلِّ زمان ومكان لها أثرها العميق في النفوس، لما فيها من عنصر التشويق، وجوانب الاعتبار والاتعاظ.. ولا تزال على رأس الوسائل التي يدخل منها الهداة والمصلحون والقادة، إلى قلوب الناس وعقولهم، لكي يسلكوا الطريق القويم، ويعتنقوا الفضائل، ويجتنبوا الرذائل، ويسلموا وجوههم لله الواحد القهار ومن هنا ساق ما ساق من قصص يمتاز بسمو

الغاية، وشريف المقصد، وصدق الكلمة والموضوع، وتحري الحقيقة بحيث لا تشوبها شائبة من الوهم أو الخيال أو مخالفة الواقع.

كما أن من مميزات قصص القرآن: اشتماله عن طرق شتى في التربية والتهذيب، تارة عن طريق الحوار، وأحيانًا عن طريق سلوك طريق الحكمة والاعتبار، وطورًا عن طريق التخويف والإنذار، نرى ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٣].

وللقصة في القرآن الكريم أهداف سامية، ومقاصد عالية، وحكم متعددة من أهمها:

أ- بيان أن الرسل جميعًا قد أرسلهم الله تعالى برسالة واحدة في أصولها ألا وهي إخلاص العبادة لله الواحد القهار، وأداء التكاليف التي كلَّف سبحانه خلقه بها، وقد وردت آيات كثيرة تدل على أن أول كلمة قالها كل رسول لقومه، هي أمرهم بعبادة الله تعالى، ونهيهم عن عبادة أحد سواه؛ فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه كما حكى القرآن عنه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهذا هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وهذا صالح عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وهذا شعيب عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

فهذه الجملة الكريمة حكاية لما وجهه هؤلاء الأنبياء لقومهم من إرشادات وهدايات، أي: قالوا لهم بكلِّ لطف وأدب: اعبدوا الله، وحده لا شريك له، فإنه هو المستحق للعبادة، أما سواه فلا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ويحكي القرآن الكريم هذا المعنى على لسان كل نبيٍّ، فيقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، أي: وما أرسلنا من قبلك، يا محمد، من رسول آخر، إلا وأفهمناه عن طريق وحينا، أنه لا إله يستحق العبادة والطاعة إلا أنا، فعليه أن يأمر قومه بذلك، وأن ينهاهم عن عبادة غيري.

ب- بيان أن هذا القرآن عند الله تعالى، وأن ما اشتمل عليه هذا القرآن من قصص للسابقين، لا علم للرسول ﷺ بها، وإنما علمها بعد أن أوحاها الله تعالى إليه، وأنه صادق فيما يبلغه عن ربِّه.. استمعْ إلى القرآن وهو يقرِّر ذلك في مواطن متعددة، فيقول في أعقاب حديث طويل عن قصة نوح عليه السلام مع قومه: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، أي: تلك القصة التي قصصناها عليك عن نوح وقومه من أخبار الغيب الماضية، التي لا يعلم دقائقها وتفاصيلها أحد سوانا، ونحن نوحيها إليك ونعرفك بها عن طريق وحينا الصادق الأمين.

وهذه القصة وأمثالها ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ﴾ أنت يا محمد، وما كان يعلمها ﴿قَوۡمُكَ﴾ أيضًا بهذه الصورة الصادقة الحكيمة ﴿مِن قَبۡلِ﴾ هذا الذي الوقت أوحيناها إليك فيه، وما دام الأمر كذلك ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ صبرًا جميلاً على تبليغ ما أمرك الله بتبليغه، كما صبر أخوك نوح من قبلك، واعلمْ أن العاقبة الحسنة

للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن كلِّ ما لا يرضي الله تعالى.

فالآية الكريمة تعقيب حكيم عن قصة نوح ﷺ، قصد به الامتنان على النبي ﷺ، كما قصد به الموعظة والتسلية، أما الامتنان؛ فنراه في قوله سبحانه: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾، وأما الموعظة؛ فنراها في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ﴾، أما التسلية؛ فنراها في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وشبيه بذلك ما قاله سبحانه في أعقاب الحديث الطويل عن قصة يوسف ﷺ مع إخوته مع غيرهم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، أي: ذلك الذي قصصناه عليك -يا محمد- من قصة أخيك يوسف، من الأخبار الغيبية التي لا يعلمها علمًا تامًّا شاملاً إلا الله تعالى وحده، ونحن ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾، ونخبرك به لما فيه من العظات والعبر، وأنت -يا محمد- ما كنت حاضرًا مع إخوة يوسف، وقت أن أجمعوا أمرهم للمكر به، وللاعتداء عليه، وقد أخبرناك بذلك للاعتبار والاتعاظ.

ونرى مثل هذا المعنى أيضًا وهو الدلالة على أن هذا القرآن من عند الله تعالى وحده ما قصَّه سبحانه علينا بعد حديث طويل عن جانب من قصة موسى ﷺ، وعن جانب من قصة مريم -عليها السلام.

أما بالنسبة لقصة موسى ﷺ؛ فقد قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ

يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٤-٤٦]، أي: لم تكن -يا محمد- حاضرًا وقت أن كلَّفنا أخاك موسى بحمل رسالتنا، وكان ذلك عند الجانب الغربي لجبل الطور، ولم تكن أيضًا من المشاهدين لما أوحيناه إليه، ولكنا أخبرناك بذلك بعد أن خلت بينك وبين موسى أزمان طويلة.

ولم تكن أيضًا مقيمًا في أهل مدين، وقت أن حدث ما حدث بين موسى عليه السلام وبين الشيخ الكبير وابنتيه من محاورات، ولم تكن كذلك بجانب جبل الطور وقت أن نادينا أخاك موسى، وأنزلنا إليه التوراة لتكون هدايةً ونورًا لقومه، فالمقصود بهذه الآيات الكريمة بيان أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وأن الرسول ﷺ لم يكن عالمًا بتلك الأحداث السابقة، وإنما أخبره الله تعالى بها عن طريق قرآنه الكريم، ووحيه الصادق الأمين.

وأما بالنسبة لقصة مريم -عليها السلام، فقد قال سبحانه خلالها: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]، أي: ذلك القصص الحكيم الذي قصصناه عليك -يا محمد- فيما يتعلق بما قالته امرأة عمران، وما قاله زكريا، وما قالته الملائكة لمريم.

ذلك كله من أخبار الغيب التي ما كنت تعلمها أنت ولا قومك، وإنما يعلمها الله وحده وأنت ما كنت حاضرًا مع زكريا عليه السلام ومع الذين نافسوه في كفالة مريم، واقترعوا على ذلك؛ فكانت كفالتها من نصيب زكريا عليه السلام، ومن الواضح أن المقصود بهذه الآية الكريمة، وما يشبهها من آيات كثيرة، إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وأن ما اشتمل عليه من قصص

السابقين لم يكن للرسول ﷺ علم به، ولم يكن أيضًا لغيره علم صحيح به، فجاء القرآن الكريم بهذه القصص، وحكاها بالحق والصدق، لتكون عبرةً وعظةً للناس، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وقال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وقال ﷻ: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧].

ج- كذلك من أهداف القصة في القرآن الكريم: تثبيت فؤاد النبي ﷺ، وتسليته عما أصابه من قومه وتبشيره ﷺ بأن العاقبة الطيبة ستكون له ولأصحابه.. أما تثبيت فؤاده عن طريق قصص الأنبياء السابقين، فنراه في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وقد جاءت هذه الآية الكريمة في أواخر سورة من سور القرآن الكريم الزاخرة بقصص الأنبياء مع أقوامهم وهي سورة «هود ؑ»، فقد اشتملت هذه السورة على قصة نوح ؑ مع قومه، وقصة هود ؑ مع قومه، وقصة صالح ولوط وشعيب مع أقوامهم، وقصة إبراهيم مع الملائكة الذين جاءوا يبشرونه بابنه إسحاق، كما اشتملت على جانب من قصة موسى ؑ مع فرعون وملئه.

والمعنى: وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك -أيها الرسول الكريم- ونخبرك عنه: المقصود به تثبيت قلبك، وتقوية يقينك، وتسلية نفسك ونفوس أصحابك، عما لحقكم من أذى في سبيل تبليغ دعوة

الحق إلى الناس، ولقد جاءك -يا محمد- في هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن، الحق الثابت المطابق للواقع، والذكرى النافعة للمؤمنين بما جئت به.

وأما التسلية عن طريق قصص الأنبياء السابقين، والتسرية عن قلبه ﷺ ودعوته إلى الاقتداء بهم في صبرهم؛ فكل ذلك نراه في آيات كثيرة منها قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ۝٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٥]، وقد جاءت هذه الآيات بعد حديث مركز عن جانب من قصة إبراهيم وموسى وهود وصالح ونوح -عليهم الصلاة والسلام.

والمعنى: نحن نخبرك -يا محمد- بأنه ما أتى الأقوام الذين قبل قومك من نبي أو رسول، يدعوهم إلى عبادتنا وطاعتنا، إلا وقالوا له كما قال قومك في شأنك هذا الذي يدعي الرسالة أو النبوة ساحر أو مجنون.

والمقصود بالآية الكريمة: تسلية النبي ﷺ عما أصابه من مشركي قريش؛ إذ بيّن له سبحانه أن ما أصابه قد أصاب الرسل من قبله، والمصيبة إذا عمت خفت، ثم أضاف سبحانه إلى هذه التسلية تسلية أخرى فقال: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ﴾، أي: أوصى السابقون اللاحقين أن يقولوا لكلِّ رسول يأتيهم من ربِّهم: أنت -أيها الرسول- ساحر أو مجنون!!

وقوله سبحانه: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾: إضراب عن تواصيهم إضراب إبطال؛ لأنهم لم يجمعهم زمان واحد أو مكان واحد، حتى يوصي بعضهم بعضًا، وإنما الذي جمعهم تشابه القلوب، والالتقاء على الكفر والفسوق والعصيان، أي:

هل وصى بعضهم بعضًا بهذا القول القبيح؟! كلا، لم يوص بعضهم بعضًا؛ لأنهم لم يتلاقوا، وإنما تشابهت قلوبهم، فاتحدت ألسنتهم في هذا القول المنكر.

ثم تسلية ثالثة نراها في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾، أي: فأعرض عنهم -أيها الرسول الكريم- وسر في طريقك دون مبالاة بمكرهم وسفاهتهم، فما أنت بملوم على الإعراض عنهم، وما أنت بمعاقب منا على ترك مجادلتهم.. وداوم على التذكير والتبشير والإنذار مهما تقول المتقولون، فإنَّ التذكير بما أوحيناه إليك من هدايات سامية، وآداب حكيمة ينفع المؤمنين.

وشبيه بهذه الآيات في تسلية الرسول ﷺ عما أصابه من أذى، قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج:٤٢-٤٤].

وأما دعوته ﷺ على الاقتداء بإخوانه الأنبياء السابقين في صبرهم، فنراه في آيات متعددة؛ منها قوله سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد أن ذكر الله تعالى لنبيِّه ﷺ في الآيات السابقة عليها أسماء ثمانية عشر نبيًّا، ثم أمره بالاقتداء بهم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، أي: أولئك الأنبياء الذين ذكرناهم لك يا محمد، هم الذين هديناهم إلى الحقِّ، وإلى الطريق المستقيم فبطريقتهم إلى الإيمان بالله، وفي ثباتهم على الحقِّ، كُنْ مقتديًا ومتأسيًا.

وأما تبشيره ﷺ عن طريق قصص الأنبياء السابقين بأن النصر سيكون له ولأتباعه، فنراه في آيات كثيرة: منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟

عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤]، أي: ولقد كذَّب الأقوام السابقون رسلاً كثيرين جاءوا لهدايتهم، فكان موقف هؤلاء الرُّسل من هذا التكذيب والأذى الصبر والثبات، واستمروا على صبرهم وثباتهم حتى أتاهم نصرنا الذي اقتضته سنتنا وأحكامنا التي لا تتخلف.

ولقد جاءك -أيها الرسول الكريم- من أخبار إخوانك الأنبياء السابقين ما فيه العظات والعبر، فعليك أن تستبشر بأن النصر سيكون لك ولأتباعك، ومن الآيات التي بشَّرت النبي ﷺ بأن العافية ستكون له ولأتباعه، كما كانت للأنبياء السابقين وأتباعهم قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

كذلك من أهداف القصة في القرآن الكريم: الاعتبار والاتعاظ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]، وهذه الآية الكريمة هي الآية الأخيرة التي ختم الله تعالى بها سورة «يوسف» عليه السلام، التي اشتملت على أحسن القصص وأحكمه وأصدقه وأشده أثرًا في النفوس.

والمعنى: لقد كان في قصص أولئك الأنبياء الكرام، وما جرى لهم من أقوامهم، عبرة وعظة لأصحاب العقول السليمة، والأفكار القويمة، بسبب ما

اشتمل عليه هذا القصص من حكم وآداب وإرشادات، وما كان هذا الذي قصصناه حديثًا مختلقًا أو كاذبًا، وإنما هو حديث لحمته وسداه الصدق الذي لا يحوم حوله الكذب، والتأييد لما صحَّ من الكتب السابقة التي امتدت إليها أيدي الفاسقين بالتحريف والتبديل، والتفصيل والتوضيح للشرائع السابقة، والهداية والرحمة لقوم يؤمنون به، ويعملون بما فيه من أمر أو نهي.

والعبر والعظات التي نأخذها من قصص القرآن الكريم لها صور شتى منها: بيان حُسن عاقبة المؤمنين، الذين ثبتوا على الحقِّ، وابتعدوا عن الباطل، وتابوا إلى الله تعالى توبة صادقة، وشكروا الله تعالى على نعمه، بأن استعملوها فيما يرضيه لا فيما يسخطه.

ونرى نماذج لذلك في قصة سليمان عليه السلام الذي آتاه الله تعالى ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فلم يبطره هذا الملك، ولم يشغله عن ذكر الله تعالى، بل قال كما حكى القرآن عنه: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

ونرى نماذج لذلك في قصة ذي القرنين، الذي مكَّن الله تعالى له في الأرض، فاستعمل ما آتاه الله من قوة في الخير لا في الشر، وفي الإصلاح لا في الإفساد.

ونرى نماذج لذلك في قصة أصحاب الكهف، الذين آمنوا بربهم، وزادهم الله تعالى إيمانًا على إيمانهم، بسبب ثباتهم على الحقِّ.

نرى نماذج لذلك في قصة قوم يونس عليه السلام الذين استجابوا لدعوة الحقِّ، وصدقوا نبيَّهم فيما أخبرهم به، وأخلصوا دينهم لله تعالى.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَٰنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

والمعنى: فهلا عاد المكذبون إلى رشدهم وصوابهم، فآمنوا بالحق الذي جاءتهم به رسلهم، فنجوا بذلك من العذاب، كما نجا منه قوم يونس ﷺ بسبب ندمهم على ما فرط منهم، وإيمانهم إيمانًا صادقًا، وتوبتهم توبةً نصوحًا، فعاشوا آمنين إلى حين انقضاء آجالهم في هذه الدنيا.

ومنها: بيان سوء عاقبة المكذبين، الذين أصروا على كفرهم، ولم يستمعوا لنصائح أنبيائهم، واستحبوا العمى على الهدى، وجحدوا نعم الله تعالى واستعملوها في المعاصي لا في الطاعات.

ونرى نماذج لذلك في قصة قارون الذي آتاه الله تعالى من النعم ما أتاه، فلم يشكر الله تعالى على نعمه، بل قال بكل غرور وصلف: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨].

كما نرى نماذج لذلك في قصة أهل سبأ الذين قال الله تعالى في شأنهم: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ۝١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧]، ولفظ (سبأ) في الأصل: اسم لرجل ينتهي نسبه إلى أول ملك من ملوك اليمن، والمراد به هنا: الحي أو القبيلة المسماة باسمه، وكانوا يسكنون بمأرب على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء.

والمعنى: لقد كان لقبيلة سبأ في مساكنهم علامة واضحة على فضل الله مساكنهم والثاني عن شمالها، وقال الله تعالى لهم على ألسنة الصالحين منهم: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾ نعمه، فأنتم تسكنون في بلدة طيبة، فيها كل ما

تحتاجونه، وقد منحها لكم الله الرحيم بكم، الغفور لذنوبكم، فاشكروه على ذلك، ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾ أي: فأعرضوا عن نصح الناصحين، وجحدوا نعم الله، فكانت نتيجة ذلك، أن أرسل الله تعالى عليهم السيل المدمر، وتحولت البساتين اليانعة إلى أماكن ليس فيها سوى الثمار والأشجار التي لا تسمن ولا تغني من جوع، هذا الذي فعلناه بهم، سببه جحودهم وبطرهم، ومن سنتنا أننا لا نعاقب بهذا العقاب الرادع إلا مَن جحد نعمنا، وفسق عن أمرنا.

والمتدبر للقرآن الكريم يراه قد ساق لنا كثيرًا من قصص الجاحدين، ثم بيَّن لنا سوء مصيرهم، ومن ذلك أنه سبحانه بعد أن ذكر لنا جانبًا من قصص نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وهود، وصالح، وموسى.. مع أقوامهم، عقب على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، أي: فكلا من هؤلاء المذكورين كقوم نوح وإبراهيم ولوط.. أخذناه وأهلكناه، بسبب ذنوبه التي أصر عليها ولم يرجع عنها، فمنهم مَن أرسلنا عليه ﴿حَاصِبٗا﴾، أي: ريحًا شديدةً رمته بالحصاة كقوم لوط عليه السلام، ومنهم مَن أخذته الصيحة الشديدة المهلكة كقوم صالح وشعيب -عليهما السلام، ومنهم مَن خسفنا به الأرض وهو قارون، ومنهم مَن أغرقناه كما فعلنا مع قوم نوح ومع فرعون وقومه، وما كان الله تعالى مريدا لظلمهم، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، وأوردوها موارد المهالك، بسبب إصرارهم على كفرهم وجحودهم.

هذه بعض الأهداف والمقاصد التي من أجلها ساق القرآن ما ساق من

قصص، امتاز بسمو غايته، وشريف مقاصده، وعلو مراميه.

وهناك أهداف أخرى، يستنبطنها كلُّ ذي عقل سليم، وما ذكرناه هو قليل من كثير، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق[١].

مفهوم القصة في القرآن الكريم:

القصة لغةً: القصة: الخبر، وهو القَصَص، وقصَّ علي خبره يقصه قصًّا: أورده[٢]، ومنه: القص وهو تتبع الأثر، والقَصص: الأثر والقصص: الأخبار المتتبعة[٣].

وللقصة معانٍ أخرى متقاربة، فهي تأتي بمعنى (الخبر)، و(الأمر والحديث)، و(الجملة من الكلام)[٤].

والقَصص: الخبر المقصوص، بالفتح، وُضِع موضعَ المصدر حتى صار أغلب عليه، والقِصص، بكسر القاف: جمع القِصة التي تكتب[٥].

فمدلول القصة في اللُّغة واضح وواسع، ولكن بعض المُحْدَثين يختار مدلولاً للقصة فيه بعض القيود، وهو الحكاية عن خبر وقع في زمن مضى لا يخلو من بعض عبرة فيه شيء من التطويل في الأداء[٦].

---

(١) مقال بعنوان: القصة القرآنية لها مقصد وهدف. في موقع (بوابة نور الله) الإلكتروني: ٣/ ١١/ ٢٠٠٤م، http://www.nourallah.com/books.asp?cid=56&c=2&articleid=146.

(٢) لسان العرب، (٧/ ٧٤).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، ص(٦٧١).

(٤) لسان العرب، (٧/ ٧٣، ٧٤).

(٥) المصدر السابق.

(٦) بحوث في قصص القرآن، ص(٤١).

القصة اصطلاحًا: أما مفهوم القصة في القرآن الكريم، فهو وإنْ كان واضحًا في مفرداته، وذلك من خلال وضوحه في اللغة، غير أن ضبطه بحدٍّ في القرآن الكريم قد تتفاوت فيه وجهات النظر، وذلك نظرًا لما في القصة القرآنية من خصائص تميزها عن غيرها؛ من صدقٍ في الواقعية التاريخية، وجاذبيةٍ في العرض والبيان، وشموليةٍ في الموضوع، وعلوٍ في الهدف، وتنوعٍ في المقصد والغرض، ووضوحٍ في الإعجاز[١].

فمدلول القصة في القرآن: هو مدلولها اللُّغوي مضافًا إليه تلك الخصائصُ والسِّماتُ التي تميَّز بها القَصص القرآني على غيره، والله تعالى أعلم.

وللقصة ألفاظ تداخلها في مدلولها كثيرًا؛ كـ(النبأ، والخبر، والمَثَل)[٢].

أثر القصة وأهميتها في القرآن الكريم:

أثر القصة في النفوس: لقد جاء القرآن الكريم داعيًا إلى الهداية والرشاد، بأساليب شتى؛ فتارةً بالوعد والوعيد، وتارةً بالإقناع العقلي، وتارةً ثالثة بوخز الضمير والوجدان، ورابعةً بتوجيه الفطرة إلى حقيقتها، وخامسةً بالإعجاز بشتى ألوانه، وأحيانًا كثيرة: بأسلوب القصص، الذي هو أقرب الوسائل التربوية إلى فطرة الإنسان، وأكثر العوامل النفسية تأثيرًا فيه، وذلك لما في هذا الأسلوب من المحاكاة لحالة الإنسان نفسه، فتراه يعيش بكلِّ كيانه في أحداث القصة، وكأنه أحد أفرادها، بل وكأنه هو بطل القصة أو الشاهد فيها، فيَرَى من خلالها كل من الصالح والطالح ما في نفسه من أحاسيس، وما في خَلَده من

---

(١) الدعوة إلى الله تعالى، ص(١٤٦).

(٢) الكاتب: عبد الباسط شاكر، موقع عالم القرآن الكريم.

أحاديث، وما يجري حوله من أحداث وحوار.

كلُّ ذلك من خلال تجاوبه مع القصة؛ فالقصة -لاسيما إنْ كانت بأسلوب شيِّق، وبيان رائق- لها من التأثير والجاذبية ما لا تبلغه أيُّ وسيلة أخرى من الوسائل الدعوية أو التعليمية أو التربوية، فكيف إذا كانت بأسلوب ربانيٍّ معجزٍ، له من الواقعية والصدق ودقة التصوير، ومِن السِّماتِ ما ليس لغيره؟!

ولو أننا قُمنا بمقارنة سريعة بين أحدث المناهج التعليمية والتربوية اليوم؛ لوجدنا أن أكثر المناهج نجاحًا في عرض الفكرة أو صياغة المادة العلمية بأسلوب قَصصي جذاب.. هي أكثرها نجاحًا وأينعها ثمارًا؛ لأنها تكون حينئذٍ أحب إلى قلب الطالب، وأقرب إلى فطرته، وأسهل عليه حفظًا وفهمًا، وأدعى لتلقيها بدون أيِّ مشقة أو ملل.

ولذلك؛ كانت القصة ولا تزال مدخلاً طبيعيًّا يدخل منه أصحابُ الرسالات والدعوات والهداة والقادة إلى الناس وإلى عقولهم وقلوبهم، ليلقوا فيها بما يريدونهم عليه، من آراء ومعتقدات وأعمال[1]، ولقد أصبحت الفنون كلها اليوم من وراء القصة[2].

أهمية القصة في القرآن:

ومما زاد من أهمية القصة في القرآن الكريم ما يلي:

أ- ورودها منسوبة إلى ربِّ العزة والجلال في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ

(١) القصص القرآني، ص(٧).

(٢) المصدر السابق.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

ب- أمر الله رسوله ﷺ أن يقص على الناس ما أوحي إليه، ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

ج- القصة مَعلم بارز من معالم القرآن لتوضيح الحقائق وإزالة الشبه، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

د- والقصُّ -بالمفهوم العام- كان من مهمات الرُّسل -عليهم الصلاة والسلام، ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

هـ- وحياة الأنبياء هي محور القصص، وهم موضع القدوة والأسوة، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، والله تعالى أعلم.

خصائص قصص القرآن الكريم:

يتميز القَصص القرآني عن غيره من سائر القصص بخصائص يعلو بها جلالةً وقداسةً، ويزداد بها بلاغةً وإعجازًا، ويعظم بها أهميةً وتأثيرًا، وبهذه الخصائص استحق أن يُوسَم بأحسن القصص في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

فمن تلك الخصائص:

١- **التكرار الهادف المعجز:** ولما لهذه الخصيصة من تميُّز وظهور؛ فإنما أفردنا الحديث عنها لبيان المراد بإطلاق (التكرار) في القرآن، وبيان مغازيه وأهدافه التي تزيده سموًا ورفعةً، وبيان الكتب التي ألفت خاصة في بيان تلك

الروعة القرآنية[١].

٢- الواقعية التاريخية: ونعني بها أن كلَّ ما في قَصص القرآن من أخبار الأولين؛ فإنها هي حقائق تاريخية صادقة لا يصادمها عقل، ولا يخالفها نقل، وسواءٌ في تلك المصداقية ما كان من أخبار الأنبياء مع أقوامهم، وما كان من قبيل المعجزات وخوارق العادات؛ كانفلاق البحر وكلام الهدهد والنملة، وليس فيها أي نوع من التناقُض أو الاختراع، ولا أي شكل من أشكال الخيال أو التصوير المجرد عن الحقيقة، ولا أي صورة من صور الرمز أو الإشارة، كما يدعي بعض المستشرقين، أو أذنابهم ممن ختم الله على قلوبهم، فهم ينعقون بما لا يعلمون؛ باسم الإبداع الأدبي تارةً، وباسم الفن القصصي تارةً أخرى، وباسم الإمتاع وسعة الخيال تارة ثالثةً، وبأسماء أخرى تارات وتارات، وليس لهؤلاء همٌّ ولا هدفٌ من أدبٍ وغيره.. إلا تقويض دعائم القرآن، والتشكيك في مصداقيته، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

مـا يُضـيرُ البَحـرَ أَمسـى زاخِـرًا أَن رَمـى فيـهِ غُـلامٌ بِحَجَـرِ[٢]

وأيُّ مصداقية أعظم مما يقول الله فيه، وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦٢].

وسوف نعقد -إنْ شاء الله تعالى- فصلاً خاصًا لدحض شبهات المفترين، ولبيان المفارقة بين القصة القرآنية والقصة الفنية المعاصرة.

---

(١) الدعوة إلى الله، ص(١٦٠).

(٢) البيت من الرمل، وهو للأخطل في ديوانه، ص(١٠٢).

٣- الشمولية المطلقة: فقصص القرآن شاملة من عدة جهات:

أ- في حصر النفوس المخاطبة وطباعها وخلالها ووجهاتها ومكامن شعورها.

ب- في تنويع الأساليب والوسائل الملائمة لكلِّ جنس وطبقة ولون.

ج- ومن حيث الزمن؛ فالقصة تتحدَّث عن الماضي والحاضر والمستقبل.

د- ومن حيث شمولية موضوعاتها؛ فكما أنك تجد في موضوعات القرآن شمولاً؛ فكذلك تجد في قصص القرآن شمولاً لكلِّ تلك الموضوعات، من عقائد وعبادات وأخلاق وآداب اجتماعية واقتصادية وسلطانية، وغير ذلك.

٤- كونها هادفة: فالغاية الأولى من قصص القرآن هي تأملها وأخذ العبرة منها وتصحيح العقائد والأخلاق، حتى ينصلح الفرد والمجتمع، وليست الغاية قاصرةً على إمتاع النفوس بسماع قصص مسلية أو بطولات خيالية، أو إظهار براعة أدبية مجردة عن هدف الإصلاح، كما هو الحال في عامة الفنِّ القصصي، وليست الغاية أيضًا سردًا تاريخيًّا جافًّا، كما هي مهمة المؤرخين، فالقرآن بكلِّ ما فيه من قصص وغيرها هو كتاب هداية وعبرة بالدرجة الأولى، قال جلَّ شأنه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

٥- الإعجاز القصصي: إنَّ القصة تمثِّل جزءًا كبيرًا من القرآن، وبالتالي فهي كسائر القرآن في كلِّ خصائصه وسِماته العامة، ومن ذلك كونه معجزًا؛ فوجوه

الإعجاز التي تجدها في سائر القرآن غير القصص تجدها في القصص، لكن القصص يزيد على ذلك بوجوه أخرى من الإعجاز تميزه عن غيره؛ فمن تلك الوجوه: التكرار الهادف؛ حيث تجد في كلِّ موطن من العبر واللطائف والإشارات ما لا تجده في نفس القصة في موطن آخر، ومن وجه آخر؛ حيث يعجز إنسان -مهما أوتي من البيان- عن التنويع في قصة واحدة بضروب من الفصاحة، دون أن تظهر عليه علامات الضعف أو الرِّكة أو التفكُّك أو التكلُّف. **ومنها**: إخباره عن قصص ماضية دارسة صدَّقها أهل الكتاب، **ومنها**: إخباره عن قصص مستقبلة غيبية، **ومنها**: ما صدقتها الأيام، **ومنها**: ما سيقع، وغير ذلك مما هو مبسوط في مظانه من كتب الإعجاز، والله تعالى أعلم.

العبرة في القَصص القرآني:

إنَّ الهدف الأول من القصص القرآني لا يتجاوز المحور الأعظم لأهداف القرآن الكريم، ألا وهو كونه هداية للناس أجمعين؛ فالقصة القرآنية تمثِّل جزءًا كبيرًا من القرآن الكريم، وهي تتحد مع ما سواها مصدرًا وموضوعًا وغايةً.

ولكن إذا ما أردنا شيئًا من التفصيل؛ فإننا نستطيع أن نجمل أهداف القصص القرآني في النقاط التالية، وذلك من خلال ما أشارت إليه آيات القرآن متفرقة في معرض حديثها عن قَصص متعددة:

١- تثبيت قلب النبي ﷺ: قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، ففي أخبار المرسلين وتكذيب أقوامهم تسلية وتصبير لقلب النبي ﷺ وللمؤمنين والدُّعاة من بعده، على ما يلقاه من أذى المشركين وتكذيبهم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ

لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٤].

٢- إثبات صدق النبي ﷺ في رسالته: فمن وجه؛ أن دعوة الأنبياء واحدة ومنهجهم واحد، وبالتالي؛ فإنَّ النبي ﷺ كما قال جلَّ شأنه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال أيضًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ومن وجه آخر؛ حيث ينبئ النبي ﷺ بأخبار الأمم السابقة والقرون الساحقة مما لا يعلمه أحد من كتاب العرب فضلاً عن أميٍّ مثلِهِ ﷺ، وهذا ما أشار إليه الحق سبحانه حين قال وهو يعرض قصص الأنبياء في سورة «هود عليه السلام»: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وحين قال مخاطبًا نبيَّه ﷺ في سورة «القصص» بعد عرض شيق وطويل لنبأ موسى وفرعون: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٤-٤٦].

٣- الاعتبار والاتعاظ من خلال النظر في سنة الله النافذة في هذا الكون: فالعاقبة دائمًا للمتقين، والبوار والخزي دائمًا على الظالمين، وما أكثر الآيات التي تأمرنا بالسير في الأرض للنظر والاعتبار من عواقب وآثار الماضين، وفي هذا

يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، ومعنى العبرة: هو التأمُّل والاتعاظ والاعتبار بأن نقيس أنفسنا على السابقين ممن قصَّ الله علينا نبأهم بالحقِّ، فنعلم أنَّ سنة الله ماضية فينا، كما خلت في الذين من قبلنا، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر.

٤- **تصحيح العقائد الفاسدة وتثبيت العقائد الصحيحة:** ومحورها أمران: الإيمان بالله وحده، والإيمان بالبعث بعد الموت، وهذا ظاهر من خلال دعوات الرسل والأنبياء جميعًا لأقوامهم.

٥- **تقويم الخلق والسلوك الفردي والجماعي:** وتحقيق خلافة الإنسان في الأرض، وهذا ظاهرٌ من خلال معالجة كل نبي لصفة معينة في قومه -عدا الكفر- كان يسعى لإصلاحها؛ فالقصص يصوِّرُ مثلاً شناعة ما كان عليه قوم لوط، وما كان عليه أهل مَدين، وما كان عليه الطغاة والمفسدون من ظلم وجور ومنع للفقراء، وتصوِّر شناعة الحسد الذي حمل أحد ابني آدم عليه السلام على قتل أخيه، وشناعة طبائع اليهود.

وفي جانب آخر تصوِّر ما كان عليه الأنبياء والصالحون من صبر وعدل وعطاء، وكيف حقَّق سيدنا سليمان عليه السلام وغيره الخلافة في الأرض على أساس من العدل والخلق والاستقامة.

٦- **وثمة أهداف أخرى كثيرة لمن تأملها من أولي الألباب:** مثل التوكُّل على الله، لاسيما بالنسبة للدُّعاة والمصلحين، وانتهاج الأسوة الحسنة في الأنبياء، والتجمُّل بمكارم الأخلاق، وتعلُّم آداب الحوار، والجدال بالحسنى، وأساليب الدَّعوة إلى الله

تعالى، وكيف يدخل الداعية إلى قلوب المدعوين، ومعرفة طبائع الناس عامةً عند كفرهم وإيمانهم، وطبائع أقوام بعينهم مثل بني إسرائيل، وكيفية التعامُل معها، وتشخيص أمراض المنحرفين والمعاندين، وكيفية معالجتها، وغير ذلك.

- هذا ما يتعلق بأهداف القصص القرآني عمومًا، أما إنْ أردنا تفصيلاً أكثر، فإننا سنجد أنفسنا أمام بحر لا ساحل له ولا قرار؛ حيث إنَّ المتدبر لقصص القرآن واجدٌ في كلِّ قصة، بل في كلِّ آية، وفي كلِّ كلمة والتفاتة قرآنية، من الأهداف والعبر والإشارات واللطائف.. ما تعجز عنه الألسن، ولا تبلغ مداه الأفهام، وصدق الله العظيم؛ إذ يقول مبينًا تلك الأهداف العظيمة من القصص: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

وتأمَّلْ كيف جاء لفظ (عبرة) منكرًا؛ ليفيد الشمول والعموم، ففي قصصهم عبرة عن كلِّ شيء، وفي كلِّ شيء من قصصهم عبرة، ولكنْ مَن يستخرجُ تلك الدرر والجواهر؟! إلا مَن آتاه الله عقلاً نيرًا وقلبًا مبصرًا، ولذلك جعل العبرة في الآية السابقة قاصرة على أولي الألباب، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

التكرار الهادف في القَصص القرآني:

يطلق التكرار بمعنى ذكر الشيء مرة بعد مرة، وأكثر ما يتحقق في ذلك المفهوم أن يعاد ذكر الشيء بلفظه أو مرادفه من غير أن يكون هناك جديد في الإفادة، وهذا المعنى لا يتحقق في القصص القرآني الكريم، بل لا يمكن أن يتحقق أو يكون.

فالتكرار نوعان: صوري وحقيقي.. فالأول هو الواقع في القرآن الكريم؛ لأن ظاهره التكرار، وحقيقةً ليس فيه أيُّ تكرار، والثاني يستحيل وقوعه في القرآن الكريم، ونحن إذ ننفي عن القرآن أمرًا ما؛ فإننا ننفيه أولاً لإيماننا المطلق بأنه كلام الله القديم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس هذا فحسب، بل ولأننا بحثنا عنه في القرآن فلم نجده أصلاً.. وهذا ما يمليه علينا الإنصاف العلمي.

ومن هنا يمكننا أن نفهم أهداف التكرار في ضوء الحِكَم والأسرار التالية:

أ- إذا كرَّر القصة الواحدة؛ فإنما هو لفائدة اشتمل عليها كل موضع خلت منها المواضع الأخرى، ومن أمثلة ذلك: عصا موسى ﷺ؛ ففي سورة «طه» وصفَها الحقُّ سبحانه بأنها ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، وفي سورة «الأعراف» ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧]، وفي سورة «النمل»: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠]، فهي حية باعتبار ضخامتها، وثعبان من حيث الخِفة والنشاط وسرعة الحركة، وهي كأنها جان لكونها مرعبة.

ب- أن القصة المكررة تكون متجهة إلى هدف غير الهدف الذي تتجهُ إليه القصة في مواضع أخرى، أو تتحدَّث من جهةٍ غير الجهة التي تعرضت إليها في مواضع أخرى، وذلك نظرًا لأن القرآن كتاب هداية وعبرة، وليس كتاب سرد تاريخي، ولا متعة أدبية فارغة، فتكون القصة وسيلة لتحقيق تلك الأهداف المتعددة، متجهة نحو الغرض الذي سيقت من أجله.

ج- المعالجة الحكيمة للنفوس بترسيخ العقيدة والمفاهيم الصحيحة في عقول المدعوِّين عن طريق التكرار في قالب القصص الواقعي الجذاب، ولقد

قرَّر علم النفس الحديث أن الشيء يرسخ في النفس بتكراره مرارًا ما لا يرسخ بعرضه مرة واحدة أو مرتين، لاسيما إنْ كان جديدًا تنفر منه طبائع المشركين، وتشذ عنه عادات الجاهلين.

ء- أن عرض الحادثة الواحدة في أساليب كثيرة متلونة وصور بيانية متنوعة، دون أن يختل نظمه، أو يضطرب معناه، أو تتفكك روعته، أو يضعف مستواه، لهو مما يعجز عنه أبلغ الفصحاء، وفي هذا المعنى يقول الإمام الباقلاني -رحمه الله تعالى- في كتابه (إعجاز القرآن): «إنَّ إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدًا، من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتبين البلاغة».

هـ- أن القرآن كما تحدَّاهم بتنوُّع أساليبه الكثيرة.. تحداهم كذلك بمحاكاة أسلوب واحد من أساليبه الكثيرة، ولون واحد من ألوانه العجيبة، فعجزوا خاسئين.

وفي هذا المعنى يقول الإمام الباقلاني -رحمه الله تعالى- في كتابه (إعجاز القرآن): «ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ ومكررًا، ولو ذهبنا لنضرب أمثلة لكلِّ ما ذكرنا لطال بنا المقام وضاق عنه المقال، وكم من سرٍّ بلاغي وحكمة ومغزى ودلالة تكمن وراء ظاهرة التكرار يحسبه الفارغون فراغًا وما هو به».

- ولقد ألَّفَ العلماء قديمًا وحديثًا مصنفات واسعة في بيان أسرار التكرار والوجوه والنظائر الواردة في القرآن الكريم، في ألفاظه وفي قصصه، كالإمام الكرماني في كتابه (أسرار التكرار في القرآن)، والإمام ابن الخطيب

الفيروزآبادي صاحب (القاموس المحيط) في كتابه (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري في كتابه (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن).

ومن أكبر مظاهر الإبداع في القصص القرآني:

١- التنوُّع في طريقة العرض.

٢- التنوُّع في طريقة المفاجأة.

٣- براعة الانتقال وإيحاء الفجوات[١].

* * *

(١) د. صلاح الدين محمد عبد التواب: دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، (٣/ ١١٧).

الباب الثاني

مع الرســـــول ﷺ

أوصافه.. هديه.. أخلاقه.. شمائله

مقدمة:

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكلُّ محدثة بدعة، وكلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النار.

فإنَّ النبي ﷺ يمتاز من كمال خُلقه وكمال خَلقه بما لا يحيط بوصفه البيان، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله، والرجال تفانوا في حياطته وإكباره بما لا تعرف الدنيا غيره، فالذين عاشروه أحبوه إلى حد الهيام، ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر، وما أحبوه كذلك إلا لأن أنصبته من الكمال الذي يُعشق عادة لم يرزق بمثلها بشر، ولذلك ستتكلَّم في هذه الصفحات عن بيان جماله وكماله خُلقًا وخَلقًا، مع الاعتراف بالعجز عن الإحاطة عن كمال وصفه الخِلقي وكمال أخلاق الرفيعة العالية.

سائلاً الله تعالى ألا يحرمنا مشاهدة محاسنه في الدنيا برؤيا صالحة صادقة،

ورؤيته في دار السَّلام مع إخوانه الرُّسل والأنبياء مع رؤية الخالق ﷻ، قاصدين بذلك أن تمتلئ القلوب محبة له وإجلالاً وتعلقًا به ﷺ، وكي نترسم هديه ﷺ، ونتبع أثره، ونخطو خُطاه ﷺ، والله تعالى المسئول أن يجعله لوجهه خالصًا، وألا يجعل لغيره فيه شيئًا، وأن يبلغ رسوله ﷺ منا السَّلام.

ربيع عبد الرءوف الزواوي

الإسكندرية

الأحد في ٦/١١/ ١٤١٤هـ-١٧/٤/١٩٩٤م

صفات الرسول ﷺ
الخلقية كما رواها من رآه

١- أم معبد تصف الرسول ﷺ:

قالت أم معبد الخزاعية عن رسول الله ﷺ وهي تصفه لزوجها حين مر بخيمتها: «ظَاهِرُ الْوَضَاءَةِ، أَبْلَجُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الْخَلْقِ، لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلَةٌ، وَلَمْ تُزْرِ بِهِ صُعْلَةٌ، وَسِيمٌ قَسِيمٌ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَحَلٌ، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ، أَحْوَرُ، أَكْحَلُ، أَزَجُّ، أَقْرَنُ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، إِذَا صَمَتَ عَلَاهُ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ عَلَاهُ الْبَهَاءُ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُمْ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَحْلَاهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلْوُ الْمَنْطِقِ، فَصْلٌ، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ، رَبْعَةٌ، لَا تُقْحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ، وَلَا تَشْنَؤُهُ مِنْ طُولٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ، فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا، لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ، إِذَا قَالَ اسْتَمَعُوا لِقَوْلِهِ، وَإِذَا أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ، مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ، لَا عَابِسٌ وَلَا مُفْنِدٌ»[1].

فهذا وصف امرأة للرسول ﷺ، مرَّ بها -عليه الصَّلاة والسَّلام- عابرًا يستقي منها الماء واللبن، لمحته عينيها فجاشت لزوجها عند رجوعه آخر النهار بهذه الكلمات التي يعجز كثير من بني الإنسان عن فهمها، فضلاً عن قول مثلها

---

(١) سيرة ابن هشام، وزاد المعاد، والرحيق المختوم.

لو رأى الرسول ﷺ.

إنَّ المرأة عبَّرت بما أحست ولمست من كمال جماله، وحُسن مظهره، وبهجة طلعته ﷺ، ولو أخذنا نحن بدورنا في شرح كلامها لقلنا:

قولها (ظاهر الوضاءة): أي أن جماله ﷺ وحُسن منظره يظهر لكلِّ مَن رآه سواء كانت هذه الرؤية عن قُربٍ أم عن بُعدٍ، والرَّجل الوضيء: أي حسن المنظر. قال ابن منظور في (لسان العرب): «الوضاءة مصدر الوضيء وهو الحسن النظيف، والوضاءة: الحسن والنظافة، والوضاءة الحسن والبهجة. قال عمر لحفصة: لا يغرك إنْ كانت جارتك هي أوضأ منك، أي: أحسن»[1].

وقولها (أبلج الوجه): أي مشرق الوجه، أبيض مضيء. قال ابن منظور في (لسان العرب): «البلج تباعد ما بين الحاجبين، وقيل: ما بين الحاجبين إذا كان نقيًا من الشعر؛ بلج بلجًا، فهو أبلج، والأنثى بلجاء، وقيل: الأبلج الأبيض الحسن الواسع الوجه، يكون في الطول والقصر»، وقال الجوهري: «البلجة نقاوة ما بين الحاجبين، يقال: رجل أبلج بيِّن البلج إذا لم يكن مقرونًا، وفي حديث أم معبد في صفة النبي ﷺ: أبلج الوجه، أي: مسفره مشرقه، ولم تُرِد بلج الحاجب؛ لأنها تصفه بالقرن، والأبلج الذي قد وضح ما بين حاجبيه فلم يقترنا، وقال ابن الشميل: بلج الرجل يبلج إذا وضح ما بين عينيه، ولم يكن مقرون الحاجبين؛ فهو أبلج.. وشيء بليج: مشرق مضيء»[2].

---

(١) لسان العرب لابن منظور، (١٥/ ٣٢٢).

(٢) المصدر السابق، (١/ ٤٧٧، ٤٧٨).

وبليج: أي طلق بالمعروف، قالت الخنساء:

كَأَن لَم يَقُل أَهلاً لِطالِبِ حاجَةٍ وَكانَ بَليجَ الوَجهِ مُنشَرِحَ الصَّدرِ

وبليج: أي مشرق مضيء، قال الداخل بن حرام الهذلي:

بِأَحسَنَ مُقلَةً مِنها وَجيدًا غَداةَ الحِجرِ مَضحَكُها بَليجُ

إذن؛ فأمُّ معبد أرادت أنه ﷺ أبيض مشرق الوجه مضيء تكملة للفظ ظاهر الوضاءة، وما أرادت أنه بعيد ما بين الحاجبين.

قولها (لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلَةٌ): أي لم يعبه ضخامة البدن، وعظم البطن واسترخاؤه، قال ابن منظور: «الثجل: عظم البطن واسترخاؤه، وقيل: هو خروج الخاصرتين.. إلى أن يقول: وفي حديث أم معبد في صفة سيدنا رسول الله ﷺ: (لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلَةٌ) أي: ضخم بطن، ويروى بالنون والحاء (نُحلة)، أي: نحول ودقة.

قولها (وَلَمْ تُزْرِ بِهِ صُعْلَةٌ): الصلع صغر الرأس، وقيل: ذهاب الشَّعر من مقدم الرأس. قال في ابن منظور في «لسان العرب»: «الصلع ذهاب الشعر من مقدم الرأس إلى مؤخره، وكذلك إذا ذهب وسطه.. إلى أن قال: «والصلعاء من الرمال: ما ليس فيها شجر، وأرض صلعاء لا نبات فيها»[1].

وقولها (وسيم): أي حسن جميل، قال ابن الأعرابي: «الوسيم الثابت الحُسن كأنه قد وُسم، وفلان وسيم أي: حسن الوجه والسيما، وفي صفته ﷺ: وسيم قسيم، الوسامة: الحسن الوضيء الثابت»[2].

(١) المصدر السابق، (٧/ ٣٨٧، ٣٨٨).

(٢) المصدر السابق، (١٥/ ٣٠٢).

وأما قولها (قسيم): فمعناه أيضًا حُسن الوجه، كما قال ابن منظور وفي حديث أم معبد: قسيم.. القسامة الحُسن، ورجل مقسم الوجه، أي: جميل كله كأن كل موضع منه أخذ قسمًا من الجمال[١]، وهذا يعني أن كل جزء منه ﷺ على حِدَة جميل حسن، فكلُّ جزء منه ﷺ حاز الجمال كله.

قولها (في عينيه دَعَج): أي أنه ﷺ كان شديد سواد العين مع اتساعها، شديد بياض بياضها. قال في ابن منظور في (لسان العرب): «الدعج والدعجة: السواد، وقيل: شدة السواد، وقيل: الدعجة شدة سواد العين وشدة بياض بياضها، وقيل: شدة سوادها مع سعتها، قال الأزهري: الذي قيل في الدعج أنه شدة سواد العين مع شدة بياض بياضها خطأ، أراد بالأدعج المظلم السواد، جعل الليل أدعج؛ لشدة سواده مع شدة بياض الصبح، وفي صفته ﷺ في عينيه دعج، الدعج والدعجة السواد في العين وغيرها؛ يريد أن سواد عينيه كان شديد السواد، وقيل: إنَّ الدعج عنده سواد العين في شدة بياضها»[٢].

وقولها (وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ): أي أنه ﷺ كان طويل شعر الأجفان. قال بان منظور في (لسان العرب): «الشُّفْر بالضم: شُفْرُ العين وهو ما نبت عليه الشعر، وأصل منبت الشعر في الجفن وليس الشفر من الشعر في شيء. والجمع أشفار»، وقال ابن منظور: «شفر العين منابت الأهداب من الجفون[٣]، وأما الوطف؛ فهو كثرة وطول شعر الحاجبين والعينين». وقال ابن منظور: «الوطف: كثرة

(١) المصدر السابق، (١١/ ١٦٦).
(٢) المصدر السابق، (٤/ ٣٥١).
(٣) المصدر السابق، (٧/ ١٤٩).

شعر الحاجبين والعينين والأشفار مع استرخاء وطول.. وفي حديث أم معبد في صفته ﷺ: أنه كان في أشفاره وطف؛ المعنى أنه كان أهدب الأشفار أي طويلها»[١].

وقولها (وَفِي صَوْتِهِ صَحَلٌ): أي أنه صوته ﷺ كان فيه بَحَّة، ولم يكن حادًّا، بل كان فيه بحة وخشونة. قال في ابن منظور في (لسان العرب): صَحِل الرجل، بالكسر، وصَحِل صوته يَصْحَل صَحَلاً فهو أصحل؛ وصحل: بح؛ ويقال: في صوته صحل أي بحوحة، وفي صفة رسول الله ﷺ، حين وصفته أم معبد؛ وفي صوته صَحَلٌ، وهو بالتحريك كالبحة، وألا يكون حادًّا، قال: الصحل: حدة الصوت مع بحح»[٢].

وقولها (وفي عنقه سَطَع): أي أنه ﷺ كان في عنقه طول. قال في (لسان العرب): «السطع بالتحريك: طول العنق، وفي حديث أم معبد وصفتها المصطفى ﷺ؛ قالت: وكان في عنقه سطع، أي: طول»[٣].

وقولها (أحور): أي أنه ﷺ كان شديد سواد العين، شديد بياض بياضها، وكانت عينه مستديرة. قال في (لسان العرب): «والحور أن يشتد بياض العين وسواد سوادها، وتستدير حدقتها، وترق جفونها، ويبيض ما حواليها، وقيل: الحَور شدة سواد المقلة في شدة بياضها في شدة بياض الجسد»[٤].

---

(١) المصدر السابق، (١٥/ ٣٣٨).
(٢) المصدر السابق، (٧/ ٢٩١، ٢٩٢).
(٣) المصدر السابق، (٦/ ٢٥٨).
(٤) المصدر السابق، (٣/ ٣٨٥).

وقولها (أكحل): أي أنه أسود أجفان العين، ويقال: لكلٍّ أبيض شديد سواد العين أنه أكحل. قال في (لسان العرب): «والكَحَل في العين أن يعلو منابت الأشفار سواد مثل الكُحْل من غير كحل، وقيل: الكَحَل في العين أن تسود مواضع الكُحل، وقيل: الكحلاء الشديدة السواد، وقيل: وهي التي تراها كأنها مكحولة، وإنْ لم تكتحل.. وفي صفته ﷺ في عينيه كَحَل؛ الكَحَل بفتحتين: سواد في أجفان العين»[1].

وقولها (أزج): أي أنه ﷺ كان طويل الحاجب مع رقة فيه. قال في (لسان العرب): الأُزُوجُ: سرعة الشدة، وأزج في مشيته: أسرع، أَزَج العشبُ: أي طال[2]، وقال: وزججت المرأة حاجبها بالمِزَجِّ: رقَّقته وطولته، وقيل: أطالته بالإثمد.

وقولها (أقرن): أي مقرون الحاجبين أو متصل الحاجبين. قال في (لسان العرب): «رجل أبلج بيِّن البلج؛ إذ لم يكن مقرونًا، وفي حديث أم معبد في صفة النبي ﷺ: أبلج الوجه، أي: مسفره مشرقه، ولم تُرِد بلج الحاجب؛ لأنها تصفه بالقرن، والأبلج الذي قد وضح ما بين حاجبيه، فلم يقترنا، والبلج إذ لم يكن أقرنًا»[3].

إذن؛ فأمُّ معبد أرادت بالبلج: أنه مشرق الوجه، وليس بعيد ما بين الحاجبين بدليل أنها وصفته بأنه أقرن وهو قريب الحاجبين.

---

(١) المصدر السابق، (١٣/ ٤٠، ٤١).
(٢) المصدر السابق، (١/ ١٣٠ - ٦/ ٢٠).
(٣) المصدر السابق، (١/ ٤٧٧).

وقولها (لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ): أي أنه ﷺ كان وسطًا في الحجم، لا قليل ولا كثير، فالنزر هو القليل التافه، وهو القليل في كلِّ شيء، والإنسان النزور هو قليل الكلام، والهذر هو الكثير الرديء، وهذر الرجل في كلامه، أي: أكثر الكلام بلا فائدة، فرسول الله ﷺ لم يكن لا هذا ولا هذا، إنما كان وسطًا بين ذلك وذلك ﷺ. قال في (لسان العرب): «النزر القليل التافه والنزر والنزير: القليل في كل شيء»[1]. وقال: «الهذر: الكلام الذي لا يُعبأ به، وهذر كلامه هذرًا: كثر في الخطأ والباطل، والهذر: الكثير الرديء، وقيل: هو سقط الكلام»[2].

وقولها (محفود): أي أنه ﷺ كان محفودًا من أصحابه، أي: معظمًا مكرمًا مخدومًا، والحَفْدُ: هو الخِدمةُ، ومنه قول النبي ﷺ في دعاء القنوت: «وَإِليكَ نَسعَى وَنحفدُ» أي: أن نسارع في الخدمة والطاعة. قال في (لسان العرب): «أصل الحفد الخدمة والعمل»[3]، وقال: «ورجل محفود، أي: مخدوم، وفي حديث أم معبد: محفود، أي يخدمه أصحاب ويعظمونه ويسارعون في طاعته».

وقولها (محشود): أي أنه ﷺ كان يجتمع عليه أصحابه، فيحفون به ويحتشدون حوله. قال في (لسان العرب): «حشد القوم يحشدهم ويحشدهم، جَمَعَهم.. إلى أن يقول: ورجل محشود: أي عنده حشد من الناس أي جماعة، ورجل محشود إذا كان الناس يحفون بخدمته؛ لأنه مطاع فيهم، وفي حديث أم

(١) المصدر السابق، (١٤/ ١٠٤).
(٢) المصدر السابق، (١٥/ ٦٥).
(٣) المصدر السابق، (٣/ ٢٣٥).

معبد: محفود محشود أي أن أصحابه يخدمونه ويجتمعون إليه[١].

وقولها (لَا عَابِسٌ وَلَا مُفْنِدٌ): أي أنه ﷺ كان باشًا جميل المعاشرة، لا يهجن أحدًا، أو يستقل عقله، بل كان يوقِّر الناس جميعهم ﷺ، وكان صاحبه كريم عليه. قال في (لسان العرب): «العابس: الكريه المَلْقي، الجهم المُحَيَّا، والمفَنِّد: بكسر النون: الذي يقابل غيره بما يكره، ومعنى قولها (ولا مفَنِّد): أي أنه ﷺ لا يفند غيره، أي: لا يقابل أحدًا في وجهه بما يكره، ولأنه يدل على الخلق العظيم[٢]. وقيل مفَنِّد: أي لا فائدة في كلامه لكِبَر أصابه[٣]. وقيل المفَنِّد: الضعيف الجسم والرأي[٤]. فالرسول ﷺ لم يكن واحدًا من أولئك.

أي أن أمَّ معبد التي رأت النبي ﷺ وصفته بأنه: جميل حسن المنظر سواء تراه عن قُرب أو عن بُعد، أبيض الوجه وضيء، ليس له بطن عظيم، ليس به صلع، بل شعره من مقدمة رأسه، الجمال في وجهه في كلِّ عضو على حدة، شديد سواد العين، واسع العينين، طويل شعر الأجفان، في صوته بَحَّة مع خشونة، طويل العنق، شديد بياض العين، شديد سواد سوادها، أسود أجفان العين أكحل، طويل الحاجبين مع رقة فيه، متصل الحاجبين، متوسط حجم الجسم، لا تافه ولا كثير غليظ، معظمًا مكرَّمًا مخدومًا من أصحابه، يلتفُّ حوله أصحابه، غير عابس ولا يحتقر أحدًا.

(١) المصدر السابق، (٣/ ١٨٣، ١٨٤).
(٢) المصدر السابق، (٩/ ٢٠).
(٣) المصدر السابق، (١٠/ ٣٣٣).
(٤) المصدر السابق، (١٠/ ٢٣٢).

٢- البراء بن عازب ﷺ يصف النبي ﷺ:

قال البراء بن عازب ﷺ: «كان أحسن الناس وجهًا وأحسنهم خُلقًا»(١).

وسئل مرة: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر، وقال مرة أخرى: «كان وجهه مستديرًا»(٢).

وقال: «كان مربوعًا ما بين المنكبين، له شعر يبلغ شحمة أذنيه، رأيته في حُلة حمراء، لم أر شيئًا قط أحسن منه»(٣).

أفاد البراء بن عازب ﷺ من هذه الروايات أنه ﷺ كان جميلاً حسن المنظر، وهذا لا مِرْية فيه، ولا شكَّ، وأنه ﷺ كان مستدير الوجه في بهاء القمر في استدارته، وكان ﷺ جميل الشَّعر طويلاً يبلغ إلى شحمة أذنيه.

٣- علي بن أبي طالب ﷺ يصف النبي ﷺ:

قال علي بن أبي طالب ﷺ وهو يصف النبي ﷺ: «لَيْسَ بِالطَّوِيلِ المُمَّغِطِ، وَلاَ بِالقَصِيرِ المُتَرَدِّدِ، وَكَانَ رَبْعَةً مِنَ القَوْمِ، وَلَمْ يَكُنْ بِالجَعْدِ القَطَطِ وَلاَ بِالسَّبِطِ كَانَ جَعْدًا رَجِلاً وَلَمْ يَكُنْ بِالمُطَهَّمِ، وَلاَ بِالمُكَلْثَمِ، وَكَانَ فِي الوَجْهِ تَدْوِيرٌ، أَبْيَضُ مُشْرَبٌ، أَدْعَجُ العَيْنَيْنِ، أَهْدَبُ الأَشْفَارِ، جَلِيلُ المُشَاشِ، وَالكَتَدِ، أَجْرَدُ ذُو مَسْرُبَةٍ شَثْنُ الكَفَّيْنِ وَالقَدَمَيْنِ، إِذَا مَشَى تَقَلَّعَ كَأَنَّمَا يَمْشِي فِي صَبَبٍ، وَإِذَا التَفَتَ التَفَتَ مَعًا، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، أَجْوَدُ النَّاسِ صَدْرًا،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَلْيَنُهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمُهُمْ عِشْرَةً، مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ، يَقُولُ نَاعِتُهُ: لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»[(١)].

وقال أيضًا: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ بِالطَّوِيلِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ شَثْنُ الْكَفَّيْنِ، وَالْقَدَمَيْنِ ضَخْمُ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ، مُشْرَبٌ حُمْرَةً ضَخْمُ الْكَرَادِيسِ طَوِيلُ الْمَسْرُبَةِ إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤًا كَأَنَّمَا يَمْشِي يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ»[(٢)].

هذا وصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ لرسول الله ﷺ، وهو ابن عمه، ومن ألصق الناس به، ولقد جاء وصفه للنبي ﷺ دقيقًا جامعًا، جمع فيه بين الصفات الخِلقية والخُلقية، والصفات التي تُلاحظ عن قُرب وعن بُعد، والتي تعرف بطول العشرة وقصرها.

فقوله ﷺ (لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْمُمَّغِطِ): أي أن طول النبي ﷺ كان الطول المقبول، فلم يكن طويلاً متناهيًا في الطول بحيث يعيبه ذلك الطول، ولا هو بالقصير المتردد، بحيث يكون قصره عيبًا فيه، فالنبي ﷺ كان وسطًا من ناحية الطول والقصر، وخير الأمور الوسط.

وقوله ﷺ (كَانَ رَبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ): أي معتدلاً وسطًا.

وقوله ﷺ (وَلَمْ يَكُنْ بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ): فيها بيان لجمال شعره ﷺ وعدم جعودته وهو الالتواء.

وقوله ﷺ (وَلاَ بِالسَّبِطِ): يفيد أيضًا أنه ﷺ لم يكن مسترسل الشعر.

---

(١) رواه الترمذي، وهو في سيرة ابن هشام.

(٢) رواه الترمذي.

وقوله (كَانَ جَعْدًا رَجِلاً): أي شعره فيه جمال بديع؛ حيث إنه منقبض ملتوي الشعر ﷺ.

وقوله ﷺ (لَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ، وَلاَ بِالْمُكَلْثَمِ): أي أنه ﷺ لم يكن منتفخ الوجه فاحش السمنة، ولا هو مجتمع اللحم في وجهه كوجه أهل السمن الغلاظ، أو لعله يقصد بالمطهم النحيف التافه، فلا هو نحيف تافه الوجه أو غليظ الوجه مجتمع لحمه كأهل السمنة والغلظة والتُّخمة.

وقوله ﷺ (كَانَ فِي الوَجْهِ تَدْوِيرٌ): تفيد استدارة وجه الحبيب ﷺ.

وقوله ﷺ (أَدْعَجُ العَيْنَيْنِ): أي كان ﷺ شديد سواد العين، شديد بياض بياضها.

وقوله ﷺ (أَهْدَبُ الأَشْفَارِ): أي طويل شعر الأجفان ﷺ.

وقوله ﷺ (جَلِيلُ الْمُشَاشِ وَالكَتَدِ): أي أنه ﷺ كان عظيم رءوس العظام كالمرفقين والكتفين والركبتين ومجتمع الكفين.

وقوله ﷺ (أَجْرَدُ ذُو مَسْرُبَةٍ): أي أنه ﷺ كان ذو شعر على هيئة خط دقيق بين صدره وسرته ﷺ، وهذا غالبًا من علامات الرُّجولة والفحولة، وأجرد، أي: الذي ليس على بدنه شعر، إلا في أماكن مخصوصة.

وقوله ﷺ (شَثْنُ الكَفَّيْنِ وَالقَدَمَيْنِ): أي غليظ أصابع الكفين والقدمين.

وقوله ﷺ (إِذَا مَشَى تَقَلَّعَ كَأَنَّمَا يَمْشِي فِي صَبَبٍ): تفيد سرعة الرُّسول ﷺ في مشيته التي لا يمشي فيها مختالاً فخورًا ولا متكبرًا، ولا هي مشية الجبَّارين.

وقوله ﷺ (مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ): أي أنه ﷺ كان مهاب الجانب ممن يراه حتى

لو رآه فجأة، فضلاً عمن عاشره ﷺ وجرَّب دماثة أخلاقه.

وقوله ﷺ (ضَخْمُ الرَّأْسِ): ضخم الرأس: أي أنه ﷺ لم يكن صغير الرأس إذا يعرف عادة صاحبه بالمكر والخداع، إنما كان مبرأ من هذه الصفة ﷺ.

وقوله ﷺ (ضَخْمُ الْكَرَادِيسِ): أي أنه ﷺ كان ضخم رءوس العظام، أي ضخم الأعضاء.

٤- أبو هريرة ﷺ يصف النبي ﷺ:

قال أبو هريرة ﷺ يصف رسول الله ﷺ: «ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ؛ كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث»[1].

أفاد وصف أبي هريرة ﷺ للنبي ﷺ صفتين بارزتين في الرسول ﷺ وهما حُسن المنظر وبهاؤه ونضرته، حتى كأن الشمس بشدة ضوئها تجري في وجهه، والصفة الثانية: سرعة مشيته لدرجة أنه من سرعته ﷺ كأن الأرض تطوى له، وكان الماشي معه ﷺ يسرع خطاه بشدة، فلا يكاد يسبقه رغم أن رسول الله ﷺ يمشي غير مكترث، وكأن ذلك سجية فيه ﷺ، وهذه مشية أهل التواضع وليس الجبَّارين الذين يختالون في مشيتهم، الذين تمقتهم القلوب.

٥- جابر بن سَمُرة ﷺ يصف النبي ﷺ:

يقول جابر بن سمرة ﷺ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ضَلِيعَ الْفَمِ، أَشْكَلَ الْعَيْنِ

(١) مشكاة المصابيح، وجامع الترمذي.

مَنْهُوسَ الْعَقِبَيْنِ»[١]، ويقول أيضًا: «رَأَيْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ حُلَّةً حَمْرَاءَ فِي لَيْلَةٍ إِضْحِيَانٍ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلَى الْقَمَرِ، فَلَهُوَ أَحْسَنُ فِي عَيْنِي مِنَ الْقَمَرِ»[٢].

أفاد وصف جابر بن سمرة ﷺ الأول للرسول ﷺ أن فم رسول الله ﷺ عظيم مع جمال، كما أنه طويل شق العين، قليل اللحم في العقبين.

وأفاد وصفه الثاني أن رسول الله ﷺ أبهى من القمر ليلة تمامه.

ويقول أيضًا ﷺ: «كان في ساقيه حُمُوشة، وكان لا يضحك إلا تبسُّمًا، وكنت إذا نظرت إليه قلت: أكحل العينين وليس بأكحل»[٣].

ومعنى ذلك أن أعضاء جسم النبي ﷺ متناسبة وفيها لطافة، وذلك في سائر أعضائه ﷺ.

وقال أيضًا ﷺ: «مسح خدي فوجدت ليده بردًا أو ريحًا كأنما أخرجها من جونة عطار»[٤]، أي كأنها من شدة طيب ريحها خرجت من حرز العطار، صاحب العِطر الذي جمع فيه عطره، وذلك عندما كان جابر صبيًّا صغيرًا.

٦- أنس بن مالك ﷺ يصف النبي ﷺ:

قال أنس بن مالك ﷺ: «كان ﷺ بسط الكفين».

وقال أيضًا ﷺ: «كان ﷺ أزهر اللون، ليس بأبيض أمهق، ولا آدِم، قُبض

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الدارمي، والترمذي في الشمائل.
(٣) رواه الترمذي.
(٤) رواه مسلم.

وليس في رأسه عشرون شعرة بيضاء»[(١)].

وقال أيضًا ﷺ: «إنما كان شيئًا»، أي من شيب في صدغيه[(٢)].

وقال أيضًا ﷺ: «ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من كفِّ النبي ﷺ، ولا شممت ريحًا قط أو عَرفًا قط»، وفي رواية: «ما شممت عنبرًا قط أو مِسكًا ولا شيئًا أطيب من ريح أو عَرف رسول الله ﷺ»[(٣)].

وبذلك أفاد وصف أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ ليس أبيض شديد البياض ولا أسود، إنما كان أزهر، أي: أبيض مشربًا بحمرة، وكذلك لم يكن به إلا شعرات قليلة من الشيب، وكذلك كان ﷺ طيب الملمس طيب الرائحة دائمًا.

وقال أيضًا ﷺ: «كان عرقه ﷺ اللؤلؤ».

٧- عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- يصف الرسول ﷺ:

قال عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما: «كان أفلج الثنيتين، إذا تكلَّم رُؤي كالنور يخرج من بين ثناياه، وأما عنقه فكأنه جيد دُمية في صفاء الفضة، وكأن في أشفاره وطف، وفي لحيته كثافة، وكان واسع الخدين، من لبته إلى سرته شعر يجري كالقضيب، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، أشعر الذراعين والمنكبين، سواء في البطن والصدر، مسيح الصدر عريضه، طويل الزند، رحب الراحة، سَبْط القصب والأخمصتان سابل الأطراف، إذا زال زال قلعًا، ويخطو

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

تكفيًا ويمشي هونًا[١].

أفاد وصف عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- لرسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ كان بين أسنانه تباعُد وهي التي في مقدمة الفم، وكان عنقه جميل، جمال عنق الدمية الجميلة، وقد ارتفع أعلى أنفه واحد ودب وسطه وضاق منخراه، وأن ساعديه وساقيه ليس فيها نتوء ولا عقد، وأن قدميه فيها مكان لا يلتصق بالأرض عند الوطء.

٨- كعب بن مالك ﷺ يصف الرسول ﷺ:

يقول كعب بن مالك ﷺ: «كان إذا سُر استنار وجه حتى كأنه قطعة قمر»[٢].

أفاد كعب ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يستبشر حتى يظهر ذلك البشر على ملامح وجهه ﷺ حتى كأنه القمر.

٩- أبو بكر الصديق ﷺ يصف الرسول ﷺ:

كان أبو بكر الصديق ﷺ إذا رأى رسول الله ﷺ يقول:

أَمِينٌ مُصطفَى بِالخَيرِ يَدْعُو ... كَضَوءِ البَدرِ زَايلَهُ الظَّلامُ[٣]

١٠- عمر بن الخطاب ﷺ يصف الرسول ﷺ:

كان الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ ينشد قول زهير في مدح هرم بن سنان،

---

(١) الرحيق المختوم، ص(٤٨٣).

(٢) رواه البخاري.

(٣) خلاصة السير، والرحيق المختوم.

عندما يرى رسول الله ﷺ:

لَـوْ كُنْـتَ فِي شَيْءٍ سِـوى الـبَشَرِ كُنْـــتَ المُضيء لَيلَـــةَ البَـــدرِ

ثم يقول: «كذلك كان رسول الله ﷺ»(١).

١١- عائشة -رضي الله عنها- تصف الرسول ﷺ:

كانت عائشة -رضي الله عنها- مرة وعندها رسول الله ﷺ فعرق ﷺ، فجعلت تبرق أسارير وجهه، فقالت:

إِذَا نَظَـــرت إِلَى أَسرة وَجهِـــهِ بَرَقَـتْ كَـبرقِ العَـارضِ المُتهلـلِ

تتمثل له ببيت قاله أبو كبير الهذلي(٢).

١٢- جابر بن عبد الله ﷺ يصف الرسول ﷺ:

قال جابر ﷺ: «لم يسلك رسول الله ﷺ طريقًا، فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عَرْفه»، أو قال: «من ريح عَرَقه»(٣).

وقال أيضًا ﷺ: «كان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة، يشبه جسده، وكان عند نَاغِضِ كَتِفِهِ اليُسرى، جُمْعًا عليه خِيلانٌ كَأمثالِ الثَّآليلِ»(٤)، وهي هذه الحبة التي تظهر في الجلد كالحُمُصة فما دونها.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الرحيق المختوم.

(٣) رواه الدارمي، مشكاة المصابيح.

(٤) رواه مسلم.

١٣- أبو جحيفة ﷺ يصف الرسول ﷺ:

يقول أبو جحيفة ﷺ: «أخذت بيده ﷺ، فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك»[١].

وقال أيضًا ﷺ: «رَأَيْتُ بَيَاضًا مِنْ تَحْتِ شَفَتِهِ السُّفْلَى العَنْفَقَة»[٢].

١٤- أبو الطفيل ﷺ يصف النبي ﷺ:

قال أبو الطفيل ﷺ: «كان ﷺ أبيض، مليح الوجه، مقصدًا»[٣]، أي أنه ﷺ ليس بجسيم ولا نحيف، ولا طويل ولا قصير.

١٥- عبد الله بن بسر ﷺ يصف الرسول ﷺ:

قال عبد الله بن بسر ﷺ: «كان في عَنفقة الرسول ﷺ شعرات بيض»[٤].

١٦- الرُّبَيِّع بنت معوِّذ -رضي الله عنها- تصف الرسول ﷺ:

قالت -رضي الله عنها: «لو رأيته رأيت الشَّمس طالعة»[٥].

* * *

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري، والعنفقة هي الشعر الذي ينبت تحت الشفة السفلى وفوق الذقن، ويكون قليلاً غالبًا، وأصل العنفقة خفة الشيء وقلته.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

(٥) الرحيق المختوم.

وصف الرسول ﷺ في كتب السِّـــيرة

١- ابن حزم -رحمه الله- يصف الرسول ﷺ:

قال ابن حزم -رحمه الله: «كان ﷺ ليس بالطَّويل البائن، ولا بالقصير، ولا بالأبيض الأمهق، ولا الآدم، ولا بالجعد القطط، ولا السبط، رجل الشعر، أزهر اللون، مشربًا بحمرة في بياض ساطع، كأن وجهه القمر حسنًا، ضخم الكراديس (أي: عظم المفصل)، أوطف الأشفار، أدعج العينين، في بياضهما عروق حمر رقاق، حسن الثغر، واسع الفم، حسن الأنف، إذا مشى كأنه يتكفأ، إذا التفت التفت بجميعه، كثير النظر إلى الأرض، ضخم اليدين لينهما، قليل لحم العقبين، كث اللحية واسعها، أسود الشعر، ليس لرجليه أخمص، إذا طول شعره فإلى شحمة أذنيه ومع كتفه، وإذا قصره فإلى أنصاف أذنيه، لم يبلغ شيب رأسه ولحيته عشرين شيبة.

وهو محمد ﷺ، وأحمد، والماحي: يمحو الله به الكفر، والحاشر: يحشر الناس على عقبيه، والعاقب: ليس بعده نبي، والمقفى، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، وسمَّاه الله تعالى: رءوفًا رحيمًا.

وكان على نغض كتفه الأيسر خاتم النبوة، كأنه بيضة حمام، لونه لون جسده، عليه خيلان، ومن فوقه شعرات»، انتهى(١).

---

(١) جوامع السيرة النبوية لابن حزم، ص(٤٤)، (مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر).

٢- ابن سعد -رحمه الله- يصف الرسول ﷺ:

روى ابن سعد في (الطبقات الكبرى): «عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله ﷺ، لا يسرد سردكم هذا، يتكلم بكلام فصل، يحفظه من سمعه».

وعن جابر ﷺ قال: «كان في كلام رسول الله ﷺ، ترتيب وترسيل».

وعن إسماعيل بن عياش ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ أصبر الناس على أوزار الناس».

وروى عن سَيَّار أبي الحكم ﷺ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا مَشَى مَشَى مَشْيَ السُّوقِيِّ لَيْسَ بِالْعَاجِزِ وَلَا الْكَسْلَانِ».

وروي عن إسحاق بن عيسى عن أبيه، قال: «ما رُئِيَ رسولُ الله ﷺ يأكل متكئًا قط، ولا يطأ عقبه رجلان (يقصد ليس كعادة المتكبرين يمشي خلفهم الأتباع والحُراس والحشم)».

وروي عن أنس بن مالك ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ، إذا أتى الغائط لم يرفع ثيابه حتى يدنو من المكان الذي يريد (أي: من الأرض)»، انتهى[١].

٣- ابن الجوزي -رحمه الله- يصف الرسول ﷺ:

قال ابن الجوزي -رحمه الله: «عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنه سمع أنس بن مالك ينعت رسول الله ﷺ، فقال: كان رسول الله ﷺ رِبعة من القوم، ليس

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ص(٣٧٥)، وما بعدها (ط: بيروت).

بالقصير ولا بالطويل البائن، أزهر ليس بالآدم، ولا الأبيض الأمهق، رجل الشعر، ليس بالسبط ولا الجعد القطط، بعث على رأس أربعين، أقام بمكة عشرًا وبالمدنية عشرًا، وتوفي على رأس الستين، ليس في رأسه عشرون شعرة بيضاء، أخرجاه في الصحيحين.

وعن أنس ﷺ قال: «ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من كف النبي ﷺ، ولا شممت ريحًا قط أطيب من ريح أو عرق النبي ﷺ».

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال في وصف الرسول ﷺ: «لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْمُمَّغِطِ[1]، وَلاَ بِالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ[2]، وَكَانَ رَبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ، وَلَمْ يَكُنْ بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ[3] وَلاَ بِالسَّبِطِ كَانَ جَعْدًا رَجِلاً وَلَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ[4]، وَلاَ بِالْمُكَلْثَمِ[5]، وَكَانَ فِي الْوَجْهِ تَدْوِيرٌ، أَبْيَضُ مُشْرَبٌ[6]، أَدْعَجُ الْعَيْنَيْنِ، أَهْدَبُ الأَشْفَارِ، جَلِيلُ الْمُشَاشِ، وَالْكَتَدِ[7]، أَجْرَدُ ذُو مَسْرُبَةٍ[8]، شَثْنُ[9] الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ، إِذَا مَشَى تَقَلَّعَ كَأَنَّمَا يَمْشِي فِي صَبَبٍ، وَإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ مَعًا، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، أَجْوَدُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَلْيَنُهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمُهُمْ عِشْرَةً، مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ، يَقُولُ نَاعِتُهُ: لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ﷺ».

---

(١) شديد الطول.
(٢) شديد القصر.
(٣) شديد الجعودة.
(٤) كثير اللحم.
(٥) المزيل قليل الوجه.
(٦) أبيض بحمرة.
(٧) مجتمع الكتفين وهو الكاهل.
(٨) قضيب الشعر الذي في الصدر.
(٩) الغليظ الأصابع.

عن الحسن بن علي قال: «سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصَّافًا، عن حلية النبي ﷺ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئًا أتعلق به، فقال: كان رسول الله ﷺ فخمًا مفخمًا، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب(١)، عظيم الهامة، رَجِلَ الشَّعر(٢)، إنْ انفرقت عقيقته(٣) فَرَقَ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفّر، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب سوابغ في غير قرن، بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العرنين، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم(٤)، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم، مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأن عقنه جيد دمية، في صفاء الفضة، معتدل الخلق بادن متماسك، سواء البطن والصدر، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسُّرة بشعر يجري كالخيط، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشعر الذارعين، والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين الأخمصين، مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء، وإذا زالَ زالَ قلعًا، يخطو تكفيًا، ويمشي هونًا، ذريع المشية، إذا مشي كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعًا، خافض الطرف، نظره إلى الأرض، أطول من نظره إلى السماء، جل نظره للملاحظة، يسوق أصحابه(٥)، ويبادر مَن لقيه بالسلام.

---

(١) الطويل النحيف.
(٢) في شعره تكسر.. تنبيه: بعض الكلمات المتروكة تقدم بيان معناها.
(٣) الشعر المجتمع في الرأس.
(٤) عظيم الأنف.
(٥) يمشي خلفهم.

قلت: فصف لي منطقه؟

قال: كان رسول الله ﷺ، متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليست له راحة، طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلام فصلاً، لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي ولا المهين، يعظِّم النعمة وإنْ دقَّت، ولا يذم منها شيئًا غير أنه لم يكن يذم ذواقًا[1] ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تُعدي الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، إذا أشارَ أشارَ بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، جُل ضحكه التبسُّم.

قال الحسن: فكتمتها الحسين زمانًا، ثم حدَّثته بها، فوجدته قد سبقني إليه، فسأله عما سألته عنه، ووجدته قد سأل أباه عن مدخله ومخرجه وشكله، فلم يدع منه شيئًا.

قال الحسين: سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ؟

فقال: «كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى منزله جزَّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءًا لنفسه، وجزءًا لأهله، ثم جزءًا بينه وبين الناس، فيرد بذلك بالخاصة على العامة، ولا يدخر عنهم منه شيئًا.

وكان من سيرته في جُزء الأمَّةِ إيثار أهلِ الفضل بإذنه، وقسمه على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج،

(١) أي: طعامًا.

فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم، والأمة من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنكُمُ الْغَائِبَ، وَأَبْلِغُونِي حَاجَةَ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلاغَهَا، فَإِنَّهُ مَنْ أَبْلَغَ سُلْطَانًا حَاجَةَ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلاغَهَا، ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، لا يُذكر عنده إلا ذلك، ولا يُقبل من أحد غيره، يدخلون رُوَّادًا، ولا يفترقون إلا عن ذَوَاقٍ، ويخرجون أدلةً، يعني على الخير.

قال: فسألته عن مخرجه، كيف كان يصنع فيه؟

قال: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذِّر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره، ولا خُلقه، ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في أيدي الناس، ويحسِّن الحسن ويقويه، ويقبِّح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا، لكلِّ حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه، الذي يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمُّهم نصيحةً، وأعظمهم عنده منزلةً أحسنهم مواساةً ومؤازرةً.

قال: فسألته عن مجلسه؟

فقال: كان رسول الله ﷺ لا يقوم ولا يجلس إلا على ذِكر، وكان إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبهم، لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه ممن جالسه، ومَن سأله حاجة لم يردَّه إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه، فسار لهم أبًا وصاروا عنده في الحقِّ سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء، وصبر وأمانة، لا تُرفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحُرَم، يتعاطفون فيه بالتقوى، متواضعين،

يوقرون فيه الكبير، ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب. قلت: وكيف كانت سيرته في جلسائه؟

فقال: كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظٍّ، ولا غليظ، ولا صخَّاب ولا فحَّاش ولا عيَّاب، ولا مدَّاح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يُؤيسُ منه، ولا يخيب فيه مؤمليه، قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: لا يذمُّ أحدًا ولا يعيبه، ولا يطلب عودته، ولا يتكلَّم إلا فيما رجا ثوابه، وإذا تكلَّم أطرق جلساؤه، كأنما على رءوسهم الطير، وإذا سكت تكلَّموا، لا يتنازعون عنده الحديث، مَن تكلَّم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى إذا كان أصحابه لِيَسْتَجْلِبُونَهُمْ، ويقول: «إِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ حَاجَةٍ يَطْلُبُهَا فَأَرْفِدُوهُ»، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه، حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام[1]. قال: فسألته عن سكوت رسول الله ﷺ؟

فقال: «كان سكوته على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكير، فأما التقدير؛ ففي تسوية النظر والاستماع من الناس، وأما تفكره؛ ففيما يبقى ولا يفنى، وجمع له الحلم في الصبر، ولا يغضبه شيء ولا يستفزه، وجمع له الحذر في أربع: أخذه بالحسن ليقتدي به، وتركه القبح ليتناهى عنه، واجتهاده الرأي في إصلاح أمته، والقيام لهم فيما جمع لهم من خير الدنيا والآخرة»[2].

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل، (١/ ٢٤٥).

(٢) صفة الصفوة، ص(٧٩)، وما بعدها (ط. دار الكتب العلمية، بيروت).

مبشرات برسول الله ﷺ

بحيرا الراهب يبشر بالرسول ﷺ:

قال ابن الجوزي -رحمه الله: «عن داود بن الحصين، قال: لما خرج أبو طالب إلى الشام وبها راهب يقال له (بحيرا) في صومعة له، وكان علماء النصارى يكونون في تلك الصومعة يتوارثونها عن كتاب يدرسونه، فلما نزلوا بـ(بحيرا) وكانوا كثيرًا ما يمرون به لا يكلمهم حتى إذا كان ذلك العام ونزلوا منزلاً قريبًا من صومعته قد كانوا ينزلونه قبل ذلك كلما مروا، فصنع لهم طعامًا ودعاهم، وإنما حمله على دعائهم أنه رآهم حين طلعوا وغمامة تظل رسول الله ﷺ من بين القوم حتى نزلوا تحت الشجرة، ثم نظر إلى تلك الغمامة أظلت تلك الشجرة، وأخضلت أغصان الشجرة على النبي ﷺ؛ حيث استظل تحتها، فلما رأى (بحيرا) ذلك نزل من صومعته، وأمر بذلك الطعام فأتي به، وأرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش، وأنا أحب أن تحضروه كلكم، ولا تخلفوا منكم صغيرًا ولا كبيرًا، حُرًّا ولا عبدًا، فإنَّ هذا شيء تكرمونني به، فقال رجل: إنَّ لك لشأنًا يا بحيرا، ما كنت تصنع بنا هذا، فما شأنك اليوم؟ قال: فإني أحببت أن أكرمكم؛ فلكم حق. فاجتمعوا إليه وتخلَّف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه ليس في القوم أصغر منه في رحالهم تحت الشجرة.

فلما نظر بحيرا إلى القوم، فلم ير الصفة التي يعرف ويجدها عنده، وجعل ينظر، فلا يرى الغمامة على أحد من القوم، ورآها مختلفة على وجه رسول الله

ﷺ، فقال بحيرا: يا معشر قريش، لا يتخلف أحد منكم عن طعامي. فقالوا: ما تخلَّف أحد إلا غلام هو أصغر القوم سنًّا في رحالهم. فقال: ادعوه؛ فليحضر طعامي، فما أقل أن يتخلف رجل واحد مع أني أراه من أنفسكم. فقال القوم: هو والله أوسطنا نسبًا وهو ابن أخي هذا الرجل، يعنون أبو طالب، وهو من ولد عبد المطلب، فقال الحارث بن عبد المطلب: والله، إنْ كان بنا للؤم أن يتخلف ابن عبد المطلب من بيننا. ثم قام فاحتضنه وأقبل به حتى أجلسه على الطعام، والغمامة تسير على رأسه، وجعل بحيرا يلحظ لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده في صفته.

فلما تفرَّقوا عن طعامهم، قام إليه الراهب، فقال: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَسألنِي بِاللاتِ وَالعُزَّى، فَواللهِ مَا أَبغضتُ شَيئًا بُغضَهَا». قال: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. قال: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله إلى نومه، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك، ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على الصفة التي عنده، فقبل موضع الخاتم. وقالت قريش: إنَّ لمحمد عند هذا الراهب لقدرًا.

وجعل أبو طالب لما يرى من الراهب يخاف على ابن أخيه، فقال الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال أبو طالب: ابني. قال: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا. قال: فابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ هلك وأمه حُبلى به، قال: فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريبًا. قال: صدقت، ارجع

بابن أخيك إلى بلده، واحذرْ عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ لَيَبْغُنَّهُ عَنَتًا؛ فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا، وما روينا عن آبائنا، واعلم أني قد أديت إليك النصيحة، فلما فرغوا من تجارتهم خرج به سريعًا.

وكان رجال من يهود قد رأوا رسول الله ﷺ وعرفوا صفته، فأرادوا أن يغتالوه، فذهبوا إلى بحيرا، فذكروا أمره، فنهاهم أشد النهي وقال لهم: أتجدون صفته؟ قالوا: نعم، قال: فما لكم إليه سبيل فصدقوه وتركوه، ورجع أبو طالب، فما خرج به سفرًا بعد ذلك خوفًا عليه»[1].

اعتراف أهل الكتاب بنبوته وصفته في كتبهم التي لم تحرَّف

قال ابن الجوزي -رحمه الله: «قال كعب الأحبار: نجد نعت رسول الله ﷺ في التوراة: محمد بن عبد الله عبدي المختار، مولدُهُ بمكة، ومُهَاجَرُهُ بالمدينة، لا فظّ ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق».

وعن أبي هريرة ﷺ قال: أتى رسول الله ﷺ بيت المدارس (بيت عبادة اليهود)، فقال: «أَخرجوا إليَّ أعلَمكُمْ»، فقالوا: عبد الله بن صوريا، فخلا به رسول الله ﷺ فناشده بدينه وبما أنعم الله به عليهم وأطعمهم من المن والسلوى، وظللهم به من الغمام، ثم قال: «أَتعلم أَني رَسولُ الله؟» قال: اللهم

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي، (١/ ٣٣، ٣٤، ٣٥)، دار الكتب العلمية.

نعم، وأن القوم يعرفون ما أعرف، وأن صفتك ونعتك لمبين في التوراة، ولكنهم حسدوك. قال: «فَما يَمنعكَ أَنتَ؟!» قال: أكره خلاف قومي، وعسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم.

وعن ابن عباس قال: «كانت يهود بني قريظة والنضير وفدك وخيبر يجدون صفة النبي ﷺ عندهم قبل أن يبعث، وأن دار هجرته المدينة، فلما ولد رسول الله ﷺ قالت أحبار يهود: ولد أحمد الليلة، فلما نبئ قالوا: قد نبئ أحمد، يعرفون ذلك ويقرون به ويصفونه، فما منعهم عن إجابته إلا الحسد والبغي».

وعن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال: كان الزبير بن باطا -وكان أعلم اليهود- يقول: إني وجدت سِفْرًا كان أبي يختمه عليَّ، فيه ذكر أن أحمد نبي صفته كذا وكذا، فحدَّث به الزبير بعد أبيه والنبي ﷺ لم يبعث، فما هو إلا أن سمع بالنبي ﷺ قد خرج إلى مكة، فعمد إلى ذلك السِّفْر فمحاه، وكتم شأن النبي ﷺ وقال: ليس به.

وعن سلمة بن سلامة بن وقش، قال: كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يومًا من بيته قبل النبي ﷺ بيسير، حتى وقف على مجلس بني عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذٍ أحدث من فيه سنًّا على بردة مضطجعًا فيها بفناء أهلي، فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار، فقال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان لا يرون أن بعثًا كائن بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائنًا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟! قال: نعم، والذي يحلف به يود أحدهم أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقون عليه، وأن ينجو من تلك

النار غدًا. قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن، قالوا: ومتى تراه؟ قال: فنظر إليَّ وأنا من أحدثهم سنًّا، فقال: إنْ يستنفد هذا الغلام عمره يدركه».

قال سلمة: «فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله تعالى رسول الله ﷺ وهو حي بين أظهرنا، فآمنا به وكفر به بغيًا وحسدًا، فقلنا: ويلك يا فلان، ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى وليس به»[١].

أوصاف الرسول ﷺ في التوراة

جاء في (سفر التثنية) على لسان موسى عليه السلام: «يقيم لك الرب إلهك نبيًّا من وسطك من إخوتك مثلي، لو تسمعون، قال لي الرب: وسوف أقيم لهم نبيًّا مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه، ويكلمهم بكل شيء آمره به، ومَن لم يطع كلامي الذي يتكلَّم فيه باسمي؛ فأنا أكون المنتقم منه، فأما النبي الذي يجترئ بالكبرياء، ويتكلَّم في اسمي ما لم آمره به بأن يقول: أم باسم آلهة أخرى، فليقتل ذلك النبي، وإن قلت في قلبك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الربُّ؟، فما تكلَّم به النبي باسم الربِّ، ولم يحدث ولم يصر، فهو الكلام الذي لم يتكلَّم به الربُّ، بل بطغيان تكلَّم به النبي، فلا تخف منه، انتهى منه (سفر التثنية).

---

(١) المصدر السابق، (١/ ٤٥).

فهذه ست فقرات من التوراة بشرت بني إسرائيل بنبي يأتي من بعد موسى عليه السلام.

ففي الفقرة الأولى: وصفته بكونه من إخوة بني إسرائيل، وليس منهم حقيقة، وكونه نبيًّا يشابه موسى في أوصافه وخصائصه.

وفي الفقرة الثانية: بيَّنت أن الله سبحانه سيجعل كلامه في فم هذا النبي، وسيكلم الناس بكل ما يوحى إليه، ويبلغهم إياه.

وفي الفقرة الثالثة: إنَّ الذي لا يطيع هذا النبي ولا يقبل كلامه الذي هو وحي من الله، فإنَّ الله سيكون هو المنتقم منه.

وفي الفقرة الرابعة: إنَّ نهاية المتنبئ الكذب الذي يفتري على الله الكذب هو القتل، يفهم بمفهوم المخالفة أن النبي المبشر به لن يستطيع أحد أن يقتله.

وفي الفقرة الخامسة: أن من علامات صدق هذا النبي أنه سيخبر بأمور وحوادث غيبية، سوف تتحقق وتقع كما أخبر، وبذلك يتميز عن المتنبئ الكاذب.

وعلى ضوء هذه الفقرات نجد أن هذه الصفات لا تتحقق في عيسى ابن مريم، ولا في غيره من أنبياء بني إسرائيل للآتي:

الأول: لأن البشارة إنما وقعت بنبي من إخوة بني إسرائيل، وليس من بني إسرائيل أنفسهم.

الثاني: كون المبشر به نبينا يشابه موسى في أوصافه وخصائصه وأعماله ويماثله في كونه صاحب شريعة عامة شاملة تلتزم بها الأمة من بعده، وعندهم

عيسى لا يشبه موسى ولا أحد من أنبياء بني إسرائيل.

الثالث: وهي أن الله سيجعل كلامه في فمه، فيكلمهم بكل ما يوصيه به، فإنها تشير إلى أن الله سبحانه سينزل على هذا النبي كتاب يظهر للناس من فمه، وفي هذا إشارة إلى أنه سيكون أُميًّا، لا يكتب ولا يقرأ.

الرابع: وهي أن الله -كما مرَّ بنا في الفقرة الثالثة- سيؤيد هذا النبي وينصره على مَن يكفر به؛ لأن الانتقام هنا هو الانتقام التشريعي الذي يشمل الجهاد الذي تكون فيه العاقبة لذلك النبي وأصحابه، كما يشمل القصاص وإقامة الحدود، ولا يمكن أن يكون المراد به محض العذاب في الآخرة؛ لأن هذا عام لا يختص به نبي دون آخر.

الخامس: أن الفقرة الأخيرة تدل على أن هذا النبي سيخبر أمته ببعض الأمور الغيبية التي يطلعه عليها، وسوف تتحقق، ويراها أصحابه وأمته من بعده، حدثت كما أخبر، وهذه الصفة تنطبق على محمد ﷺ أتم الانطباق، مثل أخباره بفتح القسطنطينية أولاً، ثم رومية، وقد فتحت قسطنطينية أولاً فعلاً، وما زلنا ننتظر فتح روما إنْ شاء الله، وغيرها كثير.

السادس: أن بعض هذه الفقرات تفيد أن نهاية المتنبئ الكاذب هو القتل، والمسيح في زعم النصارى قُتل وصُلب، فهل هو متنبئ كاذب كما يدعي اليهود[1].

(١) بتصرف واختصار من مجلة بريد الإسلام، العدد (٣).

أوصافه ﷺ في الإنجيل والبشارة به

جاء في إنجيل يوحنا بشارة المسيح عليه السلام بأخيه محمد ﷺ ما نصه: «إنْ كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فاراقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله؛ لأنه ليس يراه ولا يعرفه، وأنتم تعرفونه؛ لأنه مقيم عندكم، وهو ثابت فيكم»، «والفاراقليط روح القدس الذي يرسل الأب باسمي، وهو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم»، «والآن قلت لكم قبل أن يكون، حتى إذا كان تؤمنون»، لكن أقول لكم الحق: «إن خيرًا لكم أن أنطلق لأني إذ لم أنطلق»، لم يأتكم الفاراقليط، فأما إن انطلقت أرسلته إليكم»، «فإذا جاء ذلك؛ فهو يوبخ العالم على خطية وعلى بر وعلى حكم»، «وإذا جاء روح الحق ذلك، فهو يعلمكم جميع الحق؛ لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع، ويخبركم بما سيأتي»، «وهو ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع، ويخبركم بما سيأتي» «يمجدني؛ لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم»، انتهى من (إنجيل يوحنا).

ومن أكبر هذه الأوصاف في تلك الفقرات أن اسمه (فاراقليط)، وهي مشتقة من الحمد باللغة اليونانية، وقيل: يعني (أحمد) صراحةً هكذا.

وإنَّ هذا النبي شريعته إلى يوم القيامة، وهذا الوصف متحقق في نبي الإسلام؛ لأنه خاتم النبيين[1].

---

(١) نقلاً عن مجلة بريد الإسلام، العدد (٢)، بتصرف.

صفاته ﷺ في كتب العهد القديم

١- **جاء في (سفر دانيال):** يقول النبي (دانيال): «سألت الله وتضرعت إليه أن يبيِّن ما يكون من بني إسرائيل. فأخبره الله بما يكون إلى أن قال: «حتى أبعث نبي بني إسماعيل (أي: نبينا ﷺ) الذي بشرت به هاجر، وأرسلت إليها ملاكي فبشرها، فأوحى إلى ذلك النبي وأعلمه الأسماء وأزينه بالتقوى، وأجعل البِر شعاره، والتقوى ضميره، وأخصه بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب وناسخ لبعض ما فيها، أسري به إليَّ، وأرقيه من سماء إلى سماء حتى يعلو، فأدنيه وأسلم عليه، وأوحي إليه وأرقيه، ثم أرده إلى عبادي بالسرور والغِبطة، حافظًا لما استودع، صادقًا بما أمر، يدعو إلى توحيدي باللين من القول والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ ولا صخَّاب بالأسواق، رءوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به، خشن على مَن عاداه، فيدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي، ويخبرهم بما رأى من آياتي فيكذبونه ويؤذونه»[(١)].

٢- **وجاء في كتاب (حزقيل):** يقول مخاطبًا اليهود ومهددًا لهم بأمة محمد: «وإنَّ الله مظهرهم عليكم وباعث فيهم نبيًّا ومنزل عليهم كتابًا، ويملكهم رقابكم فيقهرونكم، ويذلونكم بالحق، ويخرج رجال من بني قيدار في جماعات الشعوب معهم ملائكة على خيل بيض متسلحين يوقعون بكم وتكون عاقبتكم إلى النار»[(٢)].

---

(١) نقلاً عن كتاب دعوة البشرية إلى السعادة الأبدية للشيخ عثمان منصور، ص(٤٢).
(٢) المصدر السابق.

٣- وجاء في مزامير داود: أن الله ﷻ قال لداود: «سيولد لك ولد أُدعى له أبًا، ويُدعى لي ابنًا، اللهم ابعثْ جاعل السنة كي يعلِّم الناس أنه بشر»(١).

٤- بشارة باسم الرسول ﷺ صراحة في (إنجيل برنابا): جاء في (إنجيل برنابا) الفصل (١٣٦) ما نصه: «وبعد هذه السنين يجيء الملاك جبريل إلى الجحيم يسمعهم يقولون: «يا محمد، أين وعدك لنا أن من كان على دينك لا يمكث في الجحيم إلى الأبد، حتى قال: فحينئذٍ يكلم الرسولُ اللهَ، ويقول: ربي وإلهي أَذْكُرُ وعدك لي وأنا عبد: بألا يمكث الذين قبلوا ديني في الجحيم إلى الأبد، فيجيب الله: أطلب يا خليلي، لأن أهبك كل ما تطلب»(٢).

٥- اسم النبي ﷺ في كتب العهد القديم: جاء في سفر (أشعيا): «إني جعلت أمرك -يا محمد- بالحمد يا قدوس الرب اسمك موجود إلى الأبد»(٣).

٦- وجاء في كتاب (حبقوق): «لقد أضاءت السماء من بهاء محمد، وامتلأت الأرض من حمده، وشاع منظره مثل النور يحوط بلاده بعزة، تسير المنايا أمامه».

قال ابن القيم -رحمه الله: «مَن رام صرف هذه البشارات عن محمد، فقد رام ستر الشمس في النهار»(٤).

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق، ص(٤٤).
(٣) المصدر السابق، ص(٤٩).
(٤) المصدر السابق، ص(٤٩).

هديه ﷺ في أحواله

وصف نوم الرسول ﷺ

قال ابن القيم -رحمه الله: «كَانَ يَنَامُ عَلَى الْفِرَاشِ تَارَةً، وَعَلَى النِّطْعِ تَارَةً، وَعَلَى الْحَصِيرِ تَارَةً، وَعَلَى الْأَرْضِ تَارَةً، وَعَلَى السَّرِيرِ تَارَةً بَيْنَ رِمَالِهِ وَتَارَةً عَلَى كِسَاءٍ أَسْوَدَ.

قَالَ عباد بن تميم، عَنْ عَمِّهِ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُسْتَلْقِيًا فِي الْمَسْجِدِ وَاضِعًا إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى»(١).

وَكَانَ فِرَاشُهُ ﷺ أُدْمًا حَشْوُهُ لِيفٌ، وَكَانَ لَهُ مِسْحٌ يَنَامُ عَلَيْهِ يُثْنَى بِثَنْيَتَيْنِ، وَثُنِيَ لَهُ يَوْمًا أَرْبَعَ ثَنِيَاتٍ فَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ: «رُدُّوهُ إِلَى حَالِهِ الْأَوَّلِ فَإِنَّهُ مَنَعَتْنِي صَلَاتِي اللَّيْلَةَ»(٢).

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ نَامَ عَلَى الْفِرَاشِ وَتَغَطَّى بِاللِّحَافِ وَقَالَ لِنِسَائِهِ: «مَا أَتَانِي جِبْرِيلُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرَ عائشة»(٣).

وَكَانَتْ وِسَادَتُهُ أُدْمًا حَشْوُهَا لِيفٌ.

وَكَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ لِلنَّوْمِ قَالَ: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَحْيَا وَأَمُوتُ»(٤).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه الترمذي في الشمائل.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري.

وَكَانَ يَجْمَعُ كَفَّيْهِ ثُمَّ يَنْفُثُ فِيهِمَا، وَكَانَ يَقْرَأُ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»(١).

وَكَانَ يَنَامُ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ وَيَضَعُ يَدَهُ الْيُمْنَى تَحْتَ خَدِّهِ الْأَيْمَنِ ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ»(٢).

وَكَانَ يَقُولُ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ»(٣).

وَذَكَرَ أَيْضًا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»(٤)(٥).

***

---

(١) رواه البخاري، وأبو داود، والترمذي.

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) زاد المعاد لابن القيم، تحقيق الأرناؤوط.

وصف استيقاظ النبي ﷺ وقيامه من نومه

وَكَانَ إِذَا اسْتَيْقَظَ مِنْ مَنَامِهِ فِي اللَّيْلِ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي، وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَا تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ»(١).

وَكَانَ إِذَا انْتَبَهَ مِنْ نَوْمِهِ قَالَ: «الْحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»(٢). ثُمَّ يَتَسَوَّكُ، وَرُبَّمَا قَرَأَ الْعَشْرَ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ (آلِ عِمْرَانَ) مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] إِلَى آخِرِهَا، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»(٣).

* * *

---

(١) رواه أبو داود، والحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

وصف أوقات نوم النبي ﷺ

كَانَ ﷺ يَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ آخِرَهُ، وَرُبَّمَا سَهِرَ أَوَّلَ اللَّيْلِ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ، وَكَانَ إِذَا نَامَ لَمْ يُوقِظُوهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَسْتَيْقِظُ.

وَكَانَ إِذَا عَرَّسَ[(١)] بِلَيْلٍ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، وَإِذَا عَرَّسَ قُبَيْلَ الصُّبْحِ نَصَبَ ذِرَاعَهُ وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى كَفِّهِ»[(٢)].

وَكَانَ نَوْمُهُ أَعْدَلَ النَّوْمِ، وَهُوَ أَنْفَعُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّوْمِ، وَالْأَطِبَّاءُ يَقُولُونَ: هُوَ ثُلُثُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ثَمَانُ سَاعَاتٍ»[(٣)].

وصف جلوس الرسول ﷺ

قال ابن القيم -رحمه الله: «كَانَ يَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ وَعَلَى الْحَصِيرِ وَالْبِسَاطِ، وَقَالَتْ قيلة بنت مخرمة: «أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ قَاعِدٌ الْقُرْفُصَاءَ، قَالَتْ: فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ كَالْمُتَخَشِّعِ فِي الْجِلْسَةِ أُرْعِدْتُ مِنَ الْفَرَقِ». وَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ دَعَاهُ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَأَلْقَتْ إِلَيْهِ الْجَارِيَةُ وِسَادَةً يَجْلِسُ عَلَيْهَا فَجَعَلَهَا

---

(١) قَالَ أبو حاتم فِي صَحِيحِهِ: «كَانَ إِذَا عَرَّسَ بِاللَّيْلِ تَوَسَّدَ يَمِينَهُ، وَإِذَا عَرَّسَ قُبَيْلَ الصُّبْحِ نَصَبَ سَاعِدَهُ»، وَأَظُنُّ هَذَا وَهْمًا وَالصَّوَابُ حَدِيثُ الترمذي، وَقَالَ أبو حاتم: وَالتَّعْرِيسُ إِنَّمَا يَكُونُ قُبَيْلَ الصُّبْحِ، [زاد المعاد في هدي خير العباد، (١/ ١٥٣)].

(٢) شمائل الترمذي. الأرناؤوط.

(٣) زاد المعاد لابن القيم، (١/ ١٦٠).

بَيْنَهُ وَبَيْنَ عدي وَجَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ. قَالَ عدي: «فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَلِكٍ»، وَكَانَ يَسْتَلْقِي أَحْيَانًا، وَرُبَّمَا وَضَعَ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى، وَكَانَ يَتَّكِئُ عَلَى الْوِسَادَةِ، وَرُبَّمَا اتَّكَأَ عَلَى يَسَارِهِ، وَرُبَّمَا اتَّكَأَ عَلَى يَمِينِهِ. وَكَانَ إِذَا احْتَاجَ فِي خُرُوجِهِ تَوَكَّأَ عَلَى بَعضِ أصحابِهِ مِن الضَّعفِ»[1].

وصف مشية الرسول ﷺ

قال ابن القيم -رحمه الله: «كَانَ إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤًا، وَكَانَ أَسْرَعَ النَّاسِ مِشْيَةً وَأَحْسَنَهَا وَأَسْكَنَهَا، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مِشْيَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَأَنَّمَا الْأَرْضُ تُطْوَى لَهُ، وَإِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِثٍ»[2].

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤًا كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ»، وَقَالَ مَرَّةً: «إِذَا مَشَى تَقَلَّعَ» قُلْتُ: وَالتَّقَلُّعُ الِارْتِفَاعُ مِنَ الْأَرْضِ بِجُمْلَتِهِ كَحَالِ الْمُنْحَطِّ مِنَ الصَّبَبِ، وَهِيَ مِشْيَةُ أُولِي الْعَزْمِ وَالْهِمَّةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَهِيَ أَعْدَلُ الْمِشْيَاتِ وَأَرْوَاحُهَا لِلْأَعْضَاءِ وَأَبْعَدُهَا مِنْ مِشْيَةِ الْهَوَجِ وَالْمَهَانَةِ وَالتَّمَاوُتِ، فَإِنَّ الْمَاشِيَ إِمَّا أَنْ يَتَمَاوَتَ فِي مَشْيِهِ وَيَمْشِيَ قِطْعَةً وَاحِدَةً كَأَنَّهُ خَشَبَةٌ مَحْمُولَةٌ، وَهِيَ مِشْيَةٌ مَذْمُومَةٌ قَبِيحَةٌ، وَإِمَّا أَنْ يَمْشِيَ بِانْزِعَاجٍ وَاضْطِرَابٍ مَشْيَ الْجَمَلِ الْأَهْوَجِ، وَهِيَ مِشْيَةٌ مَذْمُومَةٌ أَيْضًا، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى خِفَّةِ عَقْلِ

---

(١) زاد المعاد لابن القيم.

(٢) سبق تخريجه.

صَاحِبِهَا، وَلَاسِيَّمَا إِنْ كَانَ يُكْثِرُ الإِلْتِفَاتَ حَالَ مَشْيِهِ يَمِينًا وَشِمَالاً، وَإِمَّا أَنْ يَمْشِيَ هَوْنًا، وَهِيَ مِشْيَةُ عِبَادِ الرَّحْمَنِ كَمَا وَصَفَهُمْ بِهَا فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ مِنْ غَيْرِ تَكَبُّرٍ وَلَا تَمَاوُتٍ، وَهِيَ مِشْيَةُ رَسُولِ الله ﷺ، فَإِنَّهُ مَعَ هَذِهِ الْمِشْيَةِ كَانَ كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ، وَكَأَنَّمَا الأَرْضُ تُطْوَى لَهُ، حَتَّى كَانَ الْمَاشِي مَعَهُ يُجْهِدُ نَفْسَهُ وَرَسُولُ الله ﷺ غَيْرُ مُكْتَرِثٍ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَمْرَيْنِ: أَنَّ مِشْيَتَهُ لَمْ تَكُنْ مِشْيَةً بِتَمَاوُتٍ وَلَا بِمَهَانَةٍ، بَلْ مِشْيَةٌ أَعْدَلُ الْمِشْيَاتِ»[1].

وصف مشيه ﷺ مع أصحابه

قال ابن القيم -رحمه الله: «وَأَمَّا مَشْيُهُ مَعَ أَصْحَابِهِ؛ فَكَانُوا يَمْشُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ خَلْفَهُمْ وَيَقُولُ: «دَعُوا ظَهْرِي لِلْمَلَائِكَةِ»[2]، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: وَكَانَ يَسُوقُ أَصْحَابَهُ. وَكَانَ يَمْشِي حَافِيًا وَمُنْتَعِلاً، وَكَانَ يُمَاشِي أَصْحَابَهُ فُرَادَى

(١) قال ابن القيم: «وَالْمِشْيَاتُ عَشَرَةُ أَنْوَاعٍ: هَذِهِ الثَّلَاثَةُ مِنْهَا، وَالرَّابِعُ: السَّعْيُ، وَالْخَامِسُ: الرَّمَلُ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْمَشْيِ مَعَ تَقَارُبِ الْخُطَى وَيُسَمَّى: الْخَبَبَ، السَّادِسُ: النَّسَلَانُ، وَهُوَ الْعَدْوُ الْخَفِيفُ الَّذِي لَا يُزْعِجُ الْمَاشِيَ وَلَا يَكْرِثُهُ. وَفِي بَعْضِ الْمَسَانِيدِ أَنَّ الْمُشَاةَ شَكَوْا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنَ الْمَشْيِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: «اسْتَعِينُوا بِالنَّسَلَانِ». وَالسَّابِعُ: الْخَوْزَلَى، وَهِيَ مِشْيَةُ التَّمَايُلِ، وَهِيَ مِشْيَةٌ يُقَالُ: إِنَّ فِيهَا تَكَسُّرًا وَتَخَنُّثًا. وَالثَّامِنُ: الْقَهْقَرَى، وَهِيَ الْمِشْيَةُ إِلَى وَرَاءٍ. وَالتَّاسِعُ: الْجَمَزَى، وَهِيَ مِشْيَةٌ يَثِبُ فِيهَا الْمَاشِي وَثْبًا. وَالْعَاشِرُ: مِشْيَةُ التَّبَخْتُرِ، وَهِيَ مِشْيَةُ أُولِي الْعُجْبِ وَالتَّكَبُّرِ، وَهِيَ الَّتِي خَسَفَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِصَاحِبِهَا لَمَّا نَظَرَ فِي عِطْفَيْهِ وَأَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَأَعْدَلُ هَذِهِ الْمِشْيَاتِ مِشْيَةُ الْهَوْنِ وَالتَّكَفُّؤِ» [زاد المعاد لابن القيم، (١/ ١٦١)].

(٢) رواه أحمد، وابن ماجة، والحاكم ووافقه الذهبي.

وَجَمَاعَةً، وَمَشَى فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ مَرَّةً فَدَمِيَتْ أُصْبُعُهُ وَسَالَ مِنْهَا الدَّمُ فَقَالَ:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا أُصْبُعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ[1]

وَكَانَ فِي السَّفَرِ سَاقَةَ أَصْحَابِهِ يُزْجِي الضَّعِيفَ وَيُرْدِفُهُ وَيَدْعُو لَهُمْ[2].

وصف الرسول ﷺ في أكله وشربه

قال ابن القيم -رحمه الله: «كَانَ هَدْيُهُ ﷺ وَسِيرَتُهُ فِي الطَّعَامِ لَا يَرُدُّ مَوْجُودًا وَلَا يَتَكَلَّفُ مَفْقُودًا، فَمَا قُرِّبَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الطَّيِّبَاتِ إِلَّا أَكَلَهُ، إِلَّا أَنْ تَعَافَهُ نَفْسُهُ فَيَتْرُكَهُ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيمٍ، «وَمَا عَابَ طَعَامًا قَطُّ، إِنِ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ وَإِلَّا تَرَكَهُ»، كَمَا تَرَكَ أَكْلَ الضَّبِّ لَمَّا لَمْ يَعْتَدْهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهُ عَلَى الْأُمَّةِ، بَلْ أُكِلَ عَلَى مَائِدَتِهِ وَهُوَ يَنْظُرُ.

وَأَكَلَ الْحَلْوَى، وَالْعَسَلَ وَكَانَ يُحِبُّهُمَا، وَأَكَلَ لَحْمَ الْجَزُورِ وَالضَّأْنِ وَالدَّجَاجِ، وَلَحْمَ الْحُبَارَى، وَلَحْمَ حِمَارِ الْوَحْشِ وَالْأَرْنَبِ، وَطَعَامَ الْبَحْرِ، وَأَكَلَ الشِّوَاءَ، وَأَكَلَ الرُّطَبَ وَالتَّمْرَ، وَشَرِبَ اللَّبَنَ خَالِصًا وَمَشُوبًا، وَالسَّوِيقَ، وَالْعَسَلَ بِالْمَاءِ، وَشَرِبَ نَقِيعَ التَّمْرِ، وَأَكَلَ الْخَزِيرَةَ وَهِيَ حِسَاءٌ يُتَّخَذُ مِنَ اللَّبَنِ وَالدَّقِيقِ، وَأَكَلَ الْقِثَّاءَ بِالرُّطَبِ وَأَكَلَ الْأَقِطَ، وَأَكَلَ التَّمْرَ بِالْخُبْزِ، وَأَكَلَ الْخُبْزَ بِالْخَلِّ، وَأَكَلَ الثَّرِيدَ وَهُوَ الْخُبْزُ بِاللَّحْمِ، وَأَكَلَ الْخُبْزَ بِالْإِهَالَةِ وَهِيَ الْوَدَكُ، وَهُوَ الشَّحْمُ الْمُذَابُ، وَأَكَلَ مِنَ الْكَبِدِ الْمَشْوِيَّةِ، وَأَكَلَ الْقَدِيدَ، وَأَكَلَ الدُّبَّاءَ الْمَطْبُوخَةَ وَكَانَ

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) زاد المعاد، (١/ ١٦٣).

يُحِبُّهَا، وَأَكَلَ المَسْلُوقَةَ وَأَكَلَ الثَّرِيدَ بِالسَّمْنِ، وَأَكَلَ الجُبْنَ، وَأَكَلَ الخُبْزَ بِالزَّيْتِ، وَأَكَلَ البِطِّيخَ بِالرُّطَبِ، وَأَكَلَ التَّمْرَ بِالزُّبْدِ وَكَانَ يُحِبُّهُ، وَلَمْ يَكُنْ يَرُدُّ طَيِّبًا وَلَا يَتَكَلَّفُهُ، بَلْ كَانَ هَدْيُهُ أَكْلَ مَا تَيَسَّرَ، فَإِنْ أَعْوَزَهُ صَبَرَ حَتَّى إِنَّهُ لَيَرْبِطُ عَلَى بَطْنِهِ الحَجَرَ مِنَ الجُوعِ، وَيُرَى الهِلَالُ وَالهِلَالُ وَالهِلَالُ وَلَا يُوقَدُ فِي بَيْتِهِ نَارٌ.

وَكَانَ مُعْظَمُ مَطْعَمِهِ يُوضَعُ عَلَى الأَرْضِ فِي السُّفْرَةِ وَهِيَ كَانَتْ مَائِدَتَهُ، وَكَانَ يَأْكُلُ بِأَصَابِعِهِ الثَّلَاثِ وَيَلْعَقُهَا إِذَا فَرَغَ، وَهُوَ أَشْرَفُ مَا يَكُونُ مِنَ الأَكْلَةِ، فَإِنَّ المُتَكَبِّرَ يَأْكُلُ بِأُصْبُعٍ وَاحِدَةٍ، وَالجَشِعَ الحَرِيصَ يَأْكُلُ بِالخَمْسِ وَيَدْفَعُ بِالرَّاحَةِ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ مُتَّكِئًا، وَالاِتِّكَاءُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ، أَحَدُهَا: الاِتِّكَاءُ عَلَى الجَنْبِ، وَالثَّانِي: التَّرَبُّعُ، وَالثَّالِثُ: الاِتِّكَاءُ عَلَى إِحْدَى يَدَيْهِ وَأَكْلُهُ بِالأُخْرَى، وَالثَّلَاثُ مَذْمُومَةٌ.

وَكَانَ يُسَمِّي اللهَ تَعَالَى عَلَى أَوَّلِ طَعَامِهِ، وَيَحْمَدُهُ فِي آخِرِهِ فَيَقُولُ عِنْدَ انْقِضَائِهِ: «**الحَمْدُ للهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا**»[1]، وَرُبَّمَا قَالَ: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ العُرْيِ، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ وَبَصَّرَ مِنَ العَمَى، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً، الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**»[2]، وَرُبَّمَا قَالَ: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَ وَسَقَى وَسَوَّغَهُ**».

وَكَانَ إِذَا فَرَغَ مِنْ طَعَامِهِ لَعِقَ أَصَابِعَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَنَادِيلُ يَمْسَحُونَ بِهَا

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه ابن حبان.

أَيْدِيَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ عَادَتُهُمْ غَسْلَ أَيْدِيهِمْ كُلَّمَا أَكَلُوا.

وَكَانَ أَكْثَرُ شُرْبِهِ قَاعِدًا، بَلْ زَجَرَ عَنِ الشُّرْبِ قَائِمًا وَشَرِبَ مَرَّةً قَائِمًا. فَقِيلَ: هَذَا نَسْخٌ لِنَهْيِهِ، وَقِيلَ: بَلْ فَعَلَهُ لِبَيَانِ جَوَازِ الْأَمْرَيْنِ، وَالَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهَا وَاقِعَةُ عَيْنٍ شَرِبَ فِيهَا قَائِمًا لِعُذْرٍ، وَسِيَاقُ الْقِصَّةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ أَتَى زَمْزَمَ وَهُمْ يَسْتَقُونَ مِنْهَا فَأَخَذَ الدَّلْوَ وَشَرِبَ قَائِمًا.

وَالصَّحِيحُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ النَّهْيُ عَنِ الشُّرْبِ قَائِمًا وَجَوَازُهُ لِعُذْرٍ يَمْنَعُ مِنَ الْقُعُودِ، وَبِهَذَا تُجْمَعُ أَحَادِيثُ الْبَابِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَكَانَ إِذَا شَرِبَ نَاوَلَ مَنْ عَلَى يَمِينِهِ وَإِنْ كَانَ مَنْ عَلَى يَسَارِهِ أَكْبَرَ مِنْهُ»[١].

وصف ملابس الرسول ﷺ

قال ابن القيم -رحمه الله: «كَانَتْ لَهُ عِمَامَةٌ تُسَمَّى (السَّحَابَ) كَسَاهَا عَلِيًّا، وَكَانَ يَلْبَسُهَا وَيَلْبَسُ تَحْتَهَا الْقَلَنْسُوَةَ. وَكَانَ يَلْبَسُ الْقَلَنْسُوَةَ بِغَيْرِ عِمَامَةٍ، وَيَلْبَسُ الْعِمَامَةَ بِغَيْرِ قَلَنْسُوَةٍ، وَكَانَ إِذَا اعْتَمَّ أَرْخَى عِمَامَتَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، كَمَا رَوَاهُ مسلم فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ قَدْ أَرْخَى طَرَفَيْهَا بَيْنَ كَتِفَيْهِ»، وَفِي (صحيح مسلم) أَيْضًا عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «دَخَلَ مَكَّةَ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ».

وَلَبِسَ الْقَمِيصَ وَكَانَ أَحَبَّ الثِّيَابِ إِلَيْهِ، وَكَانَ كُمُّهُ إِلَى الرُّسْغِ، وَلَبِسَ الْجُبَّةَ وَالْفَرُّوجَ وَهُوَ شِبْهُ الْقَبَاءِ، وَالْفَرَجِيَّةَ، وَلَبِسَ الْقَبَاءَ أَيْضًا، وَلَبِسَ فِي السَّفَرِ جُبَّةً

---

(١) رواه البخاري، وانظر: زاد المعاد، الأرناؤوط.

ضَيِّقَةَ الْكُمَّيْنِ، وَلَبِسَ الْإِزَارَ وَالرِّدَاءَ.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: كَانَ رِدَاؤُهُ وَبُرْدُهُ طُولَ سِتَّةِ أَذْرُعٍ فِي ثَلَاثَةٍ وَشِبْرٍ، وَإِزَارُهُ مِنْ نَسْجِ عُمَانَ طُولَ أَرْبَعَةِ أَذْرُعٍ وَشِبْرٍ فِي عَرْضِ ذِرَاعَيْنِ وَشِبْرٍ.

وَلَبِسَ حُلَّةً حَمْرَاءَ، وَالْحُلَّةُ إِزَارٌ وَرِدَاءٌ، وَلَا تَكُونُ الْحُلَّةُ إِلَّا اسْمًا لِلثَّوْبَيْنِ مَعًا، وَغَلِطَ مَنْ ظَنَّ أَنَّهَا كَانَتْ حَمْرَاءَ بَحْتًا لَا يُخَالِطُهَا غَيْرُهُ، وَإِنَّمَا الْحُلَّةُ الْحَمْرَاءُ: بُرْدَانِ يَمَانِيَّانِ مَنْسُوجَانِ بِخُطُوطٍ حُمْرٍ مَعَ الْأَسْوَدِ، كَسَائِرِ الْبُرُودِ الْيَمَنِيَّةِ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ بِهَذَا الِاسْمِ بِاعْتِبَارِ مَا فِيهَا مِنَ الْخُطُوطِ الْحُمْرِ، وَإِلَّا فَالْأَحْمَرُ الْبَحْتُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ أَشَدَّ النَّهْيِ؛ فَفِي (صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الْمَيَاثِرِ الْحُمْرِ، وَفِي (سُنَنِ أَبِي داود) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى عَلَيْهِ رَيْطَةً مُضَرَّجَةً بِالْعُصْفُرِ فَقَالَ: «مَا هَذِهِ الرَّيْطَةُ الَّتِي عَلَيْكَ؟» فَعَرَفْتُ مَا كَرِهَ، فَأَتَيْتُ أَهْلِي وَهُمْ يَسْجُرُونَ تَنُّورًا لَهُمْ فَقَذَفْتُهَا فِيهِ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ: «يَا عبد الله، مَا فَعَلَتِ الرَّيْطَةُ؟» فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «هَلَّا كَسَوْتَهَا بَعْضَ أَهْلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ بِهَا لِلنِّسَاءِ».

وَلَبِسَ الْخَمِيصَةَ الْمُعْلَمَةَ وَالسَّاذَجَةَ، وَلَبِسَ ثَوْبًا أَسْوَدَ، وَلَبِسَ الْفَرْوَةَ الْمَكْفُوفَةَ بِالسُّنْدُسِ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وأبو داود بِإِسْنَادِهِمَا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ «أَنَّ مَلِكَ الرُّومِ أَهْدَى لِلنَّبِيِّ ﷺ مُسْتَقَةً مِنْ سُنْدُسٍ، فَلَبِسَهَا، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يَدَيْهِ تَذَبْذَبَانِ»[1].

وَاشْتَرَى سَرَاوِيلَ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ إِنَّمَا اشْتَرَاهَا لِيَلْبَسَهَا، وَقَدْ رُوِيَ فِي غَيْرِ

---

(١) الْمَسَاتِقُ: فِرَاءٌ طِوَالُ الْأَكْمَامِ. قَالَ الخطابي: «يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمُسْتَقَةُ مُكَفَّفَةً بِالسُّنْدُسِ؛ لِأَنَّ نَفْسَ الْفَرْوَةِ لَا تَكُونُ سُنْدُسًا»، [زاد المعاد، (١/ ١٣٠)].

حَدِيثٍ أَنَّهُ لَبِسَ السَّرَاوِيلَ وَكَانُوا يَلْبَسُونَ السَّرَاوِيلَاتِ بِإِذْنِهِ.

وَلَبِسَ الخُفَّيْنِ وَلَبِسَ النَّعْلَ الَّذِي يُسَمَّى التَّاسُومَةَ، وَلَبِسَ الخَاتَمَ، وَاخْتَلَفَتِ الْأَحَادِيثُ هَلْ كَانَ فِي يُمْنَاهُ أَوْ يُسْرَاهُ، وَكُلُّهَا صَحِيحَةُ السَّنَدِ، وَلَبِسَ الْبَيْضَةَ الَّتِي تُسَمَّى: الخُوذَةَ، وَلَبِسَ الدِّرْعَ الَّتِي تُسَمَّى: الزَّرَدِيَّةَ، وَظَاهَرَ يَوْمَ أُحُدٍ بَيْنَ الدِّرْعَيْنِ.

وَكَانَ لَهُ بُرْدَانِ أَخْضَرَانِ وَكِسَاءٌ أَسْوَدُ وَكِسَاءٌ أَحْمَرُ مُلَبَّدٌ وَكِسَاءٌ مِنْ شَعَرٍ.

وَكَانَ قَمِيصُهُ مِنْ قُطْنٍ، وَكَانَ قَصِيرَ الطُّولِ قَصِيرَ الْكُمَّيْنِ، وَأَمَّا هَذِهِ الْأَكْمَامُ الْوَاسِعَةُ الطِّوَالُ الَّتِي هِيَ كَالْأَخْرَاجِ، فَلَمْ يَلْبَسْهَا هُوَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ الْبَتَّةَ، وَهِيَ مُخَالِفَةٌ لِسُنَّتِهِ، وَفِي جَوَازِهَا نَظَرٌ، فَإِنَّهَا مِنْ جِنْسِ الخُيَلَاءِ.

وَكَانَ أَحَبَّ الثِّيَابِ إِلَيْهِ الْقَمِيصُ وَالحِبَرَةُ، وَهِيَ ضَرْبٌ مِنَ الْبُرُودِ فِيهِ حُمْرَةٌ.

وَكَانَ أَحَبَّ الْأَلْوَانِ إِلَيْهِ الْبَيَاضُ، وَقَالَ: «هِيَ مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ فَالْبَسُوهَا وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ»[1].

وصف كلامه وسكوته وضحكه وبكائه ﷺ

قال ابن القيم -رحمه الله: «كَانَ ﷺ أَفْصَحَ خَلْقِ اللهِ، وَأَعْذَبَهُمْ كَلَامًا، وَأَسْرَعَهُمْ أَدَاءً، وَأَحْلَاهُمْ مَنْطِقًا، حَتَّى إِنَّ كَلَامَهُ لَيَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ وَيَسْبِي الْأَرْوَاحَ، وَيَشْهَدُ لَهُ بِذَلِكَ أَعْدَاؤُهُ.

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي: (زاد المعاد - الأرناؤوط) مختصرًا.

وَكَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ مُفَصَّلٍ مُبَيَّنٍ يَعُدُّهُ الْعَادُّ، لَيْسَ بِهَذٍّ مُسْرِعٍ لَا يُحْفَظُ، وَلَا مُنْقَطِعٍ تَخَلَّلُهُ السَّكَتَاتُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْكَلَامِ، بَلْ هَدْيُهُ فِيهِ أَكْمَلُ الْهَدْيِ، قَالَتْ عائشة: «مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْرُدُ سَرْدَكُمْ هَذَا، وَلَكِنْ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ بَيِّنٍ فَصْلٍ يَحْفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إِلَيْهِ»[1].

وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُعِيدُ الْكَلَامَ ثَلَاثًا لِيُعْقَلَ عَنْهُ، وَكَانَ إِذَا سَلَّمَ سَلَّمَ ثَلَاثًا. وَكَانَ طَوِيلَ السُّكُوتِ لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، يَفْتَتِحُ الْكَلَامَ وَيَخْتَتِمُهُ بِأَشْدَاقِهِ، وَيَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلَامِ، فَصْلٌ لَا فُضُولٌ وَلَا تَقْصِيرٌ، وَكَانَ لَا يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو ثَوَابَهُ، وَإِذَا كَرِهَ الشَّيْءَ عُرِفَ فِي وَجْهِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَلَا صَخَّابًا.

وَكَانَ جُلَّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ، بَلْ كُلُّهُ التَّبَسُّمُ، فَكَانَ نِهَايَةُ ضَحِكِهِ أَنْ تَبْدُوَ نَوَاجِذُهُ، وَكَانَ يَضْحَكُ مِمَّا يُضْحَكُ مِنْهُ، وَهُوَ مِمَّا يُتَعَجَّبُ مِنْ مِثْلِهِ وَيُسْتَغْرَبُ وُقُوعُهُ وَيُسْتَنْدَرُ.

وَأَمَّا بُكَاؤُهُ ﷺ؛ فَكَانَ مِنْ جِنْسِ ضَحِكِهِ لَمْ يَكُنْ بِشَهِيقٍ وَرَفْعِ صَوْتٍ، كَمَا لَمْ يَكُنْ ضَحِكُهُ بِقَهْقَهَةٍ، وَلَكِنْ كَانَتْ تَدْمَعُ عَيْنَاهُ حَتَّى تَهْمُلَا، وَيُسْمَعُ لِصَدْرِهِ أَزِيزٌ.

وَكَانَ بُكَاؤُهُ تَارَةً رَحْمَةً لِلْمَيِّتِ، وَتَارَةً خَوْفًا عَلَى أُمَّتِهِ وَشَفَقَةً عَلَيْهَا، وَتَارَةً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، تَارَةً عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَهُوَ بُكَاءُ اشْتِيَاقٍ وَمَحَبَّةٍ وَإِجْلَالٍ مُصَاحِبٌ

---

(١) رواه البخاري ومسلم مختصرًا (الأرناؤوط)، وفي رواية: «إنما كَانَ حَدِيثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فصلاً وفهمًا تفهمه القُلوبُ».

لِلْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ. وَلَمَّا مَاتَ ابْنُهُ إبراهيم دَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَبَكَى رَحْمَةً لَهُ وَقَالَ: «تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِكَ يَا إبراهيم لَمَحْزُونُونَ»(١).

وَبَكَى لَمَّا شَاهَدَ إِحْدَى بَنَاتِهِ وَنَفْسُهَا تَفِيضُ، وَبَكَى لَمَّا قَرَأَ عَلَيْهِ ابْنُ مَسْعُودٍ سُورَةَ «النِّسَاءِ»، وَانْتَهَى فِيهَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وَبَكَى لَمَّا مَاتَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، وَبَكَى لَمَّا كَسَفَتِ الشَّمْسُ وَصَلَّى صَلَاةَ الْكُسُوفِ وَجَعَلَ يَبْكِي فِي صَلَاتِهِ، وَجَعَلَ يَنْفُخُ وَيَقُولُ: «رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَلَّا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُكَ»(٢). وَبَكَى لَمَّا جَلَسَ عَلَى قَبْرِ إِحْدَى بَنَاتِهِ(٣)، وَكَانَ يَبْكِي أَحْيَانًا فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ(٤).

وصف طريقته ﷺ في خطبته

خَطَبَ ﷺ عَلَى الْأَرْضِ، وَعَلَى الْمِنْبَرِ، وَعَلَى الْبَعِيرِ، وَعَلَى النَّاقَةِ، وَكَانَ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»، وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَيَقْرِنُ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود (الأرناؤوط).
(٢) رواه أبو داود، وأحمد، والترمذي (الأرناؤوط).
(٣) رواه البخاري.
(٤) زاد المعاد (الأرناؤوط).

هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

وَكَانَ لَا يَخْطُبُ خُطْبَةً إِلَّا افْتَتَحَهَا بِحَمْدِ الله، وَأَمَّا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ: إِنَّهُ يَفْتَتِحُ خُطْبَةَ الِاسْتِسْقَاءِ بِالِاسْتِغْفَارِ، وَخُطْبَةَ الْعِيدَيْنِ بِالتَّكْبِيرِ فَلَيْسَ مَعَهُمْ فِيهِ سُنَّةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الْبَتَّةَ، وَسُنَّتُهُ تَقْتَضِي خِلَافَهُ، وَهُوَ افْتِتَاحُ جَمِيعِ الْخُطَبِ بِالْحَمْدِ لله، وَهُوَ أَحَدُ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ لِأَصْحَابِ أحمد.

وَكَانَ يَخْطُبُ قَائِمًا، وَفِي مَرَاسِيلِ عطاء وَغَيْرِهِ أَنَّهُ كَانَ ﷺ إِذَا صَعِدَ الْمِنْبَرَ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ قَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ» قَالَ الشَّعْبِيُّ: وَكَانَ أبو بكر وعمر يَفْعَلَانِ ذَلِكَ.

وَكَانَ يَخْتِمُ خُطْبَتَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ، وَكَانَ كَثِيرًا يَخْطُبُ بِالْقُرْآنِ، وَفِي (صحيح مسلم) عَنْ أُمِّ هشام بنت حارثة قَالَتْ: مَا أَخَذْتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١] إِلَّا عَنْ لِسَانِ رَسُولِ الله ﷺ يَقْرَؤُهَا كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ إِذَا خَطَبَ النَّاسَ».

وَذَكَرَ أبو داود عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا تَشَهَّدَ قَالَ: الْحَمْدُ لله نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ وَلَا يَضُرُّ اللهَ شَيْئًا».

وَكَانَ مَدَارُ خُطَبِهِ عَلَى حَمْدِ الله وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِآلَائِهِ وَأَوْصَافِ كَمَالِهِ وَمَحَامِدِهِ، وَتَعْلِيمِ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ، وَذِكْرِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْمَعَادِ، وَالْأَمْرِ بِتَقْوَى الله، وَتَبْيِينِ مَوَارِدِ غَضَبِهِ وَمَوَاقِعِ رِضَاهُ، فَعَلَى هَذَا كَانَ مَدَارُ خُطَبِهِ.

وَكَانَ يَقُولُ فِي خُطَبِهِ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَنْ تُطِيقُوا -أَوْ لَنْ تَفْعَلُوا- كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ سَدِّدُوا وَأَبْشِرُوا».

وَكَانَ يَخْطُبُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِمَا تَقْتَضِيهِ حَاجَةُ الْمُخَاطَبِينَ وَمَصْلَحَتُهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ يَخْطُبُ خُطْبَةً إِلَّا افْتَتَحَهَا بِحَمْدِ اللهِ، وَيَتَشَهَّدُ فِيهَا بِكَلِمَتَيِ الشَّهَادَةِ، وَيَذْكُرُ فِيهَا نَفْسَهُ بِاسْمِهِ الْعَلَمِ.

وَكَانَ مِنْبَرُهُ ثَلَاثَ دَرَجَاتٍ، فَإِذَا اسْتَوَى عَلَيْهِ وَاسْتَقْبَلَ النَّاسَ أَخَذَ الْمُؤَذِّنُ فِي الْأَذَانِ فَقَطْ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ، فَإِذَا أَخَذَ فِي الْخُطْبَةِ لَمْ يَرْفَعْ أَحَدٌ صَوْتَهُ بِشَيْءٍ الْبَتَّةَ لَا مُؤَذِّنٌ وَلَا غَيْرُهُ.

وَكَانَ إِذَا قَامَ يَخْطُبُ أَخَذَ عَصًا فَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، كَذَا ذَكَرَهُ عَنْهُ أبو داود عَنِ ابْنِ شِهَابٍ. وَكَانَ الْخُلَفَاءُ الثَّلَاثَةُ بَعْدَهُ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، وَكَانَ أَحْيَانًا يَتَوَكَّأُ عَلَى قَوْسٍ، وَلَمْ يُحْفَظْ عَنْهُ أَنَّهُ تَوَكَّأَ عَلَى سَيْفٍ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْجَهَلَةِ يَظُنُّ أَنَّهُ كَانَ يُمْسِكُ السَّيْفَ عَلَى الْمِنْبَرِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الدِّينَ إِنَّمَا قَامَ بِالسَّيْفِ، وَهَذَا جَهْلٌ قَبِيحٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمَحْفُوظَ أَنَّهُ ﷺ تَوَكَّأَ عَلَى الْعَصَا وَعَلَى الْقَوْسِ.

الثَّانِي: أَنَّ الدِّينَ إِنَّمَا قَامَ بِالْوَحْيِ، وَأَمَّا السَّيْفُ فَلِمَحْقِ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالشِّرْكِ، وَمَدِينَةُ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ فِيهَا إِنَّمَا فُتِحَتْ بِالْقُرْآنِ وَلَمْ تُفْتَحْ بِالسَّيْفِ.

وَكَانَ إِذَا عَرَضَ لَهُ فِي خُطْبَتِهِ عَارِضٌ اشْتَغَلَ بِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى خُطْبَتِهِ، وَكَانَ يَخْطُبُ فَجَاءَ الحسن والحسين يَعْثُرَانِ فِي قَمِيصَيْنِ أَحْمَرَيْنِ، فَقَطَعَ كَلَامَهُ فَنَزَلَ

فَحَمَلَهُمَا ثُمَّ عَادَ إِلَى مِنْبَرِهِ ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] رَأَيْتُ هَذَيْنِ يَعْثُرَانِ فِي قَمِيصَيْهِمَا، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ كَلَامِي فَحَمَلْتُهُمَا».

وَكَانَ يُقَصِّرُ خُطْبَتَهُ أَحْيَانًا، وَيُطِيلُهَا أَحْيَانًا بِحَسْبِ حَاجَةِ النَّاسِ، وَكَانَتْ خُطْبَتُهُ الْعَارِضَةُ أَطْوَلَ مِنْ خُطْبَتِهِ الرَّاتِبَةِ، وَكَانَ يَخْطُبُ النِّسَاءَ عَلَى حِدَةٍ فِي الْأَعْيَادِ، وَيُحَرِّضُهُنَّ عَلَى الصَّدَقَةِ[1].

وصفه ﷺ في السِّواك والحَلْق وقصِّ الشارب وغيره

كَانَ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ فِي تَنَعُّلِهِ وَتَرَجُّلِهِ[2]، وَطُهُورِهِ، وَأَخْذِهِ، وَعَطَائِهِ، وَكَانَتْ يَمِينُهُ لِطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَطَهُورِهِ، وَيَسَارُهُ لِخَلَائِهِ وَنَحْوِهِ مِنْ إِزَالَةِ الْأَذَى.

وَكَانَ هَدْيُهُ فِي حَلْقِ الرَّأْسِ تَرْكَهُ كُلَّهُ أَوْ أَخْذَهُ كُلَّهُ، وَلَمْ يَكُنْ يَحْلِقُ بَعْضَهُ وَيَدَعُ بَعْضَهُ[3]، وَلَمْ يُحْفَظْ عَنْهُ حَلْقُهُ إِلَّا فِي نُسُكٍ.

وَكَانَ يُحِبُّ السِّوَاكَ، وَكَانَ يَسْتَاكُ مُفْطِرًا وَصَائِمًا، وَيَسْتَاكُ عِنْدَ الِانْتِبَاهِ مِنَ النَّوْمِ، وَعِنْدَ الْوُضُوءِ، وَعِنْدَ الصَّلَاةِ، وَعِنْدَ دُخُولِ الْمَنْزِلِ، وَكَانَ يَسْتَاكُ بِعُودِ الْأَرَاكِ، وَكَانَ يُكْثِرُ التَّطَيُّبَ وَيُحِبُّ الطِّيبَ، وَذُكِرَ عَنْهُ أَنَّهُ (كَانَ يَطَّلِي بِالنُّورَةِ).

---

(١) زاد المعاد، (١/ ١٤٢).

(٢) أي: تسريحه شعر رأسه.

(٣) لا كما يفعل المتفرنجون هذه الأزمان العجيبة.

وَكَانَ أَوَّلاً يَسْدُلُ شَعْرَهُ ثُمَّ فَرَقَهُ[١]، وَالْفَرْقُ: أَنْ يَجْعَلَ شَعْرَهُ فِرْقَتَيْنِ كُلَّ فِرْقَةٍ ذُؤَابَةٌ، وَالسَّدْلُ أَنْ يَسْدُلَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَلَا يَجْعَلُهُ فِرْقَتَيْنِ. وَلَمْ يَدْخُلْ حَمَّامًا قَطُّ، وَلَعَلَّهُ مَا رَآهُ بِعَيْنِهِ، وَلَمْ يَصِحَّ فِي الْحَمَّامِ حَدِيثٌ.

وَكَانَ لَهُ مُكْحُلَةٌ يَكْتَحِلُ مِنْهَا كُلَّ لَيْلَةٍ ثَلَاثًا عِنْدَ النَّوْمِ فِي كُلِّ عَيْنٍ.

وَكَانَ يُحِبُّ التَّرَجُّلَ، وَكَانَ يُرَجِّلُ نَفْسَهُ تَارَةً وَتُرَجِّلُهُ عائشة تَارَةً، وَكَانَ شَعَرُهُ فَوْقَ الْجُمَّةِ وَدُونَ الْوَفْرَةِ، وَكَانَتْ جُمَّتُهُ تَضْرِبُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ، وَإِذَا طَالَ جَعَلَهُ غَدَائِرَ أَرْبَعًا، قَالَتْ أم هانئ: قَدِمَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ قَدْمَةً وَلَهُ أَرْبَعُ غَدَائِرَ»، وَالْغَدَائِرُ الضَّفَائِرُ، وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَكَانَ ﷺ لَا يَرُدُّ الطِّيبَ، وَثَبَتَ عَنْهُ فِي حَدِيثِ (صَحِيحِ مسلم) أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلَا يَرُدَّهُ، فَإِنَّهُ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ»[٢].

وَكَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ سُكَّةٌ يَتَطَيَّبُ مِنْهَا، وَكَانَ أَحَبَّ الطِّيبِ إِلَيْهِ الْمِسْكُ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ الْفَاغِيَةُ، قِيلَ: وَهِيَ نَوْرُ الْحِنَّاءِ[٣].

وكَانَ ﷺ يَقُصُّ شَارِبَهُ، وَيُذْكَرُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَقُصُّ شَارِبَهُ، وَوَقَفَهُ طَائِفَةٌ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وعن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ شَارِبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا»، وَفِي (صَحِيحِ مسلم) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قُصُّوا الشَّوَارِبَ وَأَرْخُوا اللِّحَى خَالِفُوا الْمَجُوسَ»، وَفِي (صَحِيحِ مسلم) عَنْ أنس ﷺ قَالَ: «وَقَّتَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي قَصِّ الشَّارِبِ وَتَقْلِيمِ الْأَظْفَارِ

---

(١) أي: من منتصف رأسه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) زاد المعاد، (١/ ١٧١).

أَلَّا نَتْرُكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً»[(١)].

وصف الرسول ﷺ عند قضاء الحاجة

كَانَ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ»[(٢)]، وَكَانَ إِذَا خَرَجَ يَقُولُ: «غُفْرَانَكَ»[(٣)].

وَكَانَ يَسْتَنْجِي بِالْمَاءِ تَارَةً، وَيَسْتَجْمِرُ بِالْأَحْجَارِ تَارَةً، وَيَجْمَعُ بَيْنَهُمَا تَارَةً.

وَكَانَ إِذَا ذَهَبَ فِي سَفَرِهِ لِلْحَاجَةِ انْطَلَقَ حَتَّى يَتَوَارَى عَنْ أَصْحَابِهِ، وَرُبَّمَا كَانَ يَبْعُدُ نَحْوَ الْمِيلَيْنِ.

وَكَانَ يَسْتَتِرُ لِلْحَاجَةِ بِالْهَدَفِ تَارَةً، وَبِحَائِشِ النَّخْلِ تَارَةً، وَبِشَجَرِ الْوَادِي تَارَةً.

وَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَبُولَ فِي عَزَازٍ مِنَ الْأَرْضِ -وَهُوَ الْمَوْضِعُ الصُّلْبُ- أَخَذَ عُودًا مِنَ الْأَرْضِ فَنَكَتَ بِهِ حَتَّى يُثَرَّى ثُمَّ يَبُولُ.

وَكَانَ يَرْتَادُ لِبَوْلِهِ الْمَوْضِعَ الدَّمِثَ -وَهُوَ اللَّيِّنُ الرَّخْوُ مِنَ الْأَرْضِ- وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يَبُولُ وَهُوَ قَاعِدٌ حَتَّى قَالَتْ عائشة: «مَنْ حَدَّثَكُمْ أَنَّهُ كَانَ يَبُولُ قَائِمًا فَلَا تُصَدِّقُوهُ، مَا كَانَ يَبُولُ إِلَّا قَاعِدًا».

وَكَانَ يَخْرُجُ مِنَ الْخَلَاءِ فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَكَانَ يَسْتَنْجِي وَيَسْتَجْمِرُ بِشِمَالِهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَصْنَعُ شَيْئًا مِمَّا يَصْنَعُهُ الْمُبْتَلُونَ بِالْوَسْوَاسِ مِنْ نَتْرِ الذَّكَرِ، وَالنَّحْنَحَةِ،

---

(١) زاد المعاد، (١/ ١٧٥).

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما (الأرناؤوط).

(٣) رواه الترمذي، وأبو داود، وابن ماجة، والحاكم، وابن حبان (الأرناؤوط).

وَالْقَفْزِ، وَمَسْكِ الْحَبْلِ، وَطُلُوعِ الدَّرَجِ، وَحَشْوِ الْقُطْنِ فِي الْإِحْلِيلِ، وَصَبِّ الْمَاءِ فِيهِ وَتَفَقُّدِهِ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ بِدَعِ أَهْلِ الْوَسْوَاسِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا بَالَ نَتَرَ ذَكَرَهُ ثَلَاثًا، وَرُوِيَ أَنَّهُ أَمَرَ بِهِ، وَلَكِنْ لَا يَصِحُّ مِنْ فِعْلِهِ وَلَا أَمْرِهِ. قَالَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْعُقَيْلِيُّ.

وَكَانَ إِذَا سَلَّمَ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَهُوَ يَبُولُ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ، ذَكَرَهُ مسلم فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ. وَرَوَى البزار فِي مُسْنَدِهِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّهُ رَدَّ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا رَدَدْتُ عَلَيْكَ خَشْيَةَ أَنْ تَقُولَ: سَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ سَلَامًا، فَإِذَا رَأَيْتَنِي هَكَذَا فَلَا تُسَلِّمْ عَلَيَّ، فَإِنِّي لَا أَرُدُّ عَلَيْكَ السَّلَامَ.

وَكَانَ إِذَا اسْتَنْجَى بِالْمَاءِ ضَرَبَ يَدَهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ، وَكَانَ إِذَا جَلَسَ لِحَاجَتِهِ لَمْ يَرْفَعْ ثَوْبَهُ حَتَّى يَدْنُوَ مِنَ الْأَرْضِ(١).

وصف الرسول ﷺ في حُسن معاملته

كَانَ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ مُعَامَلَةً، وَكَانَ إِذَا اسْتَسْلَفَ سَلَفًا قَضَى خَيْرًا مِنْهُ، وَكَانَ إِذَا اسْتَسْلَفَ مِنْ رَجُلٍ سَلَفًا قَضَاهُ إِيَّاهُ وَدَعَا لَهُ، فَقَالَ: «بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، إِنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الْحَمْدُ وَالْأَدَاءُ»(٢).

وَاسْتَسْلَفَ ﷺ مِنْ رَجُلٍ أَرْبَعِينَ صَاعًا فَاحْتَاجَ الْأَنْصَارِيُّ، فَأَتَاهُ فَقَالَ ﷺ: «مَا جَاءَنَا مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ»، فَقَالَ الرَّجُلُ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) من زاد المعاد مختصرًا.

(٢) رواه النسائي، وابن ماجة، وأحمد، قال الأرناؤوط: «إسناده قوي».

«لَا تَقُلْ إِلَّا خَيْرًا فَأَنَا خَيْرُ مَنْ تَسَلَّفَ». فَأَعْطَاهُ أَرْبَعِينَ فَضْلاً وَأَرْبَعِينَ سُلْفَةً فَأَعْطَاهُ ثَمَانِينَ».

وَاقْتَرَضَ ﷺ بَعِيرًا، فَجَاءَ صَاحِبُهُ يَتَقَاضَاهُ فَأَغْلَظَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ: «دَعُوهُ؛ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً».

وَاشْتَرَى مَرَّةً شَيْئًا وَلَيْسَ عِنْدَهُ ثَمَنُهُ، فَأُرْبِحَ فِيهِ فَبَاعَهُ، وَتَصَدَّقَ بِالرِّبْحِ عَلَى أَرَامِلِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَقَالَ: «لَا أَشْتَرِي بَعْدَ هَذَا شَيْئًا إِلَّا وَعِنْدِي ثَمَنُهُ».

وَتَقَاضَاهُ غَرِيمٌ لَهُ دَيْنًا فَأَغْلَظَ عَلَيْهِ، فَهَمَّ بِهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ، فَقَالَ: «مَهْ يَا عمر، كُنْتَ أَحْوَجَ إِلَى أَنْ تَأْمُرَنِي بِالْوَفَاءِ، وَكَانَ أَحْوَجَ إِلَى أَنْ تَأْمُرَهُ بِالصَّبْرِ».

وَبَاعَهُ يَهُودِيٌّ بَيْعًا إِلَى أَجَلٍ، فَجَاءَهُ قَبْلَ الْأَجَلِ يَتَقَاضَاهُ ثَمَنَهُ، فَقَالَ: «لَمْ يَحِلَّ الْأَجَلُ»، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّكُمْ لَمُطُلٌ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ فَنَهَاهُمْ، فَلَمْ يَزِدْهُ ذَلِكَ إِلَّا حِلْمًا، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ قَدْ عَرَفْتُهُ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ وَبَقِيَتْ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ أَنَّهُ لَا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا، فَأَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَهَا، فَأَسْلَمَ الْيَهُودِيُّ»(١).

وصف الرسول ﷺ في حُسن معاشرته لأزواجه

كَانَ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَيْهِ ﷺ، أي من أمور الدنيا، أما قُرّة عينه فكانت في الصَّلاة، قال ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ

---

(١) زاد المعاد مختصرًا.

قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[١].

وَكَانَ ﷺ يَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ فِي اللَّيْلَةِ الْوَاحِدَةِ، وَكَانَ قَدْ أُعْطِيَ قُوَّةَ ثَلَاثِينَ فِي الْجِمَاعِ وَغَيْرِهِ، وَأَبَاحَ اللهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا لَمْ يُبِحْهُ لِأَحَدٍ مِنْ أُمَّتِهِ.

وَكَانَ يَقْسِمُ بَيْنَهُنَّ فِي الْمَبِيتِ وَالْإِيوَاءِ وَالنَّفَقَةِ، وَأَمَّا الْمَحَبَّةُ؛ فَكَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا لَا أَمْلِكُ»[٢]، فَقِيلَ: هُوَ الْحُبُّ وَالْجِمَاعُ، وَلَا تَجِبُ التَّسْوِيَةُ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا لَا يَمْلِكُ.

وَطَلَّقَ ﷺ وَرَاجَعَ، وَآلَى إِيلَاءً مُؤَقَّتًا بِشَهْرٍ، وَلَمْ يُظَاهِرْ أَبَدًا، وَكَانَتْ سِيرَتُهُ مَعَ أَزْوَاجِهِ حُسْنَ الْمُعَاشَرَةِ وَحُسْنَ الْخُلُقِ.

وَكَانَ يُسَرِّبُ إِلَى عائشة بِنَاتِ الْأَنْصَارِ يَلْعَبْنَ مَعَهَا. وَكَانَ إِذَا هَوِيَتْ شَيْئًا لَا مَحْذُورَ فِيهِ تَابَعَهَا عَلَيْهِ، وَكَانَتْ إِذَا شَرِبَتْ مِنَ الْإِنَاءِ أَخَذَهُ فَوَضَعَ فَمَهُ فِي مَوْضِعِ فَمِهَا وَشَرِبَ، وَكَانَ إِذَا تَعَرَّقَتْ عَرْقًا -وَهُوَ الْعَظْمُ الَّذِي عَلَيْهِ لَحْمٌ- أَخَذَهُ فَوَضَعَ فَمَهُ مَوْضِعَ فَمِهَا، وَكَانَ يَتَّكِئُ فِي حِجْرِهَا وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَرَأْسُهُ فِي حِجْرِهَا وَرُبَّمَا كَانَتْ حَائِضًا، وَكَانَ يَأْمُرُهَا وَهِيَ حَائِضٌ فَتَتَّزِرُ ثُمَّ يُبَاشِرُهَا، وَكَانَ يُقَبِّلُهَا وَهُوَ صَائِمٌ، وَكَانَ مِنْ لُطْفِهِ وَحُسْنِ خُلُقِهِ مَعَ أَهْلِهِ أَنَّهُ يُمَكِّنُهَا مِنَ اللَّعِبِ وَيُرِيهَا الْحَبَشَةَ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي مَسْجِدِهِ وَهِيَ مُتَّكِئَةٌ عَلَى مَنْكِبَيْهِ تَنْظُرُ، وَسَابَقَهَا فِي السَّفَرِ عَلَى الْأَقْدَامِ مَرَّتَيْنِ، وَتَدَافَعَا فِي خُرُوجِهِمَا مِنَ الْمَنْزِلِ مَرَّةً.

وَكَانَ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، وَلَمْ

---

(١) رواه النسائي وأحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (الأرناؤوط).

(٢) رواه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي. (الأرناؤوط).

يَقْضِ لِلْبَوَاقِي شَيْئًا، وَكَانَ يَقُولُ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»(١). وَرُبَّمَا مَدَّ يَدَهُ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فِي حَضْرَةِ بَاقِيهِنَّ.

وَكَانَ إِذَا صَلَّى الْعَصْرَ دَارَ عَلَى نِسَائِهِ فَدَنَا مِنْهُنَّ وَاسْتَقْرَأَ أَحْوَالَهُنَّ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ انْقَلَبَ إِلَى بَيْتِ صَاحِبَةِ النَّوْبَةِ فَخَصَّهَا بِاللَّيْلِ. وَقَالَتْ عائشة: «كَانَ لَا يُفَضِّلُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِي مُكْثِهِ عِنْدَهُنَّ فِي الْقَسْمِ، وَقَلَّ يَوْمٌ إِلَّا كَانَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعًا فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ حَتَّى يَبْلُغَ الَّتِي هُوَ فِي نَوْبَتِهَا فَيَبِيتَ عِنْدَهَا».

وَكَانَ ﷺ يَأْتِي أَهْلَهُ آخِرَ اللَّيْلِ وَأَوَّلَهُ، فَكَانَ إِذَا جَامَعَ أَوَّلَ اللَّيْلِ رُبَّمَا اغْتَسَلَ وَنَامَ، وَرُبَّمَا تَوَضَّأَ وَنَامَ.

وَكَانَ يَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ بِغُسْلٍ وَاحِدٍ، وَرُبَّمَا اغْتَسَلَ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدَةٍ فَعَلَ هَذَا وَهَذَا، وَكَانَ إِذَا سَافَرَ وَقَدِمَ لَمْ يَطْرُقْ أَهْلَهُ لَيْلاً، وَكَانَ يَنْهَى عَنْ ذَلِكَ(٢).

اللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

واجبنا نحو الرسول ﷺ

الإيمان بمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً يقتضي التسليم المطلق والتام لما جاء به، أو أخبر عنه، وتصديقه وطاعته فيما أمر أو نهى عنه، دون حَرج أو ضيق، أو مناقشة أو جدال، أو تعقيب، أو أخذ البعض وترك البعض الآخر، فإن كلَّ

(١) رواه الترمذي وابن حبان وابن ماجة والدارمي.
(٢) زاد المعاد مختصرًا مع تصرُّف قليل.

هـذه الأشـياء تنـاقض مقـتضى الإيـمان بـه ﷺ نبيًـا ورسـولاً، ولهـذا جـاءت النصوص القرآنية كلها تؤكِّد وتبيِّن هـذه الأمـور وغيرهـا، التـي هـي مقتضى الإيمان بنبوته ﷺ.

فمن هـذه النصـوص الـواردة في القـرآن العظيـم، قولـه تعـالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمـــــران: ١٣٢]، و﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمـران: ٣١ - ٣٢]، و﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النســـاء: ٨٠]، و﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النـــور: ٥١]، و﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧]، و﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، و﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، و﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النســـاء: ٥٩]، و﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النســاء: ٦٥]، و﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فهذه النصوص وأمثالها في القرآن كثيرة، تذكر المؤمنين بمقتضى إيمانهم بمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً، وبلوازم هذا الإيمان، فمرة تأمرهم بطاعته؛ لأن طاعته هي طاعة لله، وأن جزاء المطيعين جنات النعيم، وأن جزاء المخالفين عذاب النار، وطورًا تبيِّن

لهم أن الإيمان بمحمد ﷺ يستلزم أخذ ما أمر به الرسول ﷺ والانتهاء عما نهى عنه، وأن ما يقضي به ﷺ وأجب الطاعة، لا خيار فيه للمسلم، وأن الرجوع عند الاختلاف يجب أن يكون إلى الله والرسول، وأن الإيمان الحقيقي بمحمد ﷺ، يستلزم الرضا بما يحكم ويقضي به، ويخبر عنه، وتارة تبيِّن نصوص القرآن أن مخالفة أمر رسول الله ﷺ وعصيانه سبب لعذاب الله ومقته، وأن على المخالفين له أن يحذروا الفتنة والعذاب الأليم.

والواقع أن ما تذكره هذه النصوص هي النتيجة المنطقية للإيمان بمحمد ﷺ والرضا به رسولاً؛ لأن من التناقض ومن غير المقبول في العقل السليم أن يؤمن الإنسان بمحمد ﷺ، ثم ينازعه في بعض ما جاء به أو لا يرضى بما جاء به أو ينصِّب نفسه معقبًا لبعض ما جاء به، إلى غير ذلك مما لا يتفق أبدًا ومقتضى الإيمان به.

إنَّ الإنسان إذا آمن بأن فلانًا بارع في الطبِّ، مبرز فيه، فإنه يتقبل منه ما يقوله في شئون الطب، وما يخبره به عن مرضه، وسبل علاجه، ويتبع توجيهاته في الأكل والشرب، وفيما يأخذ ويترك، ولا يسوغ لنفسه معارضته أو مناقشته، فإذا كان هذا المسلك سليمًا ومعقولاً بالنسبة للطبيب مع احتمال خطئه فيما يقول ويوصي به، فكيف يجوز لمن آمن بمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً أن يعارضه أو يناقشه.

إنَّ واجب المسلم نحو الرسول ﷺ بعد أن أنعم الله عليه بالإيمان به، تصديقه بكلِّ ما يخبر عنه، وطاعته في كلِّ ما يأمر به والانتهاء عن كلِّ ما ينهي عنه، وقبول ذلك بتسليم تام ورضا تام كما بيَّنا، وذكرنا النصوص القرآنية الدالة على ذلك.

ومن واجباتنا الأخرى نحوه - بأبي هو وأمي - ﷺ ما يأتي:

أولاً: محبته أكثر من النفس والولد والأهل والمال والناس أجمعين

قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين»(١)، ومن البديهي أن صدق المحبة تكون بخلوص المتابعة، فهذا هو الذي يحبه ويرضيه، والمسارعة إلى ما يرضيه ﷺ مما أمرنا الله به وهو من لوازم المحبة الصادقة، قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

ثانيًا: توقيره وتبجيله واحترامه حيًّا وميتًا

قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]؛ لأن الرسول الكريم ﷺ ليس كواحد من الناس، إنه رسول الله ﷺ وعلى الناس أن يوقروه ويجلوه ويشرفوه حتى في ندائهم له؛ فعليهم أن يقولوا له: يا رسول الله، يا نبي الله، وهذا بعض معاني الآية.

ومن مظاهر توقيره واحترامه عدم سبقه بالقول، أو رفع الصوت عند كلامه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ١-٣].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

ويبقى هذا الاحترام والتوقير بعد وفاته ﷺ، فلا ينبغي رفع الصوت في مسجده وعند قبره، كما يجب التأديب عند سماع حديثه الشريف، وسنته المطهرة، والإصغاء الكامل لها والرضا بها وعدم الخروج عليها، أو معارضتها بالآراء الفاسدة، فإذا سمع المسلم: (قال رسول الله ﷺ)، فليعلم أنه لا قول لأحد مع رسول الله ﷺ ولا معارضة لقوله، وإنما هو الاستماع وفهم هذا القول النبوي الكريم والعزم على العمل به.

ثالثًا: الابتعاد الكامل التام عن إيذاء النبي ﷺ

في أي شيء، وبأي قدر من الإيذاء، فإنَّ هذا كله حرام، وقد يؤدِّي إلى خروج المسلم من الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١]، ويدخل في نطاق إيذائه المحرم إيذاؤه ﷺ بالطعن في زوجاته الكريمات في الدنيا والآخرة، كما يدخل في إيذائه ﷺ إيذاؤه بالطعن في آل بيته الأطهار أو سبهم أو عداوتهم.

رابعًا: الصلاة والسلام عليه

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

تنبيه مهم: مما يجب التنبيه عليه والتذكير به: التحرُّز من خلط ما لله من حق بما للرسول ﷺ من حق، فإنَّ المسلم قد يقع في هذا دون أن يشعر، أو يقع فيه متعمدًا، ظانًّا أنه من واجب المسلم نحو الرسول ﷺ، أو أن ذلك من مزيد

محبته للنبي ﷺ، فيقع في الشرك الخفي أو الجلي، وبالتالي يقع في سخط الله.

إنَّ محبة الرسول ﷺ الحقيقية هي متابعته والمسارعة إلى مرضاته، وهذا لا يتم إلا بتجريد المتابعة لشرعه الذي جاء به من ربِّه ولسنته القولية والعملية، ومن المعلوم أن ما جاء به ﷺ من إفراد الله بالعبادة، بجميع أشكالها وصورها وعدم إعطاء ذرة منها لأحد كائنًا مَن كان، وهذا هو معنى كلمة التوحيد.

ولتحقيق هذه المعاني العالية في نفوس المسلمين، بيَّن القرآن الكريم أن محمدًا ﷺ بشر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وأنه لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، وإنما المالك لهذا وذاك هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وعلى هذا؛ فالاستغاثة وطلب العون وكشف الضر يكون من الله تعالى الذي دعانا إلى الطلب منه والتوجُّه إليه، قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، كما أن الخشية والتقوى تكون لله، والتوكُّل يكون على الله، فهو الكافي جلَّ جلاله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

فهذه الآيات صريحةٌ في تحديد ما لله من حق وما للرسول من حق، فمن حقوق الله تعالى وحده الخشية منه، والتقوى له، والكفاية لعبده، والتوكل

عليه، والرغبة إليه، أما الطاعة؛ فهي من حق الله تعالى وحق رسوله ﷺ وطاعة الرسول في حقيقتها طاعة الله، وكذلك من حق الرسول ﷺ إعطاء ما يراه من غنائم وفيء وغيرها مَن يرى إعطاءه، وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»[1]، أو كما قال ﷺ.

وقال رجل للنبي ﷺ: «ما شاء الله وشئت»، فقال ﷺ: «أَجعلتني لله ندًّا، قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ»، فالنبي الكريم ﷺ جاء بالتوحيد الخالص لربِّ العالمين، ومن حرصه الشديد على ما ينفع المسلمين، كان يبيِّن لهم التوحيد كما بيَّن لهم معاني الشرك؛ لئلا يقعوا فيه، وهذا من كمال نصحه ورحمته ورأفته بأمته -بأبي هو وأمي- ﷺ، فجزاه الله عنا خير الجزاء، قال تعالى في بعض أوصافه الكريمة: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، انتهى[2].

***

---

(١) رواه البخاري.

(٢) نقلاً عن كتاب أصول الدعوة، للدكتور عبد الكريم زيدان -رحمه الله.

نموذج رائع من صبر الرسول ﷺ

في شوال سنة عشرة من النبوة، خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً، سارها ماشيًا على قدميه، جيئةً وذهابًا، ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلما مرَّ على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها، فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف؛ وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلى الإسلام وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم: هو يمزق ثياب الكعبة، إنْ كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا غيرك، وقال الآخر: والله لا أكلِّمك أبدًا، إنْ كنت رسولاً لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولأن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك.. فقام عنهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «إِذَا فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ فَاكْتُمُوا عَنِّي».

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلَّمه، فقالوا: اخرجْ من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم، يسبُّونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له صفين، وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السَّفه، ورجموا عراقيبه -وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه- حتى أصابه شجاج في رأسه، ولم يزل به السفهاء حتى ألجئوه إلى حائط لعُتبة وشيبة ابني ربيعة، على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه.

وأتى رسول الله ﷺ إلى حبلة من عنب، فجلس تحت ظلها إلى جدار، فلما

جلس إليه واطمأن، دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزنًا مما لقي من الشدة، وأسفًا على أنه لم يؤمن به أحد[١].

قال: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي أَوْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانَ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»[٢].

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًّا يقال له (عَدَّاس)، وقالا له: خُذْ قُطفًا من هذا العنب، واذهبْ به إلى هذا الرجل.

فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ مدَّ يده إليه وقال: «بسم الله»، ثم أكل.

فقال عَدَّاس: إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلد، فقال له رسول الله ﷺ: «وَمِنْ أَهْلِ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ؟ وَمَا دِينُكَ؟» قال: نصراني، من أهل (نينوى)، فقال رسول الله ﷺ: «مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»، قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله ﷺ: «ذَاكَ أَخِي، كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ»، فأكبَّ عَدَّاس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلهما.

---

(١) فعلى الدُّعاة المخلصين أن يجتهدوا في نشر الدعوة إلى الله في كلِّ مكان دون خوف من المخاطرة بالنفس أو الإهانة؛ لأنهم ليسوا أرفع قدرًا من رسول الله ﷺ الذي شُتم وأدمي من شدة الضرب.

(٢) هذا الدعاء المشهور ينسب إليه ضعف من كثير من علماء الحديث، هذا من ناحية أصول علم الحديث، غير أن هذا النص يُشم منه رائحة كلام رسول الله ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارًا، كما قال بذلك جمع آخر من العلماء، والله أعلم.

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك، فقد أفسده عليك. فلما جاء عَدّاس قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عَدَّاس لا يصرفنك عن دينك(١)، فإنَّ دينك خير من دينه(٢).

ورجع رسول الله ﷺ في طريقه إلى مكة بعد خروجه من الحائط كئيبًا محزونًا كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين(٣) على أهل مكة.

وقد روى البخاري تفصيل القصة -بسنده- عن عروة بن الزبير رضي الله عنه، أنَّ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ (وهي المعروفة الآن بقرن المنازل)، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ،

---

(١) ينطبق على هذا قول الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

(٢) وهذا يدل على أن القوم قوم عناد وكبر؛ لأنه مَن قال لهم أن دين النصارى خير من دين محمد ﷺ، هب أن القائل صادق في كلامه جدلاً؛ فما الذي منعه من الدخول في دين عَدَّاس آنذاك، اللهم إلا الكبر والعناد والجحود.

(٣) جبلين عظيمين حول مكة أو من جبال مكة.

إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[١].

وفي هذا الجواب الذي أدلى به رسول الله ﷺ، تتجلى شخصيته الفذَّة، وما كان عليه من الخُلق العظيم الذي لا يُدرك غوره[٢].

نماذج رائعة من حبِّ الصحابة للرسول ﷺ

كان الرسول ﷺ يمتاز من كمال خلقه وكمال خُلقه بما لا يحيط بوصفه البيان، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله، والرجال تفانوا في حياطته وإكباره، بما لا تعرف الدنيا غيره، فالذين عاشروه أحبوه إلى حد الهيام، ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر، ما أحبوه كذلك إلا لأن أنصبته من الكمال الذي يُعشق عادةً لم يُرزق بمثلها بشر.

النموذج الأول:

أبو بكر الصديق ﷺ الذي كان يومًا بمكة فوطئ ﷺ وضُرب ضربًا شديدًا، فدنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويحرفهما لوجهه، ونزل على بطن أبو بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه، وحملوه في ثوب حتى أدخلوه منزله، وهم لا يشكون في موته، فتكلم آخر النهار فقال: «ما فعل رسول الله

(١) رواه البخاري ومسلم، وهذا الحديث فيه عظيم قدر الرسول ﷺ؛ لأن الأنبياء كانوا إذا تأكدوا من عدم استجابة أقوامهم دعوا عليهم، أما نبيُّنا ﷺ فلم يصل إلى هذا الحد، بل جاء ملك الجبال، ملك العذاب، وهو مخير في قومه، ومع هذا رفض الهلاك لهم وهم يسعون ليلاً نهارًا لإهلاكه وقتله، اللَّهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه، واجزه عنا خير ما جزيت نبيًّا عن قومه.

(٢) الرحيق المختوم، المباركفوري.

ﷺ؟!» فشتموه وأهانوه مرة أخرى، ثم قالوا لأمه (أم الخير): انظري أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: «ما فعل رسول الله ﷺ؟!»، فقالت: والله لا علم لي بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل، فسألتها عنه، وذهبت معها إلى أبي بكر، فلما رأته أم جميل صريعًا، صاحت بأعلى صوتها: والله، إنَّ قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: «ما فعل رسول الله ﷺ؟!»، فقالت: سالم صالح. فقال: «أين هو؟» قالت: في دار الأرقم بن أبي الأرقم. قال: فإنَّ لله عليَّ ألا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ، ثم خرج يتكئ على أمه وأم جميل بعد أن خلت الطرق وهدأت الرجل وسكن الناس حتى دخل على رسول الله ﷺ[1].

وتتجلى عظمة حبِّ أبي بكر الصديق ﷺ عنه للرسول ﷺ أيام الهجرة، وهي أشهر من أن تذكر، ويكفي الصديق فضلاً أن رأسه الآن عند صدر الرسول ﷺ، ولقد كان أقرب الناس له في الدنيا وأقربهم في البرزخ وأقربهم منه إنْ شاء الله في الآخرة.

النموذج الثاني:

وهو نماذج متعددة يوم أُحد، قام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة، لم يعرف لها التاريخ نظيرًا، كان أبو طلحة ﷺ يسور نفسه ين يدي رسول الله ﷺ، ويرفع صدره ليقيه سهام العدو.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، والرحيق المختوم للمباركفوري.

قال أنس بن مالك ﷺ: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ مُجَوِّبٌ بِهِ عَلَيْهِ بِحَجَفَةٍ لَهُ، وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَجُلاً رَامِيًا شَدِيدَ القِدِّ، يَكْسِرُ يَوْمَئِذٍ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا، وَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ الجَعْبَةُ مِنَ النَّبْلِ، فَيَقُولُ: «انْثُرْهَا لِأَبِي طَلْحَةَ». فَأَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى القَوْمِ، فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، لاَ تُشْرِفْ يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ القَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ، أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا، تُنْقِزَانِ القِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا، تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ، ثُمَّ تَرْجِعَانِ، فَتَمْلآَنِهَا، ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ، وَلَقَدْ وَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يَدَيْ أَبِي طَلْحَةَ إِمَّا مَرَّتَيْنِ وَإِمَّا ثَلاَثًا»[(١)].

وتبع حاطب بن أبي بلتعة عتبة بن أبي وقاص -الذي كسر رَباعية الرسول ﷺ، فضربه بالسيف حتى طرح رأسه، ثم أخذ فرسه وسيفه، وكان سعد بن أبي وقاص شديد الحرص على قتل أخيه عتبة هذا، إلا أنه لم يظفر به، بل ظفر به حاطب.

وامتص مالك بن سنان، والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته ﷺ حتى أنقاه، فقال: له الرسول: «مُجه»، فقال: والله لا أمجه أبدًا، ثم أدبر يقاتل، فقال الرسول ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا!!» فقُتل شهيدًا[(٢)].

وقام مصعب بن عمير ﷺ بضراوة بالغة، يدافع عن النبي ﷺ هجوم

(١) رواه البخاري في «مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ»، باب: «مَنَاقِبِ أَبِي طَلْحَةَ ﷺ»، ح(٣٨١١).
(٢) رواه البخاري ومسلم.

المشركين، وكان اللواء بيده، فضربوه على يده اليمنى حتى قُطعت، فأخذ اللواء بيده اليسرى، وصمد في وجوه الكفار حتى قُطعت يده اليسرى، ثم برك عليه بصدره وعنقه حتى قتل ﷺ، وغيرهم كثير جدًّا ﷺ جميعًا.

مجموعة من أخلاق الرسول ﷺ

كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان، وبلاغة القول، وكان ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل؛ سلاسة طبع ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلُّف، وأوتي جوامع الكلم[١]، وخُص ببدائع الحِكَم، وعلم ألسنة العرب، ويخاطب كل قبيلة بلسانها، ويحاورها بلغتها، اجتمعت له قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي.

وكان الحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره، صفات أدَّبه الله بها، وكل حليم عُرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة، ولكنه ﷺ لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبرًا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا.

قالت عائشة -رضي الله عنها: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإنْ كان إثمًا كان أبعد الناس عنه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها[٢]، وكان أبعد الناس غضبًا، وأسرعهم رضًا.

(١) وسيأتي شيء من جوامع كلامه ﷺ.
(٢) صحيح البخاري.

وكان من صفة الجود والكرم على ما لا يقدر على قدره، كان يعطي عطاء مَن لا يخاف الفقر.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ»(١).

وقال جابر: «ما سئل شيئًا قط فقال لا»(٢).

وكان من الشَّجاعة والنَّجدة والبأس بالمكان الذي لا يُجهل، كان أشجع الناس؛ حضر المواقف الصعبة، وفرَّ عنه الكُماة والأبطال غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر، ولا يتزحزح.

قال علي بن أبي طالب ﷺ: «إِنَّا كُنَّا إِذَا حَمِيَ البَأْسُ وَاحْمَرَّتِ الحَدَقُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلى العَدُوِّ مِنْهُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى العَدُوِّ كَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا».

وقال أنس بن مالك ﷺ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ لَيْلَةً، فَخَرَجُوا نَحْوَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدِ اسْتَبْرَأَ الخَبَرَ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ(٣)، وَفِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا»، ثُمَّ قَالَ: «وَجَدْنَاهُ بَحْرًا» أَوْ قَالَ: «إِنَّهُ لَبَحْرٌ»،

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) أي أنه ﷺ كان يركب ظهر الفرس بلا حائل.

وَكَانَ فَرَسًا يُبَطَّأُ»[١].

وكان ﷺ أشد الناس حياءً وإغضاءً، قال أبو سعيد الخدري ﷺ: «كان أشد حياءً من العذراء في خدرها، وإذا كره شيئًا عُرف في وجهه»[٢].

وكان لا يُثْبِتُ نظره في وجه أحد، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة.

لا يشافه أحدًا بما يكره، حياء وكرم نفس، وكما لا يسمِّي رجلاً بلغ عنه شيئًا يكرهه، بل يقول: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَصنعُونَ كَذَا وكَذَا».

وكان أحق الناس بقول الفرزدق:

يُغضي حَياءً وَيُغضى مِن مَهابَتِهِ ... فَما يُكَلَّمُ إِلّا حينَ يَبتَسِمُ[٣]

وكان أعدل الناس، وأعفّهم، وأصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة، اعترف له بذلك مجاوروه وأعداؤه، وكان يسمَّى قبل نبوته: (الأمين)، ويتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام.

روى الترمذي عن عليٍّ ﷺ أن أبا جهل قال له: «إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به»، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وسأل هرقل أبا سفيان: هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) البيت من البسيط، وهو للفرزدق في ديوانه، ص(٢٣٦).

وكان أشد الناس تواضعًا، وأبعدهم عن الكِبر، يمنع من القيام له، كما يقومون للملوك، وكان يعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس في أصحابه كأحدهم، قالت عائشة -رضي الله عنها: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ، وكَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يُفَلِّي ثَوْبَهُ، وَيَحْلِبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ»[(١)].

وكان ﷺ أوفى الناس بالعهود، وأوصلهم للرحم، وأعظمهم شفقةً ورأفةً ورحمةً بالناس، وأحسن عشرةً وأدبًا، وأبسط الناس خلقًا، أبعد الناس من سوء الأخلاق، لم يكن فاحشًا، ولا متفحشًا، ولا لعَّانًا، ولا صخَّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

وكان ﷺ لا يدع أحدًا يمشي خلفه، وكان لا يترفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس، ويخدم مَن خدمه، ولم يقل لخادمه أُفٍّ قط، ولم يعاتبه على فعل شيء أو تركه، وكان يحب المساكين ويجالسهم، ويشهد جنائزهم، ولا يحقِّر فقيرًا لفقره.

وكان ﷺ في بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: عليَّ ذبحها، وقال آخر: عليَّ سلخها، وقال آخر: عليَّ طبخها، وقال ﷺ: «وَعَلَيَّ جَمْعُ الحَطَبِ»، فقالوا: نحن نكفيك، فقال: «قَدْ عَلمتُ أَنكُمْ تكفوني، وَلَكن أكره أَنْ أَتميَّزَ عَلَيكُمْ، فَإِنَّ الله يَكرهُ عَبْدَهُ أَنْ يَراه متميزًا بَيْنَ أَصحابِهِ»، وقام وجمع الحطب[(٢)].

---

(١) رواه البخاري والترمذي في الشمائل.

(٢) خلاصة السير.

ولنترك هند بن أبي هالة يصف لنا رسول الله ﷺ، قال هند فيما قال: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مُتَوَاصِلَ الْأَحْزَانِ، دَائِمَ الْفِكْرِ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ، طَوِيلَ السَّكْتِ، لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، يَفْتَتِحُ الْكَلَامَ وَيَخْتِمُهُ بِأَشْدَاقِهِ (بأطراف فمه)، وَيَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، فَصُولَ، لَا فُضُولَ وَلَا تَقْصِيرَ، دَمِثَ، لَيْسَ بِالْجَافِي وَلَا الْمُهِينِ، يُعَظِّمُ النِّعْمَةَ، وَإِنْ دَقَّتْ، لَا يَذُمُّ مِنْهَا شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَذُمُّ ذَوَاقًا (ما يُطعم) وَلَا يَمْدَحُهُ، لَا تُغْضِبُهُ الدُّنْيَا، وَلَا مَا كَانَ لَهَا، فَإِذَا تُعُدِّيَ الْحَقُّ، لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ وَلَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ، حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ، وَلَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَصِرُ لَهَا، إِذَا أَشَارَ أَشَارَ بِكَفِّهِ كُلِّهَا، وَإِذَا تَعَجَّبَ قَلَبَهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ اتَّصَلَ بِهَا يَضْرِبُ بِرَاحَتِهِ الْيُمْنَى بَاطِنَ كَفِّهِ الْيُسْرَى، وَإِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ، وَإِذَا فَرِحَ غَضَّ، جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ وَيَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الْغَمَامِ (أي: يكشف عن أسنان بيض كالبَرَد)».

وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه، يؤلف أصحابه، ولا يفرقهم يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم من غير طوى عن أحد منهم بشره.

يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسِّن الحسن ويصوِّبه، ويقبِّح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر، غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا، لكلِّ حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه إلى غيره، الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمّهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلةً أحسنهم مواساةً ومؤازرةً.

كما لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن لا يميز لنفسه مكانًا

إذا انتهى إلى قوم جلس حيث انتهى المجلس، ويأمر بذلك، ويُعطي كل جلسائه نصيبًا، حتى لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه لحاجته صابره، حتى يكون هو المنصرف عنه، ومَن سأله حاجة لا يردّه إلا بها، أو بميسور من القول، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحقِّ متقاربين، يتفاضلون عنده بالتقوى، مجلسه حلم وحياء وصبر وأمانة، لا تُرفع فيه الأصوات، ولا يؤبن فيه الحرم (لا تخش فلتاته، فهو لا يحدث بما وقع في مجلسه من الهفوات والزلات ولا يذيعها بين الناس) يتعاطفون بالتقوى، يوقّرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويؤنسون الغريب.

كان دائم البشر، سهل الخُلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّاب ولا فحاش، ولا عتاب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يُقنط منه، قد ترك نفسه من الرياء والإكثار وما لا يعنيه وترك الناس من ثلاث: لا يذم أحدًا، ولا يعيِّره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلَّم أطرق جلساؤه، كأنما على رءوسهم الطير، وإذا سكت تكلَّموا، ولا يتنازعون عنده الحديث، من تكلَّم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق، ويقول: «إِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ حَاجَةٍ يَطْلُبُهَا فَأَرْفِدُوهُ»، ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ[1].

---

(١) سبق تخريجه.

وقال خارجة بن زيد ﷺ: «كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه، ولا يكاد يخرج شيئًا من أطرافه، وكان كثير السُّكوت، لا يتكلَّم في غير حاجة، يعرض عمن تكلَّم في غير جميل، كان ضحكه تبسُّمًا، وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسُّم توقيرًا له واقتداءً به»(١).

وعلى الجملة؛ فقد كان النبي ﷺ محلّى بصفات الكمال المنقطعة النظير، وأدَّبه الله فأحسن تأديبه، حتى خاطبه مثنيًا عليه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس وحبَّبه إلى القلوب، وصيَّره قائدًا تهوى إليه الأفئدة، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء، حتى دخلوا في دين الله أفواجًا(٢).

وعن أبي عبد الله الجدلي ﷺ قال: قلت لعائشة: كيف كان خُلق رسول الله ﷺ في أهله؟ قالت: كان أحسن الناس خُلقًا، لم يكن فاحشًا، ولا متفحشًا، ولا سخَّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح»(٣).

عن أنس ﷺ قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ، ولا لم صنعت، ولا ألا صنعت»(٤).

وعن سمَّاك ﷺ قال: قلت لجابر بن سَمُرة ﷺ: أكنت تجالس رسول الله ﷺ،

---

(١) شمائل الترمذي، والشفا للقاضي عياض، والرحيق المختوم.
(٢) الرحيق المختوم للمباركفوري.
(٣) رواه أحمد، وانظر: صفة الصفوة لابن الجوزي، ص(٨٥).
(٤) رواه البخاري.

قال: نعم، كان طويل الصَّمت، قليل الضَّحك، وكان أصحابه يذكرون عنده الشِّعر، وأشياء من أمورهم، فيضحكون وربما تبسَّم»[(١)].

وعن عمر ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»[(٢)].

وعن جابر ﷺ قال: جاءني النبي ﷺ يعودني ليس براكب بغلاً ولا بِرْذَوْنًا[(٣)]، وذلك لتواضعه ﷺ.

وعن أنس ﷺ قال: «كانت الأَمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به في حاجتها»، وفي رواية: «فتنطلق به حيث شاءت»[(٤)].

وعن الأسود ﷺ، قال: قلت لعائشة: ما كان رسول الله ﷺ يصنع إذا دخل بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج فصلّى[(٥)].

وعن البراء ﷺ، قال: رأيت النبي ﷺ يوم الأحزاب ينقل التُّراب، وقد وارى التُّراب بياض بطنه، وهو يقول:

وَاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا صُمْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنَّ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

---

(١) رواه مسلم.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه البخاري.

وَالمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا[1]

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يعود المرضى، ويشهد الجنازة، ويأتي دعوة المملوك، ويركب الحمار، ولقد رأيته يومًا على حمار خطامه ليف».

وعن الحسن ﷺ أنه ذكر رسول الله ﷺ فقال: «إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَا وَالله مَا كَانَ تُغْلَقُ دُونَهُ الْأَبْوَابُ، وَلَا يَقُومُ دُونَهُ الْحِجَابُ، وَلَا يُغْدَى عَلَيْهِ بِالْجِفَانِ، وَلَا يُرَاحُ عَلَيْهِ بِهَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ بَارِزًا، مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَى نَبِيَّ الله لَقِيَهُ، وَكَانَ يَجْلِسُ بِالْأَرْضِ وَيُوضَعُ طَعَامُهُ بِالْأَرْضِ، وَيَلْبَسُ الْغَلِيظَ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ، وَيُرْدِفُ عَبْدَهُ، وَيَلْعَقُ وَالله يَدَهُ ﷺ»[2].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: «كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خِدرها، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه»[3].

وعن أنس بن مالك ﷺ أَنَّ رَجُلاً جَاءَ فَقَعَدَ فِي مَجْلِسِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَعَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، فَلَمَّا قَامَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ أَمَرْتُمْ هَذَا أَنْ يَدَعَ هَذِهِ الصُّفْرَةَ»، قال: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يُوَاجِهُ أَحَدًا فِي وَجْهِهِ بِشَيْءٍ»[4].

وعنه أيضًا ﷺ قال: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه أحمد في «الزهد»، (١/ ٣٢٥).
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه أحمد.

النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»(١).

وعن عبد الله ﷺ قال: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ، آثَرَ النَّبِيُّ ﷺ أُنَاسًا فِي القِسْمَةِ، فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ العَرَبِ فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي القِسْمَةِ، قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ، إِنَّ هَذِهِ القِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ، لَأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ، رَحِمَ اللهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: «جَاءَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ دَوْسًا قَدْ هَلَكَتْ عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللهَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ»(٣).

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ امْرَأَةً قَطُّ، وَلَا خَادِمًا لَهُ، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ فَيَنْتَقِمُ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُ اللهِ، فَيَنْتَقِمُ للهِ، وَلَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، حَتَّى يَكُونَ إِثْمًا، فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ»(٤).

وعن أنس ﷺ: أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ زَاهِرُ بْنُ حَرَامٍ قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ وَكَانَ دَمِيمًا، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

مِنْ خَلْفِهِ وَهُوَ لَا يُبْصِرُ فَقَالَ: أَرْسِلْنِي مَنْ هَذَا؟ فَالْتَفَتَ فَعَرَفَ النَّبِيَّ ﷺ، فَجَعَلَ لَا يَأْلُو مَا أَلْزَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ عَرَفَهُ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِذًا وَالله تَجِدُنِي كَاسِدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَكِنْ عِنْدَ الله لَسْتَ بِكَاسِدٍ»، أَوْ قَالَ: «لَكِنْ عِنْدَ الله أَنْتَ غَالٍ»(١).

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «خرجتُ مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم، ولم أبدن، فقال للناس: «تقدَّموا»، ثم قال لي: تعالَي حتى أسابقكِ، فسابقته فسبقته، فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت نسيت، خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: «تقدَّموا». فتقدموا، ثم قال لي: تعالَي حتى أسابقك، فسابقته فسبقني، فجعل يضحك، ويقول: «هذه بتلك»(٢).

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»(٣).

وعن أنس ﷺ أنه قال: مَا سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ»(٤).

---

(١) رواهما أحمد في مسنده.

(٢) رواهما أحمد في مسنده.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه مسلم.

وعنه أيضًا ﷺ قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ لَيْلَةً، فَخَرَجُوا نَحْوَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ اسْتَبْرَأَ الخَبَرَ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، وَفِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا»، ثُمَّ قَالَ: «وَجَدْنَاهُ بَحْرًا» أَوْ قَالَ: «إِنَّهُ لَبَحْرٌ»، وَكَانَ فَرَسًا يُبَطَّأُ»(١).

وعن أبي إسحاق، قال: سألت البراء، وسأله رجل فقال: فررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء: ولكن رسول الله ﷺ لم يفر، كانت هوازن ناسًا رماةً، وإنَّا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكبينا على الغنائم فاستقبلونا بالسِّهام، وقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإنَّ أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها وهو يقول:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ(٢)

صورة مفتقدة في هذا الزمان

خشونة عيش رسول الله ﷺ:

في هذا الزمان الذي تسابق الناس فيه نحو المادة، وانشغل الكثير منهم عما خُلق من أجله، وصارت حياة الناس ناعمة مترفة، يأتي خبر مَن لو شاء لجُعلت له الجبال ذهبًا، خبر مَن لو شاء لكان أغنى الناس، كيف لا والخُمس في الفيء

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري في «الجِهَادِ وَالسِّيَرِ»، باب: «مَنْ قَادَ دَابَّةَ غَيْرِهِ فِي الحَرْبِ»، ح(٢٦٥٢)، ومسلم في «الجِهَادِ وَالسِّيَرِ»، باب: «فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ»، ح(٣٣٢٥).

والغنائم له ﷺ، ومع ذلك مات ﷺ ودِرْعه مرهونة في آصع من تمر أو شعير لقوت أهله، ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا»[١].

وعن أبي حازم ﷺ قال: رأيت أبا هريرة ﷺ يشير بإصبعه مرارًا: «والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثة أيام تباعًا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا»[٢].

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كَانَ ضِجَاعُ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي كَانَ يَنَامُ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ وِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ»[٣].

وعن سِمَاك بن حرب ﷺ قال: «سمعت النعمان بن بشير يخطب، قال: ذكر عمر ما أصاب الناس من الدنيا، فقال: رأيت رسول الله ﷺ ظل اليوم يلتوي ما يجد دقلاً (التمر الرديء) يملأ بطنه»[٤].

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «قبض النبي ﷺ وإنَّ درعه لمرهونة عند رجل يهودي على ثلاثين صاعًا من شعير أخذها رزقًا لعياله»[٥].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه أحمد.

نماذج مشرقة من جوامع كلمه ﷺ وكلامه المتقن وأمثاله العجيبة

- «إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا خَضْرَاءُ الدِّمَنِ؟ قَالَ: «الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ فِي الْمَنْبَتِ السُّوءِ»(١).

- «إِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ»(٢).

- «لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ»(٣).

- «لَا يَنْتَطِحُ فِيهَا عَنْزَانِ»(٤).

- «هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ وَجَمَاعَةٌ عَلَى أَقْذَاءٍ فِيهَا»(٥).

- «الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ»(٦).

- «النَّاسُ سَوَاءٌ كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ، وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِالْعَافِيَةِ، وَلَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَعْرِفُ مِثْلَ مَا تَعْرِفُ لَهُ»(٧).

- «الْمَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ»(٨).

---

(١) رواه الدارقطني، وفيه ضعف.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه ابن عدي، والأصح أنه موقوف.
(٥) رواه أبو داود والإمام أحمد.
(٦) رواه مسلم.
(٧) رواه ابن عدي، وفيه ضعف.
(٨) رواه ابن أبي الدنيا.

- «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(١).

- «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ»(٢).

- «كُلُّ الصَّيْدِ فِي بَطْنِ الْفَرَا»(٣).

- «النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ»(٤).

- «خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا»(٥).

- «مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا خَيْرًا لَهُ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ»(٦).

- «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا»(٧).

- «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»(٨).

- «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»(٩).

- «إِنَّكُمْ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، فَلْيَسَعْهُمْ مِنْكُمُ السَّلَامُ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ»(١٠).

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

(٢) رواه البيهقي في «الآداب»، (١/ ٧٠).

(٣) رواه أبو داود وغيره.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه الترمذي والحاكم في المستدرك.

(٧) سبق تخريجه.

(٨) رواه مسلم والحاكم والترمذي.

(٩) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(١٠) رواه البيهقي.

- «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ، كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»[(١)].
- «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»[(٢)].
- «الْحَرْبُ خَدْعَةٌ»[(٣)].
- «يَا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي وَأَبْشِرِي»[(٤)].
- «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبْغِضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ»[(٥)].

- «إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»[(٦)].
- «عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا، عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا، عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا، فَإِنَّهُ مَنْ شَادَّ هَذَا الدِّينَ يَغْلِبْهُ»[(٧)].
- «الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ»[(٨)].
- «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنِ اتَّبَعَ نَفْسَهُ وَهَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ ﷻ»[(٩)].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه أحمد والدارقطني والحاكم والطبراني وابن حبان.
(٣) رواه أحمد والترمذي.
(٤) رواه أبو داود.
(٥) رواه البزار.
(٦) تكملة الحديث السابق.
(٧) رواه البخاري.
(٨) رواه البخاري في الأدب وأبو داود.
(٩) رواه الترمذي وابن ماجه، وفيه ضعف.

- «إِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى»[(١)].

- «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»[(٢)].

- «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[(٣)].

- «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»[(٤)].

- «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ»[(٥)].

- «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»[(٦)].

- «الْقَنَاعَةُ كَنزٌ لَا يَنْفَدُ»[(٧)].

- «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[(٨)].

- «شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ»[(٩)].

- «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»[(١٠)].

---

(١) رواه أبو يعلى وغيره.
(٢) رواه أحمد، والترمذي.
(٣) رواه النسائي والترمذي وأحمد والبخاري في الأدب ومسلم.
(٤) رواه البخاري والترمذي.
(٥) رواه الحاكم والنسائي.
(٦) رواه مسلم وأحمد.
(٧) رواه الطبراني وغيره.
(٨) رواه البخاري ومسلم.
(٩) رواه البخاري وأبو داود.
(١٠) رواه البخاري وأبو داود.

- «إِنَّ الذَّنْبَ لَا يُنْسَى، وَإِنَّ الدَّيَّانَ لَا يَمُوتُ، وَإِنَّ الْبِرَّ لَا يَبْلَى، فَكُنْ كَمَا شِئْتَ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ»(١).

- «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

- «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»(٣).

- «مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلا عَفَا رَجُلٌ عَنْ مَظْلِمَةٍ إلا زَادَهُ اللهُ عِزًّا، وَلا فَتَحَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ»(٤).

- «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ»(٥).

- «الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ»(٦).

- «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»(٧).

- «النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»(٨).

- «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ فَيَرْحَمَهُ اللهُ وَيَبْتَلِيكَ»(٩).

---

(١) رواه أحمد في المسند.
(٢) رواه البخاري والترمذي.
(٣) رواه البخاري والترمذي.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) رواه الطبراني.
(٦) رواه مسلم.
(٧) رواه أحمد والترمذي والحاكم.
(٨) رواه البخاري ومسلم.
(٩) رواه الترمذي.

ما تقدَّم إنما هو عينة مصغرة لجوامع كلمه ﷺ، وإلا لو ذهبنا نستطرد كلامه ﷺ لطال بنا المقام، ولكن في هذا كفاية، وفيه تنبيه على غيره[1].

(١) هذه المجموعة من جوامع الكلم مأخوذة من صفة الصفوة لابن الجوزي.

بعض معجزات الرسول ﷺ وعلامات النبوة

شاء الله ﷻ أن تكون معجزة كل رسول من جنس ما يمتاز فيه قومه، فكان من أكبر معجزات رسول الله ﷺ، القرآن الكريم؛ لاشتهار قومه بالبلاغة والبيان، إلا أن لرسول الله ﷺ معجزات أخرى كثيرة سنذكر بعضها -إنْ شاء الله، فأوَّلُ هذه المعجزات:

١- القرآن الكريم الذي دعا العرب وغيرهم منذ بعثه الله ﷻ قرنًا قرنًا إلى يومنا هذا وإلى يوم القيامة إلى أن يأتوا بمثله إن شكّوا في صدقه، فعجز عن ذلك جميع البلغاء، وغيرهم.

٢- شقَّ الله تعالى له القمر بمكة؛ إذ سألته قريش آية، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

٣- أطعم النفر الكثير في منزل جابر ﷺ، وفي منزل أبي طلحة ﷺ مرة ثمانين رجلاً من أربعة أمداد من شعير وعَنَاق (العَنْز الصغيرة)، ومرة أكثر من ذلك من أربعة أقراص من شعير حملها أنس بن مالك ﷺ في يده، ومرة أطعم جميع الجيش، وهم تسعمائة، من تمر يسير أتت به ابنة بشير بن سعد -رضي الله عنها- في يدها، فأكلوا منه حتى شبعوا، وفضلت منه فضلة.

٤- ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ، فشرب منه العسكر كلهم وهم عطاش، وتوضئوا كلهم، كل ذلك من قدح صغير ضاق عن أن يبسط فيه ﷺ يده

المكرَّمة، وأهراق من وضوئه في عين تبوك، ولا ماء فيها، ومرة أخرى في بئر الحديبية، فجاشتا بالماء، فشرب من عين تبوك أهل الجيش، وهم ألوف، حتى رووا كلهم، وفاضت إلى يوم القيامة، وشرب من بئر الحديبية ألف وأربعمائة، حتى رووا كلهم، ولم يكن فيها قبل ذلك ماء.

٥- وأمر ﷺ عمر بن الخطاب -رضوان الله عليه- أن يزوِّد أربعمائة راكب من تمر كان في اجتماعه كربضة البعير، فزوَّدهم كلهم منه، وبقي بجثته كما كان.

٦- ورمى ﷺ الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم، ونزل بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

٧- وأبطل الله ﷻ الكهانة بمبعثه ﷺ، فانقطعت وكانت ظاهرة موجودة.

٨- وحنَّ إليه ﷺ الجذع الذي كان يخطب إليه إذ عُمِل له المنبر، حتى سمع منه جميع الحاضرين مثل صوت الإبل، فضمه إليه فسكن.

٩- ودعا ﷺ اليهود إلى تمني الموت وأخبرهم أنهم لا يتمنونه، فحيل بينهم وبين النطق بذلك، وهذا منصوص عليه في القرآن[(١)].

١٠- وأخبر ﷺ بالغيوب[(٢)]، وأنذر بأن عمارًا ﷺ تقتله الفئة الباغية، وأن عثمان ﷺ تصيبه بلوى وله الجنة، وأن الحسن بن علي -رضوان الله عليهما-

(١) سورة [البقرة: ٩٤- ٩٥]، وسورة [الجمعة: ٦-٧].

(٢) تنبيه مهم: الغيب لا يعلمه إلا الله، ولكن قد يخبر الله بالوحي رُسله بما شاء سبحانه، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

سيد، يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فكان كل ذلك.

وأخبر ﷺ عن رجل قاتل في سبيل الله ﷻ، بأنه من أهل النار، فظهر ذلك، بأن قتل ذلك الرجل نفسه.

١١- وأتبعه ﷺ سراقة بن مالك بن جعشم فساخت قدما فرسه في الأرض، ثم أخرجها وأتبعه دخان، حتى استعاذه سراقة، فدعا له ﷺ، فانطلقت الفرس.

١٢- وأنذر ﷺ سراقة بن مالك أيضًا بأن ستوضع في ذراعيه سواري كسرى، فكان كذلك.

١٣- وأخبر بقتل الأسود العنسي الكذَّاب ليلة قتله وهو بصنعاء اليمن وأخبر بمَن قتله.

١٤- وأنذر بموت النجاشي وبينهما البحر المالح، ومسيرة أيام في البر، وخرج هو وجميع أصحابه إلى البقيع، فصلوا عليه، فوُجد قد مات ذلك اليوم، إذ ورد الخبر بذلك.

١٥- وخرج من بيته ﷺ على مائة من قريش ينتظرونه ليقتلوه بزعمهم، فوضع التراب على رءوسهم، ولم يروه.

١٦- وشكا إليه ﷺ البعير بحضرة أصحابه، وتذلَّل له.

١٧- وقال ﷺ لنفر من أصحابه ﷺ: «أَحَدُكُمْ فِي النَّارِ ضِرسُهُ مِثْلُ أُحُدٍ»، فماتوا كلهم على الإسلام وارتد منهم واحد، وهو «الرَّحَّال الحنفي»، فقتل مرتدًا مع مسيلمة الكذَّاب -لعنهما الله تعالى.

١٨- وقال ﷺ لآخرين منهم: «أَمَا إِنَّ آخِرَهُمْ مَوْتًا فِي النَّارِ»، فسقط آخرهم موتًا في النار، فاحترق فمات.

١٩- ودعا ﷺ شجرتين فأتتاه فاجتمعتا، ثم أمرهما فافترقتا.

٢٠- وكان ﷺ نحو الرِّبعة (الوسط بين الطويل والقصير)، فإذا مشى مع الطوال طالهم.

٢١- ودعا ﷺ النصارى إلى المباهلة بالتلاعن فامتنعوا، وأخبرهم أنهم إنْ فعلوا ذلك هلكوا كلهم، فعلموا صحَّة قوله فامتنعوا.

٢٢- وآتاه ﷺ عامر وأربد؛ عامر بن الطفيل بن مال بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وأربد بن قيس بن جزء خالد بن جعفر بن كلاب، وهما فارسا العرب، وفاتكاهم، عازمين على قتله، فحال الله بينهما وبين ذلك، وضرب بين أربد وبينه ﷺ مرة بعامر ومرة بسور، ودعا عليهما، فهلك عامر في وجهه من منصرفه عنه ﷺ، وأهلك أربد الصاعقة، أحرقته، لعنهما الله.

٢٣- وأخبر ﷺ أنه يقتل أُبي بن خلف الجُمحي، فخدشه يوم أحد خدشًا لطيفًا، فكانت منيته منها.

٢٤- وأُطعِم السُّمّ فمات من أَكَله معه لحينه، وعاش هو ﷺ، بعد ذلك أربع سنين، وكلَّمه ذراع الشاة المسمومة بأنه مسموم.

٢٥- وأخبر أصحابه يوم بدر بمصارع صناديد قريش، وأوقفهم على مصارعهم رجلاً رجلاً، فلم يتعد واحد منهم ذلك الموضع.

٢٦- وأنذر بأن طوائف من أمته يغزون في البحر وقال لأمّ حرام بنت ملحان: «أَنْتِ مِنْهُمْ»، فكانت منهم، وصحَّ غزو طائفة من أمته في البحر.

٢٧- وزويت (طويت) له ﷺ الأرض، فأُري مشارقها ومغاربها، وأنذر ببلوغ ملك أمته ما زُوي له منها، فكان ذلك، وبلغ ملكهم من أول المشرق إلى بلاد السند والترك إلى آخر المغرب، من سواحل البحر المحيط بالأندلس وبلاد البربر، ولم يتسعوا في الجنوب والشمال كل الاتساع، أعني مثل اتساعهم شرقًا وغربًا، فكان كما أخبره سواء بسواء.

٢٨- وأخبر ﷺ فاطمة ابنته -رضوان الله عليها- أنها أوَّل أهله لحاقًا به، فكان كذلك.

٢٩- وأخبر ﷺ نساءه -رضوان الله عليهن- بأن أطولهن يدًا أسرعهن لحاقًا به، فكانت زينب بنت جحش الأسدية -رضي الله عنها- أطولهن يدًا بالصَّدقة أوَّلهن موتًا بعده.

٣٠- ومسح ﷺ ضرع شاة فدرت، فكان ذلك سبب إسلام عبد الله بن مسعود، ومرة أخرى في خيمتي أم معبد الخزاعية.

٣١- وندرت عين بعض أصحابه وهو قتادة، فسقطت، فردَّها ﷺ، فكانت أصحَّ عينيه وأحسنهما.

٣٢- وتفل ﷺ في عين عليٍّ ﷺ وهو أرمد، يوم خيبر، فصحَّ من حينه، ولم يرمد بعدها، وبعثه بالرَّاية، وقد قال: لا ينصرف حتى يفتح الله عليه، فكان كما قال، ولم ينصرف عليٌّ ﷺ إلا بالفتح.

٣٣- وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه ﷺ.

٣٤- وأصيبت رِجل بعض أصحابه، فمسحها ﷺ، فبرئت من حينها.

٣٥- وقلَّ زاد جيش كان فيه، فدعا بجميع ما بقي من الزاد، فاجتمع منه شيء يسير جدًّا، فدعا عليه ﷺ بالبركة، ثم أمرهم فأخذوا، فلم يبق وعاء في المعسكر إلا مُلِيء.

٣٦- وحكى الحكم بن أبي العاص مشيته ﷺ مستهزئًا، فقال له: كذلك فكُنْ، فلم يزل يرتعش إلى أن مات.

٣٧- وخطب أُمامة بنت الحارث بن عوف، وكان أبوها أعرابيًّا جافيًا، سيد قومه، فقال: إنَّ بها بياضًا، وكانت العرب تكنى بهذا البرص، فقال له ﷺ: «لتكن كذلك»، فبرصت من وقتها، وانصرف أبوها، فرأى ما حدث بها، فتزوَّجها ابن عمها يزيد بن جمرة بن عوف، فولدت له الشاعر شبيب بن يزيد، وهو المعروف بـ(ابن البرصاء).

إلى غير ذلك من آياته ومعجزاته ﷺ، وإنما أتينا بالمشهور المنقول نقل التواتر، وبالله التوفيق[1].

تنبيهات مهمة:

هذه بعض علامات نبوته ومعجزاته ﷺ، أيَّده الله بها ليتنهي الكافرون الضالون عن ضلالهم، وعلامة على صدق نبيِّنا ﷺ، وأهل السُّنة والجماعة بالإجماع يؤمنون بقُدرة الله في ذلك، ويصدِّقون ما صحَّ من تلك المعجزات على

---

(١) من كتاب جوامع السيرة لابن حزم ص(٢٨-٣٥)، ط. مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

يد نبيِّنا ﷺ، مِنةً من الله وفضلاً.

في حين أننا اليوم -للأسف الشديد- يخرج علينا فكران أحدهما ولا حول ولا قوة إلا بالله أضل من الآخر، ألا وهما:

الفكر الأول:

فكر قوم أنكروا تلك المعجزات وأقلقتهم، وضربوا بتلك الروايات التي جاءت بها عرض الحائط، والله يعلم أن ذلك إما لعدم كمال إيمانهم، وسُوء ظنهم بالله، وإما تأثيرًا تحت مطارق التغريب والشُّبهات الواردة من الغرب الذي لا يؤمن إلا بالمادة والملموس والمحسوس، أحفاد الذين قالوا لموسى عليه السلام: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، وذلك حين تتلمذوا على أيد المستشرقين الحاقدين، فأنكروا معجزات نبينا تقديرًا لفكر سادتهم.

الفكر الثاني:

فكر قوم رفعوا بتلك المعجزات مقام النبي ﷺ عن مقام البشر، بل أطروه حتى إنَّ منهم مَن كاد يألهه ﷺ، والرسول ﷺ يكره ذلك؛ فهو القائل: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»(١).

والصواب بين هذا وهذا، فنؤمن بأن قدرة الله فوق كل معقول وغير معقول، وقد أجراها الله سبحانه لنبينا ﷺ تكريمًا وتأييدًا وفضلاً.

فاللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وَاجْزِه اللهم عنا خير ما

---

(١) سبق تخريجه.

جزيت نبيًّا عن أمته، وبلِّغه منا السلام، وارزقنا رؤياه في الآخرة، والقُرب من حضرته، والشُّرب من حوضه، واحشرنا اللهم تحت لوائه ولا تحرمنا من رؤياه في هذه الدار برؤيا صالحة تمتع بها أرواحنا، يا رب العالمين.

وآخر دعونا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

ربيع بن عبد الرءوف الزواوي

غفر الله له ولوالديه

الإسكندرية الاثنين في ١/٣/١٤١٥هـ، ٨/٨/١٩٩٤م.

* * *

الباب الثالث

مع الصحابة والتابعين

الفصل الأول
نماذج مختارة من الصحابة والتابعين

مقدمة:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على مَن بعثه الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه والتابعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد انبعث في صدر الإسلام الأول مَن يُحتاج اليوم إلى دراسة حياته والإلمام بها ولو على وجه الإجمال، وكيف لا وغير المسلمين يذكرونهم في طيّات كلامهم بما عليه مِسْحَة الإجلال والتعظيم، ولو الخفي، ومنا مَن يجهل حتى أسماءهم.

فتنبيهًا للغافل، وإرشادًا لمن يطلب الإرشاد نذكر نماذج من الصحابة - رضوان الله عليهم؛ الذين دانت لهم الأرض، وخضعت لهم مطأطئة، وهابهم الشرق والغرب، وخافهم ملوك الفرس والروم آنذاك، ثم نذكر نماذج من التابعين؛ للبرهنة على صلاح المربين، وتدليلاً للخيرية التي بشَّر بها سيد الأولين والآخرين، ولم أتبع في اختياري لهذه النماذج الطيبة قاعدة معينة، بل هدفي التدليل والإشارة إلى الباقين، واللبيب تكفيه الإشارة.

وقد اختيرت هذه النماذج على بصيرة وقصد دون سواها، بغير إهمال لأحد

أو انتقاص لقدر آخر، بدليل أننا لم نتعرض للكلام على أفضل الصحابة على الإطلاق؛ أبي بكر وعمر؛ لشهرة هذين العَلمين بين العالمين، والإشارة بعظمة المفضول، وذكر جوانب العظمة تعظيم للفاضل ولا شكَّ.

وقد -والله- اختير كل واحد من هذه النماذج بدقة ويقظة تامة، ولست في ذكر واحد من هذه النماذج خابطًا خبط عشواء أو حاطب ليل، بل نهدف إلى تنويع الفضائل والمكارم واستكمال جوانب العظمة التي أودعها الله -جلَّ شأنه- في النفس البشرية، فنذكر عظمة الفقير منهم والغني، والقوي والضعيف، والسابق والمتأخر، والذي ينحدر من قاعدة يستند عليها من الشرف والسُّؤدد، والعبد الرقيق الذي جرَّب بحبوحة الحرية في ظل الإسلام، والجندي والقائد، والمتقدم الطاعن في السن، والصغير الذي لم تحنكه التجارُب والأيام، وغير ذلك، فلم نجدهم إلا سادة حازوا مكارم الأخلاق عظمةً وشرفًا وشجاعةً وإقدامًا، من غير تهوُّرٍ ولا تعالٍ ولا تدنٍ، فكأنهم نماذج من خلق الله من سوى الرُّسل والأنبياء الكرام المعصومين، ضربهم خالقهم مثلاً وجعلهم دليلاً للبشر بعدهم.

ونحن في كلِّ ما ذكرنا لم نحاب أحدًا أو نبالغ في خبر، بل نقلنا ما حدَّث به التاريخ واستفاضت بها الموسوعات التي لا تتاح لكل أحد.

وربي وحده من وراء القصد محيط، وهو حسبنا، وعليه التكلان.

ربيع الزواوي

الإسكندرية المحروسة

* * *

أولاً: نماذج من الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم

جعفر بن أبي طالب ﷺ

اسمه جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب، وكان يلقب بـ(أبي المساكين)؛ لحبِّه الشديد للفقراء وعطفه عليهم وبرِّه بهم، وهو ابن عم النبي ﷺ.

دخل جعفر بن أبي طالب ﷺ في الإسلام في الرعيل الأول، وكان من السابقين إليه.

لقي جعفر ﷺ وزوجه أسماء بنت عميس من المشركين أذى كثيرًا، فأذن لهما رسول الله ﷺ في الهجرة إلى الحبشة عند النجاشي مع مَن هاجر.

ولما بعثت قريش عَمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة إلى النجاشي بالهدايا له ولبطارقته كي يرسل معهما المهاجرين إليه من المسلمين ظهر دور جعفر في الحديث مع النجاشي.

تقول أم سلمة -رضي الله عنها- وكانت من المهاجرين إلى الحبشة: «أَرْسَلَ النَّجَاشِيُّ إِلَيْنَا يَدْعُونَا لِلِقَائِهِ فَاجْتَمَعْنَا قَبْلَ الذَّهَابِ إِلَيْهِ، وَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنَّ الْمَلِكَ سَيَسْأَلُكُمْ عَنْ دِينِكُمْ فَاصْدَعُوا بِمَا تُؤْمِنُونَ بِهِ وَلِيَتَكَلَّمَ عَنْكُمْ جَعْفَرُ بن أَبِي طَالِبٍ وَلا يَتَكَلَّمَ أَحَدٌ غَيْرُه.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: ثُمَّ ذَهَبْنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ فَوَجَدْنَاهُ قَدْ دَعَا بَطَارِقَتَهُ فَجَلَسُوا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَقَدْ لَبِسُوا طَيَالِسَتَهُمْ وَاعْتَمَرُوا قَلانِسَهُمْ وَنَشَرُوا كُتُبَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَوَجَدْنَا عَمْرَو بن الْعَاصِ وَعَبْدَ الله بن رَبِيعَةَ.

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِنَا الْمَجْلِسُ الْتَفَتَ إِلَيْنَا النَّجَاشِيّ وَقَالَ: مَا هَذَا الدِّينُ الذِي اسْتَحْدَثْتُمُوهُ لأَنْفُسِكُمْ وَفَارَقْتُم بِسَبَبِهِ دِينَ قَوْمِكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي؟

فَتَقَدَّمَ مِنْهُ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ وَبَقِينَا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ.

فَلَمَّا دَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَع مَا كُنَّا نَعْبُدُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَقَدْ أَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَحَقْنِ الدِّمَاءِ -أَيْ: حِفْظِهَا وَعَدَم سَفْكِهَا، نَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِش وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَأَنْ نُقِيمَ الصَّلاةِ وَنُؤْتِيَ الزَّكَاةِ وَنَصُومَ رَمَضَانَ.

فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَحَلَّلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا فَمَا كَانَ مِنْ قَوْمِنَا أَيُّهَا الْمَلِكُ إِلا أَنْ عَدَوْا عَلَيْنَا فَعَذَّبُونَا أَشَدَّ الْعَذَابِ لِيَفْتِنُونَنَا عَنْ دِينِنَا وَيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ.

فَلَمَّا ظَلَمُونَا وَقَهَرُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بِلادِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدَكَ.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَالْتَفَتَ النَّجَاشِيُّ إِلَى جَعْفَرِ بن أَبِي طَالِبٍ وَقَالَ: هَلْ مَعَكَ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ عَنْ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ

رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم: ١-٢] حَتَّى أَتَمَّ صَدْرًا مِنَ السُّورَةِ.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَبَكَى النَّجَاشِي حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ بِالدُّمُوعِ -أَيْ: تَبَلَّلَتْ- وَبَكَى أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى بَلَّلُوا كُتُبَهُمْ لِمَا سَمِعُوا مِنْ كَلامِ اللهِ وَهُنَا قَالَ النَّجَاشِيّ: إِنَّ هَذَا الذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ وَالذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ الْتَفَتَ النَّجَاشِيّ إِلَى عَمْرو وَصَاحِبِهِ وَقَالَ لَهُمَا: انْطَلِقَا فَلا وَاللهِ لا أُسَلِّمُهُمْ إِلَيْكُمَا أَبداً، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدَ النَّجَاشِيّ تَوَعَّدَنَا عَمْرو بن الْعَاصِ وَقَالَ لِصَاحِبِهِ: وَاللهِ لآتِيَنَّ الْمَلِكَ غَدًا وَلأَذْكُرَنَّ لَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا يَمْلأُ صَدْرَهُ غَيْظاً مِنْهُمْ وَيَشْحَنُ فُؤَادَهُ كُرْهًا لَهُمْ وَلأَحْمِلَنَّه عَلَى أَنْ يَسْتَأْصِلَهُم مِنْ جُذُورِهِمْ.

فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بن رَبِيعَةَ: لا تَفْعَلْ يَا عَمْرو فَإِنَّهُمْ مِنْ ذَوِي قُرْبَانَا وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: دَعْ عَنْكَ هَذَا وَاللهِ لأُخْبِرَنَّهُ بِمَا يُزَلْزِلُ أَقْدَامَهم وَاللهِ لأَقُولَنَّ لَهُ: إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى بن مَرْيَمَ عَبْدٌ.

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ دَخَلَ عَمْرُو عَلَى النَّجَاشِيّ وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ هَؤُلاءِ الذِينَ آوَيْتَهُمْ وَحَمَيْتَهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى بن مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيمًا فَأَرْسَلْ إِلَيْهِمْ وَسَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَهُ فِيهِ.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَلَمَّا عَرفنَا ذَلِكَ نَزَلَ بِنَا مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ مَا لَمْ نَتَعَرَّضْ لِمِثْلِهِ وَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابن مَرْيَم إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ.

فَقُلْنَا: وَاللهِ لا نَقُولُ فِيهِ إِلا مَا قَالَ اللهُ وَلا نَخْرُجُ فِي أَمْرِهِ قِيدَ أَنْمُلَةٍ عَمَّا جَاءَنَا بِهِ نَبِيُّنَا وَلْيَكُنْ بِسَبَبِ ذَلِكَ مَا يَكُونُ.

ثُمَّ اتَّفَقْنَا عَلَى أَنْ يَتَوَلَى الْكَلامَ عَنَّا جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِب فَلَمَّا دَعَانَا النَّجَاشِيّ

دَخلْنَا عَلَيْهِ فَوَجَدْنَا عِنْدَهُ بطَارِقَته عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي رَأَيْنَاهُمْ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلُ.

وَوَجَدْنَا عِنْدَهُ عَمْرَو بنَ الْعَاصِ وَصَاحِبَهُ فَلَمَّا صِرْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ بَادَرَنَا بِقَوْلِهِ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى بن مَرْيَمَ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بن أَبِي طَالِبٍ: إِنَّمَا نَقُولُ مَا جَاءَ بِهِ نَبِينا فقَالَ النَّجَاشِيّ: وَمَا الذِي يَقُولُ فِيهِ؟

فَأَجَابَهُ جَعْفَرُ يَقُولُ عَنْهُ: «إِنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولِهِ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ الَّتِي أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمْ الْعَذْرَاءَ الْبَتُولَ» . فَلَمَّا سَمِعَ النَّجَاشِيّ قَوْلَ جَعْفَرٍ ضَرَبَ بِيَدِهِ الأَرْضَ وَقَالَ: وَاللهِ مَا خَرَجَ عِيسَى بن مَرْيَمَ عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيكُمْ مِقْدَارَ شَعْرَةٍ.

فَتَنَاخَرَتْ الْبَطَارِقَةُ مِنْ حَوْلِ النَّجَاشِيِّ اسْتِنْكَاراً لِمَا سَمِعُوا مِنْهُ فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا وَقَال: اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ آمِنُونَ، مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ وَمَنْ تَعَرَّضَ لَكُمْ عُوقِبَ وَوَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لِي جَبَلٌ مِنْ ذَهَبٍ وَأَنْ يُصَابَ أَحَدٌ مِنْكُمْ.

ثُمَّ نَظَرَ إِلى عَمْرو وَصَاحِبِهِ وَقَالَ: رُدُّوا عَلَى هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ هَدَايَاهُمَا فَلا حَاجَةَ لِي بِهَا. قَالَتْ أُمُّ سَلَمَة: فَخَرَجَ عَمْرُو وَصَاحِبُه مَكْسُورِينَ مَقْهُورِينَ يَجُرَّانِ أَذْيَالَ الْخَيْبَةِ، أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ أَقَمْنَا عِنْدَ النَّجَاشِيِّ بِخَيْرِ دَارٍ مَعْ أَكْرَمِ جَارٍ.

أَمضَى جَعْفَرُ بن أَبِي طَالِبٍ هُوَ وَزَوْجَتُهُ فِي رِحَابِ النَّجَاشِي عَشْرَ سَنَوَاتٍ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ وَفِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ لِلْهِجْرَةِ غَادَرُوا بِلادَ الْحَبَشَةِ مَعَ نَفَرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إِلى الْمَدِينَةِ فَلَمَّا بَلَغُوهَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَائِدًا مِنْ خَيْبَرَ بَعْد أَنْ فَتَحَهَا اللهُ لَهُ فَفَرِحَ بِلِقَاءِ جَعْفَرَ فَرَحًا شَدِيدًا حَتَّى قَالَ: «مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَنَا أَشَدُّ فَرَحًا أَبِفَتْحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ».

وَلَمْ تَكُنْ فَرْحَةُ الْمُسْلِمِينَ وَالْفُقَرَاءِ خَاصَّةً بِعَوْدَةِ جَعْفَرٍ بِأَقَلَّ مِنْ فَرْحَةِ

الرَّسُولِ -صَلَوَاتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيْهِ- فَقَدْ كَانَ جَعْفَرُ شَدِيدَ الْحَدْبِ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ كَثِيرَ الْبِرِّ بِهِمْ حَتَّى كَانَ يُلَقَّبُ بِأَبِي الْمَسَاكِينِ.

أَخْبَرَ عَنْهُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ فَقَالَ: كَانَ خَيْرَ النَّاسِ لَنَا مَعْشَرَ الْمَسَاكِينِ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَدْ كَانَ يَمْضِي بِنَا إِلَى بَيْتِهِ فَيُطْعِمُنَا مَا يَكُونُ عِنْدَهُ حَتَّى نَفَدَ طَعَامُهُ أَخْرَجَ لَنَا الْعُكَّةَ الَّتِي يُوضَعُ فِيهَا السَّمْنُ وَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ فَنَشُقُّهَا وَنَلْعَقُ مَا عَلِقَ بِدَاخِلِهَا.

استُشهد جعفر ﷺ في موقعة مؤتة مع زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة فحزن رسول الله ﷺ على ذلك حزنًا شديدًا.

معاذ بن جبل ﷺ

ولد معاذ بن جبل ﷺ بالمدينة، وكان معاذ ﷺ يمتاز بذكاء حاد، وعارضة قوية، وكان عالي الهمة، وهبه الله تعالى روعةً في البيان، وجمالاً في وجهه ومنطقه، أسلم معاذ ﷺ وهو صغير السن على يدي مصعب بن عمير الذي بعثه الرسول ﷺ إلى المدينة معلمًا.

وكان معاذ ﷺ مع الرهط الاثنين والسبعين الذي بايعوا النبي ﷺ، رجع معاذ ﷺ بعد البيعة المباركة داعيًا للإسلام في مجتمع المدينة، فأسلم على يديه جماعة من كبار الناس مثل عمرو بن الجموح.

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لزمه معاذ ﷺ حتى وعى القرآن وتلقى شرائع الإسلام، حتى صار من أعلم الصحابة بالقرآن وأقرأهم له وأعلمهم بشرح كتاب الله تعالى، وقد أثنى عليه رسول الله ﷺ، فقال: «أَعْلَمُ أُمَّتِي

بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ»[(١)].

وكان معاذ ﷺ أحد النفر الستة الذين جمعوا القرآن على عهد الرسول ﷺ، ولما فتح الله تعالى مكة لرسوله ﷺ واحتاج الأمر إلى معلم يبقى بين الناس يعلِّمهم شرع الله تعالى؛ فقد استبقاه رسول الله ﷺ في مكة يعلِّم الناس القرآن ويفقِّههم في دين الله تعالى.

وكذلك عندما جاء ملوك اليمن إلى الرسول ﷺ تعلن إسلامها، وطلبوا من الرسول ﷺ معلمًا لهم، اختار معاذًا ﷺ لهذه المهمة، هو ونفر من الصحابة ﷺ كان هو أميرهم، وخرج رسول الله ﷺ يودِّعهم بنفسه، فأوصى معاذًا ﷺ بقوله: «يَا مُعَاذُ، إِنَّكَ عَسَى أَلَا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا، وَلَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي وَقَبْرِي» الحديث. فبكى معاذ ﷺ جزعًا لفراق الرسول ﷺ، وفعلاً مات رسول الله ﷺ، ولم يره معاذ ﷺ بعد ذلك اليوم.

عاد معاذ ﷺ إلى المدينة، وقد مات رسول الله ﷺ، فلم يتحمل معاذ هذا الأمر، فبكى بكاءً شديدًا لفقد الرسول ﷺ.

ولما ولي عمر بن الخطاب ﷺ الخلافة أرسله إلى بني كلاب ليقسم بينهم، وفي خلافة عمر أيضًا أرسل والي الشام يزيد بن أبي سفيان يطلب من عمر ﷺ معلمًا لأهل الشام، فاجتمع عمر بمعاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبي أيوب الأنصاري وأُبي بن كعب وأبي الدرداء ﷺ، قائلاً لهم: إنَّ إخوانكم من أهل الشام قد استعانوني بمن يعلِّمهم القرآن ويفقِّههم في الدين، فأعينوني رحمكم

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجة.

الله بثلاثة منكم؛ فإنْ أجبتم فاقترعوا، وإلا انتدبت ثلاثة منكم.

فقالوا: ولم نقترع؟ فأبو أيوب شيخ كبير، وأُبي رجل مريض وبقينا نحن الثلاثة.

فقال لهم عمر: ابدءوا بحِمْص؛ فإنْ رضيتم حال أهلها، فخلِّفوا أحدكم فيها، وليخرج واحد منكم إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين.

فخرج الثلاثة إلى حمص وتركوا فيها عبادة بن الصامت، وذهب أبو الدرداء إلى دمشق، ومضى معاذ بن جبل إلى فلسطين.

بقي معاذ ﷺ بفلسطين حتى أُصيب بالوباء، فلما حضرته الوفاة أخذ يقول: مرحبًا بالموت مرحبًا، زائر جاء بعد غياب، وحبيب وفد على شوق، ثم أخذ ينظر إلى السماء ويقول: «اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لغرس الأشجار وجري الأنهار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر، فتقبل نفسي بخير ما تتقبل به نفسًا مؤمنةً، ثم مات ﷺ.

أبو الدرداء ﷺ

ولد أبو الدرداء بالمدينة قبل هجرة الرسول ﷺ، واسمه عويمر بن مالك الخزرجي نسبة إلى الخزرج، وهي قبيلة يمنية ارتحلت إلى المدينة واستقرت بها، نشأ أبو الدرداء بالمدينة، ثم عمل في شبابه بالتجارة، وكان له متجر كبير في أحد شوارع المدينة.

وكان أبو الدرداء ﷺ صديقًا لعبد الله بن رواحة ﷺ، وكان عبد الله بن

رواحة بعد إسلامه يدعو أبا الدرداء إلى الإسلام، ولكن أبا الدرداء كان يرفض ذلك.

وبعد غزوة بدر وقع الإسلام في قلب أبي الدرداء، فأقبل يومًا على عبد الله بن رواحة ومضيا معًا إلى رسول الله ﷺ، وأعلن إسلامه، وندم ندمًا شديدًا على سنين عمره التي مضت دون دخول في الإسلام، فعزم على أن يجتهد ويصل الليل بالنهار ليلحق بركب من سبقه من الصحابة إلى الإسلام.

اعتزل أبو الدرداء ﷺ التجارة زهدًا في الدنيا وتقشف، وكان يقول: «لا أقول: إن الله تعالى حرَّم البيع، ولكني أحب أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله».

اشتد زُهد أبي الدرداء ﷺ فترك الدنيا وأعرض عن زينتها وزخرفها، وعندما عرض عليه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ أن يلي له ولاية في الشام أبى، فأصرَّ عليه عمر، فقال له أبو الدرداء: «إذا رضيت مني أن أذهب إليهم لأعلِّمهم كتاب ربهم وسُنة نبيهم وأصلي بهم ذهبت»، فرضي عمر بذلك، فقدم أبو الدرداء دمشق فوجد الناس قد شغلهم الترف وانغمسوا في النعيم، فجمعهم في المسجد وخطب فيهم: «يا أهل دمشق، أنتم الإخوان في الدين، والجيران في الدار، والأنصار على الأعداء، يا أهل دمشق، ما الذي يمنعكم من مودتي والاستجابة لنصيحتي وأنا لا أبتغي منكم شيئًا، فنصيحتي لكم ومؤنتي على غيركم، ما لي أرى علماءكم يذهبون، وجُهَّالكم لا يتعلمون؟ ولا أراكم قد أقبلتم على ما تكفل الله لكم به، وتركتم ما أمرتم به، ما لي أراكم تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتؤملون ما لا تبلغون، لقد

جمعت الأقوام التي قبلكم وأملت، فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بورًا، وأملهم غرورًا، وبيوتهم قبورًا، هذه عاد -يا أهل دمشق- قد ملأت الأرض مالاً وولدًا، فمَن يشتري مني تركة عاد اليوم بدرهمين»، فجعل الناس يبكون.

استمر أبو الدرداء بالشام في دمشق يعظ أهلها ويذكِّرهم بآيات الله، ويطوف بأسواقهم يجيب السائل، ويعلِّم الجاهل وينبِّه الغافل حتى أتاه اليقين، ولما مرِضَ مرضَ الموت، دخل عليه أصحابه، فقالوا له: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قالوا: وما تشتهي؟ قال: عفو ربي، ثم قال للجالسين: لقِّنوني: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.. فما زال يرددها حتى فارق الحياة.

عمرو بن العاص ﷺ

ولد عمرو بن العاص ﷺ قبل الهجرة بحوالي نصف قرن، وكان عمرو ﷺ أحد دُهاة العرب المعدودين وواحد من عباقرتهم الأفذاذ النادرين، وكان ﷺ من أحسن الناس بيانًا وأفصحهم لسانًا، وكان عمرو -رضوان الله عليه- يتمتع بطاقات فذَّة من رجاحة العقل وبُعد النظر، أما أبوه؛ فهو (العاص بن وائل) سيد من سادات العرب وأحد حكامهم في الجاهلية.

ولقد ترك عمرو بن العاص ﷺ للمسلمين سيرة ضخمة ملأت الدنيا وشغلت الناس دهرًا طويلاً.

وعندما هاجر بعض المسلمين بإذن من الرسول ﷺ إلى الحبشة عند ملكها النجاشي وأرادت قريش أن تستعيدهم وتغري بهم النجاشي لم تجد أفضل من عمرو بن العاص للقيام بهذه المهمة لدهائه، ولما تعرف من أواصر المودة التي

كانت بينه وبين النجاشي.

ولكن النجاشي لما سمع من عمرو والمهاجرين إليه امتلأ قلبه يقينًا واطمئنانًا وفهم عقيدتهم وتعلق قلبه بالإسلام فأسلم بعد ذلك.

ولما أراد عمرو الرجوع دعاه النجاشي إلى الدخول في الإسلام وبيَّن له عظيم فضل الله عليهم بإرسال محمد ﷺ، فكانت لهذه النصيحة من ملك عظيم كالنجاشي أثرها على عمرو حتى وقع الإسلام في قلبه، وشرح الله صدره للإسلام عام (٨هـ).

عزم عمرو ﷺ على السفر لرسول الله ﷺ في المدينة، وفي طريقه التقى خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة ووجدهما يقصدان نفس ما يقصد.

لما قدم الثلاثة على رسول الله ﷺ بايعه خالد وعثمان وقبض عمرو يده، فقال له الرسول ﷺ: «مَا لَكَ يَا عَمرو؟!» فقال: أبايعك على أن يغفر الله لي ما تقدَّم من ذنبي. فقال الرسول ﷺ: «إنَّ الإِسْلامَ وَالِهجرةَ يجبان مَا قَبْلَهُمَا»، فبايعه عمرو ﷺ، ولما كان يعرفه عنه رسول الله ﷺ من عبقرية وشهامة، فقد أمَّره على المسلمين في غزوة ذات السلاسل.

وبعد موت الرسول ﷺ كان لعمرو ﷺ دور مهم في حروب الرِّدة في عهد الصديق ﷺ.

وفي عهد عمر بن الخطاب ﷺ تمكن البطل عمرو بن العاص من فتح فلسطين ومصر، ولا يخفى ما في هذا العمل من أهمية؛ فقد أمَّن ساحل الشام أمام المسلمين وفتح بفتح مصر أبواب أفريقية وبلاد المغرب ثم أسبانيا فيما بعد.

ولقد برز دهاء عمرو وعبقريته في فتح مصر بما أعجب المؤرخين حتى من غير المسلمين وأبهرهم حكمته وحسن خطته.

ومن مأثور كلامه وبلاغته: «الرجال ثلاثة: رجل تام، ونصف رجل، ولا شيء. أما الرجل التام؛ فهو الذي كمل دينه وعقله، فإذا أراد أن يقضي أمرًا استشار أهل الرأي، فلا يزال موفقًا. وأما نصف الرجل؛ فهو الذي يكمل الله له دينه وعقله، فإذا أراد أن يقضي أمرًا لم يستشر فيه أحدًا وقال: أي الناس أتبعه وأترك رأيي لرأيه فيصيب ويخطئ، وأما الذي لا شيء، فهو مَن لا دين له ولا عقل فلا يزل مخطئًا مدبرًا، والله، إني لأستشير في الأمر حتى خدمي».

وكان يقول آخر أيامه: «كنت على ثلاث حالات عرفت نفسي فيها: كنت أول شيء كافرًا، فلو مت حينئذٍ لوجبت لي النار، فلما بايعت الرسول ﷺ كنت أشد الناس حياءً منه حتى إني ما ملأت عيني منه قط، فلو مت حينئذٍ لقال الناس: هنيئًا لعمرو أسلم على خير ومات على خير، ثم تلبست بعد بأشياء فلا أدري أعلي أم لي؟».

ثم مات رحمه الله عام (٤٣) من الهجرة بعد هذا العمر الطويل الحافل بالأحداث الجِسام.

روى الإمام أحمد والترمذي أن النبي ﷺ قال فيه: «أسلم الناس، وآمن عمرو بن العاص».

* * *

أبو أيوب الأنصاري ﷺ

اسمه خالد بن زيد بن كُليب، من بني النجار، نال شرف نزول الرسول ﷺ عنده بعد أن دخل المدينة مهاجرًا إليها من مكة المكرمة، وقد كان الأنصار ﷺ عند دخول الرسول ﷺ المدينة كل منهم يتمنى أن ينزل رسول الله ﷺ عنده، فكانوا يعترضون ناقته ﷺ واحدًا بعد آخر، فيقول لهم الرسول ﷺ: «دَعوهَا فَإِنَّهَا مَأمورةٌ»، فظلت ناقته ﷺ تمضي به حتى بركت في ساحة أمام بيت أبي أيوب الأنصاري ﷺ.

فرح أبو أيوب بذلك فرحًا شديدًا، فبادر إلى الرسول ﷺ يرحِّب به ترحيبًا تغمره شدة الفرح، وحمل متاع النبي ﷺ وكأنه يحمل كنوز الدنيا ومضى به إلى بيته.

وكان منزله ﷺ مكوَّنًا من طابقين، فاختار الرسول ﷺ الطابق السفلي ليكون أقرب إلى أصحابه؛ حيث يدخلون ويخرجون فيكون أيسر عليهم، ولكن أبا أيوب لم يستطع النوم في مكان فوق مكان رسول الله ﷺ، ولم ينم ليله إلى الصباح، فجاء إلى الرسول ﷺ يشكو إليه ويطلب منه أن يصعد إلى الطابق العلوي، فتهلل وجه الرسول ﷺ وقال له: «هَوِّنْ عَلَيْكَ يَا أَبَا أَيوب، إِنَّهُ أَرفَقُ بِنَا أَنْ نكونَ فِي السُّفلِ؛ لِكَثرةِ مَن يَغشانَا مِن النَّاسِ».

قال أبو أيوب ﷺ: «فامتثلت لأمر الرسول ﷺ إلى أن كانت ليلة باردة فانكسرت لنا جَرّة وأريق ماؤها في الطابق العلوي، فقمت إلى الماء أنا وأم أيوب، وليس لدينا إلا قطيفة كنا نتخذها لحافًا، وجعلنا ننشف بها الماء خوفًا

من أن يصل إلى رسول الله ﷺ، فلما كان الصباح غدوت على رسول الله ﷺ وقلت: بأبي أنت وأمي، إني أكره أن أكون فوقك، وأن تكون أسفل مني ثم قصصت عليه خبر الجَرّة، فاستجاب لي وصعد إلى العُلية، ونزلت أنا وأم أيوب إلى السُّفل».

أقام رسول الله ﷺ نحوًا من سبعة أشهر عند أبي أيوب حتى بنى مسجده والحجرات التي أقيمت بجوار المسجد فانتقل إليها.

كان أبو أيوب رقيق القلب، يحبُّ الرسول ﷺ حُبًّا شديدًا، وكان كريمًا يحب إطعام الطعام، وكان له نخل يعمل فيه ويطعم منه أهله.

كما كان أبو أيوب ﷺ بطلاً من أبطال الحروب، فما كان يترك غزوة في عهد الرسول ﷺ إلا شهدها، إلا أن يشغله عن معركةٍ معركة أخرى، فلم يتخلف ﷺ عن غزوة غزاها المسلمون منذ عهد النبي ﷺ إلى عهد معاوية ﷺ.

وفي خلافة معاوية جهَّز معاوية ﷺ جيشًا لفتح القسطنطينية بقيادة ابنه يزيد، وكان أبو أيوب آنذاك شيخًا هرمًا قرب الثمانين عامًا، فخرج مع الجيش وركب البحر، فمرض ﷺ، فلما جاء قائد الجيش يعوده سأله: يا أبا أيوب، ألك حاجة؟ فطلب منه إنْ مات أن يحمله الجنود ويوغلوا في أرض العدو، فيدفنونه عند أسوار القسطنطينية!! وبالفعل مات ﷺ عندئذٍ.

وكان المسلمون قد كروا على العدو مرة بعد مرة أخرى حتى بلغوا أسوار القسطنطينية، وهم يحملون أبا أيوب معهم، وهناك حفروا له قبرًا ودفنوه فيه.

* * *

أبو هريرة ﷺ

اسمه عبد الرحمن بن صخر الدوسي، نشأ يتيمًا، وكان يعمل أجيرًا عند بسرة بنت غزوان، ولد باليمن وكان من بيت فقير ليس له من الناس أحد إلا أمه، كان اسمه في الجاهلية (عبد شمس)، أسلم أبو هريرة ﷺ على يد الطفيل بن عمرو الدوسي وظل أبو هريرة باليمن في قومه (دوس)، ولم يهاجر إلى الرسول ﷺ بالمدينة إلا بعد الهجرة بست سنين، أسماه الرسول ﷺ (عبد الرحمن)، وكان يناديه كثيرًا (يا أبا هِرّ)، وكان سبب كنيته (أبي هريرة) أنه كانت له في طفولته هرة صغيرة يلعب بها، فجعل قرناؤه ينادونه: (أبا هريرة).

انقطع أبو هريرة ﷺ بعد دخوله في الإسلام إلى صُحبة النبي ﷺ وخدمته، ودعا أمه للإسلام، فدخلت بعد دعاء الرسول ﷺ لها وكان بارًّا بها أشد البر.

لزم أبو هريرة ﷺ الصُّفَّة، وكان يتبع الرسول ﷺ في كلِّ حركاته، فلا يكاد يفارقه حتى حفظ عنه أحاديث كثيرة جدًّا، لاسيما بعد أن دعا رسول الله ﷺ له بعدم نسيان العلم.

حفظ أبو هريرة ﷺ عن الرسول ﷺ أكثر من ألف وستمائة حديث، وكان يقول: أحفظ حيث ينشغل إخواني المهاجرين بتجارتهم وإخواني الأنصار بزراعتهم.

كان أبو هريرة ﷺ محبًّا للعلم، وكان يحببه لغيره لدرجة أنه كان يذهب إلى أهل السوق بالمدينة، ويقول لهم: أنتم هنا قاعدون وميراث النبي ﷺ يقسم بالمسجد ما أعجزكم.

فيذهب الناس، فلا يجدون شيئًا سوى القائمين في صلاة أو القارئين لكتاب الله أو الجالسين في دروس العلم، فيتعجبون من أبي هريرة، فيقول لهم: ذلك ميراث النبي ﷺ.

ولما كثر المال وفاضت الخيرات وجاءت غنائم الفتح صار لأبي هريرة ﷺ مال ومنزل ومتاع وزوج وأولاد، ولم يغير ذلك من شغفه بالعلم ولا تواضعه وشدة عبادته واجتهاده وطاعته.

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما- صار أبو هريرة ﷺ واليًا على المدينة، فلم يفت ذلك في ورعه وتقاه، فكان يصوم النهار ويقوم الليل.

وكان ﷺ يكثر من قوله: «نشأت يتيمًا، وهاجرت مسكينًا، وكنت أجيرًا لبُسرة بنت غزوان بطعام بطني، فكنت أخدم القوم إذا نزلوا وأحدو لهم إذا ركبوا، فزوجنيها الله تعالى (يعني بُسرة بنت غزوان)، فالحمد لله الذي جعل الدين قوامًا، وصير أبا هريرة إمامًا».

سلمان الفارسي ﷺ

ولد سلمان الفارسي ﷺ بقرية يقال لها (جيان) تقع في أصبهان، وأصبهان في إيران الحالية، تقع بين طهران وشيراز، ترك سلمان ﷺ فارس وهاجر يبحث عن الإسلام والرسول ﷺ بمجرد علم بمبعثه.

يروى عن سلمان ﷺ أنه قصَّ قصته، فقال:

«كُنْتُ رَجُلاً فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ مِنْ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا: جَيٌّ، وَكَانَ أَبِي دِهْقَانَ قَرْيَتِهِ (أي: رئيسها)، وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ الله إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ بِي حُبُّهُ إِيَّايَ،

حَتَّى حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ، فَاجْتَهَدْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ، حَتَّى كُنْتُ قَاطِنَ النَّارِ، أُوقِدُهَا لَا أَتْرُكُهَا تَخْبُو سَاعَةً وَاحِدَةً، وَكَانَتْ لِأَبِي ضَيْعَةٌ عَظِيمَةٌ، فَشُغِلَ يَوْمًا، فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ هَذَا الْيَوْمَ عَنْ ضَيْعَتِي، فَاذْهَبْ إِلَيْهَا فَطَالِعْهَا، فَأْمُرْهُ فِيهَا بِبَعْضِ مَا يُرِيدُ، ثُمَّ قَالَ لِي: لَا تَحْتَبِسْ عَلَيَّ، فَإِنَّكَ إِنِ احْتَبَسْتَ عَلَيَّ كُنْتَ أَهَمَّ عَلَيَّ مِنْ ضَيْعَتِي وشَغَلْتَنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِي.

فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ضَيْعَتَهُ أَسِيرُ إِلَيْهَا، فَمَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَى فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا، وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَكُنْتُ لَا أَدْرِي مَا أَمْرُ النَّاسِ لِحَبْسِ أَبِي إِيَّايَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا سَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُونَ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ أَعْجَبَتْنِي صَلَاتُهُمْ، وَرَغِبْتُ فِي دِينِهِمْ، وَقُلْتُ: هَذَا وَاللهِ خَيْرٌ مِنَ الدِّينِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ، فَمَا بَرِحْتُ مِنْ عِنْدِهِمْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَتَرَكْتُ ضَيْعَةَ أَبِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: مَنْ أَبْصَرَكُمْ بِهَذَا الدِّينِ؟ قَالُوا: رَجُلٌ بِالشَّامِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى أَبِي وَقَدْ بَعَثَ فِي طَلَبِي، وَقَدْ شَغَلْتُهُ عَنْ عَمَلِهِ، قَالَ أَبِي: بُنَيَّ، أَيْنَ كُنْتَ؟ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكَ مَا عَهِدْتُ؟ قُلْتُ: إِنِّي مَرَرْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ فِي كَنِيسَةٍ لَهُمْ، فَدَخَلْتُ إِلَيْهِمْ، فَمَا زِلْتُ عِنْدَهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، لَيْسَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ، ثُمَّ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ.

وَبَعَثْتُ إِلَى النَّصْرَانِيِّ، فَقُلْتُ: إِذَا قَدِمَ إِلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ، فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنَ النَّصَارَى، فَأَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَضَوْا حَوَائِجَهُمْ وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ أَخْبِرُونِي بِهِمْ، فَأَلْقَيْتُ الْحَدِيدَ مِنْ رِجْلَيَّ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ، فَلَمَّا قَدِمْتُهَا قُلْتُ: مَنْ أَفْضَلُ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ عِلْمًا؟ قَالُوا: الْأَسْقُفُ فِي الْكَنِيسَةِ، فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي

هَذَا الدِّينِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ أَخْدُمُكَ فِي كَنِيسَتِكَ، وَأَتَعَلَّمُ مِنْكَ، وَأُصَلِّي مَعَكَ، قَالَ: فَادْخُلْ، فَدَخَلْتُ مَعَهُ، وَكَانَ رَجُلَ سُوءٍ يَأْمُرُ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُهُمْ فِيهَا، فَإِذَا جَمَعُوا بِهِ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْهَا اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ، فَلَمْ يُعْطِ إِنْسَانًا مِنْهَا شَيْئًا، حَتَّى جَمَعَ قِلَالاً مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ، فَأَبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا، لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ، ثُمَّ مَاتَ وَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ النَّصَارَى لِيَدْفِنُوهُ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلَ سُوءٍ يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَيُرَغِّبُكُمْ فِيهَا، فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا، قَالُوا: وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ؟ قُلْتُ لَهُمْ: فَأَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى كَنْزِهِ، قَالُوا: فَدُلَّنَا عَلَيْهِ، فَدَلَلْتُهُمْ عَلَيْهِ فَاسْتَخْرَجُوا ذَهَبًا وَوَرِقًا، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا: وَاللهِ لَا نَدْفِنُهُ أَبَدًا، فَصَلَبُوهُ، ثُمَّ رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ، وَكَانَ ثَمَّ رَجُلٌ آخَرُ فَجَعَلُوهُ مَكَانَهُ.

فَمَا رَأَيْتُ رَجُلاً لَا يُصَلِّي الْخَمْسَ أَفْضَلَ مِنْهُ، أَزْهَدَ فِي الدُّنْيَا، وَلَا أَرْغَبَ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا أَدْأَبَ لَيْلاً وَنَهَارًا مِنْهُ، فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ شَيْئًا قَطُّ، فَمَا زِلْتُ مَعَهُ زَمَانًا ثُمَّ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ مَعَكَ فَأَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ شَيْئًا قَطُّ، وَقَدْ حَضَرَكَ مَا تَرَى مِنْ أَمْرِ اللهِ ﷻ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي، وَمَا تَأْمُرُنِي؟، قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، وَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، لَقَدْ هَلَكَ النَّاسُ وَبَدَّلُوا وَتَرَكُوا كَثِيرًا مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، إِلَّا رَجُلاً بِالْمَوْصِلِ وَهُوَ فُلَانٌ، وَهُوَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَالْحَقْ بِهِ.

فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ الْمَوْصِلِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا أَوْصَانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ عَلَى أَمْرِهِ، قَالَ: فَأَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ عَلَى أَمْرِ صَاحِبِهِ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ مَاتَ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا أَوْصَانِي إِلَيْكَ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَلْحَقَ بِكَ،

وَقَدْ حَضَرَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا تَرَى، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي، وَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: يَا بُنَيَّ، مَا أَعْلَمُ بَقِيَ أَحَدٌ آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ إِلَّا رَجُلاً بِعَمُّورِيَّةَ بِأَرْضِ الرُّومِ عَلَى مِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ عَمُّورِيَّةَ، فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي، فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ عِنْدَ خَيْرِ رَجُلٍ عَلَى هَدْيِ أَصْحَابِهِ وَأَمْرِهِمْ، وَاكْتَسَبْتُ حَتَّى كَانَتْ عِنْدِي بُقَيْرَاتٌ وَغُنَيْمَةٌ، ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللهِ ﷻ، فَلَمَّا حُضِرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنِّي كُنْتُ مَعَ فُلَانٍ فَأَوْصَانِي إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَانِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي، وَإِلَى مَنْ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: وَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَصْبَحَ عَلَى مِثْلِ مَا نَحْنُ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ، وَلَكِنْ أَظَلَّكَ زَمَانُ نَبِيٍّ هُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ إِلَى أَرْضٍ ذَاتِ نَخْلٍ، بِهِ عَلَامَاتٌ لَا تَخْفَى، يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِذَلِكَ الْبِلَادِ فَافْعَلْ، ثُمَّ مَاتَ وَغُيِّبَ، فَمَكَثْتُ بِعَمُّورِيَّةَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ أَمْكُثَ.

مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ كَلْبٍ تُجَّارٌ، فَقُلْتُ لَهُمْ: تَحْمِلُونِي إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ وَأُعْطِيكُمْ بَقَرَاتِي هَذِهِ وَغُنَيْمَتِي هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَأَعْطَيْتُهُمْ وَحَمَلُونِي مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا قَدِمُوا وَادِي الْقُرَى ظَلَمُونِي، فَبَاعُونِي مِنْ رَجُلٍ يَهُودِيٍّ، فَكُنْتُ عِنْدَهُ فَرَأَيْتُ النَّخْلَ، فَرَجَوْتُ الْبَلَدَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي، وَلَمْ يَحِقَّ فِي نَفْسِي، فَبَيْنَا أَنَا عِنْدَهُ قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمٍّ لَهُ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَابْتَاعَنِي مِنْهُ، فَحَمَلَنِي إِلَى الْمَدِينَةِ فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا عَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي، فَأَقَمْتُ بِهَا.

فَبَعَثَ اللهُ ﷻ رَسُولَهُ ﷺ، وَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ مَا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرٍ، مَعَ مَا أَنَا

فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرِّقِّ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عِذْقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ، وَسَيِّدِي جَالِسٌ تَحْتِي إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: قَاتَلَ اللهُ بَنِي قَيْلَةَ، وَاللهِ إِنَّهُمْ لَيَجْتَمِعُونَ عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَلَمَّا سَمِعْتُهَا أَخَذَنِي الْفَرَحُ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنِّي سَأَسْقُطُ عَلَى سَيِّدِي، وَنَزَلْتُ عَنِ النَّخْلَةِ، وَجَعَلْتُ أَقُولُ لِابْنِ عَمِّهِ ذَلِكَ: مَاذَا يَقُولُ؟ فَغَضِبَ سَيِّدِي، فَلَطَمَنِي لَطْمَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ: مَا لَكَ وَلِهَذَا؟ أَقْبِلْ عَلَى عَمَلِكَ، قُلْتُ: لَا شَيْءَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَثْبِتَهُ عَمَّا قَالَ.

وَقَدْ كَانَ عِنْدِي شَيْءٌ قَدْ جَمَعْتُهُ، فَلَمَّا أَمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِقُبَاءَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ، وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لَكَ غُرَبَاءُ ذَوُو حَاجَةٍ، وَهَذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي صَدَقَةٌ، فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ، وقَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «كُلُوا وَأَمْسَكَ هُوَ فَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ»، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذِهِ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ عَنْهُ، فَجَمَعْتُ شَيْئًا، فَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ ثُمَّ جِئْتُهُ بِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: رَأَيْتُكَ لَا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا، فَأَكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهَا وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَاتَانِ ثِنْتَانِ، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ قَدِ اتَّبَعَ جِنَازَةَ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ جَالِسٌ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إِلَى ظَهْرِهِ: هَلْ أَرَى الْخَاتَمَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي؟

فَلَمَّا رَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ اسْتَدَرْتُ عَرَفَ أَنِّي أَسْتَثْبِتُ فِي شَيْءٍ وُصِفَ لِي، فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْخَاتَمِ فَعَرَفْتُهُ، فَأَكْبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُهُ وَأَبْكِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَحَوَّلْ»، فَتَحَوَّلْتُ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ

حَدِيثِي، فَأُعْجِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ».

ثُمَّ شَغَلَ سَلْمَانَ الرِّقُّ حَتَّى فَاتَهُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَدْرًا، وأُحُدًا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ»، فَكَاتَبْتُ صَاحِبِي عَلَى ثَلَاثِمِائَةِ نَخْلَةٍ أُحْيِيهَا لَهُ، وَبِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَعِينُوا أَخَاكُمْ»، فَأَعَانُونِي فِي النَّخْلِ الرَّجُلُ بِثَلَاثِينَ، وَالرَّجُلُ بِعِشْرِينَ، وَالرَّجُلُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ، وَالرَّجُلُ بِعَشْرٍ، وَالرَّجُلُ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلَاثُمِائَةِ نَخْلَةٍ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ، فَآذِنِّي حَتَّى أَكُونَ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدِي»، فَفَقَّرْتُ لَهَا وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي، حَتَّى إِذَا فَرَغْتُ جِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعِي إِلَيْهَا، فَجَعَلْتُ أُقَرِّبُ لَهُ الْوَدِيَّ وَيَضَعُهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ، حَتَّى فَرَغْنَا، وَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ، مَا مَاتَ مِنْهُ وَدِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، فَأَدَّيْتُ النَّخْلَ، وَبَقِيَ عَلَيَّ الْمَالُ.

فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمِثْلِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ، مِنْ بَعْضِ الْمَغَازِي، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمُكَاتَبُ؟»، فَدُعِيتُ لَهُ، فَقَالَ: «خُذْ هَذِهِ فَأَدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ»، فَقُلْتُ: وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللهِ مِمَّا عَلَيَّ؟ فَقَالَ: «خُذْهَا، فَإِنَّ اللهَ ﷻ سَيُؤَدِّيهَا عَنْكَ»، فَوَزَنْتُ لَهُ مِنْهَا، فَوَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، وَأَوْفَيْتُهُمْ حَقَّهُمْ، وَعُتِقَ سَلْمَانُ وَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْخَنْدَقَ، ثُمَّ لَمْ يَفُتْهُ مَشْهَدٌ»(١).

وهكذا أسلم سلمان رضي الله عنه وأُعتق، وصار من أجلِّ الصحابة، وتولى الإمارة في

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، (٦/ ٢٢٢).

عهد الخلفاء الراشدين على بعض البلاد ﷺ.

ويروى أن الرسول ﷺ وضع يده يومًا على سلمان وقال: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ بِالثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ من هَؤُلَاءِ»، وأشار إلى سلمان ﷺ.

أبو عبيدة بن الجراح ﷺ

ولد أبو عبيدة بن الجراح بمكة في بيت شريف من بيوت قريش، واسمه عامر بن عبد الله بن الجراح وكنيته (أبو عبيدة)، كان أبو عبيدة نحيل الجسم، طويل القامة، بهي الطلعة، وضيء الوجه، شديد التواضع، كثير الحياء، وكان من أشجع الناس عند الشدائد، يحبه كل مَن رآه، ويرتاح إليه قلب كل مَن شاهده.

وكان أبو عبيدة ﷺ من السَّابقين الأولين إلى الإسلام، فقد أسلم بعد إسلام أبي بكر الصديق ﷺ بيوم واحد، أسلم هو وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون والأرقم بن أبي الأرقم على يدي الصديق ﷺ، وقدم بهم إلى رسول الله، فأعلنوا الشهادة بين يديه.

شهد أبو عبيدة ﷺ المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقتل أباه يوم بدر ونزل في حقه قرآن يتلى، ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وكان رسول الله ﷺ يسمِّيه (القوي الأمين)، فقد جاء وفد من النصارى إلى

رسول الله ﷺ، فقالوا له: يا أبا القاسم، ابعثْ معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا ليحكم بيننا في أشياء من أموالنا اختلفنا فيها، فإنكم عندنا معشر المسلمين مرضيون، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ائْتُونِي الْعَشِيَّةَ، أَبْعَثْ مَعَكُمْ الْقَوِيَّ الْأَمِينَ».

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «فرحت إلى صلاة الظهر مبكرًا، وإني ما أحببت الإمارة حبي إياها يومئذٍ رجاء أن أكون صاحب هذا النعت، فلما صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر، جعل ينظر عن يمينه وعن يساره، فجعلت أتطاول له ليراني، فلم يزل يقلب بصره فينا حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه فقال: «أُخْرُجْ مَعَهُمْ فَاقْضِ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ»، فقلت: ذهب بها أبو عبيدة.

ولما مات رسول الله ﷺ وكان يوم السقيفة، قال عمر بن الخطاب لأبي عبيدة: ابسطْ يدك أبايعك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ». فقال أبو عبيدة: ما كنت لأتقدم بين يدي رجل أمره رسول الله ﷺ أن يؤمنا في الصلاة فأمنا حتى مات.

شارك أبو عبيدة بن الجراح ﷺ في الفتوحات الإسلامية، وكان له الدور الكبير فيها، وانطلق ﷺ يقود الجيوش في بلاد الشام منتصرًا حتى فتح الله على يديه بلاد الشام كلها.

ولما وقع الطاعون في تلك البلاد أرسل عمر بن الخطاب ﷺ إليه يستدعيه فاعتذر أبو عبيدة إليه في رسالة قال فيها: «يا أمير المؤمنين، إني قد عرفت حاجتك إليَّ، وإني في جند من المسلمين، ولا أجد بنفسي رغبة عن الذي يصيبهم، ولا أريد فراقهم حتى يقضي الله في وفيهم أمره، فإذا أتاك كتابي هذا

فحللني من عزمك وائذن لي بالبقاء». فلما قرأ عمر ﷺ الكتاب بكى، فقال الحاضرون: أمات أبو عبيدة؟! قال: لا، ولكن الموت منه قريب.

ولما أوشك أبو عبيدة ﷺ على الموت وحضرته الوفاء أوصى جنده بقوله: «إني موصيكم بوصية، إنْ قبلتموها لن تزالوا بخير: أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدَّقوا، وحُجُّوا واعتمروا، وتواصوا، وانصحوا لأمرائكم، ولا تغُشوهم، ولا تلهكم الدنيا، فإنَّ المرء لو عُمِّر ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترون، إنَّ الله كتب الموت على بني آدم؛ فهم ميتون، وأكيسهم أطوعهم لربه، وأعملهم ليوم معاده، والسلام عليكم ورحمة الله».

ثم نظر إلى معاذ بن جبل ﷺ وقال: «يا معاذ، صلِّ بالناس»، ثم مات ﷺ.

وبعد موته خطب معاذ بن جبل ﷺ في الناس، فقال: «أيها الناس، إنكم قد فُجعتم برجل والله ما أعلم أني رأيت رجلاً أبر صدرًا ولا أبعد غائلةً ولا أشدَّ حبًّا للعافية، ولا أنصح للعامَّة منه، فترحموا عليه يرحمكم الله».

عثمان بن عفان ﷺ

ولد عثمان بن عفان ﷺ بمكة قبل بعثة الرسول ﷺ، وكان عثمان من عِلية القوم، عريض الجاه، شديد الحياء، سابغ النعمة، وافر الثراء، جمَّ التواضع، وأحبه قومه حُبًّا شديدًا، بل أحبته قريش كلها، وعندما ظهر الإسلام وبُعث الرسول ﷺ كان عثمان من السابقين إليه برجاحة عقله وثاقب فكره.

تزوَّج عثمان ﷺ رقية بنت الرسول ﷺ، ولما اشتد أذى قومه له ولزوجته

بعد إسلامه أمره رسول الله ﷺ بالهجرة مع زوجته إلى الحبشة، ودعا لهما ﷺ قائلاً: «صَحِبَ اللهُ عُثمانَ وَزَوجتَهُ، صَحِبَ اللهُ عُثمانَ وَزَوجتَهُ» قال فيهما: «إنَّ عُثمانَ لأَوَّلَ مَنْ هَاجرَ بِأَهلِهِ بَعْدَ نَبِيِّ اللهِ لُوط».

ولكن عثمان وزوجته لم يطل بهما المقام بالحبشة؛ لأن الشوق إلى الرسول ﷺ وإلى مكة قد اشتد بهما، فعادا إلى مكة وهاجرا إلى المدينة.

شهد عثمان ﷺ المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا غزوة بدر، فقد جلس لتطبيب زوجته التي أدركها الموت أثناء الغزوة.

زوَّجه رسول الله ﷺ ابنته أم كلثوم، فلقب عثمان بـ(ذي النورين).

كانت لعثمان بن عفان ﷺ في الإسلام أعمالاً لا تُجحد ولا يجحدها إلا مكابر أفاك؛ فقد جهَّز عثمان ﷺ جيش العُسرة بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها حتى قال في ذلك رسول الله ﷺ: «مَا ضَرَّ عُثْمانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ».

ثم انطلق عثمان إلى داره، فأحضر في التو ألف دينار ذهبًا، فصبَّها بين يدي الرسول ﷺ، فتهلل وجه الرسول ﷺ وقال: «غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا عُثْمانُ، مَا قَدَّمْتَ وَمَا أَخَّرْتَ، وَمَا أَسْرَرْتَ وَمَا أَعْلَنْتَ، وَمَا أَخْفَيْتَ وَمَا أَبْدَيْتَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

كما اشترى عثمان بئر رُومة من ماله الخاص من رجل يهودي ليشرب منه سكان المدينة، ولم يكن لهم قبله ماء عذب يرتوون منه، كما قام بتوسعة مسجد الرسول ﷺ، وقام أيضًا بجمع القرآن الكريم في مصحف واحد جمع الأمة الإسلامية عليه، وأنقذها من الاختلاف والتفرُّق في كتابها.

ولما اشتد القحط أيام خلافة الفاروق عمر وأصابت الناس سنة مجدبة عرفت بعام الرمادة، أنفق عثمان ألف بعير محملة بُرًّا وزيتًا وزبيبًا على الفقراء؛ طالبًا ثواب الله وأجر الآخرة، وقد تدافع التُّجار يومها يغالون في أسعار تلك الأحمال ليشتروها، قائلاً لهم: إني أشهد الله تعالى أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة على فقراء المسلمين، لا أبتغي من أحد درهمًا ولا دينارًا، وإنما أبتغي ثواب الله ورضاه».

ولما تولى عثمان ﷺ خلافة المسلمين فتح الله على يديه (أرمينية) و(القوقاز) و(خرسان) و(كَرْمَان) و(سجستان) و(قبرص) وأجزاء من (أفريقية)، وكثرت الأموال وفاض الخير وعمَّ الرخاء وشبع الناس.

تألب بعض الناس من بعض البلاد على عثمان وحاصروه في داره ما يقرب من أربعين يومًا، وحالوا دونه ودون الصلاة في مسجد الرسول ﷺ، ومنعوا عنه الماء العذب، فتجهَّز جماعة من صالح المسلمين للدفاع عنه، فخشي أن يقتتل المسلمون، فآثر أن تزهق روحه ولا يقتتل المسلمون، فأصبح يومًا صائمًا وقد رأى الرسول ﷺ وصاحبيه في رؤيا، والرسول ﷺ يقول له فيها: «يَا عُثْمَانُ، أَفْطِرْ عِنْدَنَا اللَّيلَةَ»، فأيقن بالموت، فطلب سراويل طويلة فلبسها خشية أن تكشف عورته إذا قتل، ثم ظل يقرأ القرآن حتى آتاه اليقين يوم الجمعة في الثامن عشر من ذي الحجة عام (٣٥) هجرية.

* * *

أبو ذر الغفاري ﷺ

ولد أبو ذر الغفاري ﷺ في وادي (ودّان) قرب مكة المكرمة، اسمه (جندب بن جنادة) من قبيلة غِفار، وكانت قبيلة غفار تعيش أحيانًا على قطع طريق القوافل من مكة إلى الشام ومن الشام إلى مكة.

وهب الله ﷻ أبا ذر عقلاً راجحًا وبُعدًا في النظر وجرأة في الحق، فما إن علم بظهور الإسلام وبعثة الرسول محمد ﷺ في مكة حتى اشتاق لمعرفة الحقيقة، لاسيما وقد كان يضيق ذرعًا بما عليه العرب آنذاك من عبادة للأوثان وفساد في الأخلاق، فكلّف أخاه أُنيس بالسفر إلى مكة لمعرفة حقيقة هذا الرسول، فقال له: انطلق يا أنيس إلى مكة وقف على أخبار هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، وأنه يأتيه من وحي السماء، واسمعْ شيئًا من قومه واحمله إليّ. فذهب أخوه إلى مكة والتقى بالرسول ﷺ ثم رجع إلى أبي ذر، فقال له: لقد رأيت والله رجلاً يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويقول كلامًا ما هو بالشِّعر. فقال أبو ذر: وماذا يقول الناس فيه؟ فقال: يقولون: إنه ساحر وكاهن وشاعر.

فقال أبو ذر: والله ما شفيت لي غليلاً ولا قضيت لي حاجةً، فهل أنت كافٍ عيالي حتى انطلق فأنظر في أمره؟ فقال: نعم، ولكن كُنْ من أهل مكة على حذر.

انطلق أبو ذر ﷺ إلى مكة، فدخل المسجد الحرام عندما أقبل الليل وظل ثلاثة أيام حتى تمكن من مقابلة الرسول ﷺ في صباح اليوم الرابع مع علي بن أبي طالب ﷺ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام وقرأ عليه القرآن، فما لبث أبو

ذر حتى أعلن إسلامه، فكان بذلك من السابقين الأولين ﷺ جميعًا.

يقول أبو ذر: «أقمت بعد ذلك مع رسول الله ﷺ في مكة فعلَّمني الإسلام وأقرأني شيئًا من القرآن، ثم قال لي: «لَا تُخبِرْ بِإِسْلَامِكَ أَحدًا فِي مَكةَ، فَإِني أَخافُ عَلَيْكَ أَنْ يَقتلوكَ». فقلت: والذي نفسي بيده، لا أبرح مكة حتى آتي المسجد وأصرخ بدعوة الحق بين ظهراني قريش، فسكت الرسول ﷺ، فجئت المسجد وقريش جلوس يتحدثون، فتوسطتهم وناديت بأعلى صوتي: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فما كادت كلماتي تلامس آذان القوم حتى ذعروا جميعًا، وهبّوا من مجالسهم قائلين: عليكم بهذا الصابئ. وقاموا إليَّ وجعلوا يضربونني لأموت، فأدركني العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وأكبَّ عليَّ ليحميني منهم ثم أقبل عليهم وقال: ويلكم، أتقتلون رجلاً من غِفار، وممر قوافلكم عليهم؟ فأقلعوا عني».

انطلق أبو ذر ﷺ راجعًا إلى قومه في البادية، فأسلم أخوه وأُمُّه وأسلم جماعة كثيرة من غِفار وصاروا يقيمون الصلاة، وأسلم الباقون عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ودعا لهم رسول الله ﷺ: «غفارُ غَفرَ اللهُ لَهَا».

ظلَّ أبو ذر ﷺ في باديته حتى قدم إلى المدينة بعد غزوة الخندق، وانقطع إلى رسول الله واستأذنه في أن يقوم على خدمته، وكان رسول الله ﷺ يحبه حبًّا شديدًا، وكان يقول عنه: «مَا أَظَلَّتِ الخَضرَاءُ ولاَ أَقَلَّتِ الغَبْرَاءُ مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ».

ولما مات رسول الله ﷺ لم يستمر أبو ذر في المدينة إنما رحل إلى الشام وأقام بالشام مدة خلافة أبي بكر الصديق والفاروق عمر -رضي الله عنهما، وفي

خلافة عثمان ﷺ قدم دمشق، فلم يعجبه ما أقبل الناس عليه من الدنيا وانغماسهم في الترف، فأخذ يستنكر ذلك فاستدعاه ﷺ إلى المدينة فعاد إليها، ثم خرج منها إلى الرَّبذة بعيدًا عن الناس، زاهدًا فيما في أيديهم من عرض الدنيا، مستمسكًا بما كان عليه الرسول ﷺ وصاحباه حتى أدركه أجله في السَّنة الثانية والثلاثين من الهجرة.

أنس بن مالك ﷺ

ولد أنس بن مالك ﷺ بيثرب قبل هجرة النبي ﷺ إليها، لقَّنته أُمُّه (الرميصاء بنت ملحان) الشهادتين صغيرًا، وغرست في قلبه حب الإسلام وحب الرسول ﷺ قبل أن يراه.

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة واستقبله الناس جميعًا كان أنس ﷺ من جمله الفتيان الذين يخرجون لرؤيته ﷺ.

ولما وصل ﷺ واستقر بالمدينة جاءته أم أنس وقالت: «يا رسول الله، لم يبق رجل ولا امرأة من الأنصار إلا وقد أتحفك بتحفة، وإني لا أجد ما أتحفك به غير ابني هذا، فخُذه، فليخدمك ما شئت».

ومنذ ذلك اليوم وأنس ﷺ في خدمة الرسول ﷺ حتى توفاه الله، فقد لازم الرسول ﷺ يخدمه عشر سنين، وقد نهل فيها من هدي النبوة وكريم الخصال وعالي الشمائل والأخلاق.

وكان رسول الله ﷺ يحبه ويعطف عليه ويتودد إليه حتى كان لا يناديه إلا (يا أُنيس)، (يا بُني)، وكان يتحفه بالنُّصح والتَّوجيه؛ فكان يقول له: «يَا بُنَيَّ،

اكْتُمْ سِرِّي تَكُنْ مُؤْمِنًا، يَا بُنَيَّ، أَسْبِغِ الْوُضُوءَ يَزِدْ فِي عُمْرِكَ، وَيُحِبَّكَ حَافِظَاكَ، يَا بُنَيَّ، إِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا تَبِيتَ إِلَّا عَلَى وَضُوءٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّهُ مَنْ أَتَاهُ الْمَوْتُ، وَهُوَ عَلَى وَضُوءٍ أُعْطِيَ الشَّهَادَةَ، يَا بُنَيَّ، إِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَا تَزَالَ تُصَلِّي فَافْعَلْ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَزَالُ تُصَلِّي عَلَيْكَ مَا دُمْتَ تُصَلِّي، يَا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَالِالْتِفَاتَ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّ الِالْتِفَاتَ فِي الصَّلَاةِ هَلَكَةٌ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَفِي التَّطَوُّعِ لَا فِي الْفَرِيضَةِ، يَا بُنَيَّ، إِذَا رَكَعْتَ فَضَعْ كَفَّيْكَ عَلَى رُكْبَتَيْكَ، وَفَرِّجْ بَيْنَ أَصَابِعَكَ، وَارْفَعْ يَدَيْكَ عَنْ جَنْبَيْكَ، فَإِذَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ مِنَ الرُّكُوعِ فَمَكِّنْ لِكُلِّ عُضْوٍ مَوْضِعَهُ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ، يَا بُنَيَّ، إِذَا سَجَدْتَ فَلَا تَنْقُرْ كَمَا يَنْقُرُ الدِّيكُ، وَلَا تُقْعِ كَمَا يُقْعِي الْكَلْبُ، وَلَا تَفْرِشْ ذِرَاعَيْكَ الْأَرْضَ افْتِرَاشَ السَّبُعِ، وَافْرِشْ ظَهْرَ قَدَمَيْكَ بِالْأَرْضِ، وَضَعْ إِلْيَتَيْكَ عَلَى عَقِبَيْكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي حِسَابِكَ، يَا بُنَيَّ، بَالِغْ فِي الْغُسْلِ مِنَ الْجَنَابَةِ، تَخْرُجْ مِنْ مُغْتَسَلِكَ لَيْسَ عَلَيْكَ ذَنْبٌ، وَلَا خَطِيئَةٌ، يَا بُنَيَّ، إِنْ قَدِرْتَ أَنْ تَجْعَلَ مِنْ صَلَاتِكَ فِي بَيْتِكَ شَيْئًا فَافْعَلْ، فَإِنَّهُ يَكْثُرُ خَيْرُ بَيْتِكَ، يَا بُنَيَّ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ، يَكُونُ بَرَكَةً عَلَيْكَ، وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ، يَا بُنَيَّ، إِذَا خَرَجْتَ مِنْ أَهْلِكَ فَلَا يَقَعَنَّ بَصَرُكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ إِلَّا سَلَّمْتَ عَلَيْهِ، تَرْجِعُ وَقَدْ زِيدَ فِي حَسَنَاتِكَ، يَا بُنَيَّ، إِنْ قَدِرْتَ أَنْ تُمْسِيَ، وَتُصْبِحَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فَافْعَلْ، يَا أَنَسُ، إِذَا خَرَجْتَ مِنْ أَهْلِكَ فَلَا يَقَعَنَّ بَصَرُكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ إِلَّا ظَنَنْتَ أَنَّ لَهُ الْفَضْلَ عَلَيْكَ فَافْعَلْ، يَا بُنَيَّ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي، فَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي، فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ، يَا بُنَيَّ، إِنْ حَفِظْتَ وَصِيَّتِي فَلَا يَكُونُ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ».

وكان ﷺ يحسن معاملته ومعاشرته حتى قال أنس ﷺ عن ذلك: «والله لقد خدمته عشر سنين، فما قال لشيء صنعتُه: لم صنعتَه؟ ولا لشيء تركتُه: لم تركتَه؟».

وقد كان يقع من أنس ﷺ ما يقع عادة من الصبيان الصغار، ومع ذلك كان رسول الله ﷺ لا يعاتبه بتعنيف أو شدة؛ قال أنس ﷺ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَالله لَا أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ الله ﷺ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «يَا أُنَيْسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟» قَالَ قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ، يَا رَسُولَ الله»[1].

ودعا له رسول الله ﷺ، فقال: «اللهُمَّ ارْزُقْهُ مَالاً وَوَلَدًا وَبَارِكْ لَهُ»، فاستجاب الله تعالى دعاء الرسول ﷺ، فكان أنس بعد ذلك أكثر الأنصار مالاً وأوفرهم ذريةً، حتى إنه رأى من أولاده وحفدته ما يزيد على المائة، وبارك الله في عمره حتى عاش قرنًا كاملاً.

طال عُمْر أنس ﷺ حتى كان من آخر الصحابة موتًا، وكان الناس إذا اختلفوا في شيء رجعوا إلى قول أنس ﷺ، وكان أنس بن مالك ثالث ثلاثة أكثر الناس روايةً للحديث عن رسول الله ﷺ، هُمْ: أبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك ﷺ.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

كان أنس ﷺ شديد الرجاء لشفاعة الرسول ﷺ، فكان يقول: «إني لأرجو أن ألقى رسول الله ﷺ في يوم القيامة، فأقول له: يا رسول الله، هذا خُويدمك أنس».

ولما حضرته الوفاة ﷺ قال لأهله: «لقِّنوني: لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وظل ينطق بها حتى مات.

سعد بن أبي وقّاص ﷺ

ولد سعد بن أبي وقّاص ﷺ في مكة من قبيلة بني زُهرة قبل البعثة بحوالي سبعة عشر عامًا، وكان لسعد من كرم النسب وعِزة الحسب ما جعله يفتخر بأنه خال رسول الله ﷺ؛ حيث كانت آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ من بني زُهرة.

نشأ سعد بن أبي وقّاص ﷺ نشأة الجد صغيرًا، ولم يكن كأقرانه من الشباب الذين تجذبهم ألوان اللهو، بل كان يصرف نفسه إلى التمرُّس بالرماية وبري السهام وتجهيز القسي.

ولما أكرمه الله البشرية بمبعث الرسول ﷺ كان سعد من السابقين الأولين إلى الإسلام؛ حيث أسلم ثالث ثلاثة أو رابع أربعة دخلوا الإسلام، وكان سعد يقول: «لقد مكثت سبعة أيام، وإني لثُلث الإسلام».

ولإسلام سعد بن أبي وقاص ﷺ قصة كان سعد نفسه يحكيها، كان ﷺ يقول: «رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ قَبْلَ أَنْ أُسْلِمَ بِثَلَاثٍ كَأَنِّي فِي ظُلْمَةٍ لَا أُبْصِرُ شَيْئًا إِذْ أَضَاءَ لِي قَمَرٌ، فَاتَّبَعْتُهُ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَنْ سَبَقَنِي إِلَى ذَلِكَ الْقَمَرِ، فَأَنْظُرُ إِلَى زَيْدِ بْنِ

حَارِثَةَ وَإِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَإِلَى أَبِي بَكْرٍ ﷺ، وَكَأَنِّي أَسْأَلُهُمْ مَتَى انْتَهَيْنَا إِلَى هَاهُنَا، قَالُوا: السَّاعَةَ، وَبَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ مُسْتَخْفِيًا، فَلَقِيتُهُ فِي شِعْبِ أَجْيَادٍ وَقَدْ صَلَّى الْعَصْرَ، فَقُلْتُ: إِلَى مَا تَدْعُو؟ قَالَ: تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله، قَالَ: قُلْتُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ الله، فَمَا تَقَدَّمَنِي أَحَدٌ إِلَّا هُمْ».

امتُحن سعد ﷺ بعد إسلامه امتحانًا قاسيًا مع أمه التي كان بارًّا بها أشدّ البرّ، يقول سعد في ذلك: «ما إنْ سمعت أمي بخبر إسلامي حتى ثارت ثائرتها، وكنت فتى برًّا بها محبًّا لها، فأقبلت عليَّ تقول: يا سعد، ما هذا الدين الذي اعتنقته فصرفك عن دين أمك وأبيك؟! والله لتدعن دينك الجديد أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فيتفطر فؤادك حزنًا عليَّ، ويأكلك الندم على فعلتك التي فعلت، وتعيِّرك الناس بها أبد الدهر!!

فقلت: لا تفعلي يا أُمّاه، فأنا لا أدع ديني لأي شيء، لكنها مضت في وعيدها، فاجتنبت الطعام والشراب، ومكثت أيامًا على ذلك لا تأكل ولا تشرب، فهزل جسمها، ووهن عظمها، وخارت قواها، فجعلت آتيها ساعة بعد ساعة؛ أسألها أن تتبلغ بشيء من طعام أو قليل من شراب، فتأبى ذلك أشد الإباء، وتقسم ألا تأكل أو تشرب حتى تموت أو أدع ديني، عند ذلك قلت لها: يا أُمّاه، إني على شديد حبي لكِ لأشد حبًّا لله ورسوله، ووالله لو كان لكِ ألف نفس فخرجت منك نفسًا بعد نفس، ما تركت ديني هذا لشيء.

فلما رأت الجد مني أذعنت للأمر، وأكلت وشربت على كره منها، فأنزل الله تعالى فينا قوله ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ

﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

وكان لسعد ﷺ مواقف عظيمة في سبيل الدعوة الإسلامية، فقد شهد بدرًا وأُحد، وله يوم أحد موقف لا ينساه التاريخ، فقد ثبت يناضل عن رسول الله ﷺ بقوسه عندما تزلزلت الأقدام وتفرق المسلمون عن النبي ﷺ ولم يبق إلا نفر قليل لا يتمون العشرة، وكان لا يرمي مرة إلا أصابت من مشرك مقتلاً، حتى دعا له رسول الله ﷺ بقوله: «يَا سَعْدُ، ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي».

ولما جهَّز عمر الفاروق ﷺ في زمن خلافته جيوشًا عظيمةً لغزو الفرس أخذ يستشير الناس من أهل الحل والعقد فيمن يوليه على هذا الجيش الكبير، فأجمع الناس على سعد بن أبي وقاص، فمضى سعد بالجيش فانتصر على الفرس في (القادسية) نصرًا مؤزّرًا.

مات سعد بن أبي وقاص ﷺ بعد أن عمَّر طويلاً ورزقه الله مالاً كثيرًا، ولما حضرته الوفاة دعا بجبة من صوف بالية، وقال: «كفنوني بها؛ فإني لقيت بها المشركين يوم بدر، وإني أريد أن ألقى بها الله تعالى».

نُعيم بن مسعود ﷺ

ولد نُعيم بن مسعود ﷺ في نجد، وكان من قبيلة غطفان، وكان نعيم بن مسعود يتمتع بسرعة البديهة وصحة الحَدْس كعادة أهل الصحراء، كما كان ذكيًّا لبيبًا لا تعوقه معضلة، ولا تعجزه مشكلة، يحب المواقف الغريبة، كما كان صديق ليهود المدينة قبل إسلامه، وكان كثير التردُّد على يهود بني قريظة.

دخل نُعيم بن مسعود ﷺ الإسلام أثناء حصار الأحزاب حول المدينة في

موقعة الخندق الشهيرة، ولقصة إسلامه تاريخ تذكره كتب السيرة كلها؛ حيث إنه لما وقع الإسلام في قلبه أثناء حصار الأحزاب للمسلمين في المدينة، انطلق إلى رسول الله ﷺ ليلاً تحت جُنح الظلام وأخبر الرسول بحقيقة موقفه وقال: يا رسول الله، إنَّ قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت. فقال له الرسول ﷺ: «إنما أَنْتَ فِينَا رَجلٌ وَاحدٌ، فَاذهبْ إِلَى قَومِكَ وَخَذِّلْ عَنا إِنْ اسْتطعتَ، فَإِنَّ الحَربَ خُدعةٌ». فقال: نعم، يا رسول الله، وسترى ما يسرك، إنْ شاء الله.

وكان قومه غطفان من نجد وقريش من مكة قد ألبهم يهود بني النضير لقتال المسلمين وبني الإسلام واستئصال الدين الجديد من جذوره، فقام نُعيم بن مسعود بدور الإيقاع بين اليهود داخل المدينة من بني قريظة وقريش وغطفان خارج الخندق، فذهب إلى بني قريظة فقال لهم: يا بني قريظة، لقد عرفتم ودي لكم وصدقي في نصحكم. فقالوا: نعم، فما أنت عندنا بمتهم.

فقال: إنَّ قريشًا وغطفان لهم في هذه الحرب شأن غير شأنكم. فقالوا: وكيف؟ فقال: أنتم، هذا البلد بلدكم وفيه أموالكم...»، وظل يوقع بينهم وبين الأحزاب من قريش وغطفان حتى قال لهم: الرأي عندي ألا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا طائفة من أشرافهم وتجعلوهم رهائن عندكم، وبذلك تحملونهم على قتال محمد معكم إلى أن تنتصروا عليه، أو يفنى آخر رجل منكم ومنهم.

ثم خرج مِن عندهم وأتى أبا سفيان بن حرب وقال له ولمن معه: يا معشر قريش، لقد عرفتم ودي لكم وعداوتي لمحمد، ولقد بلغني أن بني قريظة قد ندموا على مخاصمتهم لمحمد، فأرسلوا إليه لمعاهدته من جديد، وقالوا له: هل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم ونسلمهم إليك

لتضرب أعناقهم.. فإن بعثت اليهود تطلب منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا إليهم أحدًا.. ثم خرج إلى قومه غطفان، فقال لهم كما قال لأبي سفيان وقومه.

نجح بذلك نعيم بن مسعود ﷺ في إيقاع الفرقة وتمزيق صفوف الأحزاب وتفريق كلمتهم، وما هي إلا ليالٍ قليلة حتى أرسل الله تعالى على الأحزاب ريحًا صرصرًا شديدةً جعلت تقتلع خيامهم وتطفئ نيرانهم وتكفأ قدورهم وتملأ عيونهم ترابًا، فرحلوا تحت جنح الظلام.

أصبح بعد ذلك نعيم بن مسعود ﷺ موضع ثقة الرسول ﷺ، وولي بعض الأعمال وحمل الرايات بين يديه، فقد حمل راية غطفان يوم فتح مكة تحت قيادة الرسول ﷺ.

زيد بن حارثة ﷺ

اسمه زيد بن حارثة بن شراحيل الكعبي، عندما كان زيد غلامًا في الثامنة من عمره خرجت أمه سعدى بنت ثعلبة في زيارة قومها بني (معن)، وهي في طريقها بالقرب من قومها أغارت عليهم خيل لبني (القين)، فأخذوا المال واستاقوا الإبل وسبوا الذّراري، وظلت أمه بفقده لا تجف لها دمعة، ولا تنتهي لها عبرة، ولا تهدأ لها لوعة، ولا يطمئن لها بال.

عُرض زيد للبيع في سوق عكاظ، وكان سوقًا تقيمه العرب في مكة في الأشهر الحُرم للبيع والشراء وتناشد الأشعار، واشتراه واحد من سادة قريش هو حكيم بن حزام بن خويلد ابن أخي خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها-

زوجة الرسول ﷺ فيما بعد.

وهبه حكيم لعمته خديجة، ولما نالت خديجة -رضي الله عنها- شرف الزواج برسول الله ﷺ وهبته زيدًا، ولم يكن الرسول ﷺ قد بعث آنذاك.

سَعِدَ زيد بالإقامة مع رسول الله ﷺ وأحبه حبًّا شديدًا، وأحبه كذلك رسول الله ﷺ حبًّا شديدًا، علم أبوه حارثة بن شراحيل بوجوده في مكة، فسافر إلى مكة وأخذ معه أموالاً ليفتدي بها زيدًا، وصحب معه أخاه كعبًا.

ولكن رسول الله ﷺ لم يأخذ مالاً ولا غيره وقال لهما: «هَلْ لَكُمَا فِيمَا هُوَ خَيرٌ مِن الفِداء؟» قالا: ما هو؟ قال: «نُخيِّرُهُ، فَإِنْ اخْتاركُمْ فَهُوَ لَكُمْ بِغَيرِ مَالٍ، وَإِنْ اخْتارنِي فَمَا أَنَا وَالله بِالذِي يَرغبُ عَمنْ يَختارهُ».

فقال: أنصفت وبالغت في الإنصاف. ولكن زيدًا يختار رسول الله ﷺ فيتعجب منه أبوه وعمه ويقول له أبوه: ويحك يا زيد، أتختار العبودية على أبيك وأمك؟! فقال: إني رأيت من هذا الرجل شيئًا، وما أنا بالذي يفارقه أبدًا.

فلما قال ذلك أخذه الرسول ﷺ بيده وخرج إلى البيت الحرام ووقف به بالحجر وقال على ملأ من قريش: «يَا مَعشرَ قُريش، أَشْهدُوا أَنَّ هَذَا ابني يَرثِنِي وَأرثهُ».

فطابت عندئذٍ نفس أبيه وعمه وتركاه عند الرسول ﷺ وعادا مطمئني النفس مرتاحي البال، وظل زيد يعرف بعد ذلك بـ(زيد بن محمد)، حتى جاء الإسلام وحرَّم التبني ونزل قول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٥]، فأصبح يدعى بـ(زيد بن حارثة).

ثم لما بعث رسول الله ﷺ كان زيد من السابقين إلى الإسلام، وصار قائدًا لبعض بعوثه وسراياه، وممن كان يخلفه على المدينة في بعض الغزوات.

وفي السَّنة الثامنة للهجرة خرج زيد بن حارثة ﷺ قائدًا للجيش الإسلامي إلى (مؤتة)، يقود جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وما إنْ وصل الجيش إلى معان (بالأردن الآن) حتى هبَّ هرقل ملك الروم على رأس مائة ألف مقاتل وانضم إليه مائة ألف مقاتل من مشركي العرب، وقُتل زيد ﷺ فتولى قيادة الجيش بعده جعفر بن أبي طالب ﷺ فقُتل، فتولى قيادة الجيش عبد الله بن رواحة ﷺ فقُتل، فاختار المسلمون خالد بن الوليد ﷺ الذي انحاز بالجيش وأنقذه من الفناء.

حزن رسول الله ﷺ لموت زيد ﷺ ورفاقه حزنًا شديدًا، وبكى لفقد حِبه زيد بكاء شديدًا.

بلال بن رباح ﷺ

وُلد بلال بن رباح ﷺ بمكة المكرمة قبل الهجرة بحوالي ٤٣ عامًا، نشأ بلال ﷺ في مكة، وكان عبدًا مملوكًا لأيتام من بني عبد الدار كانوا تحت رعاية أُمية بن خلف.

ولما بُعث رسول الله ﷺ وجاء الإسلام، كان بلال من السابقين الأولين للدخول في الإسلام، فقد أسلم ولم يكن على ظهر الأرض إلا قلة قليلة من الذين أسلموا، هُمْ: خديجة بنت خويلد، وأبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر وأُمه سمية، وصُهيب الرومي، والمقداد بن الأسود ﷺ.

وكان لبلال ﷺ الحظ الأكبر من التعذيب والقسوة والبطش، وعانى ما لم

يعانه غيره من أذى المشركين، فقد كان لمعظمهم عصبية تمنعهم إلا هو وياسر وصُهيب، فنكلت بهم قريش أشد التنكيل.

فقد كان أُمية بن خلف وجماعة من المشركين إذا توسَّطت الشمس كبد السماء والتهبت رمال مكة من شدة الحر نزعوا ثيابه ويلبسونه درعًا من الحديد ويصهرونه بأشعة الشمس المتقدة والرمال الملتهبة ويضربونه بالسياط ويأمرونه بسب محمد ﷺ، وكان بلال ﷺ مع كلِّ هذا التعذيب لا ينطق شيئا إلا (أحد أَحد)، وكان أُمية بن خلف ربما إذا ملَّ من تعذيبه طوَّق عنقه بحبل غليظ ويعطيه للسفهاء والولدان ويأمرهم أن يطوفوا به في شعاب مكة، وأن يجروه في أباطحها.

ثم أعتقه أبو بكر الصديق -رضوان الله عليه؛ حيث اشتراه من أمية بن خلف بتسع أواق من الذهب، يغالي في ثمنه يظن أن يتركه أبو بكر وهو يقول في نفسه: لو أبى أخذه إلا بأوقية لبعته. وأبو بكر ﷺ يقول: لو أبى إلا بمائة أوقية لاشتريته.. فرح بلال ﷺ بذلك، وبدأ عهدًا جديدًا من الحياة الحُرة لم يعهده من قبل، فهاجر إلى المدينة في جملة مَن هاجر.

وكان بلال ﷺ هو مؤذن الرسول ﷺ طول حياته، فلما مات الرسول ﷺ أذن بلال، فلما بلغ: أشهد أن محمدًا رسول الله. بكى بكاءً شديدًا، وطلب من أبي بكر الصديق ﷺ أن يعفيه من الأذان، فقد أصبح لا يحتمله بعد موت الرسول ﷺ.

ثم رحل -رضوان الله عليه- مع أول بعث من بعوث المسلمين، وأقام في (داريا) قرب دمشق حتى قدم الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ دمشق فأمره

بالأذان مرة أخرى، وكان عمر يحبه حبًّا شديدًا ويجلُّه، وكان يقول: «إنَّ أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا (يقصد بلالاً ﷺ).

فلما انطلق صوته بالأذان بكى عمر وبكى كلُّ مَن حضر من الصحابة الذين كانوا يسمعون هذا الصوت على عهد الرسول ﷺ، فهاجت أشواقهم ورقت مشاعرهم وبكوا جميعًا.

ثم مات بلال -رضوان الله عليه- وهو يردِّد في مرض موته: «غدا ألقى الأحبة؛ محمدًا وصحبه»، ﷺ وجزاه عن الإسلام خيرًا.

* * *

ثانيًا: نماذج من التابعين -رحمهم الله

طاووس بن كيسان -رحمه الله

اسمه ذكوان بن كيسان، ولقب بـ(طاووس)؛ لأنه كان طاووس الفقهاء، وُلد طاووس باليمن ونشأ بها، وتتلمذ على يد جماعة من الصحابة -رضوان الله عليهم.

كان طاووس بن كيسان سيد فقهاء عصره، وأصدقهم لهجةً، وأقواهم في الصدع بكلمة الحق.

قال عمرو بن دينار: «ما رأيت أحدًا قط مثل طاووس بن كيسان».

وقال مجاهد: «رأيت طاووسًا في المنام، وهو يصلي في الكعبة، والنبي على بابها، وهو يقول له: «اكشف قناعك وبيِّن قراءتك يا طاووس».

ولطاووس -رحمه الله- مواقف نذكر منها:

- لما حجَّ سليمان بن عبد الملك، سأل عن عالم يذكِّره، فقيل له: طاووس، فلما جاءه حياه الخليفة، فردَّ عليه التحية بأحسن منها، وأدنى الخليفة مجلسه منه، وطفق يسأله عن أمور وطاووس يجيب حتى سكت الخليفة، فاغتنم طاووس الفرصة، ونصح الخليفة نصيحة صادقة فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ صخرة كانت على شفير بئر في قعر جهنم، وقد ظلت تهوى في هذا البئر سبعين خريفًا، حتى بلغت قرارها، أتدري لمن أعد الله هذا البئر من آبار جهنم يا أمير المؤمنين؟!

فقال الخليفة وجلاً: لا. ثم قال: ويلك لمن أعدها؟ فقال طاووس: أعدها الله -جلَّ وعزَّ- لمن أشركه في حكمه فجار!! فارتعد الخليفة وجعل يبكي، ولبكائه نشيج، ثم قال لطاووس: جزاك الله خيرًا.

- دخل طاووس وكان معه وهب بن منبه على محمد بن يوسف الثقفي والي اليمن وأخي الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان يومًا شديد البرودة من أيام الشتاء، فوعظه طاووس ورغَّبه ورهَّبه، والناس جلوس بين يديه، فقال الوالي لأحد حجابه: يا غلام، أحضر طيلسانًا وألقه على كتفي أبي عبد الرحمن (يقصد طاووسًا). فأحضر الحاجب طيلسانًا ووضعه على كتفي طاووس، فظل طاووس متدفقًا في موعظته، وجعل يحرِّك كتفيه في تؤدة حتى ألقى الطيلسان عن عاتقه وهب واقفًا وانصرف.

وكان الوالي سيئًا كأخيه، بل يقال: إنَّ الحجاج كانت له حسنات لم تكن لأخيه منها شيء، فغضب محمد غضبًا شديدًا ولكنه سكت، فلما خرج طاووس من المجلس قال له صاحبه: لقد أغضبت الوالي، فلو أخذت الطيلسان منه ثم بعته، وتصدقت بثمنه على الفقراء والمساكين؟! فقال طاووس: لولا أنني خشيت أن يقول العلماء من بعد: نأخذ كما أخذ طاووس، ثم لا يصنعون فيما أخذوه ما تقول.

- ولما حجَّ هشام بن عبد الملك سأل عن رجل من الصحابة، فقال له الناس: يا أمير المؤمنين، إنه لم يبق أحد منهم. فقال: إذن فمن التابعين؟ فأُتي بطاووس بن كيسان، فلما دخل طاووس عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، وسلَّم عليه من غير أن يدعوه بأمير المؤمنين، وخاطبه باسمه دون أن يكنِّيه،

وجلس قبل أن يأذن له بالجلوس، فاشتاط هشام غضبًا حتى بدا الغيظ في عينيه، ثم تذكر أنه في حرم الله، فسكن وقال لطاووس: ما حملك يا طاووس على ما صنعت؟! فقال: وما الذي صنعته؟!

فغضب الخليفة مرة أخرى وقال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تسلم عليَّ بإمرة المؤمنين، وسميتني باسمي ولم تكنني، ثم جلست من غير إذني.

فقال طاووس في هدوء: أما خلع نعلي بحاشية بساطك، فأنا أخلعهما بين يدي ربِّ العزة كل يوم خمس مرات، فلا يعاتبني ولا يغضب عليَّ.

وأما قولك: إني لم أسلِّم عليك بإمرة المؤمنين، فلأن جميع المؤمنين ليسوا راضين بإمرتك، وقد خشيت أن أكون كاذبًا إذا دعوتك بـ(أمير المؤمنين).

وأما ما أخذته عليَّ من أني ناديتك باسمك ولم أكنك، فإنَّ الله ﷻ نادى أنبياءه بأسمائهم، فقال: يا داود، يا يحيى، يا عيسى.. وكنَّى أعداءه فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

وأما قولك: إني جلست قبل أن تأذن لي، فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ يقول: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ فَانْظُرْ إِلَى رَجُلٍ جَالِسٍ، وَحَوْلَهُ قَوْمٌ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيْهِ».. فكرهت أن تكون ذلك الرجل الذي عُدَّ من أهل النار.

فأطرق هشام إلى الأرض خجلاً، ثم رفع رأسه وقال: عِظني يا أبا عبد الرحمن. فقال: إني سمعت علي بن أبي طالب ﷺ يقول: «إنَّ في جهنم حيات كالقلال، وعقارب كالبغال، تلدغ كل راعٍ لا يعدل في رعيته». ثم قام وانصرف.

- **ومن مواعظه لابنه:** «يا بُني، صاحبْ العقلاء تنسب إليهم، وإنْ لم تكن منهم، ولا تصاحب الجُهَّال، فإنك إنْ صحبتهم نسبت إليهم، وإنْ لم تكن منهم، واعلمْ أن لكلِّ شيءٍ غاية، وأن غاية المرء تمام دينه وكمال خلقه».

امتدت الحياة بطاووس حتى جاوز المائة بقليل، قال عبد الله الشامي: أتيت طاووسًا في بيته لآخذ عنه، وأنا لا أعرفه، فلما طرقت الباب خرج إليَّ شيخ كبير فحييته، وقلت: أأنت طاووس بين كيسان؟! قال: بل أنا ابنه. فقلت: إنْ كنت ابنه؛ فلا آمن أن يكون الشيخ قد هرم وخرف، وإني قصدته من مكان بعيد لآخذ من علمه. فقال الابن: ويحك؛ إنَّ حملة كتاب الله لا يخرفون، ادخلْ عليه. فدخلت على طاووس وسلَّمت وقلت: لقد أتيتك طالبًا علمك راغبًا في نصحك. فقال: سل وأوجز. فقلت: نعم، قال: أتري أن أجمع لك صفوة ما في التوراة والزبور والإنجيل والقرآن؟! قلت: نعم، فقال: خف الله تعالى خوفًا بحيث لا يكون شيء أخوف لك منه، وارجه رجاء أشد من خوفك إياه، وأحب للناس ما تحب لنفسك».

مات طاووس بعد أن فاض من عرفات إلى مزدلفة مُحرِمًا ليلة عيد الأضحى، وصلى على جنازته جمع لا يحصون، وكان خليفة المسلمين من جملة مَن صلى على جنازته.

شُرَيح القاضي -رحمه الله

ولد شريح القاضي -رحمه الله- باليمن في الجاهلية قبل الإسلام، وكان فطنًا ذكيًا عالي الخلق، اسمه شريح بن الحارث الكندي، لم يقدر لشريح أن يصحب الرسول ﷺ أو أن يراه، كان شريح من المسارعين إلى الدخول في الإسلام بمجرد أن علم به.

ظل شريح يقضي بين المسلمين ستين عامًا في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان وعلي ومعاوية ﷺ، ولما جاء خلفاء بني أمية بعد معاوية طلب إعفاءه من القضاء، وذلك في ولاية الحجّاج، وكان عمره آنذاك مائة وسبعة أعوام.

كان شريح القاضي على درجة من العدل والحكمة والشجاعة في الحق جعله مضرب الأمثال، وجعلته إمامًا في القضاء يفتخر به ويقتدي به القضاة على مر الزمان.

قال سفيان الأوسي: «قيل لشريح: بأي شيء أصبت هذا العلم؟ فقال: بمذاكرة العلماء، آخذ منهم وأعطيهم».

يُحكي أن ابنًا لشريح قال له: يا أبت، إنَّ بيني وبين قوم خصومة، فانظرْ فيها، فإنْ كان الحق لي قاضيتهم، وإنْ كان لهم صالحتهم. ثم قصَّ عليه قصته، فقال له شريح: انطلق فقاضهم. فمضى ابنه إلى خصومه ودعاهم إلى المقاضاة، فاستجابوا له، ولما وقفوا بين يدي شريح قضي لهم على ولده، فلما رجع شريح وابنه إلى البيت، قال الولد لأبيه: فضحتني يا أبت، والله لو لم استشرك من قبل لما لمتك، فقال شريح: يا بني، والله لأنت أحب إليَّ من ملء الأرض من أمثالهم، ولكن الله ﷻ أعز عليَّ منك، لقد خشيت أن أخبرك بأن الحق لهم فتصالحهم صلحًا يفوت عليهم بعض حقهم، فقلت لك ما قلت.

وفي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ اشترى عمر ﷺ فرسًا من رجل من الأعراب، فلما سار به عمر قليلاً ظهر عطبه، فعاد به إلى الرجل وقال له: خُذْ فرسك، فإنه معطوب، فقال الرجل: لا، لا آخذه يا أمير المؤمنين، وقد بعته منك سليمًا صحيحًا. فقال عمر: اجعلْ بيني وبينك حكمًا. فقال الرجل:

يحكم بيننا شريح بن الحارث الكندي. فقال عمر: رضيت به. فلما وقفا للقضاء عند شريح وسمع القاضي منهما، التفت شريح إلى أمير المؤمنين عمر وقال: هل أخذت الفرس سليمًا يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: نعم. فقال: شريح: احتفظْ بما اشتريت يا أمير المؤمنين أو رد كما أخذت. فنظر عمر إلى شريح معجبًا وقال: وهل القضاء إلا هكذا؟ قول فصل وحكم عدل، سر إلى الكوفة؛ فقد وليتك قضاءها.

وفي خلافة علي بن أبي طالب ﷺ افتقد عليٌّ درعًا له وكانت عزيزة عليه غالية عنده، ثم وجدها في يد رجل يهودي يبيعها في سوق الكوفة، فلما رآها أمير المؤمنين عرفها، فقال للرجل: هذه درعي، سقطت عن جمل لي في ليلة كذا، وفي مكان كذا. فقال الرجل: بل هي درعي وفي يدي يا أمير المؤمنين. فقال علي ﷺ: إنما هي درعي لم أبعها من أحد، ولم أهبها لأحد حتى تصير إليك. فقال الرجل: بيني وبينك قاضي المسلمين. فقال علي: أنصفت؛ فهلم إليه.

فلما دخلا على شريح في مجلس القضاء، قال شريح: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ فقال: لقد وجدت درعي هذه مع هذا الرجل، وقد سقطت مني في ليلة كذا وفي مكان كذا، هي لم تصل إليه لا ببيع ولا هبة.

فقال شريح لليهودي: وما تقول أنت أيها الرجل؟

فقال: الدرع درعي وهي في يدي، ولا أتهم أمير المؤمنين بالكذب.

فالتفت شريح إلى عليٍّ وقال: لا ريب عندي في أنك صادق فيما تقوله يا أمير المؤمنين، وأن الدرع درعك، ولكن لا بدَّ لك من شاهدين يشهدان على صحة

ما ادعيت. فقال عليٌّ: نعم مولاي قنبر وولدي الحسن يشهدان لي. فقال شريح: ولكن شهادة الابن لأبيه لا تجوز يا أمير المؤمنين، فقال عليٌّ: يا سبحان الله، رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته؟! أما سمعت أن رسول الله ﷺ قال: «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»؟!».

فقال شريح: بلى يا أمير المؤمنين، غير أني لا أجيز شهادة الولد لوالده.

فالتفت عليٌّ ﷺ إلى اليهودي وقال: خُذها، فليس عندي شاهد غيرهما.

فقال الرجل: ولكني أشهد بأن الدرع لك يا أمير المؤمنين، يا الله أمير المؤمنين يقاضيني أمام قاضيه، وقاضيه يقضي لي عليه!! أشهد أن الدين الذي يأمر بهذا لحق، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، اعلمْ -أيها القاضي- أن الدرع درع أمير المؤمنين، وأنني أتبعت الجيش وهو منطلق إلى صفين، فسقطت الدرع عن جمله الأورق فأخذتها.

فقال عليٌّ ﷺ: أما وقد أسلمت؛ فإني وهبتها لك، ووهبت لك معها هذا الفرس أيضًا.

بعدها شوهد هذا الرجل يقاتل الخوارج مع عليٍّ وتحت رايته يوم النهروان، ومات في المعركة، وكتبت له الشهادة إنْ شاء الله.

رأى القاضي شريح يومًا رجلاً يسأل آخر شيئًا، فنصحه نصيحةً بالغةً، فقال له: «يابن أخي مَن سأل إنسانًا حاجة، فقد عرض نفسه على الرِّقِّ، فإنْ قضاها له المسئول، فقد استعبده بها، وإنْ ردَّه عنها رجع كلاهما ذليلاً؛ هذا بذلِّ البخل، وذلك بذلِّ الرَّدِّ، فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلمْ أنه لا حول ولا قوة ولا عون إلا بالله».

مات شريح -رحمه الله- بعد عُمْر حافل بمشاهد العدل والقوة في الحق، قضى ستين عامًا في القضاء، أقام فيها العدل بين الناس ما ظلم فيها أحدًا، ولا ميَّز فيها بين أحد على أحد، فرحمه الله رحمةً واسعةً.

أبو حنيفة النعمان -رحمه الله

اسمه النعمان بن ثابت بن المرزبان، ولد أبو حنيفة -رحمه الله- بالعراق في آخر عصر بني أمية، وعاش في أول عصر بني العباس. قال عنه الإمام مالك: «النعمان بن ثابت، لو قال عن هذه السارية أنها ذهب لاحتج لما قال، ولخرجت كذلك».

بدا الإمام حياته مجدًّا في طلب العلم، وكانت له تجارة وله متجر معروف يقصده الناس ويحبونه؛ لصدقه وأمانته وورعه.

انتشر في البلاد خبر علمه وورعه وقصده طلاب العلم، وكان ينفق على بعضهم من أرباح تجارته ويقول: «هذه أرباح بضائعكم أجراها الله لكم على يدي، والله ما أعطيتكم من مالي شيئًا، وإنما هو فضل الله عليَّ فيكم، فما في رزق الله حول لأحد غير الله».

وكان أبو حنيفة -رحمه الله- من أكثر الناس اجتهادًا في طاعة الله تعالى، فكان لا يترك قيام الليل أبدًا، وكان يعظِّم الحلف بالله تعالى، حتى إنه قطع على نفسه عهدًا ألا يحلف بالله صادقًا إلا تصدق بدرهم فضة، ثم غيَّر العهد إلى دينار من ذهب.

ومما يحكى في ورعه أنه كان مع شريك له في تجارة، فكان أبو حنيفة يجهِّز له

أمتعة الخز، ويبعث بها معه إلى بعض مدن العراق، فجهَّز له ذات مرة متاعًا كثيرًا، وأعلمه أن في ثوب كذا وكذا عيوبًا وقال له: إذا هممت ببيعها فبيِّن للمشتري ما فيها من عيب، فباع شريكه المتاع كله، ونسى أن يعلم المشترين بما في الأثواب من عيوب، واجتهدْ في معرفة المشترين فلم يستطع، فلما علم أبو حنيفة بذلك لم يسترح حتى تصدق بأثمان المتاع كلها.

ودعاه الخليفة المنصور ذات مرة لزيارته، فلما صار عنده بالغ في إعظامه وإكرامه وأدناه منه، وجعل يسأله عن بعض الأشياء، فلما أراد الانصراف دفع إليه بكيس فيه ثلاثون ألف درهم، فقال له أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين، إني غريب في بغداد، وليس لهذا المال موضع عندي، وإني لأخشى عليه، فاحفظه لي في بيت المال حتى إذا احتجته طلبته منك، فأجابه المنصور إلى ما أراد.

فلما مات أبو حنيفة، وجدت في بيته ودائع للناس تزيد على أضعاف هذا المبلغ، فلما سمع بذلك المنصور قال: يرحم الله أبا حنيفة، فقد خدعنا وأبى أن يأخذ شيئًا منا، وتلطَّف في ردنا.

ولقد كان أبو حنيفة -رحمه الله- سخيًا لدرجة أن الناس كانوا يستغربون بعض أمور يعملها؛ فقد جاءه مرة أحد الناس وقال: إني بحاجة إلى ثوب كذا. فقال له أبو حنيفة: ما لونه؟ فقال الرجل: كذا وكذا. فقال أبو حنيفة: اصبر حتى يقع لي فآخذه لك. فلما وقع في يده، بعث إليه أبو حنيفة وأعطاه له فقال الرجل: كم ثمنه يا إمام؟ قال: درهمًا. فقال الرجل متعجبًا: درهمًا واحدًا؟ قال: نعم. قال الرجل: أتهزأ بي يا إمام؟ قال أبو حنيفة: ما هزئت بك، وإنما اشتريته هو وثوبًا آخر بعشرين دينار ودرهم، وقد بعت الثاني بعشرين دينار

وبقي على هذا بدرهم واحد، وما كنت لأربح على جليسي.

وقد آتاه الله تعالى حجة قوية فيما يقول، فكان يُسكِت المجادلين ويخرس المارقين، فقد سمع مرة برجل مسموع الكلمة في الناس يزعم أن عثمان بن عفان ﷺ كان يهوديًا في الأصل، وأنه ظل يهوديًا بعد الإسلام، فأراد أبو حنيفة أن يلقِّنه درسًا؛ فذهب إليه وقال له: لقد جئتك خاطبًا ابنتك لأحد أصحابي. فقال الرجل: أهلاً بك ومرحبًا، إنَّ مثلك لا ترد له حاجة يا أبا حنيفة، ولكن مَن الخاطب؟ فقال أبو حنيفة: رجل موسوم بين قومه بالشرف والغنى، سخي اليد، مبسوط الكف، حافظ لكتاب الله ﷻ، يقوم الليل كله في ركعة، كثير البكاء من خوف الله تعالى. وأخذ يعدِّد بعض خصال عثمان بن عفان ﷺ في هذا الخاطب.

فقال الرجل: بخ بخ، حسبك يا أبا حنيفة، إنَّ بعض ما ذكرته من صفات الخاطب يجعله كفئًا لبنت أمير المؤمنين.

فقال أبو حنيفة: غير أن فيه خصلة لا بدَّ من أن تقف عليها.

قال الرجل: وما هي؟ قال أبو حنيفة: إنه يهودي.

فانتفض الرجل وقال: يهودي؟! أتريد مني أن أزوِّج ابنتي من يهودي يا أبا حنيفة؟! فقال أبا حنيفة: تأبى أن تزوِّج ابنتك من يهودي وتنكر ذلك أشد الإنكار، ثم تزعم للناس أن رسول الله ﷺ زوَّج ابنتيه كلتيهما من يهودي؟! فتاب الرجل واستغفر ربه مما كان يقول.

وجاءه مرة رجل من الخوارج وقال له: تب يا أبا حنيفة. فقال: مم أتوب؟ فقال الرجل: من قولك بجواز التحكيم الذي جرى بين علي ومعاوية. فقال

أبو حنيفة: ألا تقبل أن تناظرني في هذا الأمر؟ فقال الرجل: بلى، فقال أبو حنيفة: فإنْ اختلفنا في شيء مما نتناظر فيه؛ فمَن يحكم بيننا؟ فقال الرجل: حكِّم مَن تشاء.

فنظر أبو حنيفة إلى رجل من أصحاب الخارجي وقال له: احكمْ بيننا فيما نختلف فيه. ثم قال للخارجي: أنا رضيت بصاحبك؛ فهل ترضى أنت به؟! فقال الخارجي: نعم. فقال له أبو حنيفة: ويحك أتجوز التحكيم فيما شجر بيني وبينك وتنكره على اثنين من الصحابة؟! فبهت الخارجي ولم يُعد جوابًا.

قال أبو يوسف صاحبه عنه: «كان أبو حنيفة النعمان شديد الذَّبِّ عن حرمات الله، طويل الصمت، دائم الفكر».

وقال يزيد بن هارون: «لم أر أعقل ولا أفضل ولا أورع من أبي حنيفة».

قضى أبو حنيفة -رحمه الله- رحلة عمره كلها ينافح عن شرع الله بحججه القوية؛ واستنبط فروعًا فقهية، وأعمل الرأي، وأصَّل مدرسة النظر والرأي، وكان صاحب أحد المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة عند أهل السُّنة والجماعة.

مات أبو حنيفة -رحمه الله- وأوصى أن يغسِّله الحسن بن عمارة، فلما غسَّله قال: رحمك الله يا أبا حنيفة، وغفر لك جزاء ما قدَّمت، فإنك لم تفطر منذ ثلاثين سنة، ولم تتوسد بالليل منذ أربعين سنة، ولقد أتعبت الفقهاء بعدك.

وأوصى أبو حنيفة -رحمه الله- أن يُدفن في أرض طيبة، وأن يجنبوه كل مكان فيه شُبهة غصب، فلما بلغت وصيته الخليفة المنصور قال: مَن يعذرنا من أبي حنيفة حيًّا وميتًا؟!

الربيع بن خُثَيم -رحمه الله

عَلَمٌ من أعلام التابعين، وحَبْر من أحبار الكوفة الزاهدين، يلتقي نسبه مع رسول الله ﷺ في جدّيه إلياس ومضر، شبَّ الربيع بن خثيم وشبَّ معه علمه وتقواه وورعه وخشيته لله تعالى.

تتلمذ الربيع على يدي عبد الله بن مسعود ﷺ الصحابي الجليل، فأحبَّ أستاذه عبد الله بن مسعود ﷺ حُبًّا شديدًا، وكذلك أحب الأستاذ تلميذه حُبًّا شديدًا.

لمس عبد الله بن مسعود ﷺ في نفس الربيع صفاءً، وفي قلبه إخلاصًا، وفي عبادته إحسانًا جعله يزداد حبًّا له كل يوم، وكان يقول له: «يا أبا يزيد، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك»، وكان يقول له: «ما رأيتك مرة إلا ذكرت المخبتين».

وقال أحد تلامذته: صحبت الربيع بن خثيم عشرين سنة، فما سمعته يتكلم إلا بكلمة تصعد، وتلا قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وكان وهو صغير يقوم الليل، ويكثر من القيام والبكاء، فتقول له أمه: يا بُني، يا ربيع، ألا تنام؟ فيقول: كيف يستطيع النوم من جَنَّ عليه الليل وهو يخشى البيات.

ولما كبر الربيع ازداد في البكاء بالليل، فكانت أمه تناديه أيضًا: ما الذي أصابك يا بُني؟ لعلك أتيت جُرمًا، لعلك قتلت نفسًا؟! فيقول: نعم يا أُمّاه، لقد قتلت نفسًا.. قتلت نفسي، لقد قتلتها بالذُّنوب.

قال عبد الرحمن بن عجلان: بِتُّ عند الربيع بن خثيم ليلة؛ فلما أيقن أني دخلت في النوم قام يصلي، فقرأ قول الله -جلَّ وعزَّ-: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، فمكث ليلته يصلي بها، يبدؤها ويعيدها حتى طلع عليه الفجر، وعيناه تَسِحَّان الدموع سحًّا.

وقال هلال بن إساف لمنذر الثوري: ألا أمضي بك يا منذر إلى الربيع بن خثيم لعلنا نؤمن ساعة؟ فقال منذر: بلى، فوالله ما أقدمني من الكوفة إلا رغبة في لقاء شيخك الربيع بن خثيم، والحنين للعيش ساعة في رحاب إيمانه، ولكن هل استأذنت لنا عليه؟ فقد قيل لي: إنه منذ أصيب بالفالج (وهو الذي يعرف الآن بالشلل النصفي) لزم بيته وانصرف إلى ربه، وعزف عن لقاء الناس.

فقال هلال: إنه لكذلك منذ عرفته الكوفة، وإنَّ المرض لم يغيِّر منه شيئًا.

فقال منذر: لا بأس، ولكنك تعلم أن لهؤلاء الأشياخ أمزجة رقيقة؛ فهل ترى أن نبادر الشيخ فنسأله عما نريد؟ أم نسكت فنسمع منه ما يريد؟ فقال هلال: لو جلست مع الربيع بن خثيم عامًا بأكمله، فإنه لا يكلمك إذا لم تكلمه، ولا يبادرك إذ لم تسأله، فهو قد جعل كلامه ذكرًا وصمته فكرًا. فقال منذر: فلنمض إليه على بركة الله.

فمضيا إلى الشيخ، فلما صارا عنده سلَّما وقالا: كيف أصبح الشيخ؟ فقال: أصبح ضعيفًا مذنبًا يأكل رزقه، وينتظر أجله.

فقال له هلال: لقد جاء إلى الكوفة طبيب حاذق، أفتأذن أن أدعوه لك؟

فقال: يا هلال، إني لأعلم أن الدواء حق، ولكني تأملت عادًا وثمود وأصحاب الرَّس وقرونًا بين ذلك كثيرًا، ونظرت في حرصهم على الدنيا، ورغبتهم في متاعها، وقد كانوا أشد منا بأسًا، وأعظم قدرةً، ولقد كان فيهم أطباء، وفيهم مرضى، فلا المداوِي بقي ولا المداوَى. ثم تنهَّد تنهدًا عميقًا وقال: ولو كان هذا هو الداء لتداوينا منه. فقال منذر: فما الداء إذن يا سيدي؟ قال: الداء الذنوب. فقال منذر: وما الدواء؟! فقال: بأن تتوب ثم لا تعود، السرائر السرائر، عليكم بالسرائر التي تخفى على الناس، وهُن على الله بوادٍ، التمسوا دوائهن، فقال منذر: وما دواؤهن؟ فقال الشيخ: التوبة النصوح. ثم بكى حتى بللت دموعُه لحيتَه، فقال له منذر: أتبكي وأنت أنت؟! فقال: هيهات، لما لا أبكي؟ وقد أدركت قومًا نحن في جنبهم لصوص (يقصد الصحابة -رضوان الله عليهم).

ثم جاء ابن الشيخ بطعام لأبيه وقال: «يا أبت، إنَّ أمي صنعت لك طعامًا وأحسنته ونشتهي أن تأكل منه»، فدخل مسكين فوضع له الطعام فأكله المسكين كله، وهو ينظر إليه، فقال ابنه له: يا أبت، أطعمت هذا الرجل الطعام كله وكنا نشتهي أن تأكل منه، ووالله ما يدري هذا الرجل ما يأكل، وكان الرجل مجنونًا.

فقال الشيخ: إنْ كان هو لا يدري، فإنَّ الله يدري، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

ثم قال: يا هلال، لا يغرنك كثرة ثناء الناس عليك؛ فإنَّ الناس لا يعلمون منك إلا ظاهرك، واعلمْ أنك صائر إلى عملك، وأن كلَّ عمل لا يُبتغى به وجه

الله يضمحل. فقال له منذر: وأوصني أنا أيضًا جزيت خيرًا.

فقال: يا منذر، اتق اللهَ فيما علمت، وما استؤثر عليك بعلمه فكله إلى عالمه، يا منذر، لا يقل أحدكم: اللهم إني أتوب إليك ثم لا يتوب فتكون كذبة، ولكن ليقل: اللهم تب عليَّ فيكون دعاء.

واعلمْ -يا منذر- أنه لا خير في كلام إلا في تهليل الله وتحميد الله، وتكبير الله وتسبيح الله، وسؤالك من الخير، وتعوذك من الشر، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءة القرآن.

ثم قال: أكثروا من ذكر الموت، فهو غائبكم المرتقب، وإنَّ الغائب إذا طالت غيبته أوشكت أوبته، وترقبه ذووه، ثم بكى وقال: ماذا نصنع غدًا؟! ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢١-٢٣].

مات الربيع بن خثيم بعد عمر حافل بالعبادة والعلم وترقب الموت وخشية الله تعالى، فرحمه الله رحمةً واسعةً.

عطاء بن أبي رباح -رحمه الله

كان عطاء بن أبي رباح في صغره عبدًا مملوكًا لامرأة من أهل مكة، وكان منذ نعومة أظفاره قد حُببت إليه طلب العلم، فقسَّم وقته ثلاثة أقسام: قسم لخدمة سيدته، وقسم جعله لعبادة ربه، وقسم لطلب العلم.

تتلمذ عطاء لجماعة من الصحابة؛ منهم: أبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وغيرهم.

ولما رأت سيدته ما عليه عطاء من علو الهمة في طلب العلم أعتقته لوجه الله مؤملة أن ينفع الله به المسلمين.

لازم عطاء المسجد الحرام واتخذ منه موطنًا له، فكان المسجد الحرام داره مدرسته ومصلاه حتى قيل: كان المسجد فراش عطاء بن أبي رباح أكثر من عشرين عامًا.

اشتهر عطاء مقبلاً على دينه ولا يضيع من وقته لحظة، وكان يقول: «إنَّ الذين من قبلنا كانوا يكرهون فضول الكلام؛ كانوا يعدون كل كلام فضولاً ما عدا كتاب الله ﷻ أن يُقرأ ويُفهم، وحديث رسول الله ﷺ أن يُروى ويُدري، أو أمرًا بمعروف ونهيًا عن منكر، أو علمًا يتقرَّب به إلى الله تعالى، أو أن تتكلَّم بحاجتك ومعيشتك التي لا بدَّ لك منها.. أتنكرون: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]، وأن مع كلِّ منكم ملكين: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨].

أما يستحيي أحدنا لو نشرت عليه صحيفته التي أملاها صدر نهاره، فوجد أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا أمر دنياه.

كان عطاء -رحمه الله- زاهدًا في الدنيا زهدًا عجيبًا، وقد أقبلت عليه الدنيا فأعرض عنها، وكان يلبس قميصًا عمره كله، ربما لا يبلغ ثمنه خمسة دراهم.

حجَّ سليمان بن عبد الملك وكان خليفة على المسلمين وبعد أن انتهى من طوافه سأل عن عطاء، فقيل له: إنه قائم يصلي في ناحية من المسجد الحرام، فاتجه إليه الخليفة وأخذ رجال حاشيته يفسحون له الطريق ويدفعون عنه أذى

الزحام، فقال لهم: هذا مقام يستوي فيه الملوك والسَّوْقَة، ولا يفضل فيه أحد أحدًا إلا بالقبول والتقوى، ورُب أشعث أغبر قدم على الله، فتقبله بما لم يتقبل به الملوك.

ثم أقبل على عطاء فوجده قائمًا يصلي والناس حوله جلوس ينتظرون، فجلس الخليفة حيث انتهى به المجلس، فأقبل عطاء على الجميع، فإذا هو حبشي أسود، أفطس الأنف، فحيَّاه الخليفة، فردَّ السلام، فأقبل عليه الخليفة يسأله وهو يجيب حتى انتهى، فقام الخليفة إلى المسعى، وأمر أن ينادي منادٍ في الناس: يا معشر المسلمين، لا يفتي الناس في هذا المقام إلا عطاء بن أبي رباح أو عبد الله بن أبي نجيح.

ثم قال لولده: هذا الذي رأيته يا بني ورأيت ذُلنا بين يديه هو عطاء بن أبي رباح، صاحب الفتيا في المسجد الحرام، ووارث عبد الله بن عباس في هذا المنصب الكبير، يا بني: تعلَّموا العلم، فبالعلم يشرفُ الوضيع وينبهُ الخامل، ويعلو الأرقاء على مراتب الملوك.

قال أبو حنيفة -رحمه الله- يحدِّث عن نفسه: «أخطأت في خمسة أبواب من المناسك بمكة فعلَّمنيها حلاقٌ؛ وذلك أني أردت أن أحلق لأخرج من الإحرام، فأتيت حلاقًا وقلت: بكم تحلق لي رأسي؟! فقال: هداك الله؛ النسك لا يشارط فيه، اجلسْ وأعط ما يتيسر لك. فخجلت وجلست، غير أني جلست منحرفًا عن القبلة، فأومأ إليَّ بأن أستقبل القبلة، ففعلت. وازددت خجلاً على خجلي، ثم أعطيته رأسي من الجانب الأيسر ليحلقه، فقال: أدر شقك الأيمن. فأدرته، وجعل يحلق رأسي، وأنا ساكتٌ أنظر إليه وأعجب منه،

فقال لي: ما لي أراك ساكتًا؟ كبِّرْ!! فجعلت أكبِّر حتى قمت لأذهب، فقال: أين تريد؟ فقلت: أريد أن أمضي إلى رحلي. فقال: صلِّ ركعتين، ثم امضِ إلى حيث تشاء.

فصليت ركعتين، وقلت في نفسي، ما ينبغي أن يقع مثل هذا من حلاق إلا إذا كان ذا علم، فقلت: من أين لك ما أمرتني به من المناسك؟ فقال: لله أنت، لقد رأيت عطاء بن أبي رباح يفعله، فأخذته عنه، ووجَّهت إليه الناس.

قال عثمان بن عطاء الخراساني: انطلقت مع أبي نريد الخليفة هشام بن عبد الملك، فلما غدونا قريبًا من دمشق إذا نحن بشيخ على حمار أسود عليه قميص صفيق وجِبة بالية وقلنسوة لازقة برأسه، وركاباه من خشب، فضحكت منه، وقلت لأبي: مَن هذا؟! فقال: اسكتْ، هذا سيدُ فُقهاء الحجاز عطاء بن أبي رباح.

فلما قرب منا نزل أبي عن بغلته، ونزل هو عن حماره، فاعتنقا وتساءلا، ثم عادا فركبا، وانطلقا حتى وقفا على باب قصر هشام بن عبد الملك، فما أن استقر بهما الجلوس حتى أُذن لهما، فلما خرج أبي قلت له: حدثني بما كان منكما. فقال: لما علم هشام أن عطاء بن أبي رباح بالباب بادر، فأذن له ووالله ما دخلت إلا بسببه، فلما رآه هشام قال: مرحبًا مرحبًا، هاهنا هاهنا.. ولا زال يقول له: هاهنا هاهنا. حتى أجلسه معه على سريره، ومس بركبته ركبته، وكان في المجلس أشراف الناس، وكانوا يتحدَّثون فسكتوا ثم أقبل عليه هشام وقال: ما حاجتك يا أبا محمد؟! قال: يا أمير المؤمنين، أهل الحرمين، أهل الله وجيران رسوله؛ تقسم عليهم أرزاقهم وأعطياتهم. فقال: نعم، يا غلام، اكتبْ لأهل مكة

والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لسنة.

ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب وقادة الإسلام ترد فيهم فضول صدقاتهم.

فقال: نعم، يا غلام، اكتبْ بأن ترد فيهم فضول صدقاتهم.

هل من حاجة غير ذلك يا أبا محمد؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الثغور يقفون في وجوه عدوكم، ويقتلون مَن رام المسلمين بشرٍّ، تجر عليهم أرزاقًا تدرها عليهم، فإنهم إنْ هلكوا ضاعت الثغور.

فقال: نعم، يا غلام، اكتبْ بحمل أرزاقهم إليهم.

هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل ذمتكم ليُكلَّفون ما لا يطيقون، فإنَّ ما تجبونه منهم معونة لكم على عدوكم.

فقال: يا غلام، اكتبْ لأهل الذمة بألا يكلَّفوا ما لا يطيقون.

هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟

قال: نعم، اتق اللهَ في نفسك يا أمير المؤمنين، واعلمْ أنك خُلقت وحدك، وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك، ولا والله ما معك ممن ترى أحد.

فأكبَّ هشام ينكث في الأرض ويبكي، فقام عطاء، فقمت معه، فلما صرنا عند الباب إذا رجلٌ قد تبعه بكيس لا أدري ما فيه، وقال له: إنَّ أمير المؤمنين بعث لك بهذا، فقال: هيهات، ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، فوالله إنه دخل على الخليفة وخرج من عنده ولم يشرب قطرة ماء.

مات عطاء -رحمه الله- بعد أن عمَّر مائة سنة، وحجَّ سبعين مرة، رحم الله عطاء بن أبي رباح رحمةً واسعةً. قال سلمة بن كهيل: «ما رأيت أحدًا يريد بالعلم وجه الله ﷻ غير الثلاثة: عطاء وطاووس ومجاهد».

الحسن البصري -رحمه الله

اسمه الحسن بن يسار، وكان (يسار) مولى للصحابي الجليل زيد بن ثابت ﷺ، واسم أمه (خيرة)، وكانت مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ، ولد الحسن بالمدينة عام (٣٠هـ) تقريبًا، ونشأ في بيوت أزواج النبي ﷺ، وبصفة خاصة بيت أم سلمة -رضي الله عنها، فقد رُبي في حجرها، وقد كانت أم سلمة -رضي الله عنها- من أكمل نساء العرب عقلاً، وأوفرهن فضلاً وحكمةً، كما كانت من أوسع زوجات الرسول ﷺ علمًا، وأكثرهن روايةً عنه، وقد كانت من النساء القليلات اللواتي يكتبن في الجاهلية.

كما نال الحسن أيضًا شرف الرضاعة من أم المؤمنين أم سلمة -رضي الله عنها؛ حيث كانت أمه تخرج لقضاء بعض الحاجات، فكان الطفل الرضيع يبكي من جوعه، فتأخذه أم سلمة -رضي الله عنها- إلى حجرها وتلقمه ثديها لتصبره به وتعلِّله عن غياب أمه، ولشدة حبها له، فقد كان ثديها يدر لبنًا بقدرة

الله، فيرضع الصبي ويسكت عن البكاء.

ظل الحسن في طفولته يتنقل بين بيوت أمهات المؤمنين، وينهل من هذا الجو النقي من الأخلاق الطيبة والدين والأدب والعلم.

تتلمذ الحسن على يدي كبار الصحابة في مسجد الرسول ﷺ مثل: عثمان بن عفان، وعبد الله بن عباس، وعلي بن أبي طالب، وأبي موسى الأشعري، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمر ﷺ.

ثم انتقل الحسن إلى البصرة مع والديه عندما بلغ أربعة عشر عامًا، واستقر بالبصرة مع أسرته، وكانت آنذاك من أكبر قلاع العلم، وكان مسجدها العظيم يموج بمَن دخلها من كبار الصحابة ﷺ لاسيما عبد الله بن عباس الذي لازمه الحسن وأخذ عنه التفسير والحديث والقراءات.

أخذ الحسن عن غير عبد الله بن عباس من الصحابة الفقه واللُّغة والأدب حتى صار من أعلم زمانه، التفَّ الناس حوله وذاع صيته وعلت شهرته وأحبه الناس حبًّا شديدًا.

وصفه أحد المقربين منه وهو خالد بن صفوان، فقال: «إنه امرؤ سريرته كعلانيته، وقوله كفعله، إذا أمر بمعروف كان أعمل الناس به، وإذا نهى عن سنكر كان أترك الناس له، ولقد رأيته مستغنيًا عن الناس، زاهدًا بما في أيديهم، ورأيت الناس محتاجين إليه، طالبين ما عنده».

وقال عنه مسلمة بن عبد الملك: «كيف يضل قوم فيهم مثل الحسن البصري؟».

وكان الحسن البصري لا يترك نصيحة أولي الأمر بما يراه حقًّا، ولو كان قاسيًا عليهم، لدرجة أنه لما طلب عمر بن هبيرة منه النصيحة في أمور يأمره بها الخليفة يزيد بن عبد الملك، ولا يطمئن إليها عمر بن هبيرة قال له: «يابن هبيرة، خف الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله، واعلمْ أن الله -جلَّ وعزَّ- يمنعك من يزيد، وأن يزيد لا يمنعك من الله.

يا ابن هبيرة، إنه يوشك أن ينزل بك ملك غليظ شديد لا يعصي الله ما أمره، فيزيلك عن سريرك هذا، وينقلك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك؛ حيث لا تجد هناك يزيد، وإنما تجد عملك الذي خالفت فيه رب يزيد.

يابن هبيرة، إنك إنْ تك مع الله تعالى وفي طاعته يكفك بائقة يزيد بن عبد الملك في الدنيا والآخرة، وإنْ تك مع يزيد في معصية الله تعالى، فإنَّ الله يكلك إلى يزيد، واعلمْ يابن هبيرة أنه لا طاعة لمخلوق كائنًا من كان في معصية الخالق ﷻ.. فبكى ابن هبيرة حتى بللت دموعُه لحيتَه.

وكانت مواعظ الحسن تهز القلوب وتنبه الغافلين وتستدر دموع السامعين؛ فمن مواعظه: «إنَّ مثل الدنيا والآخرة كمثل المشرق والمغرب، متى ازددت من إحداهما قُربًا ازددت من الآخرة بُعدًا، الدنيا دار أولها عناء وآخرها فناء، وفي حلالها حساب وفي حرامها عقاب، مَن استغنى فيها فُتن ومَن افتقر فيها حزن».

ومن مواعظه: «ويحنا ماذا فعلنا بأنفسنا، لقد أهزلنا ديننا وسمنا دنيانا وأخلقنا أخلاقنا، وجدَّدنا فرشنا وثيابنا، يتكئ أحدنا على شماله، ويأكل من مال غير ماله، طعامه غصب، وخدمته سخرة، يدعو بحلو بعد حامض،

وبحار بعد بارد، وبرطب بعد يابس، حتى إذا أخذته الكظة تجشأ من البشم ثم قال: هات هاضومًا يهضم الطعام، يا أحيمق، والله لن تهضم دينك، أين جارك المحتاج، أين يتيم قومك الجائع، أين مسكينك الذي ينظر إليك، أينما وصَّاك به الله ﷻ، ليتك تعلم أنك عدد، وأنه كلما غابت عنك شمس يوم نقص شيء من عددك ومضي بعضك معه.

محمد بن سيرين -رحمه الله

ولد محمد بن سيرين في خلافة عثمان بن عفان ﷺ، كان أبوه (سيرين) مملوكًا لأنس بن مالك الصحابي الجليل ﷺ، وكان من نصيبه بعد معركة (عين التمر)، وهي بلدة غربي الكوفة افتتحها خالد بن الوليد في خلافة الصديق ﷺ، فأعتقه أنس، وأمه اسمها (صفية)، وكانت أمة للصديق أبي بكر ﷺ فأعتقها أيضًا.

عرف أبوه وأُمُّه بالصلاح وحسن السيرة، فنشأ ابنهما (محمد بن سيرين) في بيت تحوطه التقوى والورع واتصل بمجموعة كبيرة من الصحابة ﷺ مثل: زيد بن ثابت، عمران بن الحصين، أنس بن مالك، أبو هريرة، عبد الله بن الزبير، عبد الله بن عباس، عبد الله بن عمر ﷺ جميعًا.

أقبل محمد بن سيرين على هؤلاء الصحب الكرام ينهل من علمهم وفقههم وروايتهم لحديث الرسول ﷺ، اشتهر محمد بن سيرين وذاع صيته وعلت شهرته وعمَّت البلاد وعرف بالعلم والورع.

وقد كانت له مواقف مشهودة مع ولاة بني أمية صدع فيها بكلمة الحق،

وأخلص النصح لله ولرسوله؛ منها: سأله مرة عمر بن هبيرة، وإلى بني أمية على (العراقين)؛ كيف أهل مصرك يا أبا بكر (كنية ابن سيرين)؟!

فقال محمد بن سيرين: تركتهم والظلم فيهم فاشٍ وأنت عنهم لاهٍ.

فغمزه ابن أخيه بمنكبه، فالتفت إليه قائلاً: إنك لست الذي تُسأل عنهم، وإنما أنا الذي أُسأل، وإنها لشهادة: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣].

فأجزل ابن هبيرة له العطاء، فلم يقبل، فعاتبه ابن أخيه: ما يمنعك أن تقبل هبة الأمير؟ فقال: إنما أعطاني لخير ظنه بي، فإنْ كنت من أهل الخير كما ظن، فما ينبغي لي أن أقبل، وإنْ لم أكن كما ظن، فأحرى بي ألا أستبيح قبول ذلك.

ومن ورع محمد بن سيرين -رحمه الله- أنه سمع أحد الناس يسب الحجاج بعد وفاته، فقال له: صه يابن أخي، فإنَّ الحجاج مضى إلى ربه، وإنك حين تقدم على الله ﷻ ستجد أن أحقر ذنب ارتكبته في الدنيا أشد على نفسك من أعظم ذنب اجترحه الحجاج، فلكلٍّ منكما يومئذٍ شأن يغنيه، واعلمْ يابن أخي أن الله -جلَّ وعزَّ- سوف يقتصُّ من الحجاج لمن ظلمهم كما سيقتص للحجاج ممن يظلمونه، فلا تشغلن نفسك بعد اليوم بسبِّ أحد.

منح الله ﷻ ابن سيرين سمتًا صالح وقبولاً في قلوب الناس، فكان الناس إذا رأوه في السوق وهم غارقون في غفلتهم انتبهوا وذكروا الله وهلَّلوا وكبَّروا.

وكان له تجارة وله بيع وشراء في السوق، فإذا رجع إلى بيته بالليل أخذ في القيام، يتلو القرآن ويبكي.

وكان في تجارته ورعًا لدرجة أنه ذات مرة اشترى زيتًا بأربعين ألفًا مؤجلة، فلما فتح أحد زقاق الزيت وجد فيه فأرًا ميتًا متفسخًا، فقال في نفسه: إنَّ الزيت كله كان في المعصرة في مكان واحد، وإنَّ النجاسة ليست خاصة بهذا الزق دون سواه، وإنْ رددته للبائع بالعيب، فربما باعه للناس، فأراق الزيت كله.

قال مورق العجلي: «ما رأيت رجلاً أفقه في ورعه، ولا أورع في فقهه من محمد بن سيرين».

مات محمد بن سيرين بعد أن عمَّر حتى بلغ السابعة والسبعين عامًا -رحمه الله.

سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالى

سيِّد من سادة التابعين، وطراز فريد من الناس، صوَّام النهار، قوَّام الليل، حجَّ نحوًا من أربعين حجة، وما فاتته التكبيرة الأولى (تكبيرة الإحرام) في الصلوات لمدة أربعين عامًا، ولا عرف عنه أنه نظر إلى قفا رجل في الصلاة خلال ذلك أبدًا، لمحافظته على الصف الأول.

آثر سعيد بن المسيب ﷺ أن يتزوَّج بابنة أبي هريرة ﷺ على سائر النساء، وقد كان في وسعه أن يتزوَّج بمَن يشاء من نساء قريش.. نذر سعيد بن المسيب نفسه للعلم منذ نعومة أظفاره.

دخل سعيد بن المسيب على أزواج النبي ﷺ، وانتفع منهن علمًا كثيرًا، وأخذ العلم على جماعة من الصحابة؛ منهم: عبد الله بن عباس، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وعثمان، وعلي، وصهيب ﷺ جميعًا.

تخلَّق سعيد بأخلاق الصحابة ﷺ وتحلّى بشمائلهم؛ فكان سعيد من أكثر الناس زُهدًا في الحياة، فقد رفض تزويج ابنته من ولي عهد الخلافة الوليد بن عبد الملك ابن الخليفة عبد الملك بن مروان وزوَّجها من أحد طلبة العلم يُدعى أبو وداعة.

ولما عوتب سعيد في ذلك قال: إنَّ ابنتي أمانة في عُنقي، وقد تحريت فيما صنعته لها صلاح أمرها.

وصفه واحد من أهل المدينة، فقال عنه: إنه امرؤ جعل دنياه مطية لأخراه، واشترى لنفسه ولأهله الباقية بالفانية، فوالله إنه ما ضنَّ على ابن أمير المؤمنين بابنته، ولا رآه غير كفء لها، وإنما خاف عليها فتنة الدنيا، ولقد سأله بعض أصحابه فقال: أترد خطبة أمير المؤمنين وتزوَّج ابنتك من رجل من عامة المسلمين؟ فقال: إنَّ ابنتي أمانة في عنقي، وقد تحريت فيما صنعته لها. فقيل له: وكيف؟! فقال: ما ظنكم بها إذا انتقلت إلى قصور بني أمية وتقلبت بين رياشها وأثاثها، وقام الخدم والحشم والجواري بين يديها وعن يمينها وعن شمالها، ثم وجدت نفسها بعد ذلك زوجة للخليفة؟! أين يصبح دينها يومئذٍ؟!

عمر بن عبد العزيز -رحمه الله

خامس الخلفاء الراشدين، وتابعي جليل من التابعين، تولى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك. قال عنه محمد بن علي بن الحسين -رحمه الله: «أما علمت أن لكلِّ قوم نجيبًا، وأن نجيب بني أمية عمر بن عبد العزيز، وأنه يبعث يوم القيامة أمة وحده».

طلب عمر بن عبد العزيز العلم صغيرًا، وصار يجالس كبار الفقهاء والعلماء، وتولى إمارة المدينة المنورة فترة من عمره.

بويع بعد وفاة سليمان بن عبد الملك بالخلافة، وهو لها كاره، فأمر فنودي في الناس بالصلاة، فاجتمع الناس إلى المسجد، فلما اكتملت جموعهم، قام فيهم خطيبًا، فحمد الله ثم أثنى عليه، وصلَّى على نبيِّه ثم قال: أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر على غير رأي مني فيه، ولا طلب له، ولا مشورة من المسلمين، وإني خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم خليفة ترضونه».

فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فَولِ أمرنا باليمن والبركة.

فأخذ يحض الناس على التقوى ويزهِّدهم في الدنيا ويرغِّبهم في الآخرة، ثم قال لهم: أيها الناس، مَن أطاع الله وجبت طاعته، ومَن عصى الله فلا طاعة له على أحد، أيها الناس، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإنْ عصيت الله فلا طاعة لي عليكم.

ثم نزل عن المنبر واتجه إلى بيته وآوى إلى فراشه، فما كاد يسلم جنبه إلى مضجعه حتى أقبل عليه ابنه عبد الملك، وكان عمره آنذاك سبعة عشرة عامًا، وقال: ما ذا تريد أن تصنع يا أمير المؤمنين؟

فردَّ عمر: أي بني أريد أن أغفو قليلاً، فلم تبق في جسدي طاقة.

قال عبد الملك: أتغفو قبل أن ترد المظالم إلى أهلها يا أمير المؤمنين؟

فقال عمر: أي بني، إني قد سهرت البارحة في عمك سليمان، وإني إذا حان الظهر صليت في الناس ورددت المظالم إلى أهلها، إنْ شاء الله.

فقال عبد الملك: ومن لك يا أمير المؤمنين بأن تعيش إلى الظهر؟!

فقام عمر فقبَّل ابنه وضمه إليه، ثم قال: الحمد لله الذي أخرج من صُلبي من يعينني على ديني. ثم قام وأمر أن ينادي في الناس: ألا مَن كانت له مظلمة فليرفعها، وأخذ عمر -رحمه الله- يرد المظالم إلى أهلها.

وكان عمر -رحمه الله- قد جمع جماعة من الفقهاء والعلماء وقال لهم: إني قد دعوتكم لأمر هذه المظالم التي في أيدي أهل بيتي، فما ترون فيها؟

فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنَّ ذلك أمر كان في غير ولايتك، وإنَّ وزر هذه المظالم على مَن غصبها.

فلم يرتح عمر إلى قولهم، وأخذ بقول جماعة آخرين منهم ابنه عبد الملك الذي قال له: أرى أن تردها إلى أصحابها ما دمت قد عرفت أمرها، وإنك إنْ لم تفعل كنت شريكًا للذين أخذوها ظلمًا.. فاستراح عمر لهذا الرأي، وقام يرد المظالم إلى أهلها.

استمرت خلافته فترة قصيرة جدًّا، فلم يلي الخلافة سوى عامين ونصف ثم حضره أجله ولاقى ربه عادلاً في الرعية قائمًا فيها بأمر الله تعالى.

سعيد بن جُبير -رحمه الله

إمام عظيم من أجلِّ التابعين -رحمهم الله، كان سعيد بن جبير مكتمل الخلق قوي الجسم أسود اللون أصله حبشي، عربي بالولاء، وكان شخصية فذة متفردة.

بدأ حياته الدينية مبكرًا؛ حيث جعل التقوى في يمينه والعلم في يساره،

فكان لا يُرى إلا عاكفًا على كتابه يتعلَّم أو قائمًا في محرابه يتعبد.

درس سعيد بن جبير العلم على مجموعة من الصحابة ﷺ منهم:

عائشة -رضي الله عنها- أبو سعيد الخدري ﷺ، عدي بن حاتم ﷺ، أبو موسى الأشعري ﷺ، أبو هريرة ﷺ، عبد الله بن عمر ﷺ.

وكان أستاذه الأكبر الذي لزمه حتى أخذ القرآن وتفسيره والحديث وعلومه والفقه في الدين واللُّغة، وغير ذلك من العلوم هو عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما.

اتخذ سعيد بن جبير من الكوفة دارا له، فصار لأهلها معلمًا، وكان يؤم الناس في رمضان، وكان كثير البكاء عند قراءة القرآن، وكان كثير السفر لبيت الله الحرام حاجًّا ومعتمرًا.

تدفق طلاب العلم على سعيد بن جبير من كلِّ مكان وذاع سيطه، وعلت شهرته، وكانت الكوفة آنذاك خاضعة للحجاج بن يوسف والي بني أمية على العراق والمشرق وبلاد ما وراء النهر.

أعمل الحجاج السيف في رقاب الناس، وأخضع الناس لسلطان بني أمية وزادت سطوته وهابه الناس وأشاع الرعب في قلوب الناس حتى امتلأت قلوبهم رهبة من بطشه، وفرَّ بعض الناس يتوارون بدينهم بعيدًا عن ظلمه، وكان من هؤلاء جماعة من أهل العلم على رأسهم سعيد بن جبير.

ظل سعيد بن جبير يضرب في أرض الله الواسعة مستخفيًا عن الحجاج وعيونه حتى لجأ إلى مكان آمن في مكة المكرمة، ومكث بها عشر سنين مستخفيًا من الحجاج.

ولما ولي مكة لبني أمية خالد بن عبد الله القسري وكان سيئ السِّيرة، والذي ما إنْ علم بسعيد بن جبير حتى ساقه في القيود إلى الحجاج في واسط.

وهناك في واسط، قتل الحجاج سعيدًا ظلمًا، ودار بينهما هذا الحوار العجيب قبل قتله بساعة، عندما وصل إليه ووقف بين يديه؛ حيث نظر إليه الحجاج في حقد وقال له: ما اسمك؟!

قال: سعيد بن جبير.

قال: بل شقي بن كُسير.

قال: بل كانت أمي أعلم باسمي منك.

فقال: ما تقول في محمد؟

قال: تعني محمد بن عبد الله -صلوات الله عليه وسلامه؟!

قال: نعم.

قال: سيد ولد آدم النبي المصطفي، خير مَن بقي من البشر، وخير مَن مضى، حمل الرسالة وأدَّى الأمانة، ونصح لله ولكتابه ولعامة المسلمين وخاصتهم.

قال: فما تقول في أبي بكر؟

قال: هو الصديق، خليفة رسول الله ﷺ، ذهب حميدًا وعاش سعيدًا، ومضى على منهاج النبي ﷺ لم يغيِّر ولم يبدِّل.

قال: فما تقول في عمر؟

قال: هو الفاروق الذي فرَّق الله به بين الحق والباطل، وخيرة الله وخيرة

رسوله، ولقد مضى على منهاج صاحبيه، فعاش حميدًا ومات شهيدًا.

قال: فما تقول في عثمان؟

قال: هو المجهز ليوم العسرة، الحافر بئر رُومة، المشتري بيتًا لنفسه في الجنة، صهر رسول الله ﷺ على ابنتيه، ولقد زوَّجه النبي بوحي من السماء، وهو المقتول ظلمًا.

قال: فما تقول في عليٍّ؟

قال: ابن عم رسول الله ﷺ، وأول مَن أسلم من الفتيان، وهو زوج فاطمة البتول، وأبو الحسن والحسين، وهما سيدا شباب أهل الجنة.

قال: فأيُّ خلفاء بني أمية أعجب لك؟

قال: أرضاهم لخالقهم.

قال: فأيهم أرضى للخالق؟

قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرَّهم ونجواهم.

قال: فما تقول فيَّ؟

قال: أنت أعلم بنفسك.

قال: بل أريد علمك أنت.

قال: إذن يسوءك لا يسرك.

قال: لا بدَّ أن أسمع منك.

قال: إني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى، تقدم على أمور تريد بها الهيبة،

وهي تقحمك في الهلكة، وتدفعك إلى النار دفعًا.

قال: أما والله لأقتلنك.

قال: إذن تفسد عليَّ دنياي، وأفسد عليك آخرتك.

قال: اخترْ لنفسك أي قتلة شئت.

قال: بل اخترْ أنت لنفسك يا حجاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

قال: أفتريد أن أعفو عنك؟

قال: إنْ كان عفو، فمن الله تعالى، أما أنت فلا براءة لكل ولا عذر.

فاغتاظ الحجاج وقال: السيف والنُّطْع يا غلام.

فتبسم سعيد، فقال له الحجاج: وما تبسُّمك؟!

قال: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك.

فقال: اقتله يا غلام، فاستقبل القبلة وقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

فقال الحجاج: حرِّفوا وجهه عن القبلة.

فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

فقال: كبُّوه على الأرض.

فقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

قال الحجاج: اذبحوا عدو الله، فما رأيت رجلاً أدعى منه لآيات القرآن.

فرفع سعيد كفيه وقال: اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدي، ثم قتلوه فلم يمض على الحجاج سوى خمسة عشر يومًا بعدها حتى مرض مرضًا شديدًا، فكان يغفو ثم يستيقظ مذعورًا وهو يصيح: هذا سعيد بن جبير، آخذ بخناقي، هذا سعيد بن جبير يقول: فيم قتلتني؟ ثم يبكي ويقول: ما لي ولسعيد بن جبير؟ ردُّوا عني سعيد بن جبير، ثم مات.

قال الإمام أحمد بن حنبل لما قتل سعيد بن جبير: «لقد قُتل سعيد بن جبير، وما على الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه».

رحم الله سعيد بن جبير.

***

الفصل الثاني
تصحيح الأفهام حول ما يثار من خلاف بين الصحابة الكرام ﷺ

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، ولي المتقين، والحمد لله ربِّ العالمين، لا يهدي كيد الخائنين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك، قاصم ظهر الماكرين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد، ولد آدم أجمعين، اللهم صلِّ وسلِّم عليه، وعلى آله وصحابته، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فكم رأينا من قد أطلق لسانه في جناب الصحابة الكرام ﷺ أجمعين، إما لجهل بما حدث بينهم، يعقبه جهل بعقيدة أهل السُّنة والجماعة في الصحابة، وإما لسوء نية وقصد، ولعل الأول أظهر، ولكن كلاهما يحتاج إلى تصحيح، وذلك يحتاج إلى من يبيِّنه، ويشرح صدور مَن التبست عليهم الأمور، ويحتاج هذا إلى متضلع في العلم، وأعني السيرة خاصة، ثم إلى مَن سُقي في مهده عقيدة أهل السُّنة والجماعة في شأن الصحابة والكرام ﷺ أجمعين، ثم إلى غيور على الدين.

وهذا بفضل الله تصدى له علماء السلف، لكن بمصنفات يعجز عنها أهل

هذه الأزمان؛ حيث لا همة في أدنى مهمة، فضلاً عن معالي الأمور ورءوسها، ورحم الله الإمام الغزالي؛ حيث قال: «لو سكت مَن لا يعلم لسقط الخلاف».

والمقصود هنا بالكلام والبحث اختلاف الصحابة الكرام، بعد موت فاروق هذه الأمة ﷺ، ومقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ، ثم ما حدث بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما.

ولست أهلاً لنقل كلام أهل العلم في أصغر مسألة فضلاً عن الكلام في هذه المسألة، ولكن حدا بي حادي الخوف على الدين، والغيرة عليه، والخوف على الناس من الهلاك، فدفعني لأن أنزل في حلائب[1] العلم، ويعلم الله مقصدي، واحتراق قلبي على بُعد الوعي الصحيح عن أذهان المسلمين، وحسبي أني جندي في يدي سهم أحمي به الإسلام، وأرابط به جهدي على ثغر من ثغور الدين، ورغبة في المشاركة في دفع الكيد عن هذا الدين والنبع الصافي، والتراث الخالد.

ولقد دفعني لهذا البحث أمور أهمها:

- شكوى كثير من الناس من عدم فهم الخلاف الذي وقع بين الصحابة الكرام.
- كثرة سؤال عوام الناس في موضوع الخلاف الذي وقع بين الصحابة.
- عدم وجود كتب في هذا الموضوع في متناول جمهور الناس، يناسب هذه الأزمنة وبأسلوب عصري.

---

(١) منابع.

- أهمية الموضوع، خاصة وهو جزء من عقيدة أهل السُّنة والجماعة.

- القدح في الصحابة الكرام، ذريعة للطعن في الإسلام كله، خاصة والدين نقل إلينا عن طريقهم ﷺ أجمعين.

- كثرة من طعن في الإسلام من خلال هذا الاختلاف، بقصد أو بغير قصد.

اعتذار:

هذا الموضوع مهم جدًّا، ومزلة قدم، ومنه خرج كثير عن الحق كالخوارج، والروافض، وليس لكلِّ أحد أن يتكلَّم أو يكتب فيه، لكن لعل الله يعلم صدق نيتي فيه، ثم أنه ليس لي إلا نقل الحقائق ناصعة من كتب جهابذة علماء أهل السُّنة والجماعة من هذه الأمة المرحومة، المشهود لهم بالفضل ورسوخ القَدم في التقى والعلم والإيمان، ثم إني آثرت أن يكون هذا العمل قُربة لي عند الله يوم القيامة، حتى أكون قد دافعت عن أحب الناس إلينا بعد الرسول ﷺ، ولما لهم من المكانة في قلبي، والله من وراء القصد محيط.

وإذا كان ربنا -جلَّ شأنه- لم يسلم من نسبة النقائص إليه، ورسوله الكريم كذلك، بل والرسل جميعًا فيما أعلم، فالصحابة ﷺ لن يسلموا بالطبع من إلحاق السبِّ بهم؟

تمهيد لا بدَّ منه:

يقول الشيخ محمود مهدي الإستانبولي(١):

إنَّ المسلمين بل الإنسانية كلها أشد ما كانوا اليوم حاجة إلى معرفة فضائل

---

(١) مقدمة العواصم من القواصم.

أصحاب رسول الله ﷺ، وكرم معادنهم، وأثر تربيته ﷺ فيهم، وما كانوا عليه من علو المنزلة التي صاروا فيها (الجيل المثالي) الفذ في تاريخ البشر. وشباب الإسلام معذورون إذا لم يحسنوا التأسي بالجيل المثالي في الإسلام؛ لأن أخبار أولئك الأخيار قد طرأ عليها من التحريف والأغراض والبتر والزيادة وسوء التأويل في قلوب شحنت بالغِل على المؤمنين الأوَّلين.

وقد أصبح من الفرض الديني على كل مَن يستطع (تصحيح تاريخ صدر الإسلام) أن يعتبر ذلك من أفضل العبادات، وأن يبادر له، ويجتهد فيه ما استطاع إلى أن يكون أمام شباب الإسلام، مثال صالح من سلفهم يقتدون به، ويجدِّدون عهده، ويصلحون سيرتهم بصلاح سيرته.

وهذا التوجيه يذكرنا بأثر لجابر بن عبد الله ﷺ؛ حيث قال: إذا لعن آخر هذه الأمة أولها، فمن كان عنده علم فليظهره، فإنَّ كاتم العلم يومئذٍ ككاتم ما أنزل الله على محمد ﷺ»، انتهى.

ويقول العلامة محب الدين الخطيب:

«إنَّ هذا العالم الإسلامي الذي نعتز بالانتساب إليه، ونعيش لإسعاده والسعادة به، وقد افتتح أكثره في الدولة الإسلامية الأولى بعد الخلفاء الراشدين، ودخل معظم شعوبه في هداية الإسلام على أيدي الخلفاء الأمويين وولاتهم وقواد جيوشهم، إتمامًا لما بدأ به صاحبا رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما.

ألا، وإنَّ حادثة انتشار الإسلام ودخول الأمم فيه أصبحت في ذمة التاريخ، والأجيال التي أتت بعد ذلك إلى يومنا هذا؛ منهم مَن يفتخر بذلك ويمتلئ

قلبه سرورًا به، ويدعو بالخير لمن كانوا سبب هذا الخير العظيم، ومنهم مَن ابتأس وامتلأ فؤاده حقدًا على الذين عملوا فيه، وجعل من دأبه أن يصفهم بكلِّ نقيصة.

وقد نعذر الذين لم يذوقوا حلاوة الإيمان، وحالت البيئة بينهم وبين الأنس بعظمته وشريف أغراضه وسيرة الذين قاموا به إذا نظروا نظرة خاطئة، واتخذوا في أذهانهم صورة غير صورته التي كانت له في الواقع».

ثم يقول -رحمه الله: «ولكني أعترف ولا فائدة من الإنكار بأن في المنسوبين إلى الإسلام من يبغض حتى الخليفة الأول لرسول الله ﷺ، ويقلب جميع حسناته سيئات، وأن أحد الذين شاهدوا عدل عمر بن الخطاب ﷺ وزهده في متاع الدنيا، وإنصافه لجميع الناس، لم يستطع أن يمنع الحقد الذي في فؤاده على الإسلام من أن يندفع إلى طعنه بالسكين دون أن يسيء إليه.

ومن قوم هذا الرجل الذي طعن عمر ﷺ من لا يزال إلى يومنا هذا من يؤلفون المؤلفات في تشويه هذا المثل الأعلى للعدل والإنسانية والخير.

ويحتفل بعض الزنادقة في كلِّ عام باليوم الذي استشهد فيه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ على يد المجوسي الخائن أبي لؤلؤة الذي يعطونه لقب (بابا شجاع)، فيا للخيانة الشنيعة والحقد الدفين.

وفي عصر عثمان ﷺ عنه من ضاقت صدورهم بطيبة ذلك الخليفة الذي كان قلبه كله رحمة، فاخترعوا له ذنوبًا، وما زالوا يكرِّرونها على قلوبهم حتى صدَّقوها، وتفنَّنوا في إذاعتها، ثم استحلوا سفك دمه الحرام، في الشهر الحرام،

بجوار قبر أبي زوجتيه رسول الله ﷺ، رغم أن عصر الخليفة عثمان بن عفان ﷺ هو من أسعد وأعظم العصور الإسلامية برخائه وفتوحاته، والله أعلم.

وما برحت الإنسانية تشاهد المعجزات من رجالات الإسلام في نشره وإدخال الأمم فيه، وتوسيع النطاق في الأفاق لكلمة (الله أكبر)... (حي على الفلاح)... حتى نودي بها على جبال السند، وفي ربوع الهند وعلى سواحل المحيط غربًا، وفي أودية أوربا وجبالها، بما لم يملك أعداء الله وصفه إلا بأنه معجزة.

كلُّ ذلك في زمن الدولة الأموية التي لو صدر عن المجوس، وعبدة الأوثان عشر ما صدر عنها من الخير وجزء من مائة جزء لرفعوا لأولئك المجوس الوثنيين ألوية الثناء والتقدير في الخافقين.

والتاريخ الصادق لا يريد من أحد أن يرفع لأحد لواء الثناء والتقدير، لكنه يريد من كلِّ مَن يتحدَّث عن رجاله أن يذكر محاسنهم على قدرها، وأن يتق الله في ذكر سيئاتهم، فلا يبالغ فيها، ولا ينخدع بما افتراه المغرضون من أكاذيب.

نحن المسلمون لا نعتقد العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ، وكلُّ مَن ادعى العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ؛ فهو كاذبٌ.

فالإنسان إنسان، يصدر عنه ما يصدر عن الإنسان، فيكون منه الحق والخير، ويكون منه الباطل والشر، وقد يكون الحق والخير في إنسان بنطاق واسع، فيعد من أهل الحق والخير، ولا يمنع هذا من أن تكون له هفوات، وقد يكون الباطل والشر في إنسان آخر بنطاق واسع، فيعد من أهل الباطل والشر،

ولا يمنع هذا من أن تبدر منه بوادر صالحات في بعض الأوقات.

يجب على مَن يتحدَّث عن أهل الحق والخير إذا علم لهم هفوات ألا ينسى ما غلب عليهم من الحق والخير، فلا يكفر ذلك كله من أجل تلك الهفوات، ويجب على مَن يتحدَّث عن أهل الباطل والشر إذا علم لهم بوادر صالحات أن لا يوهم الناس أنهم من الصالحين، من أجل تلك الشوارد الشاذة من الصالحات.

إنَّ أحداث المائة الأولى من عصور الإسلام كانت من معجزات التاريخ والعمل الذي عمله أهل المائة الأولى من ماضينا السعيد لم تعمل مثله أمة الرومان، ولا أمة اليونان قبلها ولا أمة من أمم الأرض بعدها.

أما أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وإخوانهم من العشرة المبشَّرين بالجنة وطبقتهم من أصحاب رسول الله ﷺ، وخصوصًا الذين لازموه وراقبوه، وتمتعوا بجميل صحبته من أنفق منهم من قبل الفتح وقاتل، والذين أنفقوا من بعد وقاتلوا؛ فإنهم جميعًا كانوا شموسًا طلعت في سماء الإنسانية ولا تطمع الإنسانية بأن يطلع في سمائها شموس من طرازهم مرة أخرى إلا إذا عزم المسلمون على أن يرجعوا إلى فطرة الإسلام ويتأدبوا بأدبه من جديد، فيخلق الله منهم خلقًا آخر يعيش الحق والخير، ويجاهد الباطل والشر.

وإذا بدأ المشتغلون بتاريخ الإسلام من أفاضل المسلمين في تمييز الأصيل عن الدخيل من سيرة هؤلاء الأفاضل العظماء، فإنهم ستأخذهم الدهشة لما اخترعه إخوان أبي لؤلؤة المجوسي، تلاميذ عبد الله بن سبأ، والمجوس الذين عجزوا عن مقاومة الإسلام وجهًا لوجه في قتال شريف، فادعوا الإسلام

كذبًا، ودخلوا قلعته مع جنوده خلسة، وقاتلوا بسلاح (التقية) بعد أن حولوا مدلولها إلى النفاق، فأدخلوا في الإسلام ما ليس منه، وألصقوا بسيرة رجاله ما لم يكن فيها ولا من سجية أهلها.

وبهذا تحوَّلت أعظم رسالات الله تعالى، وأكملها إلى طريقة من الخمول والعطالة والجمود، كان من حقها أن تقتل الإسلام والمسلمين قتلاً، لولا قوة الحيوية الخارقة التي في الإسلام، انتهى.

كان لا بدَّ من هذا التمهيد الطويل، لشرح الصدور بتلك الروائح التي تهب من بستانهم الكريم ﷺ، ثم إني رأيت قبل أن أذكر موجز ما حدث بينهم ﷺ طبعًا باجتهادهم في كلِّ الأمور -أن أذكر عقيدة أهل السُّنة والجماعة في أصحاب الرسول ﷺ من مصادر تلقتها القلوب بالقبول، وهي عقيدة الإمام الطحاوي -رحمه الله- المعروفة بـ(العقيدة الطحاوية)، وعقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- المعروفة بـ(العقيدة الواسطية).

وحول عقيدة أهل السُّنة والجماعة في أصحاب رسول الله ﷺ، وبيان سلامة ألسنتهم وقلوبهم للصحابة، وإمساك أهل السُّنة والجماعة عن الخوض فيما شجر بين الصحابة ﷺ جميعًا جاء في كتاب (العقيدة الواسطية)[1] ما نصه:

«ومن أصول أهل السُّنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ، كما وصفهم الله في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ

(١) العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص(١٥٢)، وما بعدها، (ط. الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية).

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وطاعة النبي ﷺ في قوله: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»[1]، ويقبلون ما جاء به الكتاب والسُّنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم، ويفضلون مَن أنفق من قبل الفتح وقاتل، وهو صلح الحديبية على مَن أنفق من بعد وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر -وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ قَدْ غَفرتُ لَكُمْ»[2].

وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة، كما أخبر به النبي ﷺ، بل لقد ﷺ ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة، ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ كالعشرة، وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة، ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وغيره من أن: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ويثلثون بعثمان، ويربعون بعليٍّ ﷺ، كما دلَّت الآثار، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة (أي: بعد موت عمر بن الخطاب) مع أن بعض أهل السُّنة قد اختلفوا في عثمان وعليٍّ -رضي الله عنهما- بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر أيهما أفضل، فقدم قوم عثمان وسكتوا أو ربعوا بعلي، وقدَّم قوم عليًّا، وقوم توقفوا.

لكن استقرار أمر أهل السُّنة والجماعة على تقديم عثمان ثم عليٍّ، وإن كانت

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أحمد وأبو داود.

هذه المسألة مسألة عثمان وعلي ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السُّنة والجماعة، لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر ثم عثمان ثم علي، ومَن يطعن في خلافة أحد من هؤلاء، فهو أضل من حمار أهله».

إلى أن يقول -رحمه الله تعالى: «ويمسكون (أي: أهل السُّنة والجماعة) عما شجر بين الصحابة، ويقولون: إنَّ هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص، وغُيِّر عن وجهه الصحيح، ومنها ما هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون.

وهُمْ (أي: أهل السُّنة والجماعة) مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل، ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم -إن صدر، وأنهم يُغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم.

وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون، وأن المُد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أُحد ذهبًا ممن بعدهم، ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب، فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه أو غُفر له بفضل سابقته أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هُمْ أحق الناس بشفاعته، أو ابتُلي ببلاء في الدنيا كفَّر به عنه. فإذا كان هذا في الذنوب المحققة، فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين إنْ أصابوا فلهم أجران، وإن أخطئوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور.

ثم إنَّ القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنُصرة والعلم النافع والعمل الصالح، ومَن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما منَّ الله به عليهم من الفضائل علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله»، انتهى.

ويقول الإمام الطحاوي -رحمه الله تعالى[1]:

«ونحب أصحاب رسول الله ﷺ لا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض مَن يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان.

ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبي بكر الصديق ﷺ تفضيلاً له وتقديمًا على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب ﷺ، ثم لعثمان ﷺ، ثم لعلي بن أبي طالب، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون ﷺ.

وإنَّ العشرة الذي سمَّاهم رسول الله ﷺ وبشَّرهم بالجنة، ونشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله ﷺ وقوله الحق، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وهو أمين هذه الأمة، ﷺ أجمعين.

ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كلِّ

---

(١) العقيدة الطحاوية، ص(٤٦٧)، وما بعدها (ط. المكتب الإسلامي)، وتحقيق: الألباني -رحمه الله تعالى.

دنس وذرياته المقدسين من كلِّ رجس؛ فقد برئ من النفاق.

وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر، لا يُذكَرون إلا بالجميل، ومَن ذكرهم بسوء؛ فهو على غير السبيل»، انتهى.

وبعد أن عرفنا عقيدة أهل السُّنة والجماعة في صحابة رسول الله ﷺ، سنضعها أمام أعيننا عند الكلام عن أيِّ اختلاف شجر بينهم ﷺ، كل باجتهاده، وعلى حسب نظره وعلمه.

والآن نصل إلى غرض هذا البحث ومحور الكلام، ونبدأ الكلام بأول باب شرٍّ فُتح على الأمة، وهو مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ظلمًا وحقدًا وعدوانًا.

* * *

ملخص قصة مقتل الخليفة الراشد العادل عمر بن الخطاب ﷺ

قال ابن كثير -رحمه الله-:

«إنَّ عمر ﷺ لما فرغ من الحج سنة (٢٣) هجرية، ونزل بالأبطح، دعا الله ﷻ وشكا إليه أنه قد كبر سِنُّه، وضعفت قوته، وانتشرت رعيته، وخاف من التقصير، وسأل الله أن يقبضه إليه، وأن يمن عليه بالشهادة في بلد النبي ﷺ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول: «اللهُمَّ إِني أَسأَلكَ شَهادةً فِي سَبيلكَ وَموتًا فِي بَلدِ رَسُولِكَ»، فاستجاب الله له، هذا الدعاء وجمع له بين هذين الأمرين، الشهادة في المدينة النبوية، وهذا عزيز جدًّا، لكن الله لطيف بما يشاء، تبارك وتعالى، فاتفق له أن ضربه أبو لؤلؤة -فيروز- المجوسي الأصل الرومي الدار، وهو قائم يصلي الصبح في المحراب من يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة من هذه السنة بخنجر ذات طرفين، فضربه اللعين ثلاث ضربات، وقيل: ست ضربات، إحداهن تحت سرته قطعت السِّفاق[1]، فخرَّ من قامته، واستخلف عبد الرحمن بن عوف (أي: في الصلاة)، ورجع اللعين بخنجره لا يمر بأحد إلا ضربه، حتى ضرب ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم ستة، وانتحر اللعين عليه لعنة الله.

وحُمل أمير المؤمنين ﷺ إلى منزله، والدم يسيل من جرحه -وذلك قبل

---

(١) غشاء ما بين الجلد والأحشاء.

طلوع الشمس- فجعل يفيق ثم يغمى عليه، ثم يذكرونه بالصلاة فيفيق ويقول: نعم، ولا حظَّ في الإسلام لمن تركها!! ثم صلَّى في الوقت، ثم سأل عمن قتله مَن هو؟ فقالوا له: أبو لؤلؤة -غلام المغيرة ابن شعبة- فقال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يدي رجل يدعي الإيمان، ولم يسجد لله سجدة، ثم قال (أي: عمر بن الخطاب ﷺ): قبَّحه الله، لقد كنا أمرنا به معروفًا، (وكان المغيرة قد ضرب عليه في كل يوم درهمين، ثم سأل عمر أن يزيد في خراجه؛ فإنه نقَّاش، حدَّاد، نجَّار، فزاد في خراجه إلى مائة في كلِّ شهر، فشفع له عمر ﷺ).

وقال له عمر الخطاب ﷺ: «لقد بلغني أنك تحسن أن تعمل رحًا تدور بالهواء، فقال له أبو لؤلؤة: أما والله لأعملن لك رحًا يتحدَّث عنها الناس في المشارق والمغارب -وكان هذا يوم الثلاثاء عشية- وطعنه اللعين صبيحة الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة[1]، انتهى.

تنبيهات على القصة:

- قاتل عمر بن الخطاب ﷺ ليس من المسلمين.

- القاتل، عاشر أمير المؤمنين ولمس عدله، وأصابه إحسانه لكنه الحقد الدفين في القلب السقيم.

- مكر الخبيث المبيت، وهذا واضح من قصة الرحا؛ حيث قال له: لأعملن لك رحًا يتحدَّث عنها الناس في المشارق والمغارب!! وكانت هذه الرحا التي يتحدَّث عنها لناس هي قتله ﷺ.

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير -رحمه الله، بتصرُّف.

- فرح أمير المؤمنين عمر ﷺ بكون القاتل ليس مسلمًا ولا من رعيته، فهو يخشى لو كان من رعيته أن يكون قتله له بسبب ظلم لحق به من توليه أمره، وحتى لا يُسأل به يوم القيامة.

- مكانة أمير المؤمنين وفضله؛ حيث استجاب الله دعوته، فقد كتب الله له الشهادة وفي بلد رسول الله ﷺ.

- في قصة قتله ﷺ طلب لقاء ربه عندما اتسعت الدولة المسلمة وانتشرت ولاته، وكبر سنه وضعف جسمه وهذه صفات عباد الله المتقين الورعين.

ولك أن تتصوَّر بعد ذلك كيف كان الحقد كامنًا في قلب ذلك المجوسي، ولعل من قوم هذا الرجل من يكتب الآن مقالات عريضة تطعن بمجموعها في دين الله تعالى حتى دسَّ منهم من دسَّ سُمًّا في العسل بكتابته عن الرسول ﷺ وعن صاحبيه أبي بكر وعمر في كتاب سمَّاه (الشيخان)، ثم دسَّ فيه طعنات يعلم الله مدى لغزها ومغزاها، ثم غيره وغيره كثير، والرُّسول ﷺ والصحابة ﷺ أغنى ما يكونون عن أن يكتب هؤلاء عنهم.

وبموت الخليفة العادل عمر بن الخطاب ﷺ فُتح باب الفتن، ولم يُغلق حتى أودى بحياة خليفتين راشدين، وهما عثمان وعلي -رضي الله عنهما.

وقتل عمر ﷺ وقُتِلَ عدله معه، ودُفنت معه تحت الأرض نفس لم يطأ الأرض في مثل علو همتها إلا رسل الله تعالى وأبو بكر الصديق ﷺ.

وكان من أول الفتن التي أطلت برأسها بعد أن فُتح بابها -بموت عمر- أن اخترع القوم لعثمان ﷺ ذنوبًا، ثم كرَّروها على أنفسهم حتى لاكتها ألسنتهم وأيقنتها قلوبهم، وكانت سببًا في أن قتلوه ﷺ ظلمًا وبغيًا.

ملخص مقتل عثمان ﷺ

إنه لما تألب عليه أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل مصر وغيرهم متوجهين إلى المدينة، مُظهرين أنهم أتوا معتمرين ومعهم فقط مطالب يطالبون بها أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ منها:

- أنهم اتهموه أنه حمى الحِمَى، ولم يفعل صاحبا رسول الله ذلك قبله.
- وأنه حرق المصاحف.
- وأنه أتم الصلاة بمكة في الحج.
- وأنه ولَّى الأحداث (أي: الصغار) وترك الصحابة الأكابر.
- وأنه أعطى بني أمية أكثر من الناس.

تلك هي مزاعم القوم أو مطالبهم التي يطالبون بها عثمان -زعموا- وهذه شبهات أثارها أولئك الباغون بجهل منهم بحقائق الأمور، والحمد لله هذه الشُّبه لا نكلِّف أنفسنا بالرد علها، فقد كفانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ الرد عليها من أول يوم عرضت فيه هذه المزاعم، فلنستمع له وهو يفندها، واحدة تلو أختها حتى تركها كالنهار إذا طلعت الشمس، فقال لهم ﷺ رادًّا عليهم: «أما الحِمَى؛ فإنما حماه لإبل الصدقة لتسمن ولم يحمه لإبله ولا لغنمه، وقد حماه عمر ﷺ من قبله. وأما المصاحف؛ فإنما حرق ما وقع فيه اختلاف، وأبقى لهم المتفق عليه، كما ثبت في العرضة الأخيرة من رسول الله ﷺ. وأما إتمامه الصلاة بمكة في الحج؛ فإنه كان قد تأهل بها، ونوى الإقامة فأتم الصلاة

لذلك. وأما توليته الأحداث؛ فلم يول إلا رجلاً سويًا، وقد ولى رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة، وهو ابن عشرين سنة، وولى أسامة بن زيد بن حارثة، وطعن الناس في إمارته، فقال ﷺ: «إنهُ لخليقٌ بالإمارةِ». وأما إيثاره قومه بني أمية؛ فقد كان رسول الله ﷺ يؤثر قريشًا على الناس، ووالله لو أن مفتاح الجنة بيدي لأدخلت بني أمية إليها»[(١)].

كان ذلك هو جواب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ على الثائرين على عثمان ﷺ.

واقتنع القوم بكلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، وعادوا إلى بلادهم، لكنهم رجعوا مرة ثانية إلى المدينة، من مصر ومن غيرها من الأمصار، وحاصروا منزل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ، بعدما حدث أن أهانوا موقفه في المسجد يوم جمعة بعد أن خطب بهم، فقام شقي منهم فكسر العصا التي كان يتكئ عليها ﷺ في الخطبة، فأصابت ركبته جرح لم يبرأ حتى أصابه الله بالأكلة، ثم طعن فيه الدود، فسبحان مَن ينصف المظلوم، ويكسر ظهر الظالم.

واضطر أمير المؤمنين لأن يبقى في الدار، ولا يخرج للصلاة بعد حصار دام أيامًا طويلةً، واستسلم لأمر الله؛ حيث رأى في منامه رؤيا دلت على قُرب أجله، فاستسلم لأمر ربه رجاءً موعوده وشوقًا إلى رسول الله ﷺ، وليكون خير ابني آدم؛ حيث قال حين أراد أخوه قتله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير -رحمه الله تعالى.

روى أبو جعفر الداري عن أيوب السختياني عن نافع عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن عثمان ﷺ أصبح يحدث، قال: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال: «يَا عُثْمَانُ، أَفْطِرْ عِنْدَنَا اللَّيلَةَ»، فأصبح ﷺ صائمًا، وقتل في نفس اليوم ﷺ.

وفي رواية أخرى أن كثير بن الصلت ﷺ قال: يا أمير المؤمنين، اخرج فاجلس بالفناء (أي: فناء داره)، فيرى الناس وجهك، فإنك إنْ فعلت ذلك ارتدعوا، فضحك عثمان ﷺ، وقال: يا كثير، رأيت البارحة وكأني دخلت على رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر وعمر، فقال الرسول ﷺ: «ارجعْ؛ فَإِنكَ مفطرٌ عِنْدِي غَدًا»، ولن تغيب الشمس والله غدًا إلا وأنا من أهل الآخرة.

وقُتِلَ ﷺ ظلمًا من البغاة الثائرين بذنوب اخترعوها له، وأيقنوا بها بكثرة تكريرها على قلوبهم.

وثمة شبهات كثيرة أيضًا نحو عثمان ﷺ نلتقط منها ما يسَّر الله جمعه والرد عليها من كلام أهل العلم[1].

قالوا كاذبين على عثمان ﷺ أنه:

- ضرب عمار بن ياسر ﷺ حتى فتق أمعاءه. قال القاضي أبو بكر بن العربي -رحمه الله: «هذا زور وإفك، ولو فتق أمعاؤه لما عاش أبدًا».

وروى الطبري عن سعيد بن المسيب ﷺ أنه كان بين عمار بن ياسر وعباس بن عتبة خلاف حمل عثمان ﷺ إلى أن يؤدبهما بالضرب.

قال العلامة محب الدين الخطيب -رحمه الله: «وهذا مما يفعله ولي الأمر في

---

(١) العواصم من القواصم لأبي بكر ابن العربي -رحمه الله.

هذه الأحوال، وكم فعل عمر بن الخطاب ﷺ ذلك».

- وقالوا: إنه نفى أبا ذر ﷺ إلى الربذة، قال القاضي أبو بكر ابن العربي - رحمه الله: «وأما نفيه أبا ذر إلى الربذة، فلم يقع، كان أبو ذر زاهدًا، وكان يقرع عُمال عثمان ﷺ، فوقع بين أبي ذر ومعاوية كلام بالشام، فخرج إلى المدينة واجتمع إليه الناس، فجعل يسلك تلك الطرق، فقال له عثمان: لو اعتزلت، ومعناه أنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس، فإنَّ للخلطة شروطًا وللعزلة مثلها، ومَن كان على طريق أبي ذر ﷺ، فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه، فخرج إلى الربذة فاضلاً، وترك جله فضلاء وحال أبي ذر أفضل، ولا يمكن لجميع الخلق أن يكونوا هكذا، فلو كانوا عليها لهلكوا، فسبحان مرتب المنازل»، انتهى.

قلت: وحتى يعيش وحده ويموت وحده، فيحقق أثرًا رُوي فيه وهو قول الرسول ﷺ له: «تَعيشُ وَحدكَ، وَتموتُ وَحدكَ، وَتبعثُ وَحدكَ يَا أَبَا ذَرٍّ»، فمات وحده فعلاً بالربذة ﷺ.

ويُروى أن أبا ذر ﷺ هو الذي اختار الربذة لا عثمان الذي اختارها له.

ومن عجيب ما قرأته في أمر عثمان ﷺ وأبي ذر ﷺ؛ كلام بعض الكُتَّاب في سيرة أصحاب النبي ﷺ؛ حيث تجرأ على مقام عثمان ﷺ، حيث يقول: «وبذلك حدَّد عثمان إقامته بالربذة)، أي: أن عثمان ﷺ هو الذي اضطره للخروج إليها، سبحان الله مثل هذه الكلمة لا يعرفها الصحابة الأجلاء، وهم أجل قدرًا من أن ينسب إليهم مثل هذه الأفعال، والله أعلم.

فعثمان ﷺ عنه مصيب في كلِّ الأحوال؛ لأنه خشي على العامة أن تثور منهم

فتنة، فإنَّ أبا ذر ﷺ كان يحملهم على الزهد وأمور لا يحتملها الناس كلهم، وإنما هي مخصوصة ببعضهم، انتهى[١].

وذكر القاضي أبو الوليد بن خلدون[٢] أن أبا ذر ﷺ هو الذي استأذن عثمان ﷺ في الخروج من المدينة، وقال: إنَّ رسول الله ﷺ أمرني إذا بلغ البناء سلعًا[٣] (أي: أن أخرج منها)، فنزل الربذة وبنى بها مسجدًا، وأقطعه عثمان ﷺ صرمة من الإبل وأعطاه مملوكين وأجرى عليه رزقًا، وكان يتعاهد المدينة، وبين المدينة والربذة ثلاثة أميال.

٣- وقالوا: إنه أخرج أبا الدرداء ﷺ من الشام، وإنه ضرب ابن مسعود ﷺ حتى كسر أضلاعه، وغيرها يطول ذكره مثل: توليته معاوية، وضربه بالعصا، وكان عمر يضرب بالدِّرَّة، وأنه لم يحضر بدرًا (رغم أنه معذور، والحمد لله).

قال القاضي أبو بكر ابن العربي -رحمه الله: «كلُّ ذلك مكذوب ومفترى عليه، وأنكر أن يكون كلمة من ذلك صحيحة أو لها جذر وأصل، بل المصنفات كثير في فضائل ذي النورين عثمان بن عفان ﷺ، ولم يتزوَّج أحد من الصحابة ابنتي رسول الله ﷺ غيره، وبذلك مات خليفة راشد نتيجة سراب مخترع وإفك وباطل اخترعه الشيطان لأوليائه، ومات مع عثمان الحياء الصافي والرحمة في ثوبها الكامل الذي مُلِئ قلب عثمان بها، ومات معه لهجة صادقة في

---

(١) المصدر السابق، بتصرُّف.
(٢) العبر، (٢/ ١٣٩).
(٣) جبل معروف في المدينة على ساكنها الصلاة والسلام.

خطبه التي كان يرد بها دائمًا على الثائرين ويبيِّن بطلان كلامهم ومطالبهم، ومات معه فتح بيت الأمراء للرعية في الليل والنهار، ﷺ وأرضاه، وسلام الله على تلك الروح الطاهرة.

وتولى الخلافة بعده الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ﷺ، وأما ما يدَّعيه ويفتريه كثيرٌ من جهلة الشِّيعة والقُصَّاص والأغبياء من أنه ﷺ أوصى إلى عليٍّ بالخلافة، فكذبٌ وبُهتٌ وافتراءٌ عظيمٌ يلزم منه خطأ كبير من تخوين الصحابة وَمُمَالَأَتِهِمْ بعده على ترك إنفاذ وصيته ﷺ وإيصالها إلى مَن أوصى إليه، وصرفهم إياها إلى غيره لا لمعنى ولا سبب، وكلُّ مؤمن بالله ورسوله متحقق من أن دين الإسلام هو الحق يعلم بطلان ذلك، وأن النبي ﷺ أشار إلى خلافة أبي بكر.

قلت: وكان عليٌّ ﷺ نفسه يروي ذلك للناس، وكان يقول: «خير هذه الأمة بعد نبيِّها: أبو بكر الصديق ﷺ.

ولك أن تتخيل الحال الذي تولى فيه علي بن أبي طالب الخلافة بعد عثمان - رضي الله عنهما، فعليٌّ ﷺ تولى الخلافة في جو مملوء بالفتن، والخلاف قد دبَّ في الأمصار وفي الدولة المسلمة كلها، وعليٌّ ﷺ يعلم ثقل هذه المهمة عندما بويع بالخلافة، لكنه استجلب لها حول الله وقوته، ووصل الأرض بالسماء في ليله الذي كان يقضيه ﷺ بين يدي ربه ﷻ يناجيه.

وكان عثمان ﷺ قد ولَّى معاوية ﷺ على الشام، وهو لها أهلٌ، وعاش معاوية ﷺ في ولاية الشام حتى قُتل عثمان ظُلمًا، وتولَّى عليٌّ ﷺ الخلافة، وهو أمير على الشام (أعني: معاوية ﷺ)، وكان من أول أعمال الخليفة الجديد علي بن أبي طالب ﷺ سنة ست وثلاثين من الهجرة أن ولَّى على الأمصار ولاة جُدد؛ ولَّى

عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- على اليمن، وسَمُرة بن جُندب ﷺ على البصرة، وعمارة بن شهاب ﷺ على الكوفة، وقيس بن سعد بن عبادة -رضي الله عنهما- على مصر، وسهل بن حنيف ﷺ على الشام[1].

فسار سهل بن حنيف ﷺ حتى بلغ تبوك، فتلقته خيل معاوية، فقالوا: مَن أنت؟ قال: أمير، قالوا: على أيِّ شيء؟ قال: على الشام، فقالوا: إنْ كان عثمان بعثك فحيى هلا بك، وإنْ كان غيره بعثك فارجعْ، فرجع إلى عليٍّ ﷺ.

فها أنت ترى أنه من اليوم الأول أعلن أهل الشام تمرُّدهم على عليٍّ ﷺ بحجة أنه لا بدَّ من قتل قتلة عثمان ﷺ، والحق مع عليٍّ ﷺ؛ لأنه يرى ما لا يراه القوم؛ فقتلة عثمان لهم في كلِّ مصر من الأمصار تبع، وهو لا يريد فتح تلك الجبهات كلها ضده من أول يوم، ثم إنهم بُغاة بغوا على عثمان ﷺ، وحتى لو كان الأمر يقتضي قتلهم؛ فهذا ليس حينه.

وأما قيس بن سعد عبادة ﷺ؛ فاختلف عليه أهل مصر، فبايع له الجمهور وقالت طائفة: لا نبايع حتى نقتل قتلة عثمان، وكذلك قال معظم أهل الأمصار، بل سائرهم، وانتشرت الفتنة بطول البلاد، وتفاقم الأمر واختلفت الكلمة، وبعث عليٌّ ﷺ إلى معاوية ﷺ كُتبًا، فلم يرد معاوية ﷺ عليه جوابها، وبعث معاوية ﷺ إلى عليٍّ ﷺ رجلاً، فقال له عليٌّ ﷺ: ما وراؤك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا قتل من قتل عثمان ﷺ. فقال علي ﷺ: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، ثم خرج الرجل المرسل من عند معاوية ﷺ، فهَمَّ به

(١) البداية والنهاية لابن كثير -رحمه الله.

الخوارج الذين قتلوا عثمان ﷺ يريدون قتله، ولكنه أفلت منهم[١].

وعزم عليٌّ على قتال أهل الشام، وهذا مستساغ من عليٍّ ﷺ؛ لأنه أمير المؤمنين، وله أن يقاتل الخارجين حتى يرجعوا، ولقتال الباغين أحكام منها مثلاً: عدم أخذ أموالهم غنيمة ونسائهم إماء، وعدم الإجهاز على مجروحهم، وعدم ملاحقة الفارين، وفي قتالهم جمع لكلمة المؤمنين وتثبيت لشوكتهم، وهو مجتهد مصيب بحمد الله تعالى، وكان عليٌّ يقول دائمًا عنهم: (إخواننا بغوا علينا)، أو كان يقول كلامًا قريبًا من هذا، ومعاوية ﷺ مجتهد مخطئ؛ فله أجر واحد ﷺ جميعًا.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى:

«لما وقع مقتل عثمان ﷺ بعد أيام التشريق، كان أزواج الرسول ﷺ وأمهات المؤمنين قد خرجن إلى الحج في هذا العام فرارًا من الفتنة، ولما بلغ الناس أن عثمان قد قُتل رجعوا إلى مكة بعد خروجهم، فأقاموا بها ينتظرون ما يصنع الناس، ويتحسسون الأخبار، فلما بويع لعليٍّ ﷺ بالخلافة وصار حظ الناس عنده بحكم الحال، وغلبة الرأي، لا عن اختيار منه لذلك، بل اختيار رءوس الخوارج الذين قتلوا عثمان ﷺ، مع أن عليًا ﷺ في نفس الوقت يكرههم، ولكن يتربص بهم الدوائر، ويود لو تمكن منهم ليأخذ حق الله.

واجتمع الناس كلُّهم على الانتقام من قتلة عثمان ﷺ، ولكن عليًّا ﷺ يعلم أن لهم شوكة، وليس هذا وقت قتالهم، حتى لا تنفتح عليه جبهات كثيرة،

---

(١) انظر: البداية والنهاية.

وتعظم الفتنة أكثر، وتدور رحا الإسلام، وهو يخشى من عاقبة كل ذلك ﷺ، والحق أنه أراد تسكين هذا الأمر فقط ﷺ.

وأصبح عليٌّ ﷺ في العراق ومعه معسكره من الذين بايعوه ومن بينهم قتلة عثمان ﷺ، ومعاوية في الشام ومعه الذين لا يريدون إلا قتل قتلة عثمان ﷺ، واجتمع إليه أناس كثيرون من باقي الأمصار، وشاء الله أن تدور رحا الإسلام، وأن يتخذ الله من كلا المعسكرين شهداء، فقامت بين معسكر علي بن أبي طالب ﷺ ومَن معه من أهل المدينة والعراق، وبين معسكر معاوية ﷺ ومَن معه من أهل الشام معارك، والكلُّ مجتهدٌ، عليٌّ يرى المصلحة، ويفنِّد الأمور، ومعاوية يطالب أولاً بقتل قتلة عثمان، ثم يبايع عليًا -رضي الله عنهما.

وقد سبق قول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله بأن الله يغفر لهم الذنوب المحققة، فكيف بذنب هُمْ فيه مجتهدون؟!

وثمة تنبيهات اهمها:

- الاختلاف سُنة كونية: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

- الصحابة ﷺ بشر غير معصومين من الخطأ، ولا يعلمون الغيب.

- علو همة الصحابة ﷺ بحيث لا يختلفون على دنيا دنية.

- قاتلهم وقتيلهم في الجنة، ولا نخوض في ذلك.

- كلٌّ منهم لم يكن همُّه قتل الآخر، كما يتصوَّر البعض، لكن كان كلٌّ منهم حريص على أن يذعن الآخر له، ويلبي له طلبه الذي ذهب إليه اجتهاده

ووصل إليه علمه، وهذا واضحٌ من خطبة ابن عباس -رضي الله عنهما- لأهل الكوفة؛ حيث قال: «يا أهل الكوفة، أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإنْ رجعوا فذاك الذي نريده، وإنْ أبوا داويناهم بالرِّفق حتى يبدءونا بالظلم، ولم ندع أمرًا فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد، إنْ شاء الله تعالى.

موقف باقي الصحابة ﷺ:

منهم مَن كان مع عليٍّ ﷺ؛ لعلمه أنه الحق، ومنهم مَن كان مع معاوية ﷺ؛ لأن اجتهاده وصل إلى ذلك، ومنهم مَن كان لا مع هذا ولا هذا، ولا يصح أن يُسب مَن كان مع معاوية ﷺ ضد عليٍّ ﷺ؛ كعائشة -رضي الله عنها- أم المؤمنين، وزوج سيد المرسلين ﷺ، وكعمرو بن العاص ﷺ أو غيره، ولا تسمع لتطاول أهل الجهالة بمعرفة القوم ﷺ جميعًا.

تنبيه:

كثيرٌ ما يطيل قوم الكلام حول موقف عائشة -رضي الله عنها- مع عليٍّ ﷺ بأنه كان بسبب وجود رواسب في أنفسهم منذ زمن، فعلى سبيل المثال: يقولون كان في نفس عائشة حقد على عليٍّ ﷺ من أيام حادث الإفك، وهذا الكلام بفضل الله كذبٌ وبهتٌ على عائشة -رضي الله عنهما، وله ردود عدة منها:

إنَّ عليًّا ﷺ عندما أشار على النبي ﷺ بطلاقها كان يقصد تبرئة ساحة الرسول الكريم ﷺ فقط، ولم يكن بينه وبين عائشة زوج رسول الله ﷺ شيء على الإطلاق، أي أن حُبَّه الجمَّ لرسول الله ﷺ دفعه لأن يشير عليه بطلاقها، وهذا صحيح وثابت في الصحاح، لكن لم يكن مقصد عليٍّ ﷺ الانتقام من

عائشة -رضي الله عنها، وهذا ربما يفعله كل محب لرسول الله ﷺ بل -ربما- غيره من الصحابة ﷺ أشار على الرسول ﷺ بذلك، والله أعلم، ومكانة القوم أكبر من الأغراض السيئة بكثير.

وقالوا: إنَّ عائشة كانت مع معاوية ضد عليٍّ ﷺ، وهذا حدث مع كثير من الصحابة الأفاضل غيرها، وهُمْ كما سبق أن قال العلماء: مجتهدون مخطئون لهم أجر واحد، ولعائشة -رضي الله عنها- على وجه الخصوص عذر مقبول جدًّا؛ وهو أنها كما نقل الحافظ ابن كثير(١)، كانت في مكة، ورجعت إليها بعد أن علمت بمقتل عثمان ﷺ، وآثرت -والله أعلم- البقاء بمكة هربًا من الفتن، وهذا فعله كل أزواج الرسول ﷺ وأمهات المؤمنين ﷺ، ولم تكن تعرف ساعتئذٍ لمن سيكون الأمر، ولمن ستئول الخلافة.

لم نعلم، ولم يقله أحد من أهل السِّير أن بين عليٍّ وعائشة -رضي الله عنهما- اختلاف في أمور دنيوية، وهو رجلٌ وهي امرأةٌ، ولكلٍّ منهما حدود، ونحن نعلم أحكام الإسلام في المرأة المسلمة عامة فضلاً عن أزواج الرسول ﷺ، في فصل النساء عن الرجال، ووضع السدود والموانع بينهم، هي ابنة أفضل الأمة بعد نبيِّها، كما قال عليٌّ ﷺ للناس بعد موت الرسول ﷺ، وهُمْ أجل قدرًا من هذه السَّفاسف، وأورع من أن يكن عندهم مثل هذه الهنات، والله أعلم.

وقالوا: إنَّ عائشة -رضي الله عنها- كان في صدرها شيء من عليٍّ بعد موت أبيها ﷺ؛ لأنه لم يبايع أبا بكر ﷺ في الأيام الأولى من خلافته.

---

(١) المصدر السابق.

وهذا مردود وغير مقبول للآتي:

الذي منع عليًّا ﷺ عن مبايعة الصديق في الأيام الأولى من تولية الخلافة، انشغاله بتجهيز الرسول ﷺ ودفنه لا لشيء آخر؛ لأنه من أهل بيته وأولى الناس به ﷺ، ولم نعلم أحدًا من أهل السِّير ذكر أن عليًّا ﷺ كان موجودًا معهم في سقيفة بني ساعدة، ثم إنه بايعه بعد ذلك، بعد دفن الرسول ﷺ، والله أعلم.

وعليٌّ ﷺ من أكثر الذين رووا فضائل أبي بكر الصديق ﷺ، وكان يكثر من قوله: «خير هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر الصديق ﷺ».

ونحن المسلمين مأمورون كما مرَّ بنا في عقيدة أهل السُّنة والجماعة في أصحاب الرسول ﷺ أن نمسك عما حدث بين الصحابة من خلاف، لذا آثرنا أن نضرب عن تفاصيل الخلاف صفحًا حتى نكون قد حقَّقنا كلام أهل السُّنة والجماعة في هذه الناحية، فلا نتحيز لأحد وبالتبعية نسبُّ الآخر، بل نتعلَّم من منهم على الحقِّ لنهتدي إليه في أمورنا اليومية، ومَن منهم لم يكن عليه، فنترضى عنه، ونتعلَّم من خطئه الذي هو فيه مجتهد مأجور أجرًا واحدًا.

وكان آخر هذا الاختلاف أن قُتِلَ عليٌّ ﷺ ظلمًا على أيدي الخوارج، قتله ابن ملجم -أخزاه الله من شقي؛ فهو أشقى الآخرين، كما قال الرسول ﷺ، وآل الأمر (أعني: الخلافة) لأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما[1].

ولا يحسن بالمسلم ولا يليق أن يطلق لسانه بعد ذلك في معاوية ﷺ ظنًّا منه أنه هو قاتل عليٍّ ﷺ، أو أنه كان يبغض شخص عليٍّ، ولمعاوية من المكارم

(١) بعد تنازُل الحسن بن عليٍّ -رضي الله عنهما- عنها له.

والفضائل ما سيأتي ذكره، إنْ شاء الله.

وقد روى أهل السِّير أن معاوية ﷺ كان لا يطيب مجلسه إلا بذكر عليٍّ ﷺ، وكان إذا سُئِلَ عنه بكى ﷺ، وسيأتي بيان ذلك إنْ شاء الله.

قصة مقتل علي بن أبي طالب ﷺ

وخلاصتها كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى: «كان أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب ﷺ، قد تنغصت عليه الأمور، واضطرب عليه جيشه، وخالفه أهل العراق، ونكلوا عن القيام معه، واستفحل أمر أهل الشام، وصالوا وجالوا يمينًا وشمالاً، زاعمين الأمر لمعاوية بمقتضى حكم الحاكمين في خلعهما علي وتولية معاوية عند خلو الأمر عن أحد، وقد كان أهل الشام يسمُّون معاوية (الأمير)، وهذا بعد التحكيم.

هذا؛ وعلي بن أبي طالب ﷺ خير أهل الأرض في ذلك الزمان؛ أعبدهم وأزهدهم وأعلمهم وأخشعهم، كره الحياة وتمنى الموت، وذلك لكثرة الفتن، وظهور المحن، فكان يكثر أن يقول: «ما يحبس أشقاها؟! أو: متى ينبعث أشقاها؟!».

فقد قال عليٌّ ﷺ: «قال لي رسول الله ﷺ: «مَن أَشقَى الأَولين؟» قلت: عاقر الناقة. قال: «صَدقت، فَمَنْ أَشقَى الآخرين؟» قلت: لا أعلم، أو لا علم لي يا رسول الله ﷺ. قال: «الَّذِي يَضْرِبُكَ عَلَى هَذَا»، وَأَشَارَ إِلَى رَأْسِهِ[1].

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في (البداية النهاية)، والحديث رواه الطبراني وأبو يعلى، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ح(١٠٨٨).

إذن؛ فعليٌّ ﷺ يعرف أنه سيقتله أشقى الآخرين، وكان ذلك الشقي هو: عبد الرحمن بن عمرو الحميري الكندي حليف بني حنيفة من كنده، المصري، المعروف بـ(ابن ملجم)، وكان أسمر حسن الوجه، وكان من الخوارج تعاهد هو واثنان معه على قتل معاوية وعلي وعمرو بن العاص ﷺ لما أصاب إخوانهم يوم النهروان، وكان من نصيب الخبيث أن يقتل هو علي بن أبي طالب ﷺ، وقدم الخبيث إلى العراق وتزوَّج بها امرأة شقية حرَّضته على قتل عليٍّ، وزادت ناره نارًا، والناظر في قصة أشقى الأولين قاتل ناقة صالح -عليه الصلاة والسلام- يجد بينهما شبهًا كبيرًا، وهو قدار بن سالف بن جندع؛ حيث تزوَّج بامرأة شقية هي التي حرَّضته على قتل الناقة، بل يقال: إنه كان مهرها هو قتل ناقة الله.

انتظر ابن ملجم خروج عليٍّ ﷺ لصلاة الصبح، وكان من عادته أن يوقظ الناس لها، فضربه الخبيث بالسَّيف، فسال دمه على لحيته ﷺ.

وكان حجة ذلك الخارجي في قتل علي ﷺ أمرين:

الأول: انتقامًا لإخوانه يوم النهروان، وهذا بخطئهم.

والثاني: تكفيره لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ؛ حيث إنه قَبِلَ التحكيم والحكم لله وحده!!

ولذلك عندما ضربه الخبيث قال: «لا حكم إلا لله، ليس لك يا علي ولا لأصحابك، وجعل يتلو: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

حُمِلَ أمير المؤمنين إلى منزله، وحملوا إليه الخبيث مكتوفًا، ودار بينهما نقاش خلاصته، أن قال له عليٌّ ﷺ: يا عدو الله، ألم أحسن إليك؟! قال: بلى، قال: فما حملك على هذا؟! قال: سيف شحذته أربعين يومًا، وسألت الله أن يقتل شر خلقه، فقال أمير المؤمنين علي ﷺ: لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلق الله.ولما احتضر أمير المؤمنين ﷺ جعل يكثر من قول: (لا إله إلا الله)، لا يتلفظ بغيرها.

تنبيهات:

- قاتل علي ﷺ أشقى الآخرين.
- قاتل علي ﷺ ليس من أهل السُّنة والجماعة.
- قاتل علي ﷺ من الخوارج.
- شهادة النبي ﷺ له بأن قاتله أشقى الآخرين، كما كان قاتل ناقة الله أشقى الأولين يدل على مكانة عليٍّ ﷺ.
- صلاح عليٍّ ﷺ في آخر أيامه وزيادة عبادته وخشوعه وورعه، ووصيته الجامعة لأولاده ولجميع المسلمين -تدلُّ على حُسن خاتمته ﷺ.
- الخوارج الذين خرجوا عليه هذه المرة كانت حجتهم أنه كافر (من وجهة نظرهم)؛ حيث إنه قبل حُكمَ الحَكَمين، ولا حكم إلا لله، وكان عليٌّ ﷺ يقول دائمًا ردًّا على كلامهم هذا: «حقٌّ أُريد به باطل».
- الخوارج من أول الفِرَق التي مرقت من الإسلام، كما بيَّن شأنهم رسول الله ﷺ، وقاتلهم عليٌّ ﷺ لعلمه أمر رسول الله ﷺ فيهم، رغم أنهم يُعرفون بكثرة العبادة ومظاهر الصلاح.
- أحفادهم ما زالوا في الأرض لهم بقايا، نسأل الله تطهيرها منهم.

- ها أنت ترى أن الأمر قد دخل فيه ما ليس منه، ودخل في صف أهل السُّنة والجماعة مَن ليس منهم، وهذه العناصر الدخيلة على الإسلام كانت لهم اليد الطولى في قتل عمر، وعثمان، وعلي ﷺ جميعًا.

- نحن نترضى عن جميع أصحاب الرسول ﷺ، ونمسك ألسنتنا عما شجر بينهم، فكلهم مأجور، إما بأجرين أو بأجر واحد، وكثيرًا ما نسمع مَن لا دين لهم ولا فقه ولا ورع يطلقون ألسنتهم في هذا الموضوع، فيتطاولون على جناب الصحابة ﷺ الذين هُمْ شموس طلعت يومًا، ولن تطلع مرة ثانية على الأرض.

مثلاً يتطاولون على معاوية أو عمرو بن العاص أو عائشة ﷺ، وقد نضطر هنا لذكر طرفًا من فضائلهم، حتى ينقشع ذاك الليل بهذا النهار، وهاكم الآثار.

فضائل معاوية بن أبي سفيان ﷺ

١- روى الترمذي -رحمه الله- في (المناقب)[1]، والإمام أحمد في (مسنده)[2] عن عبد الرحمن بن أبي عميرة ﷺ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ، قال لمعاوية: **«اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ، وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا»**؛ فهذا رسول الله ﷺ يدعو له ﷺ.

٢- وعن أبي إدريس الخولاني قال: «لما عزل عمر بن الخطاب ﷺ عمير بن سعيد عن حمص ولَّى معاوية، فقال الناس: عزل عميرًا، وولَّى معاوية، فقال عمير: لا تذكروا معاوية إلا بخير؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اللَّهُمَّ اهْدِ بِهِ»**.

---

(١) رواه الترمذي، (٥/ ٦٨٧).

(٢) رواه أحمد في مسنده، (٤/ ٢١٦).

قلت: فأتوني بأمة أخرى غير هذه الأمة، وجيل غير هذا، يقول المعزول فيه عن ولاية كما قال عمير بن سعيد ﷺ في حق مَن سيلي الأمر مكانه ﷺ جميعًا.

قال أهل السِّير - كما في (تاريخ دمشق)، و(سير أعلام النبلاء): إنَّ في عهده ﷺ فُتحت قبرص، وقاتل المسلمون أهل القسطنطينية، وقال سعيد بن عبد العزيز: لما قُتل عثمان ﷺ ووقع الاختلاف لم يكن للناس غزو حتى اجتمعوا على معاوية ﷺ فأغزاهم مرات، ثم أغزى ابنه في جماعة من الصحابة بَرًّا وبحرًا، حتى أجاز بهم الخليج وقاتلوا أهل القسطنطينية على بابها، ثم قَفَل[1].

٣- روى ابن سعيد عن عمر بن عبد الله العنسي أن معاوية قال: «لما كان عام الحديبية وصدُّوا رسول الله ﷺ عن البيت وكتبوا بينهم القضية وقع الإسلام في قلبي، فذكرت ذلك لأمي، فقالت: إياك أن تخالف أباك، فأخفيت إسلامي، فوالله لقد رحل رسول الله ﷺ عام الحديبية وإني مصدق به، ودخل مكة عام القضاء، وأنا مسلم، وعلم أبو سفيان بإسلامي».

فها أنت ترى أن الإسلام وقع في قلبه صدقًا من أيام صلح الحديبية، وكان إيمانًا اختياريًّا بفضل الله، لا كما يقول الرافضة: إنه من المؤلفة قلوبهم.

٤- شهادة ابن عباس له بالفقه: أخرج البخاري في (فضائل الصحابة) عن أبي مليكة ﷺ قال: أوتر معاوية بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس، فأتى ابن عباس، فقال: دعه فإنه قد صحب رسول الله ﷺ، وقيل لابن عباس:

---

(١) أي: رجع.

هل لك في أمير المؤمنين معاوية، فإنه ما أوتر إلا بواحدة؟ قال: إنه فقيه[١].

٥- **وضوؤه للنبي ﷺ**: قال معاوية ﷺ: «كنت أوضئ رسول الله ﷺ فنزع قميصه وكسانيه[٢]، فرفعته وخبأت قلامة[٣] أظفاره، فإذا مت فألبسوني القميص على جلدي، واجعلوا القلامة مسحوقة في عيني، فعسى الله أن يرحمني ببركتها»[٤].

٦- كتابته الوحي للنبي ﷺ:

روى مسلم عن ابن عباس -رضي الله عنهما: قال أبو سفيان: يا رسول الله، ثلاث أعطينيهن، قال نعم: قال: تؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين، قال: نعم، قال: ومعاوية تجعله كاتبًا بين يديك، قال: نعم، وذكر الثالثة وهي أنه أراد أن يزوج رسول الله ﷺ بابنته الأخرى عزّة بنت أبي سفيان، واستعان على ذلك بأختها، أم حبيبة -رضي الله عنها، فقال الرسول ﷺ: «إِنَّ ذَلكَ لَا يحل لِي».

قال الشيخ محمد مال الله: «والمقصود منه أن معاوية كان من جُملة كُتَّاب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ».

وروى مسلم والإمام أحمد والحاكم في مستدركه عن ابن عباس -رضي الله عنهما، قال: «كنت ألعب مع الغلمان، فإذا رسول الله ﷺ قد جاء، فقلت: ما جاء إلا

---

(١) رواه البخاري، وانظر: فتح الباري، (٧/ ١٠٣).

(٢) أي: ألبسني إياه.

(٣) أي: قصاصة.

(٤) أنساب الأشراف، (٤/ ١٥٣)، وتاريخ الإسلام، (٢/ ٣٢٣)، وتاريخ الطبري، (٥/ ٣٢٦)، وسير أعلام النبلاء، (٣/ ١٦).

إليَّ فاختبأت على باب، فجاءني فخطأ في خَطأة أو خَطأتين، ثم قال: اذهبْ فادع لي معاوية، وكان يكتب الوحي قال: فذهبت فدعوته له، فقيل: إنه يأكل، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إنه يأكل، فقال: اذهبْ فادعه، فأتيته الثانية فقيل: إنه يأكل فأخبرته، فقال في الثالثة: لا أشبع الله بطنه، قال: فما شبع بعدها».

قال ابن كثير -رحمه الله[1]: «وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة في دنياه وأخراه، أما في دنياه؛ فإنه لما صار إلى الشام أميرًا، كان يأكل في اليوم سبع مرات يجاء بقصعة فيها لحم كثير وبصل فيأكل منها، ويأكل في اليوم سبع أكلات بلحم، ومن الحلوى والفاكهة شيئًا كثيرًا ويقول: والله ما أشبع وإنما أعيى، وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك. وأما في الآخرة؛ فقد أتبَع الإمام مسلم هذا الحديث السابق بالحديث الذي رواه البخاري وغيره من غير وجه عن جماعة من الصحابة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ، مِنْ أُمَّتِي، بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ، أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً، وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

فركب الإمام مسلم -رحمه الله- من الحديث الأول والحديث الثاني فضيلة لمعاوية ﷺ.

قلت: انظرْ إلى أهل العلم كيف يبحثون عن الفضائل، ويجمعون شتاتها ويركِّبون متفرقها؛ لأن قلوبهم سلمت لأصحاب رسول الله ﷺ، واليوم يبتر بعضهم النصوص ليخترع للقوم ذنوبًا ونقائص يطلقون الألسنة بها.

---

(١) البداية والنهاية، (٨/ ١١٩-١٢٠).

٧- ماذا يقول معاوية ﷺ في خُطبه؟

عن عُبادة بن نُسيٍّ ﷺ قال: «خطب معاوية فقال: إنَّ مَن زرع قد استحصد، وقال: طالت إمرتي عليكم حتى مللتكم ومللتموني، ولا يأتيكم بعدي خير مني، كما أن من كان قبلي خير مني، اللهم إني أحببت لقاءك فأحب لقائي»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله: «ثم إنه بقي في الشام عشرين سنة أميرًا، وعشرين سنة خليفةً، ورعيته من أشد الناس محبة له، وموافقة له، وهو من أعظم الناس إحسانًا إليهم، وتأليفًا لقلوبهم».

قلت: حتى اشتهر على ألسنة الناس المثل المعروف بـ(شعرة معاوية)؛ حيث كان يلين إذا جدوا والعكس، وكان يقول لهم بحكمته: «بيني وبينكم شعرة، فإذا شددتها فأرخوها، وإذا شددتموها أرخيتها» (أي: حتى لا تنقطع).

رحم الله معاوية ﷺ، الذي صبر على الرعية أربعين سنة، وكان ألين إليهم من أحدهم إليهم، وكان إحسانه قد عمَّهم جميعًا، ومات ﷺ وهم عنه راضون.

فهذا غيض من فيض، وقطرة من بحر في فضله ﷺ، وفي هذا كفاية.

ثم نضطر للتعريج على فضل الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق، حتى لينقشع الغمام عند الذين ينقصون من قدرها تعصُّبًا لأمير المؤمنين عليٍّ ﷺ، وقد كان أكثر منهم تعظيمًا لها؛ فهي أم المؤمنين جميعًا -رضي الله عنها.

---

(١) أنساب الأشراف، (٤/ ٤٤)، وتاريخ الإسلام، (٢/ ٣٢٣)، وسير أعلام النبلاء، (٣/ ١٥٩)، والبداية والنهاية، (٨/ ١٤١).

شذرات من مناقب أم المؤمنين
عائشة -رضي الله عنها

روى البخاري[١]، ومسلم[٢]، والترمذي والنسائي عن ابن شهاب، قال أبو سلمة ﷺ: أن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ يَومًا: يَا عَائِشَةَ، هَذَا جبرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلَامَ»، فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى»، تريد رسول الله ﷺ.

وروى البخاري عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»[٣].

وروى البخاري -رحمه الله[٤] عن هشام عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها- أنها استعارت من أسماء -رضي الله عنها- قلادة فهلكت، فأرسل رسول الله ﷺ ناسًا من أصحابه في طلبها، فأدركتهم الصلاة، فصلّوا بغير وضوء، فلما أتوا النبي ﷺ شكوا ذلك إليه، فنزلت آية التيمم، فقال أُسيد بن حضير ﷺ: جزاكِ الله خيرًا، فوالله ما نزل بك أمر قط إلا جعل الله لكِ منه مخرجًا، وجعل فيه للمسلمين بركة.

---

(١) انظر: فتح الباري، (٧/ ١٠٦).
(٢) شرح النووي، (١٥/ ٢١١).
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) فتح الباري، (٧/ ١٠٦-١٠٧).

وروى مسلم[1] عن هشام عن أبيه عن عائشة: أن الناس كانوا يتحرون لهداياهم يوم عائشة، يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ.

وروى مسلم وغيره حديث (أم زرع) وفي آخره قالت عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: «كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ».

قال الشيخ محمد مال الله: «أي في الألفة والعطاء لا في الفرقة والخلاء».

وروى الترمذي وصحَّحه الشيخ الألباني -رحمه الله تعالى: عن عائشة -رضي الله عنها- أن جبريل ﷺ جاء بصورتها في خرقة حرير خضراء إلى النبي ﷺ، فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة».

وروى الترمذي[2] عن أبي موسى ﷺ قال: «ما أشكل[3] علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط، فسألنا عائشة، إلا وجدنا عندها منه علمًا».

وروى الترمذي أيضًا[4] عن موسى بن طلحة ﷺ قال: «ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة».

وروى الترمذي أيضًا[5] عن عمرو بن العاص ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ عن أحب الناس إليه، قال: «عائشة». قال: قلت: من الرجال. قال: «أبوها».

قلت: فيا مَن يطلق لسانه -ببنت شفة- في أحب الناس إلى رسول الله ﷺ ماذا يكون موقفك غدًا مع رسول الله ﷺ يوم الحشر والعرض على الله، وأنت

---

(١) انظر: شرح النووي، (١٥/ ٢٠٥).
(٢) رواه الترمذي، (٣/ ٢٤٣).
(٣) صعب علينا فهم حديث.
(٤) رواه الترمذي، (٣/ ٢٤٣).
(٥) رواه الترمذي، (٣/ ٢٤٣).

تقول عن عرضه ما تقول؟!

ومن تواضعها أنها لما مدحها ذات يوم عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- بأن عذرها[١] يتلى في المساجد آناء الليل وآناء النهار إلى يوم القيامة، قالت له: دعني عنك، أو دعني من تزكيتك يا ابن عباس، فوالله لوددت أني كنت نسيًا منسيًا[٢].

رضي الله عنها وعن أبيها، ونكتفي بهذه الإشارة البسيطة على فضلها، وبحر مناقبها، والله الهادي إلى سبيل الرشاد.

شذرات من مناقب عمرو بن العاص ﷺ

ثم نثلث الحديث عن مناقب عمرو بن العاص ﷺ الذي قيل فيه ما قيل، فهو مجتهد مخطئ مأجور أجرًا واحدًا، ولا نستطيع أن نقول -حتى- ما يقوله مَن يحاولون بصعوبة قبول وجهة نظره ﷺ في موقفه مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وما دمت هنا أتكلم عن الرَّدِّ عنهم والدفاع عن ساحتهم وبيان قدرهم، فلا داعي لسرد تلك المواقف التي حدثت بينهم ﷺ، وكانوا مجتهدين فيها.

ونحن أهل مصر بالذات سنظل نرى عَمْرو بن العاص ﷺ بأنه سبب هدايتنا بفضل الله تعالى ورحمته، وسيظل الذين يحملون هذا الإيمان مشحوذي الولاء للرجل الذي جعله الله سببًا لإهداء الإسلام إلى مصر، فنعمت الهداية، ونعم مُهديها.

ولنترك الحديث الآن له ﷺ كما روى أهل السِّير والسُّنن أن عَمْرًا أخذ يومًا يستعرض حياته، فقال: «كنت أول أمري كافرًا، وكنت أشد الناس على رسول

---

(١) أي: سورة النور التي ردَّ الله بها حديث الإفك.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، (٣/ ١٩٠٥).

الله ﷺ فلو مِتُّ يومئذٍ لوجبت لي النار، ثم بايعت رسول الله ﷺ، فما كان في الناس أحب إلي منه ولو شئت أن أنعته ما استطعت، لأني لم أكن أقدر أن أملأ عيني منه إجلالاً له، فلو مِتُّ يومئذٍ لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم بليت بالسلطان بعد ذلك، وبأشياء لا أدري أهي لي أم عليَّ. ثم رفع بصره إلى السماء قائلاً في ضراعة: اللهم لا بريئ فاعتذر ولا عزيز فانتصر، وإلا تدركني رحمتك أكن من الهالكين».

وكان عمرو ﷺ حاد الذكاء، قوي البديهة، عميق الرؤية حتى لقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ كلما رأى إنسانًا عاجز الحيلة، قليل التَّصرُّف صكَّ كفَّيه عجبًا وقال: سبحان الله، إنَّ خالق هذا وخالق عمرو بن العاص إله واحد، أي: كان الفاروق يجعله مقياسًا لسرعة البديهة وحِدة الذكاء، وكان عمرو ﷺ بالغ الجرأة مقدامًا.

روى أهل السِّير أن عمر بن الخطاب ﷺ لما أرسل عمرو بن العاص ﷺ على رأس جيوش الإسلام لتلاقي جيوش الروم قيل له: إنَّ على رأس جيوش الروم بالشام (أرطبونا) أي: شُجاعًا داهية، فكان جواب الفاروق ﷺ: لقد رمينا أرطبون الروم بأرطبون المسلمين، لننظر عما تنفرج الأمور. ولقد انتصر المسلمون بفضل الله تعالى بقيادة عمرو بن العاص ﷺ.

وتحت تراب مصر، دفن عمرو بن العاص ﷺ، وفوق أرضها لا يزال مجلسه حيث كان يعلم، ويقضي ويحكم، وجامع عمرو بن العاص، لا يزال عامرًا يرفع فيه نداء الحق (الله أكبر الله أكبر)، وتقام فيه الصلوات الخمس ليومنا هذا.

وهذا آخر ما فتح الله تعالى به، وإنما قصدت مختصرًا، يكون في متناول كل أحد،

وكل مَن يريد الحق بأقصر طريق؛ لأن الموضوع طويل متشعب والمصادر فيه كثيرة ومتفاوتة في الكلام، فإن يكن فيما كتب خطأ فمن نفسي، وإني سائلك النصيحة لا الفضيحة، ومن نُصحك أتعلم، وبه أستدفع الجهل، ولا تنس أن الموضوع من الصعوبة بمكان، ولكني تجشمته خوفًا على مَن يطلق لسانه دون قيد أو رادع.

والله يشهد أني لم آل جهدًا في التحري عن صحة ما كتبته والاستفادة من الملاحظات التي أبداها بعض النَّاصحين -جزاهم الله خيرًا، وتركت أشياء كثيرة؛ حيث لا طائل من ورائها.

ولكن ثمة نصيحة، ألا وهي أنه على كلِّ مسلم أن يتق الله عندما يقرأ عن السَّلف عمومًا، وخاصة الجيل المثالي جيل الصحابة -رضوان الله عليهم، فله أن يرجع إلى مصادر النبع الصافي من العهد الأول، إلى كتب من كانت صدورهم سليمة للصحابة -رضوان الله عليهم- لا الذين يخترعون للقوم سيئات، ولنا في عمل الإمام مسلم القدرة والأسوة؛ حيث أورد حديثًا لا داعي له في مقامه إلا لأن يثبت فضيلة لمعاوية ﷺ.

فلا تنخدع بما يكتبه الذين تربوا على موائد الغرب الحاقد على الإسلام وأهله، فإنهم يضعون سُمًّا في إناء العسل، حتى لا يتنبه إليه آكله، ولتكن على حذر من هؤلاء، والرافضة كثر، ولم يخل منهم عصر، حتى سمعنا مَن يشتم معاوية ﷺ ويصفه بأنه من المؤلفة قلوبهم هو وأبيه، من بعض كُتَّاب هذه الأيام.

والحمد لله، نحن في غُنية عن عبثهم وكلامهم، فالتراث الإسلامي زاخر بالكتب التي تنير أمام شباب الإسلام الطريق، لكن لا بدَّ لهم من بصيرة تنير لهم الطريق عند المطالعة، ولذلك أوجب بعض علماء الإسلام طلب العلم، حتى لا

يقع المسلم تحت وطأة الجهل، فيجد نفسه شبه رافضي أو قريب من خارجي.

ولقد حدَّثني ذات مرة رجل صادق اللَّهجة أنه كان يظن أن معاوية ليس مسلمًا، وهذا حتى بلغ سنه فوق الثلاثين سنة، ثم قال لي في النهاية: إنه خريج تلك المدارس التي تغرب أطفال المسلمين، فتحققت مما يقول أخيرًا. فلا بدَّ إذن على كلٍّ مسلم أن يعتصم بالعقيدة الصافية التي تحميه من الانزلاق في مهاوي تلك الفرق التي تفرَّق إليها أهل الملة، ألا وهي عقيدة أهل السُّنة والجماعة.

اقرأ مثلاً في (فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله) في ردِّه المبارك على هذه الشُّبهات التي أثارها الروافض عن الصحابة ﷺ، واقرأ مثلاً في (البداية والنهاية) للحافظ ابن كثير -رحمه الله، واقرأ كذلك كتاب (العواصم من القواصم) للقاضي أبي بكر بن العربي -رحمه الله، رغم أن الكتاب إلى الآن يحتاج إلى مَن يهذبه لا لمن يزيد عليه حواشي تزيده تعقيدًا، ورحم الله العلامة محب الدين الخطيب، والشيخ محمود مهدي الإستانبولي على ما بذلاه من جهد في إخراج هذا المصنف الفريد.

وإنما تعجلت كتابة هذا البحث بهذه الصورة المختصرة لأمرين:

أولهما: للمشاركة في ميدان الدفاع عن الإسلام خاصةً عن الجيل الذي طرأ على تاريخ من التغيير والبتر التبديل ما الله به عليم.

وثانيهما: مبادرة بالأعمال الصالحة، والله المستعان، وهو حسبي في المبدأ والختام.

كتبه:

ربيع عبد الرءوف عبد السلام الزواوي

عفا الله عنه

الإسكندرية في ١٣/٩/١٤١٣هـ

فهرس المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، مكتبة المعارف.

٣- الإبانة في أصول الديانة، للإمام أبي الحسن الأشعري بتحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ حماد محمد الأنصاري، وإسماعيل الأنصاري، دار الدعوة السلفية.

٤- العقيدة الطحاوية، الإمام الطحاوي بشرح ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: الشيخ الألباني، المكتب الإسلامي.

٥- شبهات حول الصحابة والرد عليها، ومنها الكتاب الرابع، والخامس والثالث، لابن تيمية -رحمه الله، مكتبة ابن تيمية.

٦- العواصم من القواصم، ابن العربي -رحمه الله، دار الكتب السلفية.

٧- العقيدة الواسطية، ابن تيمية -رحمه الله، المكتبة الإسلامية.

٨- مجموع فتاوى شيخ الإسلام لابن تيمية -رحمه الله، دار الرحمة.

٩- صحيح البخاري، للإمام البخاري -رحمه الله، طبعة الريان.

١٠- صحيح الإمام مسلم بشرح النووي -رحمهما الله، طبعة الشعب.

***

الباب الرابع

تاريخ الحرمين الشريفين
والمسجد الأقصى

المقدمة:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على مَن بعثه الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

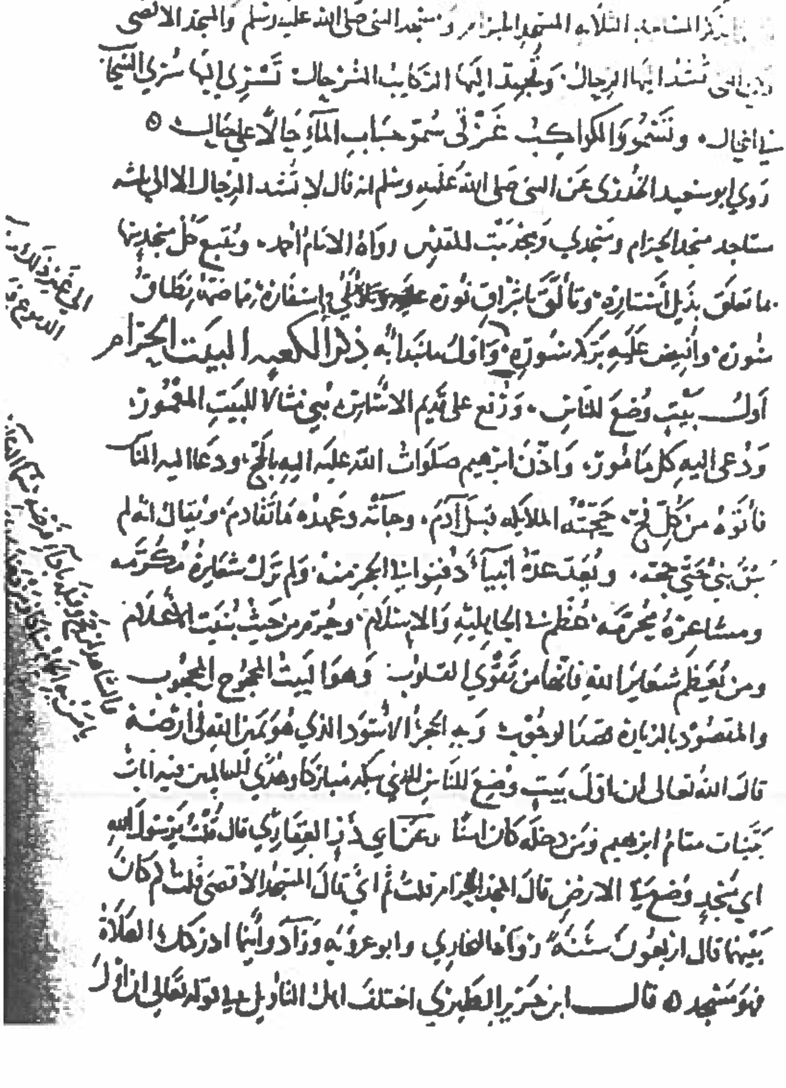
وبعد: فهذا (تاريخ المساجد الثلاثة) التي لا تشد الرحال إلا إليها، الكعبة البيت الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، والمسجد الأقصى، نقدِّمه اليوم للعالم الإسلامي من مخطوطة قديمة للمؤرخ المتوسع المدقق العلامة أحمد بن يحيى بن فضل الله، المشهور بـ(ابن فضل الله العمري -رحمه الله)، المتوفى سنة (٧٤٩هـ)، سائلين الله تعالى أن ينفع بها.

والمخطوطة عبارة عن سفر كبير من ستة وأربعين جزءًا، نشرها مصورة بنفس الخط معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت ألمانيا الاتحادية يصدرها فؤاد سزكين بالتعاون مع علاء الدين جوخوشا، وأيكهارد نويبار، سلسلة (ج) عيون التراث.

وهذا القسم الذي بين يديك عبارة عن القسم الخاص بتاريخ الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى من الجزء الأول (المجلد ١/ ٤٦)، والسفر كله بعنوان: (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) طبع بالتصوير عن مخطوطة (١/ ٢٧٩٧) أحمد الثالث، طوبقابو سراي أستانبول. وقد تعجَّلنا اقتطاع هذا القسم ونشره تحقيقًا لمطلب وغاية طالما تمناها كثيرٌ من الحجاج والمعتمرين الذي يقصدون بيت الله الحرام ومسجد الرسول ﷺ، سائلين الله أن يخلِّص ثالثها من الأسر ومن أيدي الغاصبين، وأن يرجعه إلى حوزة المسلمين، وأن يرزقنا صلاة فيه قبل الممات، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

صورة ورقتين من المخطوط

الأولى والأخيرة



... ذكر المساجد الثلاثة المسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى
التي تشد إليها الرحال، وتجهد إليها الركائب المترحلات تسري إليها سري السحاب
في الخيال، وتسمو والكواكب غرر في سمو حباب الماء جالاً على حالات
روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة
مساجد مسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس رواه الإمام أحمد، ويتبع كل مسجد منها
ما تعلق بذيل الإشارة، وتألق بأبراق نوره [illegible] في إسفاره [illegible] نطاق
شؤون، وأنبض عليه بركة سوره، وأول ما نبدأ به ذكر الكعبة البيت الحرام
أول بيت وضع للناس، وزنع على قديم الآثار بني [illegible] البيت المعمور
ودعي إليه كل مأمور، وأذن إبراهيم صلوات الله عليه إليه بالحج، ودعا إليه الناس
فأتوه من كل فج، حجته الملائكة قبل آدم، وحجه وعهده ما تقادم، ويقال إنه لم
يبق نبي حتى حجه، ويعد عدة أنبياء دفنوا في الحرم، ولم تزل شعائره مكرمة
ومشاعره محترمة، معظم في الجاهلية والإسلام، وحرم من حيث بنيت الأعلام
ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب، وهو البيت المحجوج المحجوب
والمقصود بالزيارة قصداً ووجوباً، وفيه الحجر الأسود الذي هو يمين الله في أرضه
قال الله تعالى إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات
بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً، وعن أبي ذر الغفاري قال قلت يا رسول الله
أي مسجد وضع في الأرض قال المسجد الحرام قلت ثم أي قال المسجد الأقصى قلت كم كان
بينهما قال أربعون سنة، رواه البخاري وأبو عوانة وزاد وأينما أدركت الصلاة
فهو مسجد، قال ابن جرير الطبري اختلف أهل التأويل في قوله تعالى إن أول

وأما صفة المسجد الحرام المحيط بالكعبة

فنقول قد ذكر الأزرقي والماوردي والسهيلي وغيرهم وفي كلام بعضهم زيادة
على بعض كان المسجد الحرام أعني المحيط بالكعبة فناء لها وفضاء للطائفين ولم يكن
له على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر جدار يحيط به فضيق الناس على الكعبة
وألصقوا دورهم بها وكانت الدور محدقة بالكعبة وبين الدور أبواب يدخل الناس
من كل نواحيه فلما استخلف عمر وكثر الناس قال لابد لبيت الله من فناء وإنكم دخلتم
عليه ولم يدخل عليكم فوسع المسجد واشترى تلك الدور وهدمها وزادها في المسجد
واتخذ للمسجد جدارا قصيرا دون القامة وكانت القناديل توضع عليه وكان
عمر أول من اتخذ الجدار للمسجد الحرام ثم لما استخلف عثمان ابتاع منازل
ووسعه بها وبنى الأروقة للمسجد فيما ذكر الأزرقي والماوردي وغيرهما
ثم إن ابن الزبير زاد في المسجد زيادة كثيرة واشترى دورا من جملتها بعض
دار الأزرق اشترى ذلك البعض ببضعة عشر ألف دينار وجعل فيه عمدا
من الرخام ثم عمره عبد الملك بن مروان ولم يزد فيه لكن رفع جدرانه
وجلب إليه السواري في البحر إلى جدة وسقفه بالساج وعمره عمارة حسنة
ثم وسع ابنه الوليد وحمل إليه أعمدة الحجارة والرخام ثم زاد فيه المنصور وجعل
فيه أعمدة الرخام وزاد فيه المهدي مرتين إحداهما سنة ستين ومائة والثانية
سنة سبع وستين ومائة وتوفي المهدي واستقر بناؤه إلى الآن

وأما الرواق فنقول إن له سقفين أحدهما فوق الآخر وبينهما فرجة
قدر الذراعين أو نحوها فأما الأعلى منه فمسطوح مفروش مسقف بالدوم اليماني

المسجد النبوي تشرفه بأفضل الصلاة والسلام

موضع منبره ... ومقام مصلاه ودار أخيه ... وخادم حجرته

الى مهبط ...

يا خير من دفنت في القاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال أنس قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل في علو المدينة في حي يقال

لهم بنو عمرو بن عوف فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ثم إنه أرسل إلى ملأ بني النجار

فجاءوا متقلدين سيوفهم فكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته

وأبو بكر ردفه وملأ بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب قال وكان يصلي حيث

أدركته الصلاة ويصلي في مرابض الغنم ثم إنه أمر بالمسجد فأرسل إلى ملأ بني النجار

فجاءوا فقال يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا فقالوا لا والله ما نطلب ثمنه إلا إلى الله

ثم قال أنس وكان فيه نخل وقبور المشركين وخرب فأمر النبي صلى الله عليه

وروى عن الشفاء بنت عبد الرحمن الأنصارية قالت كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم حين بنى المسجد يؤمه جبريل إلى الكعبة ويقيم له القبلة قال السهيلي بني مسجد

رسول الله صلى الله عليه وسلم وسقف بالجريد وجعلت عمده من جذوع النخل ...

... عمر وجدده ... قال أبو سعيد الخدري كان سقف مسجد النبي صلى الله عليه

وسلم من جريد النخل وأمر عمر ببناء المسجد وقال أكن الناس من المطر وإياك أن

تحمر أو تصفر فتفتن الناس وعن عبد الله بن عمر أن المسجد كان على عهد رسول الله

صلى الله عليه وسلم مبنيا باللبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل فلم يزد فيه أبو بكر

شيئا وزاد فيه عمر وبناه على بنائه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باللبن والجريد

[illegible]

المسجد الأقصى معهد الأنبياء ومشهد الأولياء وثاني البيت الحرام
في البناء وأول القبلتين حال الابتداء شيدت ملوك بني اسرائيل معالمه
وشرفت بقباب البروج معاقده ثم تداولت بنو أمية ذماه وصحوا أرضه
وسماه وهنا هو على ما هو عليه من حمل الآلام واختلاف دول الكفر والاسلام
ومن حضرته المقدسة المعراج حيث عرج خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام
من حضرة القدس إلى حضرة القدس وبسط له بساط ودنا من ربه منزلا لم يبلغه
الخليل ولا الكليم ولا وصل إليه ملك مقرب ولا نبي كريم وقد ليهدأ ذلك المسجد
بالنبيين وصعد منه إلى أعلا عليين وإلى صنيع تلك البقعة الخيرة ومنها يوم
القيمة المحشر والصخرة بها عرش الله الأدنى ومقام الخاتم الأسنى وهي قبلة
ترنو إليها عروش الكعبة زمانا وتسمو الناس لسناء ذكرها سره المسجد الأقصى [illegible]

قال العلامة، بحر العلوم، فريد دهره الإمام أحمد بن يحيى بن فضل الله بن المحلي بن دعجان بن خلف بن أبي الفضل نصر بن منصور بن عبد الله بن يحيى بن محمد بن أبي سلمة بن عبيد الله بن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي -رحمه الله-:

«فنبدأ بذكر المساجد الثلاثة؛ المسجد الحرام، ومسجد النبي ﷺ، والمسجد الأقصى، وهي التي تشد إليها الرحال، وتجتهد إليها الركائب الترحال، تسري إليها سرى السحائب في المجال، وتسمو الكواكب غرقى سمو حبات الماء حالاً على حال.

روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى»[1] (رواه الإمام أحمد).

ونتبع كل مسجد منها بما تعلق بذيل أستاره، وتألق بإشراق أنواره، وتلألأ في أسفاره، مما ضمه نطاق سوره، وأفيض عليه بركة سُوره، إلى غير ذلك من آثار ومواطن تجد الدموع فيها النثار.

---

(١) رواه البخاري في «الصلاة في مسجد مكة والمدينة»، باب: «فَضْلِ الصَّلاَةِ فِي مَسْجِدِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ»، ح(١١٨٨)، ومسلم في «الحج»، باب: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ»، ح(١٣٩٧).

ذكر الكعبة البيت الحرام

أول بيت وضع للناس، ورُفع على قديم الأساس، بُني مثالاً للبيت المعمور، ودُعي إليه كل مأمور، وأذَّن إبراهيم -صلوات الله عليه- بالحجِّ، ودعا إليه الناس فأتوه من كل فَجٍّ، حَجَّته الملائكة قبل آدم، وجاءته وعهدُه ما تقادم، ويقال: إنه لم يبق نبي حتى حجَّه، ويعد عدة أنبياء دُفنوا في الحجر منه، ولم تزل شعائره مكرَّمة، ومشاعره محرَّمة، عَظُم في الجاهلية والإسلام، وحرم من حيث بنيت الأعلام: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وهو البيت المحجوج المحجوب، والمقصود بالزيارة قصد الوجوب، وبه الحجر الأسود الذي هو يمين الله في أرضه، والشاهد لمن حجَّ وقبَّله بأداء فرضه، سماء الدعاء، وحرم تحريم الدماء، يأمن به الحمام ساكنًا، ومَن دخله كان آمنًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وعن أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض؟[١] قال: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قلت: ثم أي؟ قال: «الْمَسْجِدُ الأَقْصَى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً» رواه البخاري[٢] وأبو عروبة، وزاد: «وأَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ؛ فَهُوَ مَسجِدٌ».

---

(١) أي: أي مسجد وضع في الأرض أولاً؟

(٢) ورواه أيضًا مسلم وأحمد والنسائي وابن ماجة.

قال ابن جرير الطبري[١]: «اختلف أهل التأويل في قوله تعالى: : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، فقال بعضهم: تأويله أن أول بيت وضع للناس يُعبد الله فيه، مباركًا وهدى للعالمين للذي ببكة، قالوا: وليس هو أول بيت وضع في الأرض؛ لأنه قد كان قبله بيوت كثيرة. ثم أسند هذا القول عن علي بن أبي طالب والحسن ومطر وسعيد وأظنه ابن جبير، ثم قال: وقال آخرون: بل هو أول بيت وضع للناس. واختلف هؤلاء في صفة وصفه أوّل، فقال: بعضهم: خلقه قبل الأرض، ثم دُحيت الأرض من تحته. وأسند هذا عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وقال: خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة، وكان عرشه على الماء، ونحوه عن مجاهد وقتادة والسدي، وقال آخرون: موضع الكعبة موضع أول بيت وضعه الله في الأرض. وأسند عن قتادة قال: ذُكر لنا أن البيت هبط مع آدم حين أُهبط. قال الله: أهبط معك بيتي يُطاف به كما يُطاف حول عرشي، فطاف حوله آدم ومَن كان بعده من المؤمنين، حتى إذا كان زمن الطوفان، رفعه الله وطهَّره من أن تصيبه عقوبة أهل الأرض، فصار معمورًا في السماء، ثم إنَّ إبراهيم تبع منه أثر بعد ذلك، فبناه على أساس قديم كان قبله.

وقوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، يعني للبيت الذي ببكة، قال الزمخشري: وهو علم البلد الحرام، ومكة وبكة لغتان، وقيل: مكة البلد وبكة موضع المسجد، وقيل: بكة موضع البيت ومكة ما حوله، وقيل: بكة البيت والمسجد ومكة الحرم كله. وقال عطاء بن أبي رباح: وُجِّه آدم إلى مكة حين

(١) تفسير ابن جرير الطبري المسمى جامع البيان، (٤/ ١١)، ط. دار الفكر، ببيروت.

استوحش، فشكر ذلك إلى الله ﷻ في دعائه، فلما انتهى إلى مكة أُنزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان، فرفعت تلك الياقوتة حتى بعث الله ﷻ إبراهيم فبناه.. فذاك قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، رواه أبو عروبة.

وروى أبو الوليد الأزرقي بسنده عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: إنَّ الله - تبارك وتعالى- بعث ملائكة، فقال: ابنوا لي بناء في الأرض تمثال البيت[1] وقدره، وأمر الله مَن في الأرض من خلقه أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. قال: وكان هذا قبل خلق آدم عليه السلام، والله أعلم.

وقيل: إنَّ آدم أول مَن بناها، وقيل: شيث بن آدم، وكانت قبل بنائه خيمة من ياقوتة حمراء يطوف بها آدم.

وروى سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: «ذُكر لنا أن قواعد البيت من حراء، وذُكر لنا أن البيت من خمسة أجبل: حراء، ولبنان، والجودي، وطور، سيناء، وطور زنتا».

وقال ابن جريج: «بُني أساس البيت من خمسة أجبل.. فذكر مثله، ونقل السّهيلي أن الملائكة كانت تأتي إبراهيم عليه السلام بالحجارة.

وقيل: رُفعت الكعبة في الطوفان، وأودع الحجر الأسود أبا قبيس ويقى موضعها ربوة حجَّها هود وصالح، فيقال: إنَّ يعرب قال لهود: إلا تبينه؟ قال: إنما يبينه نبي يتخذه الله خليلاً، ولما بناه إبراهيم دلَّته عليه السَّكينة، وكانت تنزل عليه كالحجفة.

---

(١) أي: البيت المعمور الذي في السماء الرابعة.

وصف الكعبة لما بناها إبراهيم الخليل عليه السلام

قال الأندقي: «لما بنى إبراهيم عليه السلام الكعبة جعل طول بنائها في السماء تسعة أذرع، وطولها في الأرض ثلاثين ذراعًا، وعرضها في الأرض اثنين وعشرين ذراعًا، وكانت غير مسقوفة».

وصف بناء قريش لها في الجاهلية

ثم بنتها قريش في الجاهلية، فزادت في طولها في السماء تسعة أذرع، فصار ارتفاعها في الهواء ثمانية عشر ذراعًا، ونقصوا من طولها في الأرض ستة أذرع وشبرًا تركوها في الحِجْر[(١)].

وصف بنائها في زمن عبد الله بن الزبير والحجاج بن يوسف

ولم تزل كذلك حتى كان زمن عبد الله بن الزبير[(٢)]، فهدمها وبناها على قواعد إبراهيم، وزاد ارتفاعها في الهواء تسعة أذرع، فصار ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعًا، ثم بناها الحجاج بن يوسف الثقفي، فلم يغيِّر ارتفاعها ونقص الحجر وأعلاه كما كان في الجاهلية[(٣)].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام، دار التراث العربي، (١/ ١١٧، ١١٨، ١١٩).

(٢) عبد الله بن الزبير بن العوام، أول مولود ولد في الإسلام ولد بعد هجرة الرسول ﷺ بالمدينة، أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين، وسُر رسول الله ﷺ بمولده، وحنكه بيده وكبَّر المسلمون يومئذٍ حتى ارتجت المدينة فرحًا به، وكان عابدًا ورعًا تقيًا، بويع بالخلافة سنة (٦٤هـ)، وقتله الحجاج بن يوسف، وهو الوحيد الذي بنى الكعبة كما كان رسول الله ﷺ يتمنى، وكان مقتله في خلافة عبد الملك بن مروان سنة (٧٣هـ).

(٣) وظل الأمر هكذا حتى عصرنا هذا.

تاريخ بناء الكعبة بالترتيب

واعلم أن الكعبة بنيت في الدهر خمس مرات[(١)]:

إحداهن: بناء الملائكة، وآدم وشيث على ما تقدَّم.

الثانية: بناء إبراهيم عليه السلام.

الثالثة: بناء قريش، والسبب في ذلك أن الكعبة استهدمت، وكانت فوق القامة وأرادوا تعليتها، وكان بابها لاصقًا بالأرض في عهد إبراهيم وعهد جُرهم، وإلى أن بنتها قريش، فقال أبو حذيفة بن المغيرة، يا قوم، ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخلها أحد إلا بسلم، فإنه لا يدخلها حينئذٍ إلا مَن أردتم، فإن جاء أحد ممن تكرهونه رميتم به فسقط، وصار نكالاً لمن يراه.. فرفعت[(٢)] بابها، وجعلت لها سقفًا، ولم يكن لها سقف، وزادت ارتفاعها كما تقدَّم، وكان عُمرُ النبي ﷺ إذ ذاك خمسًا وعشرين سنة، وقيل: خمسًا وثلاثين، فحضر البناء، وكان ينقل الحجارة معهم، كما ثبت في الصحيح، وتنافست قريش فيمن يضع الحجر الأسود موضعه من الركن، ثم رضوا بأن يضعه النبي ﷺ[(٣)].

الرابعة: بناء عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، والسبب في ذلك على ما ذكر السّهيلي أن امرأة أرادت أن تجمر الكعبة، فطارت شررة من المجمرة في أستارها فاحترقت،

---

(١) ذلك حتى القرن الثامن الذي كان فيه المؤلف -رحمه الله.

(٢) يعني: قريش.

(٣) وظل هذا البناء زمن بعثة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين حتى زمن عبد الله بن الزبير سنة ٦٤هجرية (البداية النهاية لابن كثير، (٨/ ٢٥٠)، ط. مكتبة المعارف، بيروت.

وقيل: طارت شررة من أبي قبيس[١]، فوقعت في أستار الكعبة فاحترقت، فشاور ابن الزبير مَن حضره في هدمها فهابوا ذلك، وقالوا: نرى أن يصلح ما وهى منها ولا تهدم. فقال: لو أن بيت أحدكم احترق لم يرض له إلا بأكمل إصلاح، ولا يكمل إصلاحها إلا بهدمها، فهدمها حتى أفضى إلى قواعد إبراهيم، فأمرهم أن يزيدوا في الحفر، فحركوا حجرًا منها، فرأوا تحته نارًا وهولاً أفزعهم، فبنوا على القواعد.

وفي الخبر أنه سترها وقت حفر القواعد، فطاف الناس بتلك الستارة، ولم تخل من طائف، حتى لقد ذكر أن يوم قتل ابن الزبير اشتد الحرب، وشغل الناس حينئذٍ، فلم يرَ طائف يطوف بها إلا جمل!! ثم بناها وألصق بابها بالأرض وعمل لها خلفًا، أي: باب من ورائها، وأدخل الحِجْر فيها، وذلك أن خالته عائشة -رضي الله عنها- حدَّثته أن رسول الله ﷺ قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الْجَدْرِ أَمِنَ الْبَيْتِ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: فَلِمَ لَمْ يُدْخِلُوهُ فِي الْبَيْتِ؟ قَالَ: «إِنَّ قَوْمَكِ قَصَّرَتْ بِهِمِ النَّفَقَةُ[٢]»، قُلْتُ: فَمَا شَأْنُ بَابِهِ مُرْتَفِعًا؟ قَالَ: «فَعَلَ ذَلِكِ قَوْمُكِ لِيُدْخِلُوا مَنْ شَاءُوا، وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاءُوا، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَخَافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ، لَنَظَرْتُ أَنْ أُدْخِلَ الْجَدْرَ فِي الْبَيْتِ، وَأَنْ أُلْزِقَ بَابَهُ بِالْأَرْضِ»[٣]، فقال ابن الزبير: فليس بنا عجز عن النفقة، فبناها على مقتضى حديث عائشة -رضي الله عنها.

---

(١) جبل مكة المشهور.

(٢) حيث إنهم جمعوا لها المال الحلال الذي لم يختلط بربا أو خمر أو قمار، فلم تكف تلك النفقة الطيبة لبناء الكعبة كاملا؛ فتركوا جزءًا منها.

(٣) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والدارمي.

وحكى أبو الوليد الأزرقي أنه لما عزم على هدمها، خرج أهل مكة إلى منى، فأقاموا بها ثلاثًا خوفًا أن ينزل عليهم عذاب لهدمها، فأمر ابن الزبير بهدمها، فما اجترأ على ذلك أحد، فعلاها بنفسه، وأخذ المعول وجعل يهدمها ويرمي أحجارها، فلما رأوا أنه لا يصيبه شيء صعدوا وهدموا، فلما تمَّ بناؤها خلقها من داخلها وخارجها من أعلاها إلى أسفلها، وكساها القباطي، وقال: مَن كانت لي عليه طاعة، فليخرج فليعتمر من التنعيم، ومَن قدر أن ينحر بدنة فليفعل، ومَن لم يقدر فليذبح شاة، ومَن لم يقدر عليها فليتصدق بوسعه.

وخرج ابن الزبير ماشيًا وخرج الناس مشاة، فاعتمروا من التنعيم شكرًا له تعالى، فلم ير يومًا أكثر عتيقًا وبدنة منحورة وشاة مذبوحة وصدقة من ذلك اليوم، ونحر ابن الزبير مائة بدنة.

قال السّهيلي: ولما قام عبد الملك بن مروان في الخلافة قال: لسنا من تخليط أبي خبيب بشيء، يعني عبد الله بن الزبير، فهدمها وأعادها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ إلا في ارتفاعها، ثم جاءه الحارث بن أبي ربيعة المخزومي ومعه رجل آخر، فحدثاه عن عائشة عن رسول الله ﷺ بالحديث المتقدم، فندم وجعل ينكث بمخصرة في يديه الأرض ويقول: وددت أني تركت أبا خبيب وما تحمَّل، وتولَّى البناء في زمن عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي، وهو البناء:

الخامس: الموجود الآن[1]، والذي هدمه الحجاج هو الزيادة وحدها، وأعاد

---

(١) يعني حتى زمن المؤلف وهو أول القرن الثامن، ولقد أتى على الكعبة تجديدات كثيرة آخرها التي في عهد آل سعود أواخر القرن الرابع عشر الهجري وتجديدات خادم الحرمين الملك فهد بن عبد العزيز -رحمه الله.

الركنين، وسدَّ الباب الذي فتحه ابن الزبير، وسدُّه بيِّن إلى الآن، وجعل في الحِجْر من البيت دون سبعة أذرع، وعلامة ذلك في داخل الحِجْر لوحان مرمر منقوشان متقابلان في الحِجْر، وصار عرض وجهها وهو الذي فيه الباب أربعة وعشرين ذراعًا.

وقيل: إنَّ الكعبة بنيت مرتين آخرتين غير الخمس، إحداهما بناء العمالقة بعد إبراهيم، والثانية بناء جرهم بعد العمالقة.

قال السهيلي: إنما كان ذلك إصلاحًا لما وهي منه؛ لأن السيل قد صدع حائطه، وكانت الكعبة بعد إبراهيم عليه السلام مع العمالقة وجُرهم إلى أن انقرضوا، وخلفتهم فيها قريش بعد استيلائهم على الحرم لكثرتهم بعد القلة وعزّهم بعد الذّلة، وكان أول مَن جدَّد بناءها بعد إبراهيم قُصي بن كلاب وسقَفَها بخشب الدوم وجريد النخل.

وروى الطبراني عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا أن أول مَن جدَّد الكعبة بعد كلاب بن مرة قصي، وحكى السهيلي أن أول مَن اتخذ للكعبة غلقًا[1] تُبَّع، ثم ضرب لها عبد المطلب بابًا من حديد، وهي الأسياف القلعية التي كانت مع الغزالين الذهب، وهو ما استخرجه عبد المطلب من بئر زمزم لما احتفرها بعد ما طمَّها[2] الحارث بن مضاض، لمَّا أخرج الله جرهم من مكة بسبب إحداثهم في الحرم، واستخفافهم بالحرم، وبغى بعضهم على بعض، فتغور ماء زمزم، وعمد الحارث إلى ما كان عنده من مال الكعبة، وفيه غزلان من ذهب وأسياف

---

(١) أي: قفلاً.

(٢) أي: ردمها.

قلعية كان ساسان أهداها إلى الكعبة، وقيل: سابور، وجاء تحت الليل ودفن ذلك في زمزم وعفى عليها[1]، ولم تزل دارسة[2] حتى حفرها عبد المطلب، واستخرج ذلك كما هو مذكور في موضعه.

واتخذ عبد المطلب من الغزالين المذكورين حلية للكعبة، فهو أول ذهب حليت به الكعبة، فلما جاء الإسلام، وآلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك، بعث إلى واليه على مكة خالد بن عبد الله القسري بستة وثلاثين ألف دينار، فضرب منها على باب الكعبة صفائح الذهب، وعلى الميزاب وعلى الأساطين[3] التي في جوفها، وعلى الأركان، وهو أول مَن ذهَّب البيت في الإسلام.

وذكر السّهيلي أن الذي عمله الوليد هو ما كان من مائدة سليمان بن داود -عليهما السلام- من ذهب وفضة، حمل إليه من طليطلة من جزيرة الأندلس، وكانت لها أطواق من زبرجد وياقوت، وكانت قد احتملت على بغل قوي فتفسخ تحتها.

ثم لما آلت الخلافة إلى الأمين رُفع إليه أن الذهب الذي عمله الوليد قد رقَّ، فأرسل إلى عامله على ضواحي مكة سالم بن الجراح بثمانية عشر ألف دينار ليضربها صفائح على باب الكعبة، فقلع ما كان على الباب من الصفائح وزيد عليها ثمانية عشر ألف دينار، وضرب الصفائح والمسامير وحلق الباب والعتبة، فالذي كان عليه من الذهب ثلاثة وثلاثون ألف مثقال.

---

(١) أي: بالتراب.
(٢) مردومة غائبة عن الناس.
(٣) جمع أسطوانة.

ثم جُدِّد الباب الشريف في الأيام الزاهرة الملكية الناصرية -سقى الله عهدها، عمل بمصر مصحفًا بالفضة وأنا كتبت نسخة ما كتب عليه، وجهز به «برس بغا» الناصري أحد الحجاب في ذلك الوقت.

قال الأزرقي: وعمل الوليد بن عبد الملك الرخام الأبيض والأخضر والأحمر في جوفها فوزر بها جدرانها وفرشها بالرخام، فجميع ما في الكعبة من الرخام هو من عمل الوليد، وهو أول من فرشها بالرخام وأزر به جدرانها، قلت: ثم تقلع غالب ذلك، وغالب ترخيمها وما فيها الآن من آثار المظفر يوسف بن عمر ورسول صاحب اليمني واسمه بالرخام داخل الكعبة؛ حيث يصلي المصلي بين العمودين تجاه وجهه في الجدار المتصل بالركن اليماني.

أول مَن كسا الكعبة الديباج

واختلف أهل السِّير في أول مَن كسا الكعبة الديباج، فقال ابن إسحاق: هو الحجاج بن يوسف، وقال ابن بكار: هو عبد الله بن الزبير، وقال الماوردي: أول مَن كساها الديباج خالد بن جعفر بن كلاب، أخذ لطيمة تحمل البز وأخذ فيها أنماطًا، فعلقها على الكعبة.

وذكر جماعة منهم الدارقطني أن نتيلة بنت أجناب أم العباس بن عبد المطلب كانت قد أضلت[1] العباس صغيرًا، فنذرت إنْ وجدته أن تكسو الكعبة الديباج.

(١) أي: فقدت، وهي بالأصل أظلت وهو تحريف.

وحكى الأزرقي أنه معاوية كسا الكعبة الديباج، قال: وكانت تكسى يوم عاشوراء، ثم إنَّ معاوية كساها مرتين، ثم كساها المأمون ثلاث مرات، فكان يكسوها الديباج الأحمر يوم التروية، والقباطي يوم إهلال رجب، والديباج الأبيض يوم سبع وعشرين من رمضان.

وهذا الأبيض ابتدأه المأمون سنة ست ومائتين، حين قالوا له: الديباج الأحمر يتخرق قبل الكسوة الثانية، فسأل عن أحسن ما تكون فيه الكعبة، فقالوا: الديباج الأبيض. ففعله.

قلت: وهي الآن تكسى في العام مرة واحدة، في وقت الموسم، وتحمل إليها الكسوة من الخزانة السلطانية بالديار المصرية صحبة الركب، فيولي ذلك أمراء الركب، ويحضرون بأنفسهم، فتكسي، ويأخذ الأشراف وبنو شيبة الكسوة العتيقة ويقتسمونها، ويأخذون في كل قطعة منها أوفر الأعواض، وتحمل إلى سائر البلاد للبركة، وعهدي بصاحب اليمن يبعث إليها كسوة، فتلبس تحت الكسوة المصرية، وهما سوداوان من الحرير الأسود بكتابة بيضاء فيها آيات جاءت في القرآن في ذكر الكعبة، ولما حججت سنة ثمان وثلاثين وسبع مائة[١]، صعدت أنا وأمراء الركب المصري لتلبيس الكعبة الشريفة حتى كنا على سطحها، فرأيته مبلطًا بالمرمر والرخام الأبيض، ومن جوانبه جدر قصار فيها حلق لمرابط الستور تجر فيها الكسوة بحبال، ثم تربط في تلك الحلق، وأنا أحمد الله؛ إذ بيدي توليت خلع الكسوة العتيقة عنها، وتلبيسها الكسوة الجديدة،

(١) يعني قبل موته بأحد عشر عامًا -رحمه الله.

وحملت الكسوة العتيقة في تلك السنة إلى السلطان بمصر لتجهز إلى السلطان أبي الحسن المزيني مع ما تجهز عوض هدية بعضها في هذه السنة صحبة مريم زوجة أبيه، وعريف السويدي وجماعة من أكابر دولته، وعوض بنو شيبة والأشراف عنها من بيت المال بمصر، والعادة جارية أن تغسل الكعبة المعظمة بماء زمزم في السابع والعشرين من ذي القعدة وتشمر ستورها، وتلبس يوم الأضحى وتغسل بماء الورد عند عود الركب من منى أوان منصرفهم، وكل ذلك حضرته في هذه السنة وتوليته بيدي والحمد لله.

وأما أول مَن كسا الكعبة مطلقًا، فحكى الأزرقي عن ابن جريج أن تُبّعًا أول مَن كسا الكعبة كسوة كاملة، أرى في المنام أن يكسوها فكساها الأنطاع، ثم أرى أن يكسوها الوصائل فكساها، وهي ثياب حبرة من عصب ثم كساها الناس بعده في الجاهلية.

قال السهيلي: ويروى أن تُبّعًا لما كساها المسوح والأنطاع انتفض البيت فزال ذلك عنه حين كساها الخصف، وهي ثياب غلاظ، فلما كساها الملاء والوصائل، وهي ثياب موصلة من ثياب اليمن واحدتها وصيلة قبلته، ذكره قاسم في (الدلائل).

وروى الأزرقي بأسانيد متفرقة أن النبي ﷺ كسا الكعبة، ثم كساها أبو بكر وكساها عمر من بيت المال القباطي، وكساها عثمان، ومعاوية، وعبد الله بن الزبير من بعدهم، وقال تُبّع لما كسا البيت:

وَكسونَا البَيتَ الـذِي حرم الله ... مـلاء معضـدًا وبـرودًا

فأقمنَـا بِـهِ مِـن الشَّـهر عَشرًا وَجَعلنَـا لبابَـهُ إقليـدًا
وَنَحرنَـا بِالشـعبِ سِـتةَ ألـفٍ فَـتَرى أُنـاس نُحـوهُن وَرودًا
ثُـمَّ سرنَـا عَنْـهُ نـؤم سـهيلاً فَرفعنَـا لَواءنَـا معقـودًا

وصف الكعبة

وأما صفة الكعبة؛ فاعلمْ أن الكعبة البيت الحرام مربعة البنيان في وسط المسجد، ارتفاعها من الأرض سبعة وعشرون زراعًا، وعرض الجدار وجهها الآن أربعة وعشرون ذراعًا، وهو الذي فيه بابها، وعرض مؤخرها مثل ذلك، وعرض جدارها الذي يلي اليمن، وهو فيما بين الركن اليماني والركن العراقي، وهو الذي فيه الحجر عشرين ذراعًا، وإلى وسط هذا الجدار كان يصلي النبي ﷺ قبل هجرته إلى المدينة، وعرض جدارها الذي يلي الشام، وهو الذي فيما بين الركن الشامي والركن الغربي أحد وعشرون ذراعًا، وميزاب الكعبة على وسطه يسكب في الحجر، ومن أصل هذا الجدار إلى أقصى الجدار ستة عشر ذراعًا، وعرض باب الحجر الشامي خمس أذرع إلا شيء يسير، وعرض بابه الغربي ستة أذرع إلا شيء يسير، وجدار الحجر مدور من بابه الشامي إلى بابه الغربي كالطيلسان وعرضه ذراع، وارتفاعه من الأرض أربعة أشبار، والحجر الأسود في الركن العراقي المقابل لزمزم، وهو سبعة أشبار من الأرض، وباب الكعبة على أربعة أذرع من الأرض وعلوه ستة أذرع، وعرضه أربعة أذرع، وما بين الباب والحجر الأسود أربعة أذرع، ويسمَّى ذلك الموضع (الملتزم)؛ لأن

رسول الله ﷺ حين فرغ من طوافه التزمه ودعا فيه، ثم التفت فرأى عمر فقال: «هَاهُنا تُسكبُ العبراتُ».

ومن الباب إلى مصلى آدم عليه السلام حين فرغ من طوافه وأنزل الله عليه التوبة، وهو موضع (الخلوق)، ومن أزار الكعبة أرجح من سبعة أذرع، وكان هناك موضع مقام إبراهيم ﷺ، وصلَّى النبي ﷺ عنده حين فرغ من طوافه ركعتين، وأنزل الله عليه: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، ثم نقله ﷺ إلى الموضع الذي هو فيه الآن، وذلك على عشرين ذراعًا من الكعبة؛ لئلا ينقطع الطواف بالمصلين خلفه، أو يترك الناس الصلاة خلفه لأجل الطواف حين كثر الناس، وليدور الصف حول الكعبة، ويرى الإمام من وجهه، ثم حمله السيل في أيام عمر، وأخرجه من المسجد، فأمر عمر برده إلى موضعه الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ، وبين موضع الخلوق، وهو مصلي آدم عليه السلام وبين الركن الشامي ثمانية أذرع، ومن الركن الشامي إلى اللوح المرمر المنقوش في الحجر الذي بني هناك ابن الزبير ركن البيت، وهو على قواعد إبراهيم عليه السلام تسعة أذرع، وفيما بين الحجر إلى مقام إبراهيم عليه السلام خمسة وعشرون ذراعًا، ويسمَّى ذلك (الحطيم)، ولأنه يحطم الذنوب، أي: يسقطها، وقيل: لأنه حطم من البيت، وقيل: لأن مَن حلف هناك كاذبًا انحصم دينه ودنياه، وما بين الركن العراقي وهو الذي فيه الحجر الأسود إلى مصلى النبي ﷺ قبل هجرته إلى المدينة عشرة أذرع، وكان يستقبل بيت المقدس، ويجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، ولهذا لم يبن توجهه إلى بيت المقدس إلا لما هاجر إلى المدينة، وبين الركن اليماني وبين المسدود في ظهر الكعبة أربعة أذرع، ويسمَّى ذلك الموضع (المستجار) من

الذنوب وعرض الباب خمسة أذرع، وارتفاعه سبعة أذرع، وبينه وبين الركن الغربي ثلاثة عشر ذراعًا، وبين الركن الغربي وآخر قواعد إبراهيم وهناك اللوح المرمر المنقوش أزيد من سبعة أذرع، وإلى هناك بناء ابن الزبير، وقد قدمنا أن ارتفاع الكعبة سبعة وعشرون ذراعًا.

صفة المسجد الحرام المحيط بالكعبة

وأما صفة المسجد الحرام المحيط بالكعبة، فنقول: قد ذكر الأزرقي والماوردي والسهيلي وفي كلام بعضهم زيادة على بعض: كان المسجد الحرام، أعني المحيط بالكعبة فناء لها وفضاء للطائفين، ولم يكن له على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر ﷺ جدار يحيط به، فضيق الناس على الكعبة، وألصقوا دورهم بها، وكانت الدور محدقة بالكعبة، وبين الدور أبواب يدخل الناس من كلِّ ناحية، فلما استخلف عمر، وكثر الناس، قال: «لا بدَّ لبيت الله من فناء، وإنكم دخلتم عليه ولم يدخل عليكم»، فوسع المسجد واشترى تلك الدور وهدمها، وزاد في المسجد، واتخذ للمسجد جدارًا قصيرًا دون القامة، وكانت القناديل توضع عليه، وكان عمر ﷺ أول مَن اتخذ الجدار للمسجد الحرام.

ثم لما استخلف عثمان ﷺ ابتاع منازل ووسعه بها وبنى الأروقة للمسجد فيما ذكر الأزرقي والماوردي وغيرهما.

ثم إنَّ أن الزبير ﷺ زاد في المسجد زيادة كبيرة، واشترى دورًا من جملتها بعض دار الأزرق، اشترى ذلك البعض ببضعة عشر ألف دينار، وجعل فيها عمدًا من الرخام، ثم عمَّره عبد الملك بن مروان ولم يزد فيه، ولكن رفع جداره

وجلب إليه السواري في البحر إلى جدة، وسقفه بالساج، وعمَّره عمارة حسنة، ثم وسَّع ابنه الوليد وحمل إليه أعمدة الحجارة والرخام، ثم زاد فيه المنصور، وجعل فيه أعمدة الرخام، وزاد فيه المهدي مرتين: إحداهما سنة ستين ومائة، والثانية سبع وستين ومائة، وفيها توفي المهدي واستقر بناؤه إلى الآن[1].

وصف الرواق المحيط بالكعبة

وأما الرِّواق[2]، فنقول: إنَّ له سقفين أحدهما فوق الآخر، وبينهما فرجة قدر الذراعين، أو نحوهما، فأما الأعلى منه فرش بالدوم اليماني، وأما الأسفل منهما، فهو مسقوف بالساج مزخرف بالذهب، وعدد أساطينه -وذلك من الرخام والحجر الأبيض سوى، ما جدد إلى دار الندوة وسق الحيطة- أربعمائة وأربع وثمانون أسطوانة، بين كل أسطوانتين ستة أذرع، منها إلى الجانب الشرقي الذي يلي المسعى مائة أسطوانة وثلاث أساطين، وفي الجانب الشمالي مما يلي الصفا مائة أسطوانة وإحدى وأربعون أسطوانة، وفي الجانب الغربي مائة أسطوانة وخمس أساطين، وفي الجانب الشامي الذي فيه دار الندوة مائة وخمس وثلاثون أسطوانة، وفي وسط هذا الشق أو نحوه الذي يلي المسجد سارية خمس أساطين، ذُكر أنها كانت ليهودية، فسامها النبي ﷺ فيها، فأبت بيعها إلا بوزنها ذهبًا،

---

(١) أي: من زمن المهدي حوالي سنة (١٧٠هـ) حتى حوالي سنة (٧٥٠هـ) لم تتم في هذا الفترة أي توسعة في فناء المسجد الحرام حول الكعبة.

(٢) الرِّواق بالكسر: بيت كالفسطاط يحمل على سطاع واحد في وسطه، والجمع أروقة وروق، ورواق البيت ما بين يديه (المصباح المنير)، وهو الآن المبنى الخراساني الذي تحمله أعمدة كثيرة، وهو عدة طوابق تحيط بفناء الكعبة.

ففعل النبي ﷺ ذلك، فوضعت في ميزان ووضع مثقال واحد فرجح المثقال ببركة رسول الله ﷺ، منها على باب المسجد اثنتان وعشرون، ومن ناحية المسجد ست، ومن ناحية الوادي والصفا عشر، ومن ناحية بني جمح أربع، ومن ناحية دار الندوة اثنتان، وفي دار الندوة سوى ما ذكرناه سبع وستون أسطوانة بالحجارة مبيضة.

وطول كل أسطوانة منها عشرة أذرع وتدويرها(١) ثلاثة أذرع، وذرع(٢) ما بين كل أسطوانتين ستة أذرع ونصف، وعدد طاقاته وهي الحنايا المعقودة على الأساطين أربعمائة طاق وثمان وتسعون طاقًا، سوى ما في دار الندوة، وذرع المسجد الحرام من باب بني جمح إلى باب العباس الذي عند العلم الأخضر، ويعرف بـ(باب بني هاشم) أربعمائة ذراع وأربعة أذرع، وعرضه ما بيّن دار الندوة إلى باب الصف ثلاثمائة ذراع وأربعة أذرع، وذرع ما بين وسط جدار الكعبة الشرقي الذي يلي المسعى مائتا ذراع وثلاثة عشر ذراعا ومن وسط جدار الكعبة الغربي إلى جدار المسجد الغربي الذي يلي بني جمح مائة ذراع وتسعة وتسعون ذراعًا، ومن وسط جدار الكعبة الجنوبي إلى جدار المسجد الذي يلي الوادي مائة ذراع وأحد وأربعون ذراعًا، ومن وسط جدار الكعبة الشمالي الذي يلي الحجر إلى جدار المسجد الذي يلي دار الندوة مائة ذراع وتسعة وثلاثون ذراعًا، ومن ركن الكعبة العراقي ويقال له: الشامي إلى المنارة التي تلي المروة مائتا ذراع وأربعة وستون ذراعًا، ومن ركن الكعبة الشامي ويقال له

---

(١) أي: محيطها.

(٢) أي: طول.

(الغربي) إلى المنارة التي تلي باب بني سهم وهو باب العمرة مائتا ذراع وثمانية عشر ذراعًا، ومن الركن اليماني إلى المنارة التي تلي أجياد الكبرى وبين الحزورة مائتا ذراع وثمانية أذرع، ومن الركن الأسود إلى المنارة مستمرة تلي المسعى والوادي من ناحية الصفا مائتا ذراع وثمانية وعشرون ذراعان وارتفاع جداره إلى السماء مما يلي المسعى ثمانية عشر ذراعًا، ومما يلي الوادي والصفا اثنان وعشرون ذراعًا، ومما يلي بني جمح اثنان وعشرون ذراعًا، ومما يلي دار الندوة سبعة عشر ذراعًا ونصف، وعدد شرفاته من داخله وخارجه أربعمائة وخمس وتسعون شرافة، هذا من خارجه، وعددها من داخله أربعمائة وثمان وتسعون شرافة، فجميعها ألف شرافة إلا سبع شرافات[1].

تنبيه:

اعلمْ أن المسجد الحرام يطلق، ويراد به عين الكعبة كما في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]؛ إذ لم يقل أحد من المسلمين بالاكتفاء بالتوجُّه إلى استقبال المسجد المحيط بالكعبة، وهذا هو أصل حقيقة اللفظ وهو المعني بقوله تعالى: : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦] المسجد الحرام[2].

---

(١) واضح أن المؤلف -رحمه الله- قام بقياس كل هذه الأطوال التي عدها بنفسه، ولم ينقلها عن أيِّ كتاب لأسباب منها:
١- أني لم أعثر عليها في أي مصدر ممن ترجم لتاريخ بناء الكعبة.
٢- بعض المراجع تذكر بعضها وأما كلها فلا.
٣- أن هذه الأبعاد كانت في عصر المؤلف في منتصف القرن الثامن الهجري من سنة ٧٠٠هـ - سنة ٧٥٠هـ.
٤- أنه من بعض أماكن من المخطوطة ذكر أنه قام بقياس هذا الأشياء بنفسه كما صرح بذلك في موضوع كسوة الكعبة التي باشرها بيديه.

(٢) سبق تخريجه.

وقد يطلق المسجد الحرام، ويراد به المسجد المحيط بالكعبة، وهو الغالب في الاستعمال على وجه التغليب المجازي كما في قوله ﷺ: «صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ»(١)، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] على قول مَن روى أنه ﷺ كان نائمًا في المسجد المحيط بالكعبة.

وقد يطلق المسجد الحرام، ويراد به مكة والحرم بكماله على قول من يقول: إنَّ المراد بالمسجد الحرام مكة؛ لأنه ﷺ كان نائمًا في بيت أم هانئ لما أسري به، وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٦] على قول مَن يقول: إنَّ المراد الحرم الخارج عن مكة بكماله، وهذا كله على وجه التغليب المجازي ولا ريب فيه، وإلا يلزم الاشتراك في موضوع المسجد الحرام، والمجاز أولى منه، والله أعلم.

تاريخ بئر زمزم

ومما يشتمل عليه المسجد الحرام بئر زمزم، وهي سقيا إسماعيل، وهمزة روح القدس جبريل، طعام طعم، وشفاء سقم، لا تنزف ولا تذم، ولا يتوجه إياها ذم، لقيه عبد المطلب ودليل سؤدده ولا كذب، وفي الحديث: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ»(٢).

---

(١) رواه مسلم عن ابن عمر، وأحمد والترمذي عن أبي هريرة، وانظر: فيض القدير، للمناوي، ط. دار الحديث، (٤/ ٢٢٦).

(٢) رواه ابن ماجة في كتاب «المناسك»، والحديث في مسند أحمد، ح(٣٥٧- ٣٧٢).

قال السهيلي: كانت زمزم سقيًا إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام، فجرها له روح القدس بعقبه، وفي ذلك إشارة إلى أنها لعقب إسماعيل وراثه وهو محمد ﷺ وأمته، والقصة في ذلك معروفة، وتلخيصها أن إبراهيم ﷺ لما احتمل معه لها قربة ماء ومزود تمر، وتركهما بمكة وعاد، فلما فرغ التمر والماء عطش إسماعيل وهو صغير وجعل ينشع الموت، جعلت هاجر تسعى من الصفا إلى المروة، ومن المروة إلى الصفا لترى أحدًا حتى سمعت صوتًا عند الصبي، فقالت: قد أسمعت إنْ كان عندك غوث. ثم جاءت الصبي، فإذا الماء ينبع من تحت خده، فجعلت تغرف بيدها وتجعل في القربة، وسيأتي بعد ذلك له خبر. قال ﷺ: «لَوْ تَرَكتهُ لَكَانَ عَينًا»، أو قال: «نَهرًا مَعينًا»(١).

قال الحربي: «سمِّيت زمزم بزمزمة الماء، وهي صوته».

وقال المسعودي: «سمِّيت زمزم؛ لأن الفرس كانت تحج إليها في الزمن الأول، فتزمزم عندها، والزمزية صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء، فأنشد المسعودي:

زمزمت الفرس على زمزم ... وذاك في سالفها الأقدم

وذكر البرقي عن ابن عباس أنها سمِّيت زمزم؛ لأنها زمت بالتراب؛ لئلا تسيح الماء يمينًا وشمالاً، ولو تركت لساحت على الأرض حتى تملأ كل شيء.

وقد ذكرنا طم الحارث بن مضاض إياها، ولم تزل دارسة حتى أرى عبد المطلب أن احفر طيبة؛ لأنها للطيبين والطيبات من ولد إبراهيم وإسماعيل،

---

(١) رواه البخاري في كتاب «الشرب»، وفي كتاب «الأنبياء»، والحديث أيضًا في «مسند أحمد».

وقيل له: احفر برة. وقيل: احفر المضنونة ضننت بها على الناس إلا عليك، ودلَّ عليها بعلامات ثلاث: بنقرة الغراب الأعصم، وأنها بين الفرث والدم، وعند قرية النمل.

وروى أنه لما قام ليحفرها رأى ما رسم له من قرية النمل ونقرة الغراب، ولم ير الفرث والدم، فبينا هو كذلك ندت بقرة لجازرها، فلم يدركها حتى دخلت المسجد الحرام، فنحرها في الموضع الذي رسم له، فسال هناك الفرث والدم، فحفرها عبد المطلب حيث رسم له.

وقيل لعبد المطلب في صفتها: إنها لا تنزف أبدًا، وهذا برهان عظيم؛ لأنها لم تنزف من ذلك الحين إلى اليوم قط[١]، وقد وقع فيها حبشي فنزحت من أجله، فوجدوا ماءها يثور من ثلاث أعين أقواها وأكثرها ماء عين من ناحية الحجر الأسود، رواه الدارقطني.

وروى الدارقطني أيضًا مسندًا عن النبي ﷺ: «مَنْ شَرِبَ مِنْ زَمْزَمَ؛ فَلْيَتَضَلَّعْ فَإِنَّهُ فَرْقُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَتَضَلَّعُوا مِنْهَا»، أو كما قال ﷺ، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ»[٢].

وروى أن أبا ذر تقوت من مائها ثلاثين بين يوم وليلة، فسمعن حتى تكسرت عكنه.

وذكر الزهري في سيره أن عبد المطلب اتخذ حوضًا لزمزم يسقى منه، وكان

---

(١) واليوم ومع تقدُّم الميكنة والآلة عليها مضخات تعمل الليل والنهار، ولا تجف أبدًا، فالحمد لله ربِّ العالمين.

(٢) سبق تخريجه.

يُخرِّب بالليل حسدًا له، فلما غمه ذلك قيل له في النوم: قُلْ لا أحلها لمغتسل، وهي لشارب حل وبل، وقد كفيتم، ولما أصبح قال: نعم، فكان بعد مَن أرادها بمكروه رمي بداءٍ في جسده حتى انتهوا عنه.

وصف الصفا والمروة

الصفا والمروة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، فرقدا الأرض، وجارا البيت الحرام، وطوبى لمن وقف عليهما، وسعى بينهما أو إليهما، وسنذكر ما هما فنقول:

أما الصفا: فحجر أزرق عظيم في أصل جبل أبي قبيس، قد كسر بدرج إلى آخر موضع الوقوف، وأكثر ما ينتهي الناس منها إلى اثنتي عشرة درجة أو نحوها.

وأما المروة: أيضًا فحجر عظيم إلى أصل جبل متصل بجبل قعيقعان كان قد انقسم على جزأين، وللبيت بينهما فرجة يبين منها درج عليها إلى آخر الوقوف.

وذرع ما بين الصفا والمروة وهو المسعى سبعمائة ذراع وثمانون ذراعًا، ومن الصفا إلى الميل الأخضر المائل في ركن المسجد على الوادي مائة وثمانون ذراعًا، وذرع ما بين الحجر الأسود والصفا مائتا ذراع واثنان وستون ذراعًا، ومن الميل الأصفر إلى الأخضر الذي بإزاء دار جعفر بن عبس وهو موضع الهرولة مائة وخمس عشرون ذراعًا، ومن الميل الثاني إلى المروة أربعمائة وخمس وسبعون ذراعًا، فجميع ما بين الصفا والمروة سبعمائة وثمانون ذراعًا.

تاريخ دار الندوة

دار الندوة:

قال الماوردي: «لم تكن مكة ذات منازل، وكانت قريش بعد جرهم والعمالقة ينتجعون جبالها وأوديتها، ولا يخرجون من حرمها انتسابًا إلى الكعبة لاستيلائهم عليها، وتخصيصها بالحرم لحلولهم فيه، ويرون ذلك يكون لهم بسببه شأن، وكان كلما كثُر فيهم العدد ونشأت فيهم الرئاسة قوى أملهم، وعلموا أنهم سيقدمون على العرب، وكان فضلاؤهم يتخيلون أن ذلك لرئاسة في الدين وتأسيسًا لنبوة ستكون، فأول مَن ألهم ذلك منهم كعب بن لؤي بن غالب، وكانت قريش تجتمع إليه في كلِّ جمعة، وكان يخطبهم فيه، ويذكر لهم أمر نبيا ﷺ.

ثم استلت الرئاسة إلى قصي بن كلاب، فبنى بمكة دار الندوة ليحكم فيها بين قريش، ثم صارت لتشاورهم وعقد الألوية في حروبهم، وكانت هذه الدار لا ينكح رجل ولا امرأة من قريش إلا فيها، ولا يعقد لواء حرب لهم ولا لغيرهم إلا فيها، ولا يتذر غلام إلا فيها، ولا تدرع جارية من قريش إلا فيها، يشق عليها درعها ثم تدرع، وينطلق بها إلى أهلها، ولا تخرج عير من قريش ولا يرحلون إلا منها، ولا يقدمون إلا بركوا فيها.

قال الكلبي: «وكانت أول دار بنيت بمكة، ثم تتابع الناس فبنوا الدار، كلما قربوا من الإسلام ازدادوا قوةً وكثرة عدد، حتى دانت لهم العرب».

قال الماوردي: «صارت بعد قصي لابن عبد الدار، فابتاعها معاوية في

الإسلام من عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي وجعلها دار الإمارة».

وروى الأزرقي أن معاوية اشتراها لما حجَّ وهو خليفة بمائة ألف درهم.

وذكر السهيلي: إنَّ هذه الدار صارت إلى حكيم بن حزام بن أسد بن عبد العزى بن قصي، فباعها في الإسلام بمائة ألف، وذلك في زمن معاوية، فلامه معاوية في ذلك، وقال: بعت مكرمة آبائك وشرفهم؟! فقال حكيم: ذهبت المكارم إلا التقوى، والله لقد اشتريتها في الجاهلية بزق خمر، وقد بعتها بمائة ألف، وأشهدكم أني جعلتها منها في سبيل الله، فأينا المغبون؟!

قال الحازمي: «هي اليوم يعني دار الندوة في المسجد الحرام».

وقال الأزرقي: «وهي جانبه الشمالي»، قد تقدَّم ذكرها.

منى

منى؛ حيث ترمى الجمرات، وتسكب العبرات، ذوات الليالي المقمرات، بطحاء بين جبلين، مهدمة الجوانب، فيها مجتمع الحجيج، والمحصب منها موضع الجمرات، على مدرجة السوق الأعظم؛ حيث ينصب كل سنة أيام الموسم، يجتمع فيه الخليطان من شامٍ ويمن، وينزل الركوب به في منازلهم من شرف الوادي، إلى حيث تنحر البدنات تحت العقبة الأولى؛ حيث تنصب سقايات الحاج، وكانت في قديم الإسلام موسم لقاء الأحباب(١)، ومكان موعد كل مفارق.

---

(١) غير واضحة بالأصل، وأقرب شيء منها لفظًا ومعنى ما أثبتناه.

منى معروفة موصوفة، قد أكثر منها الشعراء، وترنم بها المتيمون، ولمنى بيوت هي كالقرية، منها ما هو مسكون، ومنها ما هو يرنم بضائع الحارم أيام الموسم، تكرى بأجرة طائلة، وبها آبار متخذة لخزن ماء الأسنية، تباع على الحجيج، وهو ماء ثقيل وبيء لما يحمل من أوساخ الذبائح وبقايا الأضاحي ودماء القرابين.

مسجد الخيف

وفيها مسجد الخيف، وهو على يمين الموجه من منى إلى عرفات، والخيف هو البستان، وجدد بناؤه في الأيام الناصرية -سقى الله عهدها.

مسجد إسماعيل عليه السلام

وفيها مسجد إسماعيل عليه السلام، ويسمّى بـ(مسجد الكبش)، وهو على يسار الموجه من منى إلى عرفات، يقال: إنَّ الفداء لإسماعيل نزل له، وينزل المصريون منه إلى منى، وينزل المكبون منه إلى معرف، ويقع تجاه مسجد الخيف منحرفًا عنه على ذروة من الجبل، يحيل بينهما بحر ماء من ماء الشتاء، ينزل فيما يليه إلى الطريق العظمى ركبان العرب.

جمع

جمع هي المزدلفة، وكلها مشعر إلا بطن محسر، ومنها تؤخذ حصى الجمرات، وبذلك فسَّر علي وابن مسعود قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾

[العاديات: ٥]، قالا: يعني المزدلفة.

ومسجد المزدلفة عن يسارك إذا مضيت إلى عرفات، وفيه تجمع بين المغرب والعشاء إذا نفر الحاج من عرفات، هي التي عني الشريف الرضي بقوله:

عَارضا بِي ركب الحجاز نسائله ... مَتى عَهدهُ بأَيامِ سلعِ
وَاستملا حديث من يسكن ... وَلا تكتباه إلا بدمعِي
فإنني إنْ أَرى الدِّيارَ بِطَرفي ... فَلَعلِي أَرَى الدِّيارَ بِسَمعِي
لهف نفسي عَلى لَيالٍ تقضت ... لِي بِجَمِيع وَأَين أَيام جمع

المشعر الحرام

قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة:١٩٨].

المشعر الحرام: قُزح، وهو الجبل الذي يقف عليه الإمام وعليه الميقدة، وقيل: المشعر الحرام ما بين جبلي المزدلفة إلى مازمى عرفة إلى وادي محسر، وليس المازمان ولا وادي محسر من المشعر الحرام، والصحيح أنه الجبل لما روى جابر ﷺ أن النبي ﷺ صلى الفجر بالمزدلفة؛ لما روى جابر أن النبي ﷺ صلى الفجر بالمزدلفة ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام، فدعا وكبَّر وهلَّل، ولم يزل واقفًا حتى أسفر»[1].

(١) رواه مسلم في كتاب «الحج»، ح(١٤٧)، وأبو داود في كتاب «المناسك»، وكذلك الدارمي.

وقوله (عند المشعر الحرام) معناه: مما يلي المشعر الحرام قريبًا به، وذلك للفضل، كالقرب من جبل الرحمة، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر، وجعلت أعقاب المزدلفة لكونها في حكم المشعر، ومتصلة به عند المشعر، وقيل: سمِّيت المزدلفة وجمعًا؛ لأن آدم اجتمع فيها مع حواء، وازدلف منها، أي: دنا منها. وقال قتادة: «لأنه يجمع فيها بين الصلاتين».

ويجوز أن يكون وصفت بفعل أهلها؛ لأنهم يزدلفون إلى الله تعالى، أي: تقربون بالوقوف فيها، وعن عليٍّ: لما أصبح رسول الله ﷺ وقف على قزح، فقال: «هَذَا قزح، وَهَذَا الموقفُ، وَجمعُ كُلُّهَا مَوقفٌ»[1].

حدود الحرم:

أنصاب الحرم هي العلامات المبنية على حدود الحرم، وأول مَن بناها إبراهيم -صلوات الله عليه، وأشار له جبريل ﷺ إلى مواضعها، هكذا ذكره أبو عروبة والأزرقي وغيرهما.

وروى الأزرقي أن النبي ﷺ أمر بتحديد العلامات التي على الحرم التي عملها إبراهيم وجبريل يريه مواضعها، ثم عمر ثم عثمان ثم معاوية، وهذه العلامات بينة إلى الآن، والحمد لله تعالى.

وحدُّ الحرم من طريق مدينة النبي ﷺ دون التنعيم عند بيوت نفار، على ثلاثة أميال من مكة، ومن طريق اليمن طرف أضاة لنب في ثنية لبن على سبع أميال، ومن طريق العراق على ثنية جبل بالمقطع على سبعة أميال، ومن طريق

---

(١) رواه أبو داود في كتاب «المناسك»، وهو عند الترمذي وابن ماجة والدارمي، وفي موطأ مالك، ومسند الإمام أحمد.

الجعرانة في شعب آل عبد الله بن خالد على تسعة أميال، ومن طريق الطائف على عرفات من بطن نمرة على سبعة أميال، ومن طريق جدة منقطع الأعشاش على عشرة أميال.

حقوق الحرم:

فهذه حدود جعلها الله تعالى حرمًا لما اختص به من التحريم، وباين بحله سائر البلاد، وصحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ هَـذَا البَلَـدَ (يعني: مكة) حَرَّمَـهُ اللهُ يَـومَ خَلـقَ السَّـموات وَالأرضَ»[1]، وفي روايـة: «قَبْـلَ أَنْ تُخلَـقَ السَّـموات وَالأرض»، فيكون تحريمها قبل خلق السموات والأرض كتابة تحريمها في اللوح المحفوظ، أو تقدير حرمتها. وروي عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ إِبراهيمَ حرم مكة»، ومعناه: أظهر حرمتها.

قال السهيلي: روي في التفسير أن الله تعالى لما قال للسموات والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، لم تجب بهذه المقالة من الأرض إلا أرض الحرم، فلذلك حرَّمها، فصارت حرمتها كحرمة المؤمن، إنما حرَّم دمه وعرضه وماله بطاعته لربه، وأرض الحرم لما قالت: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ حرَّم صيدها وشجرها وخلاها إلا الإذخر، فلا حرمة إلا لذي طاعة، جعلنا الله من أهل طاعته.

وصحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ هَـذَا البَلَـدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَـوْمَ خَلَـقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ القِتَالُ فِيهِ

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، واللفظ لغير الصحيحين.

لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلاَ يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهُ» فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا الإِذْخِرَ، فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ، قَالَ: «إِلَّا الإِذْخِرَ»(١).

وما زال الناس في الجاهلية الإسلام يعظمون هذا الحرم، ويجتنبون قطع شجره، قال الواقدي: «لما أرادت قريش البنيات قالت لقصي: كيف نصنع في شجر الحرم، فحذَّرهم قطعها، وخوَّفهم العقوبة في ذلك، فكان أحدهم ينحرف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون في منزله، قال: وأول ما ترخص في شجر الحرم عبد الله بن الزبير»(٢).

قال السهيلي: ابتنى ابن الزبير دورًا بقعيقعان، وترخص في قطع شجر الحرم، وجعل دية كل شجرة بقرة، وكذلك روي عن عمر أنه قطع دوحة كانت في دار أسد بن عبد العزى، وكانت أطرافها تنال ثياب الطائفين بالكعبة، وذلك قبل أن يوسع المسجد، فقطعها ووداها ببقرة.

عرفات

عرفات ملتقى الخليطين من شام ويمن، ومجمع البحرين من الرعقة إلى عدن، به يتجلى الله على عباده، ويهبهم المغفرة، وبها الصخرات، موقف رسول

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، واللفظ لغير البخاري ومسلم.

(٢) طبعًا عبد الله بن الزبير إنما قطعها لمصلحة تقتضي قطعها، وذلك لتوسعة الحرم، فكان ذلك باجتهاد، ثم إنه جعل لكلِّ شجرة كفارة.

الله ﷺ؛ حيث تقف المحامل، وعلى قبة هذا الجبل (قبة آدم)، هكذا تُسمَّى، ويقال: إنَّ هناك تعارف آدم وحواء بعد أن أهبطا، وعرفات علم للموقف سمِّي بـ(جمع) كأذرعات، واختلف في تسميتها بذلك، فقيل: لأنها وصفت لإبراهيم، فلما أبصرها عرفها، وقيل: إنَّ جبريل عليه السلام كان يدور به في المشاعر يريه إياها، فقال: قد عرفت، وقيل: التقى فيها آدم وحواء فتعارفا، كما تقدَّم، وقيل: لأن الناس يتعارفون فيها، وهي من الأسماء المرتجلة؛ لأن عرفة لا تعرف في أسماء الأجناس.

مسجد نمرة

ويسمَّى (مسجد إبراهيم)، يقال: إنَّ إبراهيم الخليل عليه السلام بناه، ولا يصح هذا، وهو على يمني السالك من مكة إلى عرفات، قريب الطريق، مدانيًا إلى عرفة، وعادة الخطابة به في وقتها لإمام الطائفة المالكية بمكة ذلك منبره، ولا سقف له.

مسجد عائشة -رضي الله عنها

هو بالنعيم في الحل عند أول الحرم، ولا يحضرني مَن بناه، وكل مسجد هناك تسمى بهذا، وأشهرها المصاقب للطريق على يسار الداخل إلى مكة، وإنما نسب إلى عائشة؛ لكونها اعتمرت من التنعيم، ولعلها أحرمت في البقعة التي هي بها المسجد، وعمرتها معروفة على ما تضمنته الأحاديث.

مسجد ميمونة -رضي الله عنها

وسمِّي بذلك لمكان قبرها، وهناك مات أبو جعفر المنصور، ودفن محرمًا على ما هو مذكور في موضعه[(١)]، وميمونة هي بنت الحارث أحد أزواج رسول الله ﷺ، وكانت أختها أم عبد الله بن العباس.

المواقيـــــت

روى ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ وقَّت لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل نجد قرن المنازل، ولأهل اليمن يلملم، وقال: «هُنَّ لَهُنَّ، وَلِمَنْ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِنَّ، مِمَّنْ أَرَادَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ، فَمَنْ كَانَ دُونَهُنَّ فَمِنْ أَهْلِهِ، وَكَذَا فَكَذَلِكَ، حَتَّى أَهْلُ مَكَّةَ يُهِلُّونَ مِنْهَا» أخرجاه في الصحيحين[(٢)].

فهذه المواقيت التي وقَّتها رسول الله ﷺ لا يجوز لأحد يريد الحج والعمرة أن يتجاوزها إلا محرمًا، وأما مَن لم يرد الحج أو العمرة؛ فكذلك عند فقهاء الأمصار، وقولان عند الشافعي، وموضع ذلك كتب الفقه.

فأما ذو الحليفة: فهو أبعد المواقيت، على عشر مراحل من مكة أن تسع منها، وهو بضم الحاء المهملة وفتح اللام، ومنها يحرم الآن الركب الشامي،

---

(١) انظر: البداية والنهاية، (١٠/ ١٢٧-١٢٨)، ط. مكتبة المعارف، بيروت.

(٢) رواه البخاري، (١/ ٢٦٤)، ط. المكتب الثقافي، الأزهر، ومسلم (٣/ ٢٥٦)، ط. الشعب بشرح النووي.

وبها آبار عليٍّ، وبعض الناس يقول: «بئر المحرم».

والجحفة: موضع على ثلاث مراحل من مكة، وهي بضم الجيم وسكون الحاء المهملة بعد الجيم، وذكر ابن الكلبي أن العماليق أخرجوا بني عبيل وهم إخوة عاد من يثرب، فنزلوا الجحفة، وكان اسمها (مهيعة) بفتح الميم وسكون الهاء على وزن مقتلة، وقيل: بكسر الهاء على وزن قبيلة، فجاءهم سيل فاجتحفهم، فسمِّيت (الجحفة)، ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، أصابهم حمى، فدعا النبي ﷺ الله تعالى أن ينقل حماها إلى الجحفة، وهي شرقي رابغ ممر الركب المصري، ومن رابغ يحرم الآن[١].

وقرن المنازل: بفتح القاف وسكون الراء، موضع على مرحلتين من مكة، وقد غلط الجوهري في قوله بفتح الراء، وقوله: أن أويسًا القرني منسوب إليها، بل هو منسوب إلى قرن بفتح القاف والراء، بطن من مراد.

ويلملم: ويقال: ألملم بالهمزة، عوضًا عن الهاء، موضع معروف على مرحلتين من مكة، وهو بفتح الياء واللام وسكون الميم بعد اللام.

ومن المواقيت ما لم يذكره النبي ﷺ في الحديث، وهو ميقات العراقيين، وهو: ذات عرق، وبينه وبين مكة خمس مراحل[٢].

---

(١) وذلك لخراب الجحفة حتى يومنا هذا.

(٢) قد روى أهل السُّنن من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن الرسول ﷺ وقتها لأهل العراق، وإنْ لم يصح ذلك، فقد صحَّ أن عمر ﷺ وقتها لأهل الكوفة والبصرة حين جاءوا إليه وشكوا له أن قرن المنازل جور عن طريقهم فقال لهم عمر: «انظروا إلى حذوها من طريقكم»، فثبت أنها من سنة عمر أمير المؤمنين، وهو أحد الخلفاء الراشدين المهديين الذين أمرنا باتباعهم.

المسجد النبوي

المسجد النبوي موضع منبره، وجوار قبره، ومقام مصلاه، دار إخوته وأولاده، وبجانبه حجرته المعظمة التي ضمت أعظمه، ولله در القائل:

يا خيرَ منْ دُفنتْ في التُّربِ أعظُمُهُ ... فطابَ من طيبهنَّ القاعُ والأكمُ
أنتَ النَّبيُّ الَّذي تُرجَى شفاعتُه ... عندَ الصِّراطِ إذا ما زلَّتِ القَدمُ
نَفسي الفداءُ لقبرٍ أنتَ ساكنُهُ ... فيهِ العَفافُ وفيه الجُودُ والكَرمُ

قال أَنَسٌ ﷺ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ نَزَلَ فِي عَرْضِ الْمَدِينَةِ فِي حَيٍّ يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَأَقَامَ فِيهِمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، فَجَاءُوا مُتَقَلِّدِينَ سُيُوفَهُمْ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَأَبُو بَكْرٍ رَدِيفُهُ وَالْمَلَأُ بَنُو النَّجَّارِ حَوْلَهُ حَتَّى أَلْقَى بِفِنَاءِ أَبِي أَيُّوبَ، وَكَانَ يُصَلِّي حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ، فَيُصَلِّي فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ، ثُمَّ أُمِرَ بِالْمَسْجِدِ فَأَرْسَلَ إِلَى مَلَإِ بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا فَقَالَ: «يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا»، فَقَالُوا: لَا وَالله لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى الله».

قَالَ أَنَسٌ ﷺ: «وَكَانَتْ فِيهِ قُبُورُ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ فِيهِ خِرَبٌ، وَكَانَ فِيهِ نَخْلٌ فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَتْ، وَبِالْخِرَبِ فَسُوِّيَتْ فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ، وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ الْحِجَارَةَ، وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ، وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ وَرَسُولُ الله ﷺ مَعَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ:

اللهُـمَّ لَا خَـيْرَ إِلَّا خَـيْرُ الْآخِـرَهْ فَـانْصُرِ الْأَنْصَـارَ وَالْمُهَـاجِرَهْ[(١)]

وروي عن الشفاء بنت عبد الرحمن الأنصارية قالت: «كان رسول الله ﷺ حين بني المسجد يؤمه جبريل إلى الكعبة ويقيم له القبلة»[(٢)].

قال السهيلي: بني مسجد رسول الله ﷺ، وسقف بالجريد، وجعلت قبلته من اللبن، ويقال: بل من حجارة منضودة بعضها على بعض، ويحطانه من اللبن، وجعلت عمده من جذوع النخل، فنخرت في خلافة عمر فجددوها، قال أبو سعيد الخدري ﷺ: كان سقف مسجد النبي ﷺ من جريد النخل، وأمر عمر ببناء المسجد، وقال: أكف الناس من المطر، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس.

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي: «كانت هذه القبلة في شمالي المسجد، وكان ﷺ صلى ستة عشر شهر أو سبعة عشر شهرًا إلى بيت المقدس، فلما تحولت القبلة بقى حائط القبلة الأولى مكان أهل الصفة.

توسعة مسجد الرسول ﷺ في عهد الخلفاء الراشدين:

وعن عبد الله بن عمر أن المسجد كان على عهد رسول الله ﷺ مبنيًا باللبن وسقفه بالجريد وعمده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئًا، وزاد فيه عمر، وبناه على بنيانه في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد، وأعاد عمده خشبًا ثم

(١) رواه البخاري في «الرقاق»، باب: «مَا جَاءَ فِي الرِّقَاقِ وَأَنْ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ»، ح(٦٤١٤)، ومسلم في «الجهاد والسير»، باب: «غَزْوَةِ الأَحْزَابِ وَهِيَ الخَنْدَقُ»، ح(٤٧٧٤).
(٢) لم أعثر عليه، ومعناه شاذ.

غيَّره عثمان، فزاد فيه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج[(١)].

وعن عكرمة قال: قال لي عبد الله بن عباس ولابنه علي: انطلقا إلى أبي سعيد فاسمعنا من حديثه، فانطلقنا فإذا هو في حائط يصلحه، فأخذ رداءه فاحتبى، ثم أنشأ يحدِّثنا حتى أتى على ذكر بناء المسجد، فقال: كنا نحمل لبنة وعمار لبنتين لبنتين، فرآه رسول الله ﷺ، فجعل ينفض التراب ويقول: «وَيْحَ عَمَّارٍ، تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الجَنَّةِ، وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ». قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن[(٢)].

وزاد معمر في جامعه أن عمارًا كان ينقل لبنتين لبنتين، لبنة عنه ولبنة عن رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «لِلنَّاسِ أَجْرٌ وَلَكَ أَجْرَانِ، وَآخِرُ زَادِكَ شَرْبَةٌ مِنْ لَبَنٍ، وَتَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ».

وعن خارجة بن زيد أحد فقهاء المدينة السبعة قال: بنى رسول الله ﷺ مسجده سبعين ذراعًا أو يزيد، فلما كان عثمان وزاد فيه جعل طول المسجد مائة وستين ذراعًا وعرضه مائة وخمسين، وجعل أبوابه سِتًّا، كما كانت في زمن عمر، وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة، وهي التي دفن فيها رسول وصاحبها -رضي الله عنهما- ثم بنوا على القبر حيطانًا مرتفعة مستديرة حوله؛ لئلا يظهر في المسجد فيصلي إليه العوام، ويؤدي إلى المحذور الذي نهى عنه رسول الله ﷺ من اتخاذ المساجد على القبور، ثم بنوا

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.
(٢) رواه البخاري.

جدارًا من ركني القبر الشماليين حرفوهما حتى التقيا، كل ذلك حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر، ولهذا قالت عائشة -رضي الله عنها: ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا.

ثم إنَّ الوليد بن عبد الملك زاد فيه، فجعل طوله مائتي ذراع وعرضه من مقدمه مائتين، وفي مؤخره مائة وثمانين، ثم زاد فيه المهدي سنة ستين ومائة من جهة الشام فقط دون الجهات الثلاث، ثم زاد فيه المأمون سنة ثلاثين ومائتين، وأتقن بنيانه، ونقش فيه: هذا ما أمر به عبد الله المأمون.. في كلام كثير.

تنبيه مهم:

قال العلامة أبو زكريا النووي -رحمه الله: «فينبغي للمصلي أن يعتني بالمحافظة على الصلاة فيما كان في زمنه ﷺ، فإنَّ الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: «صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ»[1] إنما يتناول ما كان في زمنه؛ لأنه هو الذي حصلت الإشارة إليه، لكن إذا صلى في جماعة فالتقدم إلى الصف الأول ثم إلى ما يليه أفضل، فليتفطن لذلك».

وذرع ما بين المنبر ومقام النبي ﷺ الذي كان يصلي فيه حتى توفي أربعة عشر ذراعًا وشبرًا، وذرع ما بين المنبر والقبر ثلاثة وخمسون ذراعًا وشبرًا.

---

(١) سبق تخريجه.

بيوت النبي ﷺ

قال السهيلي: كان بيوت النبي تسعة، بعضها من جريد مطين بالطين، وسقفها جريد، وبعضها من حجارة مرضومة بعضها على بعض، مسقفة بالجريد أيضًا.

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي -رحمه الله: «لم يبلغنا أنه ﷺ بنى له تسعة أبيات حين بني المسجد، ولا أحسبه فعل ذلك، إنما كان يريد بيتًا واحدًا حينئذٍ لسودة أم المؤمنين، ثم لم يحتج إلى بيت آخر حتى بني بعائشة في شوال سنة اثنتين، وكان ﷺ بناها في أوقات مختلفة، والله أعلم».

وقال الحسين بن أبي الحسن: «كنت أدخل بيوت النبي ﷺ وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدي، كان لكلِّ بيت حجرة، وكانت حجره ﷺ أكسية من شعر مربوطة من خشب عرعر».

وفي (تاريخ البخاري) أن بابه ﷺ كان يقرع بالأظافير، أي: لا حلق له، ولما توفي أزواجه ﷺ خلطت البيوت والحجر بالمسجد، وذلك في خلافة عبد الملك بن مروان، فلما ورد كتابه بذلك ضجَّ أهل المدينة بالبكاء كيوم وفاته.

قال السهيلي: وهذا يدل على أنه بيوته ﷺ إذا أضيفت إليه، فهي إضافة ملك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وإذا أضيفت إلى أزواجه؛ كقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فليست إضافة ملك، وذلك أن ما كان ملكًا؛ فليس هو موروث عنه.

مسجد قباء

ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ أسسه لبني عمر بن عوف، ثم انتقل إلى المدينة.

وذكر ابن أبي خيثمة أن رسول الله ﷺ حين أسسه كان هو أول من وضع حجرًا في قبلته، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه إلى جنب أبي بكر، ثم أخذ الناس في البنيان.

وذكر الخطابي عن الشموس بنت النعمان قالت: كان رسول الله ﷺ حين بنى مسجد قباء يأتي بالحجر قد صره إلى بطنه، فيضعه فيأتي الرجل يريد أن ينقله فلا يستطيع، حتى يأمره أن يدع ويأخذ غيره.

قال السهيلي: هذا أول مسجد بني في الإسلام، وفي أهله نزلت: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، فهو على المسجد الذي أسس على التقوى، وإنْ كان قد روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فقال: «هُوَ مَسجدي هَذَا»[١]، وفي رواية أخرى قال: «وَفِي الأَرضِ خَيرٌ كَثيرٌ»، وقد قال لبني عمر بن عوف حين نزلت: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التوبة: ١٠٨] ما الطهور التي أثنى الله به عليكم؟ فذكروا له الاستنجاء بالماء بعد الاستجمار بالحجارة، فقال: «هُوَ ذَاكَ فَعَلَيكموه»[٢].

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: «تفرد به أحمد» (تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٣٨٩)، ط. مكتبة دار التراث.

(٢) رواه أبو داود عن أبي هريرة ﷺ، ورواه الترمذي وابن ماجة، وهو ضعيف، ورواه الطبراني عن ابن عباس، والإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن سلام.

قال السهيلي: ولي بين الحديثين تعارُض، كلاهما أسس على التقوى، غير أن قوله سبحانه: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ يقتضي مسجد قباء؛ لأن تأسيسه كان في أول يوم من حلول النبي ﷺ دار هجرته، والبلد الذي هو مهاجره.

قال القاسم بن عبد الرحمن: «عمار بن ياسر أول مَن بنى مسجدًا لله يصلي فيه» رواه أبو عروبة، وذكر ابن إسحاق هذا الحديث عن عمار في خبر بناء مسجد المدينة.

قال السهيلي: إنما عني بهذا المسجد قباء؛ لأنه[1] هو الذي أشار على النبي ﷺ ببنائه، وهو الذي جمع له الحجارة، فلما أسسه رسول الله ﷺ استتم بنيانه عمار.

وعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ كان يزور قباء راكبًا وماشيًا، فيصلي فيه ركعتين (متفق عليه)، وفي رواية كان ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت راكبًا وماشيًا، وكان ابن عمر يفعله.

مسجد الضرار

روي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء، وكان يأتيهم رسول الله ﷺ ويصلي فيه، حسدتهم بنو غنم بن عوف، وقالوا: نبني مسجدًا ونرسل إلى رسول الله ﷺ يصلي فيه، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوانهم، زعموا وأبو عامر هو الذي سمَّاه النبي ﷺ

(١) أي: عمار بن ياسر ﷺ.

الفاسق، وقال رسول الله ﷺ: «لَا أَجِدَ قَومًا يُقاتلونكَ إلا قَاتلتك مَعهُمْ»، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن، خرج هاربًا إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلى قيصر، وآتٍ بجنود، ومخرج محمدًا وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجد الضرار إلى جانب مسجد قباء، وقالوا للنبي ﷺ: بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه، وتدعو لنا بالبركة، فقال ﷺ: «إِني عَلَى جَناحِ سَفرٍ وَحَالِ شغلٍ، وَإِذَا قدمنا إِنْ شَاءَ اللهُ صَلينَا فِيهِ».

فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد، فنزل قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ [التوبة: ١٠٧] إلى قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨] الآيات، فدعا بمالك بن الدخشم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن ووحشي قاتل حمزة، فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه واحرقوه.. ففعلوا، وأمر أن يجعل مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة.

وقيل: كل مسجد بني مباهاة أو رياء أو سمعة، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب؛ فهو لاحق بمسجد الضرار.

وعن شقيق أنه لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له: مسجد بني فلان لم يصلوا فيه بعد. فقال: لا أحب أن أصلي فيه، فإنه قد بني على ضرار، وكل مسجد بني على ضرار أو رياء؛ فإنَّ أصله ينتمي إلى المسجد الذي بني ضرار.

وعن عطاء: لما فتح الله الأمصار على عمر ﷺ أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وألا يتخذوا في مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه.

وذكر ابن إسحاق: الذين اتخذوا مسجد الضرار، وذكر فيهم جارية بن عامر، وكان يعرف بـ(حمار الدار)، وهو جارية بن عامر بن مجمع بن العطاف، وذكر فيهم ابنه مجمعًا، وكان إذا ذاك غلامًا قد جمع القرآن، فقدموه إمامًا لهم، وهو لا يعلم بشيء من شأنهم.

وقد ذكر أن عمر بن الخطاب في أيامه أراد عزله عن الإمامة، وقال: أليس بإمام مسجد الضرار، فأقسم له مجمع أنه ما علم شيئًا من أمرهم، وما ظنَّ إلا الخير فصدقه عمر وأقره.

مساجد المدينة

قال السهيلي: كانت مساجد المدينة تسعة سوى مسجد النبي ﷺ كلهم يصلون بأذان بلال، كذلك قال بكير بن عبد الله بن الأشج فيما روى عنه أبو داود في مراسيله والدارقطني في سننه، فمنها مسجد راتج، ومسجد بني عبد الأشهل، ومسجد بني عمرو بن مبذول، ومسجد جهينة وأسلم، وأحسبه قال: مسجد بنى سلمة وسائرها مذكور في السُّنن.

وذكر ابن إسحاق في المساجد التي في الطريق، مسجدًا بذي الخيفة، كذا وقع في كتاب أبي بحر بالخاء معجمة ووقع بالجيم في كتاب قرئ على ابن السراج وابن الأفليلي وأحمد بن خالد.

بقيع الغرقد

وهو مدفن أهل المدينة النبوية، وفيها تدافن أكثر أهل المدينة، وفيه قبة العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وفيها معه الحسن بن علي، وكان الحسن ﷺ أوصى أن يدفن مع النبي ﷺ إلا أن يخاف أن يراق في ذلك محجم دم، وكادت الفتنة أن تقع، وأبى الحسن إلا أن يدفن مع جده، فكلَّمه عبد الله بن جعفر ومسور بن مخرمة، فدفن بالبقيع في قبة العباس[1]، وفيها أيضًا زين العابدين وابنه محمد الباقر، وابنه جعفر الصادق.

وفي البيع أيضًا قبة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وكان موضع القبة وما حوله بستانًا لرجل من الأنصار اسمه (كوكب)، وكان يقال: (حش كوكب)، والحش البستان، فاشتراه عثمان ﷺ وزاده في البقيع، وكان يقال: إنه يدفن هاهنا رجل صالح، وكان أول مَن دفن بهذه الزيادة.

وفي البقيع أيضًا قبة إبراهيم بن النبي ﷺ، وقبة فاطمة الزهراء -رضوان الله عليها، وفي البقيع أيضًا جماعة من أزواج النبي ﷺ، وعمته صفية، وفيه خلائق من الصحابة والتابعين، وفيه قبة مالك بن أنس، إمام دار الهجرة.

وأول مَن دفن بالبقيع عثمان بن مظعون، قال المطلب بن عبد الله بن حنطب: أول مَن دفنه النبي ﷺ بالبقيع عثمان بن مظعون، ثم قال لرجل عنده: «اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الصَّخْرَةِ، فَأْتِنِي بِهَا حَتَّى أَضَعَهَا عِنْدَ قَبْرِهِ حَتَّى أَعْرِفَهُ بِهَا، فَمَنْ

---

(١) الأفضل أن يقال: قبر العباس؛ لأن القبة بناء، والرسول ﷺ نهى أن يبنى على القبر، وألا يرفع فوق الشبر.

مَاتَ مِنْ أَهْلِنَا دَفَنَّاهُ عِنْدَهُ»[١].

قال علي بن أبي طالب: «ثم أتبعه إبراهيم بن النبي ﷺ»[٢].

قال الأصمعي: «قطعت غرقدات في هذا الموضع حين دفن فيه عثمان بن مظعون، فسمِّي بقيع الغرقد لهذا».

قال الخليل: «البقيع من الأرض موضع فيه أروم، وبه سمِّي بقيع الغرقد، والغرقد شجر كان ينبت هناك، والبقيع يلي باب المدينة الذي في جهة الشرق الذي وراء دار عثمان بن عفان، ومنه نخرج إلى البقيع».

المسجد الأقصى

معهد الأنبياء، ومتعهد الأولياء، وثاني البيت الحرام في البناء، وأول القبلتين حال الابتداء، شيدت ملوك بني إسرائيل معاهده، وشدت بقبات البروج معاقده، ثم تدارك بنو أمية دماه، وصفحوا أرضه وسماه، وهذا هو على ما هو عليه من حمل الآلام، واختلاف دول الكفر والإسلام، ومن صخرته المقدسة حيث عرج بخاتم الأنبياء -عليه الصلاة والسلام- من حضرة القدس إلى حضرة القدس، وبسط له بساط، ودنا من ربه مقامًا لم يبلغه الخليل ولا الكليم، ولا وصل إليه ملك مقرب ولا نبي كريم، وقد أمَّ في ذلك المسجد بالنبيين، وصعد منه إلا أعلى عليين، وإلى صفيح تلك البقعة المحشر، ومنها يوم القيامة المنشر، والصخرة بها عرش الله الأدنى، مقام الفخار الأسنى، وهي التي تزف

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه.

إليها عروس الكعبة زفًّا، ويقسم الناس لشقاوة وزلفى، سره المسجد الأقصى، وقلب الفضائل التي لا تحصى.

قد تقدَّم حديث أبي ذر: «أَوَّلُ مَسجِدٍ وُضِعَ المَسجِدُ الحَرامُ ثُمَّ المَسجد الأَقصى، وَبَيْنَهُمَا أربعون عَامًا»، وروي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «كانت الأرض ماء، فبعث الله ريحًا فمسحت الأرض مسحًا، وظهرت على الأرض زبدة قسمت أربع قطع، خلق من قطعة مكة والثانية المدينة والثالثة بيت المقدس، والرابعة الكوفة، ذكره أبو الفرج الجوزي.

وروى ابن منده بسنده أن كعبًا قال: بنى سليمان بن داود بيت المقدس على أساس قديم، كما بني إبراهيم الكعبة على أساس قديم.

قال ابن الجوزي، سكن الجبارون[1] في الأرض المقدسة، فسلط عليهم يوشع، ثم سلط الكفار على بيت المقدس فصيروه مزبلة، فأوحى الله ﷺ إلى سليمان فبناه.

وروي عن سعيد بن المسيب قال: أمر الله تعالى داود أن يبني مسجد بيت المقدس. قال: يا رب وأني ابنيه؟ قال: حيث ترى الملك شاهرًا سيفه، فرآه في ذلك المكان. قال: فأخذ داود فأسس قواعده، ورفع حائطه، فلما ارتفع انهدم. فقال داود: يا رب، أمرتني أن أبني لك بيتًا، فلما ارتفع هدمته؟ فقال: يا داود، إنما جعلتك خليفتي في خلقي، لم أخذته من صاحبه بغير ثمن؟! إنه يبنيه رجل من ولدك.

---

(١) الذين قال الله فيهم: ﴿ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [المائدة: ٢٢].

فلما كان سليمان ساوم صاحب الأرض، فقال: هي بقنطار، فقال سليمان: قد استوجبتها. فقال له صاحب الأرض: هي خير أو ذاك؟! قال: لا، بل هي خير. قال: فإنه قد بدا لي. قال: أوليس قد أوجبتها؟! قال: بلى، ولكن البيعين بالخيار. فلم يزل يراده ويقول له مثل قوله الأول حتى استوجبها منه بسبعة قناطير، فبناه سليمان حتى فرغ منه، وتغلقت أبوابه، فعالجها سليمان أن يفتحها فلم تنفتح، حتى قال في دعائه: بصلوات أبي داود إلا فتحت الأبواب، ففتحت الأبواب. قال: ففرغ له سليمان عشرة آلاف من قُراء بني إسرائيل خمسة آلاف بالليل وخمسة آلاف بالنهار، لا تأتي ساعة من ليل أو نهار إلا والله يعبد فيه.

قال أبو عمر الشيباني: أوحى الله إلى داود أنك لن تتمم بيت المقدس. قال: أي رب ولم؟ قال: لأنك غمرت يدك في الدم. قال: أي رب أو لم يكن في طاعتك؟ قال:بلى، وإنْ كان.

وقال كعب: أوحى الله تعالى إلى سليمان أن ابن بيت المقدس، فجمع حكماء الإنس وعفاريت الجن، وعظماء الشياطين، ثم فرق الشياطين، فجعل منهم فريقًا يبنون، وفريقًا يقطعون الصخور، وفريقًا يقطعون العمد من معادن الرخام، وفريقًا يغصون في البحر، فيخرجون منه الدر والمرجان، وأخذ في بناء المسجد، فلم يثبت البناء، وكان عليه حين بناه داود، فأمر بهدمه، ثم حفر الأرض حتى بلغ الماء، فقال: أسسوا على الماء.

فألقوه فيه الحجارة، وكان الماء يلفظ الحجارة، فاستشار في ذلك، فأروا عليه أن يتخذوا قلالاً من نحاس ثم يملأها حجارة، ثم يكتب عليها، ما على خاتمه من ذكر التوحيد، ثم يلقها في الماء، فيكون أساس الماء، ففعل فثبت، وبنى عمل

بيت المقدس عملاً لا يوصف، وزيّنه بالذهب والفضة وألوان الجوهر في سمائه وأرضه وأبوابه وجدره، ثم جمع الناس وأخبرهم أنه مسجد لله، وأنه هو الذي أمر ببنائه، وأنه مَن انتقصه شيئًا منه؛ فقد ضاد الله(١)، وأنه كان قد عهد إلى داود في ذلك، ثم أوصى سليمان بذلك من بعده، ثم اتخذ طعامًا وجمع الناس.

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] قال: هو سور بيت المقدس الشرقي.

وقد أضربنا عن كثير مما ورد في البناء السليماني؛ لعدم صحته بالنقل.

فضل المسجد الأقصى:

وأما ما ورد في فضله؛ فمنه حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلَاة الرجل فِي بَيته بِصَلَاة وَاحِدَة، وَصلَاته فِي مَسْجِد الْقَبَائِل بِخمْس وَعشْرين صَلَاة، وَصلَاته فِي الْمَسْجِد الَّذِي يجمع فِيهِ بِخَمْسِمِائَة صَلَاة، وَصلَاته فِي الْمَسْجِد الْأَقْصَى بِخَمْسِينَ ألف صَلَاة، وَصلَاته فِي مَسْجِدي بِخَمْسِينَ ألف صَلَاة، وَصلَاته فِي الْمَسْجِد الْحَرَام بِمِائَة ألف صَلَاة»(٢).

وعن أبي ذر ﷺ قال: قيل: يا رسول الله، صلاة في بيت المقدس أفضل أم صلاة في مسجد رسول الله ﷺ؟ قال: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ فِيهِ، وَلَنِعْمَ الْمُصَلَّى فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ

---

(١) ليت اليهود -قبّحهم الله- يرجعون إلى أوامر أنبيائهم، ويعملون بمقتضاها، فإنهم اليوم يضادون الله في كلّ كلمة تخرج من أفواههم، خلص الله بيته من رجسهم وكفرهم، أين هُمْ اليوم؟ هُمْ في وادٍ، وما يأمر به أنبياؤهم -عليهم الصلاة والسلام- في وادٍ آخر.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ، والبيهقي عن جابر ﷺ، وانظر: فيض القدير، (٤/ ٢٢٧٠- ١٢٢٨).

وَلَقَيْدُ سَوْطٍ أَوْ قَالَ: قَوْسُ الرَّجُلِ حَيْثُ يَرَى مِنْهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ خَيْرٌ لَهُ أَوْ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا».

وصحَّ عن موسى ﷺ أنه لما احتضر قال: «يا رب، أدنني من الأرض المقدسة رمية بحجر».

ونزله أبو ذر ﷺ وأكثر فيه الصلاة، وصلى فيه ابن عمر، ومات فيه عُبادة بن الصَّامت، وشداد بن أوس، وأبو ابن أم حزام، وأبو ريحانة واسمه سمعون، وذو الأصابع، وأبو محمد البخاري هؤلاء من أهل بيت المقدس ماتوا به، والذين أعقب منهم عبادة وشداد وسلامة بن قيصر وفيروز الديلمي، والذين لم يعقب منهم أبو ريحانة وأبو محمد البخاري وذو الأصابع.

وقال أبو الزاهرية: «أتيت بيت المقدس أريد الصلاة، فدخلت المسجد وغفلت عني سدنة المسجد حتى أطفئت القناديل وانقطعت الرجل وغلقت الأبواب، فبينا أنا كذلك؛ إذ سمعت حفيفًا له جناحان قد أقبل وهو يقول: سبحان الدائم القائم، سبحان القائم الدائم، سبحان الحي القيوم، سبحان الملك القدوس، سبحان رب الملائكة والروح، سبحان الله وبحمده، سبحان العلي الأعلى ﷻ، ثم أقبل حفيف يتلوه يقول ذلك، ثم أقبل بعد حفيف يتجاوبون بها حتى امتلأ المسجد، فإذا بعضهم قربت مني، فقال: آدمي؟ فقلت: نعم. فقال: لا رب العالمين عليك، هذه الملائكة. قلت: سألتك بالذي قواكم على ما أرى من الأول؟ قال: جبريل. قال: ثم الذي يتلوه؟قال: ميكائيل. قلت: مَن يتلوهم بعد ذلك؟ قال: الملائكة. قلت: سألتك بالذي قواكم لما أرى، ما لقائلها من الثواب؟ قال: مَن قالها مرة في كلِّ يوم لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له.

ذكر الصخرة المشرفة

وروى أبو عبد الله بن باكويه بسنده إلى محمد بن أحمد الصوني، قال: قال لي أستاذي أبو عبد الله بن أبي شيبة: كنت ببيت المقدس، وكان أحب أن أبيت في المسجد، وما كنت أتركه، فلما كان في بعض الأيام بصرت في الرواق بحصر قائمة، فلما أن صليت وراء الإمام أتيت الحصر فاختبأت وراءها، وانصرف الناس والقوام[(١)]، ثم خرجت إلى الصخرة، فلما سمعت غلق الأبواب وقعت عيني على المحراب، وقد انشق ودخل منه رجل ثم رجل إلى أن تمَّ سبعة، واصطف القوم، ولم أزل واقفًا شاخصًا زائل العقل إلى أن انفجر الصبح، فخرج القوم على الطريق الذي دخلوا.

وبه[(٢)] إلى ذي النون قال: بينما أنا في بعض جبال بيت المقدس سمعت صوتًا يقول: ذهبت الآلام عن أبدان الخدام، ولهت بالطاعة عن الشراب والطعام، وألفت قلوبهم طول القيام بين يدي الملك العلام. فتبعت الصوت، فإذا أمرد مصفر الوجه يميل ميل الغصن إذا حركته الريح، عليه شملة قد اتزر بها، وأخرى قد اشتح بها، فلما رآني توارى عني بالشجر، فقلت: ليس الجفاء من أخلاق المؤمنين، فكلِّمني وأوصني، فخرَّ ساجدًا وجعل يقول: هذا مقام من لاذ بك واستجار بمعرفتك وألف محبتك، فيا إله القلوب، احجبني عن القاطعين لي عنك. قال: فغاب عني ولم أره.

---

(١) أي: الخدم، ولعله يقصد من يقيم الصلوات فيه، أو من يقيمون الليل فيه.

(٢) أي: بنفس السند السابق.

وروي عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١] قال: «من صخرة بيت المقدس».

وقال يزيد بن جابر في الآية: يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس، فينفخ في الصور، فيقول: أيتها العظام النخرة والجلود المتمزقة، والأشعار المتقطعة، إنَّ الله أمرك أن تجتمعي للحساب.

وروى ابن منده بسنده عن أنس بن مالك ﷺ قال: إنَّ الجنة لتحن شوقًا إلى بيت المقدس، وبيت المقدس من جنة الفردوس، وهي صرة الأرض، يعني الصخرة(١).

وبه عن أبي إدريس الخولاني قال: يحول الله صخرة بيت المقدس مرجانة بيضاء، كعرض السموات والأرض، ثم ينصب عليها عرضة، ثم يقضي بين عباده، يصيرون منها إلى الجنة وإلى النار.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٧١] قال: «من بركتها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس».

قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١] قالوا: هو إسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس، فينادي: يا أيها الناس، هلموا إلى الحساب، إنَّ الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء، وهذه هي النفحة الأخيرة، والمكان القريب: صخرة بيت المقدس».

قال كعب ومقاتل: «هي أقرب إلى السماء بثمانية عشر ميلاً».

وقال ابن السائب: «باثني عشر ميلاً».

---

(١) إنْ صحَّ ذلك عن أنس ﷺ، يكون له حكم المرفوع؛ لأنه من الغيب الذي لا اجتهاد فيه.

وروي أن كعبًا قدم إيلياء، فوشي من أحبار بضعة عشر دينارًا على أن دله على الصخرة التي قام عليها سليمان بن داود لما فرغ من بناء المسجد وصلى مما يلي ناحية باب أسباط، فقال كعب: قام سليمان بن داود على هذه الصخرة، ثم استقبل بيت المقدس كله، فدعا الله ﷻ بثلاث، فأراه تعجيل إجابته في دعوتين، وأرجو أن يستجيب في الثالثة، فقال: اللهم هب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب، فأعطاه الله ﷻ، وقال: اللهم هب لي ملكًا وحكمًا يوافق حكمك، ففعل الله ﷻ ذلك به، ثم قال: اللهم لا يأت هذا المسجد أحد يريد الصلاة فيه إلا أخرجته من خطيئته كيوم ولدته أمه.

قال المؤلف -رحمه الله: «هذه نبذة يسيرة من ابتداء وضعه، وأما ما يتعلق بفتح بيت المقدس في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ واستيلاء الفرنج عليه، ثم فتحه على يد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتسليمه بعد ذلك أيام الملك الكامل ثم استنقاذه منهم بعد ذلك على يد الناصر داود بن المعظم، فليس هذا موضعه، وسيأتي إنْ شاء الله تعالى في التاريخ التلويح بذلك والإشارة إليه، فهناك ذكره أنسب»، انتهى.

على يد الفقير إلى الله تعالى:

ربيع بن عبد الرءوف الزواوي

عفا الله عنه

الإسكندرية في ليلة الخميس

٢٨/٢/١٤١٨ هـ الموافق ٣/٧/١٩٩٧ م

* * *

الباب الخامس

رسالة المنبر في الإسلام

مقدمة

بقلم: فضيلة العلامة الشيخ:

توفيق سرور -حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي لا تحصى في العالمين محامده، والذي كرمت في الأرض مساجده، وفيها مدت للراغبين موائده، وأصلي وأسلِّم على أمام الدعاة؛ سيدنا محمد خاتم مَن أرسلهم الله تعالى، نبي جعل مسجده لبناء دولة الإسلام خير أساس، فأقام به خير أمة أخرجت للناس.

وبعد:

فقد قرأت ذلكم الكتيب الصغير حجمه، الكبر هدفه، والذي قلت مبانيه وعظمت معانيه، فأحسسته غضبة غيور، وسمعته صيحة محب، وفهمته نصيحة أمين، وقد استوقفني طويلاً عنوانه: (ضباب على المنبر)، فأنطقني العنوان: سبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد عرفت المنابر شموس هداية، ونجوم إرشاد، ومنارات بيان، ونور حق يكتسح ظلمات الباطل، يملأ القلوب إشراقًا وصفاءً، ويمنح الأقوال والأعمال طهرًا ونقاءً، فكيف يقرب الضباب ساحتها؟! لا بل كيف يعلو فوقها؟!

أين ورثة الأنبياء؟! أين العلماء؟! أين الخطباء؟! أين الخطباء الذين يدركون واجبهم، ويحفظون أمانتهم، ويقدرون رسالتهم؟!

إنَّ أول ما يجب الإيمان به للداعية أنه صاحب حق، وأن ما يدعو إليه هو الخير والجمال والعدل، وأن ما دونه هو الباطل، ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ

إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].

وعليه أن يدرك تمام الإدراك عظمة القضية، وأن يجند نفسه لإحسان أدائها، وأن سلاحه في ذلك دقة الفكر وعمق التأمُّل وغزارة العلم، وسعة الثقافة، واستقامة السلوك، وحُسن الهيئة وقوة الشخصية.

وما أجدره أن يصون الدعوة عن دنيء الغايات ورخيص المآرب، وأن يرتفع بها فوق شهوة النفس، شهرة وذيوع صيت.

وعليه قبل كل ذلك أن يستحضر جلال الموقف، وأنه موقف سيد الخلق ﷺ، وأن للكلمة المسموعة أثرها البالغ في النفس، وأن الله تعالى قد أتاح له ومنحه ما لم يمنحه لمتحدث غيره، منحه منبرًا له مكانته وقدسيته في قلب كل مسلم، وهو أشرف مصدر للكلمة، ومكانًا هو بيت الله ﷻ، وزمانًا هو أشرف الأيام؛ يوم الجمعة، ومناسبةً هي الصلاة المفروضة الجامعة، ومستمعين، التطهير زينتهم، والكعبة قبلتهم، واستماعهم إليه عبادتهم، باختيارهم كان إقبالهم، فكيف لا يكون منه إكرامهم؟! كيف لا يكون تقديرهم واحترامهم؟! كيف لا يعد لهم زادهم؟!

وإنه إذا كان أهل الباطل يزيفون باطلهم، ويزخرفون ضلالهم ليلقي رواجه، فخليق بدعاة الحق أن يعرضوا جواهره لآلائها بحقها وخيرها، في فكر دقت تأملاته، وأسلوب أحكمت عبارته، وبرهان تعانقت نتائجه ومقدماته.

فِي زُخْرُفِ القَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ وَالحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

تَقُولُ هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ الزَّنَابِيرِ

مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا خَالَفْتَ وَصْفَهُمَا   حُسْنُ الْبَيَانِ يُرِي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ

وحقًّا، إنه إذا صدق إيمان الداعية بقضيته، وعايشها متفاعلاً معها بكلِّ أحاسيسه ومواهبه، واتخذها رسالة ولاء وحب وعبادة نجاة وقرب، لا مجرد وظيفة أكل وشرب.

وإني لأحيي الأخ الكاتب الغيور، فضيلة الشيخ/ ربيع الزواوي، وأبارك له سداد التفكير، وجودة التعبير، وأشكر له حبه لإخوانه، زاده الله من فضله وإحسانه.

توفيق سرور

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد:

فلست ممن يجيد الوعظ والخطابة مع علمي بأن وظيفة الوعظ والتذكير من أشرف الوظائف، فهي وظيفة الأنبياء والمرسلين، الذين اختصهم الله ﷻ بهذا الفضل العظيم.

لكني لاحظت ضبابًا تراكم على منابر الوعاظ والخطباء، حجب التأثير في قلوب السامعين، وبذلك فقدت المنبر رسالتها مع أهميتها في نشر الدعوة إلى الله

وتعليم أمور الدين عامة وتذكير الغافلين.

فشمرت للتنبيه عليه مستلهمًا العون والتوفيق من الله العلي العظيم، ومستعينًا بما سطَّره العلماء والدُّعاء المخلصين في قديم أو حديث، والله حسبنا ونعم الوكيل.

ربيع عبد الرءوف الزواوي

١٠/ ١٠/ ١٤١٥هـ.

دور المنبر

لا أحد ينكر ما للمنبر في الإسلام من دور ريادي في توجيه الأمة نحو الخير، وشحذ هممها للجهاد في سبيل الله، والعمل المتواصل الدءوب لنصرة الإسلام والعمل على خدمته، لذا أولى الإسلام المنبر اهتمامًا عظيمًا، فأمر ألا يعتليه كل مَن يشتهيه بحق أو بباطل، إلا مَن كان أهلاً له.

ولقد كان المسجد معلمًا بين الأثر في كلِّ البلاد الإسلامية عبر العصور حتى الآن، ذلك ما يلقي المسئولية على العلماء والباحثين في شتى فروع الثقافة الإسلامية أن يبينوه ويبرزوه في صفحاته ناصعًا واضحَ المعالم مدعمًا بالأدلة النقلية والعقلية والتاريخية، والأساليب الأدبية التي تحبب إلى النفوس المسجد، وتعلق القلوب به كالقناديل المشرقة، كما في الكتاب والسُّنة وفي فكر تلاميذ المسجد من سلفنا الصالح الذين ارتبطت أرواحهم بالمسجد، وعلقوا فيه قلوبهم حية.

والمسجد عامل مهم في بناء المجتمع، وهو القاعدة التي تنطلق منها رسالة المؤمن الراكع الساجد الشاكر الحامد لربِّه، وهو منبر السماء على الأرض، والملتقى الذي يلتقي فيه عالم الأرض بعالم السماء، وتتحقق العبودية بمعناها الصحيح الواضح.

والمسجد قلعة من قلاع الإسلام بناها وأسسها على التقوى، وحصن من

حصون العزة والانتصار، وهو المدرسة التي تربِّي المسلم تربيةً كاملةً من كلِّ الجوانب، شجاعةً وإقدامًا، جهادًا وبرًّا، علمًا وعملاً، خلقًا وتألقًا، سماحةً وإيثارًا، وتواضعًا وخشوعًا لله.

إنَّ المسجد مدرسة يوم أغلقها المسلمون فتحوا أبوابًا كثيرة للجهل والأمية، وخسروا خسرانًا مبينًا بسبب ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

خطبة الجمعة:

ثم إنَّ خطبة الجمعة حدث هام، وعنصر من عناصر تربية الأمة الإسلامية جدير بالعناية وخليق بأن يهتم المسلمون به.

وكانت الخطبة عند السلف لها مكانتها سواء السامع منهم أو الذي يلقيها، واليوم وللأسف الشديد نرى كثيرًا من الناس لا يحضرون إلى صلاة الجمعة إلا بعد انتهاء الخطبة.

لماذا؟!

لأن خطباء اليوم إلا القليل من أهل العلم لا علم لهم بسنية الخطبة وحكمتها وغرضها وأهميتها، ولا شعور عندهم بغيرة على هذا الدِّين، وكان ذلك عن طريق توظيف رجال ليس لهم علم بالسُّنة للقيام بأداء هذه الشعيرة.

ومعظمهم منفرون يطيلون الكلام في غير فائدة، أو ربما يكرِّرون كلامًا واحدًا عدة مرات بلا ضرورة؛ لأنه لم يحدِّد الهدف من خطبته قبل صعود المنبر، أو لضعف في علمه أو أسلوبه الخطابي، أو قاصدًا تفويت وقت طويل حتى تكون الخطبة طويلة، متناسيًا أو ناسيًا أو غير عالم أن الرسول ﷺ أمر بقصر

الخطبة وطول الصلاة.

روى مسلم في صحيحه عن أبي وائل ﷺ قال: «خَطَبَنَا عَمَّارٌ، فَأَوْجَزَ وَأَبْلَغَ، فَلَمَّا نَزَلَ قُلْنَا: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ، لَقَدْ أَبْلَغْتَ وَأَوْجَزْتَ، فَلَوْ كُنْتَ تَنَفَّسْتَ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ (أي: علامة) مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا»[1].

وروى أبو داود عن جابر بن سمرة ﷺ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يُطِيلُ الْمَوْعِظَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، إِنَّمَا هِيَ كَلِمَاتٌ يَسِيرَةٌ»[2][3].

المنابر تئن وتشتكي!!

كم من المنابر تئن وتشتكي أولئك الذين تسلقوها ظلمًا وزورًا، فلم يتقوا الله فيها، ولم يعطوها حقها الذي أمروا به، فهي تئن من تحت أقدامهم أنين المريض من شدة السقم، شوقًا إلى الخطباء المتبعين لا المبتدعين، العاملين بما يدعون إليه

---

(١) رواه مسلم في «الْجُمُعَةِ»، باب: «تَخْفِيفِ الصَّلَاةِ وَالْخُطْبَةِ»، ح(٨٦٩).

(٢) رواه أبو داود في «تَفْرِيعِ أَبْوَابِ الْجُمُعَةِ»، باب: «إِقْصَارِ الْخُطَبِ»، ح(١١٠٧)، وحسّنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، ح(١١٠٧).

(٣) قال العلامة الشيخ/ توفيق سرور -حفظه الله- كانت بنت حارثة بن النعمان -رضي الله عنها- تقول: «ما حفظت سورة (ق) إلا من رسول الله ﷺ يخطب بها كل جمعة هذا بالإضافة إلى خطبة الحاجة: إنَّ الحمد لله.. ثم أما بعد؛ فإنَّ... الحديث إلخ.

وقد كان من أوصافه ﷺ وهو يخطب احرار عينيه وعلو صوته واشتداد غضبه، ومعلوم أن ذلك كله لا يكون في بداية الخطبة فجأة، إذا جمعنا ذلك كله من حيث دلالته ومقتضاه. وصلنا إلى أن الخطبة كان فيها نوع من الطول النسبي، بالنسبة للصلاة، فإنه كان يصلي الجمعة بـ(سبح) و(الغاشية)، هما ممّا أقصر من (ق) وحدها، فأين القصر وأين الطول؟! أعتقد أن المراد قصر الخطبة بالنسبة للخطب وطول الصلاة بالنسبة للصلوات الأخرى (كتبه تعليقًا بخطه على الكتاب).

لا الذين يقولون ما لا يفعلون، ويهدمون أكثر ما يعمِّرون، يجبون الأمة من جديد، ويبعثونها من رقادها، ولا يعملون على إخمادها وتخديرها، وشغلها بقضايا لا تخدم المصلحة العامة، فضلاً عن خدمة القضية الإسلامية، فإلى الله وحده المشتكى.

الشعور بالمسئولية:

لما كان شأن الخطبة عظيمًا أمر الرسول ﷺ بالإصغاء إليها والإنصات لها، وعدم الاشتغال بغيرها، وجعل الاشتغال بغيرها من اللغو المذهب للأجر.

قال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم: «إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ، وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ يَوْمَ الجُمُعَةِ، أَنْصِتْ، فَقَدْ لَغَوْتَ أَوْ لَغَيْتَ».

إذا علمنا ذلك؛ فما هو حقُّ هذا المنبر؛ منبر رسول الله ﷺ الذي ائتمن الله عليه خطباء هذه الأمة؟!

فمَن ارتقى شيئًا من ذلك المنابر، فهو على ثغرة من ثغور الإسلام؛ فليحذر أن يؤتى الإسلام من قبله.

وظيفة الخطباء والوعاظ:

إنها وظيفة مهمة، فهي وظيفة الأنبياء والرسل، وليس في الإمكان أن نحيط بها في سطور قليلة، ولكن لا مانع من التذكير بأهم تلك الوظائف التي تحيط بأعناق الوعاظ.

فمن أهم هذه الأمور: إرشاد العامة إلى معرفة الله تعالى، وما يجب أن يثبت له من الأسماء والصفات العلية، وترسيخ معاني التوحيد كلها في قلوب الناس؛

إذ هو جوهر كل الرسالات، وأن يبيِّنوا للناس ما للرسل والأنبياء من حقٍّ وواجبات.

وأن يعلِّموا الناس أركان الدين، صلاة وصوم وحج وزكاة، ودعوة الناس عامة إلى الخير وصرفهم عن كلِّ شيء، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وحث الناس على التمسُّك بالدِّين وفضائله وأوامر الله ورسوله ﷺ، وحضهم على التعاون على البر والتقوى، وتذكيرهم باليوم الآخر، وإيقاظ روح الجهاد في قلوب الناس.

وتطهير قلوبهم من الاعتقادات الباطلة التي تصادم التوحيد وتفسده كما أن عليهم تربية الأجيال وتثقيفهم واستشعار المسئولية، وأنهم مسئولون أمام الله عنهم.

إلى غير ذلك من الوظائف التي لا يمكن حصرها أو عدها وضبطها الآن، وأن يكون كل ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة.

آداب الواعظ والخطيب:

١- لا بدَّ أن يقصد الخطيب بوعظه وجه الله ﷻ، ولا يقصد توصلاً إلى غرض دنيوي، كتحصيل مال، أو جاه أو شهرة، أسوة بالأنبياء في قولهم: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

٢- أن يتحلى بالمحاسن التي ورد الشرع بها وحثَّ عليها، والخلال الحميدة والشيم المرضية التي أرشد إليها من التزهُّد في الدنيا والتقليل منها، وعدم المبالاة بفواتها، والجود والكرم ومكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه من غير

خروج إلى الخلاعة، والحلم والصبر والتنزُّه عن دنيء المكاسب، وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع والخضوع، واجتناب المبالغة في الضحك والإكثار من المزاح، وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية؛ كالتنظيف بإزالة الأوساخ، وتنظيف الإبط، وإزالة الروائح الكريهة، واجتناب المكروهة، وتسريح اللحية والتطيُّب.

٣- الحذر من الحسد والرياء والإعجاب واحتقار الناس، وإنْ كانوا دونه بدرجات.

٤- دوام مراقبة الله تعالى في علانيته وسره، والمحافظة على قراءة القرآن ونوافل الصلوات والصوم وغيرها.

٥- المداومة على الأذكار الموظفة والدعوات وسائر الآداب الشريعة.

٦- صيانة العلم كما صانه علماء السلف، والقيام له بما جعله الله تعالى له من العزة والشرف.

٧- الاجتهاد في العمل بما يعظ الناس به، حتى لا يدخل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣].

٨- أن يظل مجتهدًا في الاشتغال بالعلم، قراءة ومذاكرة، ولا يقنع بالقليل إذا كان يمكنه أن يستزيد منه.

٩- عدم الاستنكاف والاستكبار من أن يتعلَّم ممن هو دونه في سن أو نسب أو شهرة.

١٠- ألا يتصدر للوعظ حتى يصير أهلاً له.

١١- المحافظة على الطهارة من الحدث والخبث والتنظُّف والتطيب ولبس أحس الثياب.

١٢- أن يصون مجلسه من اللغط والحاضرين عن سُوء الأدب.

١٣- أن يجلس بارزًا للحاضرين، ويوقِّر أهل العلم وكبار السن، ويتلطف بجميع الباقين، ويكرمهم بطلاقة الوجه.

١٤- ألا يطيل مجلس الوعظ، بل يجعله متوسطًا، ويحذر من سآمة السامعين ومللهم.

١٥- الترويح عن السامعين إذا خشي عليهم السآمة بالحكايات ومستحسن النوادر والإنشاءات وطريف القول والأدب والشِّعر.

١٦- أن يقول إذا انتهى من مجلسه وقبل القيام: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتغفركَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[1]، أو «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَا أَنْتَ، أَسْتغفركَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[2]، وسيأتي -إنْ شاء الله- مزيد من الكلام حول هذا الموضوع.

أيها الخطباء:

هذه الفقرة هي بيت القصيد، وهي المقصود من تذكرتنا هذه، فالله وحده المستعان.. اعلموا -يا إخواني الخطباء- أن حقوق المنبر عليكم كثيرة؛ فمنها أن

---

(١) رواه الترمذي والحاكم وابن حبان، وصحَّحه الألباني.

(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

تتقوا الله فيه، فهو أمانة ائتمنكم عليها ربكم لتعظِّموه وتمجِّدوه وتوحِّدوه - جلَّ جلاله، لا لتعظموا من خلاله أنفسكم، وتعلوا على أقرانكم، ويشار إليكم بالبنان، ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

أيها الخطباء الأفاضل:

المنبر لتوجيه الأمة نحو الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإعلاء كلمة الله تعالى، وليس المنبر مكانًا للمهاترات والشتائم والسخائم وتسفيه أحلام الآخرين وتجهيلهم، ورميهم بفظائع الأمور.

أيها الخطباء الأفاضل:

ليس المنبر مكانًا لاستخراج الأحقاد الدفينة والعصبيات المقيتة، إنما المنبر دعوة للحق على بصيرة، وعمل متواصل لجمع الكلمة، وتأليف لقلوب الأمة، وجمعهم على كلمة سواء على كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، وعلى منهج السلف الصالح.

أيها السادة الأفاضل:

الناس تنظر إليكم نظرة إجلال وتعظيم، وعدوكم يتربص بكم الدوائر؛ فلا تشمتوا الأعداء وتخيبوا فيكم آمال الأصدقاء؛ بل آمال الأمة، فتنفض أيديها منكم، فاشتغلوا جميعًا بعدوكم، ولا يشغلنكم الشيطان بعضكم ببعض.

أيها الخطباء الأفاضل:

اهتموا بقواعد دينكم، واعتنوا بها، ولا تفرَّقوا ولا تختلفوا، ولا يحملنكم تعصُّبكم لرأي على هجر إخوانكم والهجوم عليهم، والتشهير بهم من على

منابركم، فهي ليست ملكًا لكم لتقولوا عليها كل ما تريدون، وتنتصروا لأنفسكم، بل هي ملك لله ربِّ العالمين، فالفرقة عذاب والخلاف أشد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

ايها السادة الخطباء:

تذكروا قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، فالفتنة نائمة، فمَن أيقظها لم ينج منها، وباء بإثمها، ومَن أجج نارًا أحرقته يومًا من الدهر علم أو لم يعلم.

يا خطباء المساجد:

نزِّهوا ألسنتكم عن الطَّعن في علماء المسلمين خصوصًا الأئمة العاملين المتبعين للكتاب والسُّنة السائرين على نهج سلف هذه الأمة، فأولئك مصابيح الدجى، وهم ورثة الرسول ﷺ حقًّا، فمَن طعن بهم اتهمناه؛ لأنه طعن في الدين، قال ﷺ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»(١)، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا؛ فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»(٢).

قال الإمام الشافعي -رحمه الله: «لو لم يكن العلماء هُمْ أولياء الله ما كان لله وليًّا».

ايها الخطباء الكرام:

إنَّ جمع كلمة الأمة وتوحيد صفوفها أمام عدوها الظاهر والباطن وظيفتكم

---

(١) إسناده حسن: رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان.

(٢) رواه البخاري.

وأنتم مسئولون عنها، فماذا أنتم قائلون أو فاعلون؟!

أيها الخطباء الأفاضل:

عالجوا خلافاتكم بعيدًا عن جو المنابر، وبعيدًا عن أسماع العامة؛ لئلا توقعهم في الفتنة والحيرة والتخبُّط وسُوء الظن بكم جميعًا، بل الطعن فيكم أجمعين، هذا إنْ صحَّ لكم أن تختلفوا اختلافًا يغضب الخاطر أو يحدث تباعُدًا، أما اختلاف وجهات النظر فيما فيه نظر لأهل النظر؛ فإنه الخلاف المثمر البناء والمؤكد لوشيجة الإخاء.

أيها الخطباء الأفاضل:

تذكَّروا قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: «ولا تظنن بكلمة خرجت من فم أخيك شرًّا وأنت تجد لها في الخير محملاً».

وتذكَّروا قول أحد علماء السلف: «ظلم لأخيك أن تخفي تسعًا وتسعين حسنةً من حسناته، وتظهر سيئة واحدة من سيئاته».

أيها الخطباء الأفاضل:

لا تتعجلوا بالحكم على الآخرين قبل أن تتبيَّنوا وتتثبَّتوا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، واحذروا كل نمام، فمَن ذمَّ لك ذمَّ عليك.

أيها الإخوة الأفاضل:

ليكن ولاؤكم لله ورسوله، فلا تتعصبوا لجماعة أو حزب أو طريقة بل تعصبوا للحق وحده، واحذروا اتباع الهوى، فكم من رجل ضلَّ وزاغ باتباع هواه، قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦].

أيها الخطباء الأفاضل:

حذِّروا الأمة من الشِّرك صغيره وكبيره، وادعوهم لتوحيد الله وإفراده وحده بالعبادة، وحذِّروهم من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وإياكم والكذب على الله بقول ما لا تعلمون، والكذب على رسوله بنسبة أحاديث لم يقلها ولم تصح نسبتها إليه.

أيها الخطباء الأفاضل:

لقد كان نبيكم إمام الخطباء إذا خطب علا صوته، واحمرت عيناه، وكأنه منذر جيش يقول: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»، يلهب المشاعر لا لمجرد حماسة أو عاطفة، ولكن ليوقد الحس في الضمائر، ويؤجج جذوة الإيمان في الصدور، فتأسوا به في خطبكم لتجنوا ثمار أعمالكم.

أيها الخطباء الكرام:

لا تكثروا على الناس فيملوا، وتذكَّروا قول نبيكم ﷺ: «إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا»(١)، فتشبهوا بنبيكم تفلحوا.

أيها الخطباء الأفاضل:

اتبعوا ولا تبتدعوا؛ فقد كفيتم، عليكم بالاتباع، واحذروا الابتداع، ولا تتبعوا الرخص فتتساهلوا في دين الله، وتجاملوا العامة والخاصة على حساب الحق، فأنتم قدوة الناس في الخير.

---

(١) سبق تخريجه.

أيها الخطباء الأحبة:

هذه نصيحتي إليكم نصيحة أخ محب لكم جميعًا، راجيًا تقبلها والإفادة منها(١)، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨].

مقومات الخطيب الناجح

١- **من مقومات الخطيب الناجح الموهبة**: وهي فضل من الله ﷻ، فليس كل إنسان يصلح أن يكون خطيبًا، كما أن كلَّ إنسان لا يصلح أن يكون شاعرًا، وقد يتعلم الإنسان الخطابة ويتدرب عليها، ولكن الموهبة ركيزة أساسية ذات أثر بعيد في الفشل أو النجاح.

٢- **ومن مقوماته سلامة أدوات الكلام**: وهي أن يسلم الخطيب من عيوب النطق المعروفة، فلا يكون ألثغ ولا ألدغ، وأن يكون فصيحًا طلق اللسان، وأن يكون جهوري الصوت، وإنْ كانت مكبرات الصوت الحديثة قد تغني الخطيب في هذه الأزمنة عن ذلك.

٣- **ومن مقوماته السلامة من العيوب الخلقة**: قالوا: يحسن أن يسلم الخطيب من العيوب الخلقية؛ فلا يكون أعرج أو ذا عين واحدة.

٤- **ومن مقوماته دراسة أصول الخطابة**: وعرفوا هذا العلم أنه مجموع

---

(١) مجلة الأصالة، العدد (٢).

قوانين تعرف الدارس طرق التأثير ووسائل الإقناع[١]، وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات، وما ينبغي أن يتجه إليه من المعاني أو الموضوعات المختلفة، وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة وأساليبها، وترتيبها، وهو بهذا بنير الطريق أمام من عنده استعداد الخطابة ليربِّي ملكاته، وينمِّي استعداداته.

٥- **ومن مقوماته سعة الثقافة**: فلا بدَّ للخطب من كثرة الاطلاع على العلوم المختلفة؛ لأنه يواجه موسوعة من البشر، فقد يخطب في جماعة من الناس وبين يديه العالم والأديب والطبيب والتاجر والعسكري، ولذا كانت الثقافة عدة لازمة وضرورية لنجاح الخطيب، وكان السلف ﷺ يقدرون ذلك حق قدره، ويعتبرون صعود المنبر مهمة شاقة، لا يقوى عليها إلا أولو العزم.

٦- **ومن مقوماته: الثروة الكثيرة من الألفاظ والأساليب**: وذلك بحفظ كثير من خطب من اشتهر بالفصاحة والبيان، بعد الكتاب الكريم وسنة النبي ﷺ.

٧- **ومن مقوماته الارتياض والممارسة**: فلا بدَّ مع توفُّر المقومات السالفة من المعاناة والممارسة والمران.

٨- **ومن مقوماته المهابة**: قالوا: إنَّ الخطيب لا بدَّ أن يكون رجلاً عليه المهابة حتى يقع في أعين الناس وقلوبهم أحسن موقع، والمهابة منحة

---

(١) وهذا له كتب خاصة، وليس هنا مجال ذكره، وأشرح منها كتابًا عظيمًا للشيخ علي محفوظ -رحمه الله.

من الله ﷻ، وبوسعنا أن نصل إليها إذا صلحت منا السرائر.

٩- **ومن مقوماته قوة الشخصية**: وهي هبة من الله تعالى، ترى كل من يلقاه يحس بقوة روحه وعظم نفسه، فتستمد كلماته من نفسه قوة تنفذ بها إلى القلوب.

١٠- **ومن مقومات الخطيب الناجح حضور البديهة**: والقدرة على امتلاك المواقف المفاجئة والسيطرة عليها.

١١- **ومن مقوماته: قوة العاطفة**: فلا يؤثر إلا المتأثر، ولا يثير الحماس في قلوب السامعين إلا مَن امتلأ حماسةً فيما يدعو إليه[1].

١٢- **ومن أهم مقومات الخطيب أن يكون عالمًا بالعقيدة الصحيحة**: وهي عقيدة أهل السُّنة والجماعة، وذلك حتى لا يؤذي الناس بسُوء عقيدته.

طول الصلاة وقصر الخطبة... لماذا؟!

روى مسلم -رحمه الله- عن أبي وائل -رحمه الله- قال: «خَطَبَنَا عَمَّارٌ، فَأَوْجَزَ وَأَبْلَغَ، فَلَمَّا نَزَلَ قُلْنَا: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ، لَقَدْ أَبْلَغْتَ وَأَوْجَزْتَ، فَلَوْ كُنْتَ تَنَفَّسْتَ (أي: أطلت)، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ (أي: علامة) مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا»[2].

(١) باختصار من تحفة الواعظ للشيخ أحمد فريد.
(٢) سبق تخريجه.

وروى أبو داود عن جابر بن سمرة ﷺ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يُطِيلُ الْمَوْعِظَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، إِنَّمَا هِيَ كَلِمَاتٌ يَسِيرَةٌ»(١).

ما السر الذي جعل طول صلاة الرجل وقصر خطبته من علامات فقهه؟!

أقول: أي موضوع يتخيره الخطيب هو علم ودعوة إلى العمل: إنه يدعو لإصلاح النفوس وحسن مراقبة الله تعالى.. إنه يدعو لإصلاح الصلاة وتحقيق معنى الخشوع فيها.. إنه يدعو لمجاهدة النفس.. إنه يدعو لحسن المعاملة مع أفراد المجتمع.. إنه يدعو للجهاد في سبيل الله تعالى.. إنه يدعو للبر والخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكلُّ ما ذكرت هو من باب العلم والدعوة، وأما المضي للصلاة؛ فهو العمل بمقتضى ما ذكر كله.. بالعمل يقف المسلم بين يدي ربه يودع الدنيا ويزهد فيها.. إنه يستمد من الصلاة قوة القلب وشجاعة الفؤاد ليأتمر بما أمر وينتهي عما نهى عنه، ويعمل بما سمع، فإنْ سمع في الخطبة عن الصلاة ومنزلتها في الدين؛ فقد جاء دور تحقيق هذه المعاني، وإنْ سمع في الخطبة عن مجاهدة النفس، فقد آن أوان مجاهدة النفس، وتصبيرها على الركوع والسجود والخشوع.

وإن كانت الخطبة تنهي عما حرم الله؛ فها هي الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وجاء هذا مؤكدًا في الحديث

---

(١) سبق تخريجه.

الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ لما قيل له: إنَّ فلانًا يصلي بالليل كله، فإذا أصبح سرق، فقال -صلوات الله وسلامه عليه: «سينهاه ما تقول» أو قال: «ستمنعه صلاته»(١).

وإنْ كانت الخطبة تأمر بالمعروف، فالصلاة أعظم معروف وخير موضوع(٢)، وإنَّ العبد في صلاته ليستمد العون من الله تعالى في كلِّ خير وبر، من خشوع، وصوم، وزكاة، وحج، وجهاد، وخلق حسن، وترك كل منكر وشر وفجور.

لعل الخطبة كانت تأمر بالجهاد في سبيل الله، فمن استطاع أن يجاهد نفسه في تحسين صلاته واستمداد العون من الله تعالى، فقد ثبت في الجهاد وإلا فلن يستطيعه، وهل يقاتل الأعداء إلا لأنهم كفروا بالله وتركوا الصلاة؟

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا غَزَا بِنَا قَوْمًا، لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بِنَا حَتَّى يُصْبِحَ وَيَنْظُرَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ عَلَيْهِمْ»(٣).

نعم؛ الصلاة هي العمل، هي سبب صلاة النفوس، إنها النور(٤) والشفاء بها وبالصبر يستعان، قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وفي الحديث: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةُ، فَإِنْ

---

(١) رواه أحمد والبزار بإسناد صحيح.

(٢) قال ﷺ: «الصلاة خير موضوع، فمن استطاع منكم أن يستكثر فليستكثر» رواه الطبراني في «الأوسط».

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) قال ﷺ: «والصلاة نور» رواه مسلم.

صَلَحَتْ صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ»[1].

إنَّ من فقه الرجل أن يقصر الخطبة التي دعت للجهاد، ليمضي إلى الصلاة ليصلح أمر جهاده، ويستعين بصلاته ليوفق في ذلك.

وإنَّ من فقهه أيضًا أن يقصر الخطبة التي تدعو لحُسن الخلق ليمضي إلى الصلاة خلفه، ويستعين بصلاته على ذلك.

ومن فقهه كذلك أن يقصر الخطبة التي تدعو إلى بذل المال في سبيل الله، ليمضي إلى الصلاة، فتنهاه عن البخل، وتصلح له أمر بذله وإنفاقه، وهكذا الشأن مع سائر الأعمال، فالصلاة تيسر سبيل الطيبات، وتأمر العبد بالمعروف، وتنهاه عن المنكر، وتبدِّد له الصعاب.

ولمن غض الطرف عن الصلاة.. أقول:

كم من مريد للجهاد لم يصبه؟!

وكم من راغب في تحسين الخلق لم ينله؟!

وكم من محب لبذل المال لم يظفر به؟!

ثم تعالوا نسأل أنفسنا:

أوما تضجر الكثير من مجاهدين ومقاتلين؟!

أوما تأفف الكثير من حجاج ومزكين؟!

أوما تحوقل كثير من صائمين ومتصدقين؟!

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط»، (٢/ ٢٤٠)، وصحَّحه الألباني في «الترغيب والترهيب»، ح(٣٧٦).

فهذا كله بسبب عدم إحسان الصلاة، (مَتِينَةٌ مِنْ فِقْهِهِ) هذه هي دلائل الفقه وأمارات الفهم.

وكم من أناس يجهلون مدلول الفقه ومعناه، روى الدارمي عن عمران المنقري قال: «قلت للحسن يومًا في شيء: أما هذا كذا قال الفقهاء؟ قال: ويحك، هل رأيت فقيهًا؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بأمر دينه، المداوم على عبادة ربه».

ويحكى أن أحدهم قال للشعبي يومًا: «أجبني -أيها الفقيه- من تورع عن محارم الله، والعالم من خشي الله، وأنى نحن من ذلك؟!».

هذا؛ وإنَّ المعنى الشامل للفقه، أن يبلغنا العلم الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، والتورُّع عن محارم الله، والتبصُّر بأمر الدين، والمداومة على عبادة الله تعالى، وأشد ما يتمثل هذا ويتحقق في الصلاة.

فلتكن من أهل العلم لا من أهل القول والنظريات المجردة، ولنقبل على صلاتنا بكلياتنا، نودع الدنيا ونستقبل الآخرة، ولننظر ما نقدِّم لغد من برٍّ وصلاة، ولنتذكر قبل أن نصلي أننا سنحاسب أول ما نحاسب على الصلاة، وأن بصلاحها صلاح سائر الأعمال، وبفسادها فساد سائر الأعمال.

ها هو العمل فحي هلا!! ها هو الصدق لمن أراد أن يتقي الله، ويكون مع الصادقين[1].

---

(١) مقال بعنوان: (فقه الخطيب وأثره في استجابة المستمع) تحت باب: حق المنبر للشيخ حسين العوايشة، مجلة الأصالة، العدد الثاني، ص(٥٤).

هدي الرسول ﷺ في الخطبة

عند صعود المنبر: روى ابن ماجة بسند ضعيف عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما- أن البني ﷺ كان إذا صعد المنبر سلَّم.

وروى الطبراني في «الأوسط»، وابن عدي في «الكامل» عن ابن عمر - رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ كان إذا دخل المسجد يوم الجمعة سلَّم على مَن عند منبره، فإذا صعد المنبر توجَّه إلى الناس فسلَّم عليهم ثم جلس.

وروى عبد الرزاق عن عطاء أن النبي ﷺ كان إذا صعد المنبر أقبل بوجهه على الناس، فقال: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ»(١).

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه بسند ضعيف عن الشعبي قال: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا صَعِدَ الْمِنْبَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، اسْتَقْبَلَ النَّاسَ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، وَيَحْمَدُ اللهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ، وَيَقْرَأُ سُورَةً، ثُمَّ يَجْلِسُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَخْطُبُ، ثُمَّ يَنْزِلُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ يَفْعَلَانِهِ»(٢).

صفة المنبر الذي كان يخطب عليه الرسول ﷺ:

كان يخطب النبي ﷺ على جذع قبل اتخاذه المنبر، وكان يستند إليه، فلما تحول إلى المنبر وترك الجذع سمع له صوت كصوت العِشار حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكن.

---

(١) وسنده مرسل هكذا كما ترى.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف»، (١/ ٤٤٩)، وهو مرسل أيضًا.

روى البخاري عن جابر ﷺ قال: «كَانَ جِذْعٌ يَقُومُ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا وُضِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ سَمِعْنَا لِلْجِذْعِ مِثْلَ أَصْوَاتِ الْعِشَارِ حَتَّى نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ»[1].

ثم اتخذ النبي ﷺ منبرًا، وكان منبره ﷺ ثلاث درجات.

روى البخاري ومسلم عن أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ نَفَرًا جَاءُوا إِلَى سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَدْ تَمَارَوْا فِي الْمِنْبَرِ مِنْ أَيِّ عُودٍ هُوَ؟ فَقَالَ: أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ مِنْ أَيِّ عُودٍ هُوَ، وَمَنْ عَمِلَهُ، وَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَوَّلَ يَوْمٍ جَلَسَ عَلَيْهِ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ، فَحَدِّثْنَا، قَالَ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى امْرَأَةٍ -قَالَ أَبُو حَازِمٍ: إِنَّهُ لَيُسَمِّيهَا يَوْمَئِذٍ- «انْظُرِي غُلَامَكِ النَّجَّارَ، يَعْمَلْ لِي أَعْوَادًا أُكَلِّمُ النَّاسَ عَلَيْهَا»، فَعَمِلَ هَذِهِ الثَّلَاثَ دَرَجَاتٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوُضِعَتْ هَذَا الْمَوْضِعَ، فَهِيَ مِنْ طَرْفَاءِ الْغَابَةِ. وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ عَلَيْهِ فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ وَرَاءَهُ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، ثُمَّ رَفَعَ فَنَزَلَ الْقَهْقَرَى حَتَّى سَجَدَ فِي أَصْلِ الْمِنْبَرِ، ثُمَّ عَادَ، حَتَّى فَرَغَ مِنْ آخِرِ صَلَاتِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي، وَلِتَعَلَّمُوا صَلَاتِي»[2][3].

بما كان يبدأ به ﷺ في كلِّ خطبة:

كان ﷺ لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله، وأما قول الكثير من

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) فيا عجبًا اليوم لقوم جعلوا المنبر كالبناء العظيم ضخم الحجم يقطع الصفوف، ونسوا الهدف والغرض الأساسي له، وهو البروز للناس بحيث يرى كل الجالسين الخطيب من عليه، فاتخذ اليوم زينة، وهو من بدع المساجد بهذه الكيفية.

الفقهاء: إنه يفتتح خطبة الاستسقاء بالاستغفار وخطبة العيدين بالتكبير، فليس فيه دليل صحيح عن النبي ﷺ.

صفة خطبته ﷺ:

وَكَانَ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»، وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَيُقْرِنُ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَخَيْرَ الْهُدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1].

وكان ﷺ يخطب قائمًا، يحمد الله ويثني عليه، ويصفه بصفات الكمال، ويعلم المسلمين قواعد الدين والإسلام، ويذكر الجنة والنار واليوم الآخر.

وكان ﷺ كما قال الجاحظ أوتي المهابة، وغشي الله كلامه وجمع له بين المهابة والحلاوة، فلم تسقط له حجة، ولم تعثر له كلمة، ولم يغلبه خصم، وإنما أوتي جوامع الكلم ﷺ.

وكان ﷺ يراعي في خطبه حال السامعين والمخاطبين، وكذلك يراعي في كل وقت بما يقضيه حالهم.

وكان ﷺ يعظ في خطبته، ويعظ بالقرآن، وخصوصًا سورة (ق)؛ لما فيها من المواعظ وذكر الموت والبعث والنشور، حتى قالت إحدى الصحابيات وهي بنت حارثة بن النعمان: «مَا حَفِظْتُ (ق) إِلَّا مِنْ فِي رَسُولِ الله ﷺ، يَخْطُبُ

---

(١) رواه مسلم وأحمد والنسائي وغيرهم.

بِهَا كُلَّ جُمُعَةٍ»[1]، وكان إذا دعا ﷺ لم يرفع يديه، وإنما كان يشير بإصبعه المسبحة[2].

وكانت خطبة ﷺ مقتصدة قصيرة جامعة، وكان في الجُمع يخطب قائمًا ثم يقعد قعدة لا يتكلم، ثم يقوم فيخطب خطبة أخرى[3].

من مواعظ السلف في الخطب:

خطب عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يومًا، فقال في موعظته: «إني لأقول هذه المقالة، ولا أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي، فأستغفر الله وأتوب إليه».

قال ابن الجوزي -رحمه الله: «لقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس، وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل، ويحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام، وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي، ولقد جلست يومًا فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف، ما منهم إلا مَن قد رقَّ قلبه، أو دمعت عينه، فقلت لنفسي: كيف بك إنْ نجوا وهلكت، فصحت بلسان وجدي: إلهي وسيدي إنْ قضيت عليّ بالعذاب غدًا، فلا تعلمهم بعذابي صيانة لكرمك، لا لأجلي؛ لئلا يقولوا: عذب من دلَّ عليه.

إلهي قد قيل لنبيك ﷺ: اقتل ابن أبي المنافق. قال: لا يتحدَّث الناس أن

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي وغيرهم.
(٣) رواه النسائي.

محمدًا يقتل الصحابة.

إلهي فاحفظْ حسن عقائدهم فيَّ بكرمك، أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك، حاشاك يا رب من تكدير الصافي.

زوَّر رجل شفاعة إلى بعض الملوك على لسان بعض أكابر الدولة، فاطلع المزور عليه على الحال، فسعى عند الملك في قضاء تلك الحاجة، واجتهد حتى قضيت، ثم قال للمزور عليه: ما كنا نخيب مَن علق أمله بنا ورجا النفع من جهتنا، إلهي فأنت أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، فلا تخيب مَن علَّق أمله ورجاءه بك وانتسب إليك، ودعا عبادك إلى بابك، وإن كان متطفلاً على كرمك، ولم يكن أهلاً للسمسرة بينك وبين عبادك، لكنه طمع في سعة جودك وكرمك، فأنت أهل الجود والكرم، وربما استحيا الكريم من ردِّ مَن تطفل على سماط كرمه».

وكتب مالك بن أنس ﷺ إلى الرشيد -رحمه الله- يقول: «إذا علمت علمًا فلير عليك علمه وسكينته ووقاره وحلمه».

وعن شقيق قال: خرج علينا عبد الله بن مسعود ﷺ، فقال: أما إني أخبر بمكان بمكانكم فأترككم كراهية أن أملكم، إنَّ رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة بين الأيام مخافة السأم علينا، أو قال: السآمة علينا.

وكان الحسن إذا خرج إلى النسا، كأنه رجل عاين الآخرة، ثم جاء يخبر عنها، وكانوا إذا خرجوا من عنده، كانوا لا يعدون الدنيا شيئًا.

وقال سعيد بن جبير: «لو كان المرء لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر

حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر».

مَــنْ ذَا الــذِي مَــا سَــاءَ قَــطُّ وَمَــنْ لَــهُ الحُسْـنَى فَقَـط

وقال الزهري -رحمه الله: «إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب».

وقال ابن رجب -رحمه الله- في (لطائف المعارف): «يا مَن ضاع قلبه أنشده في مجالس الذكر عسى أن تجده، يا مَن مرض قلبه أحمله إلى مجالس الذكر لعله أن يعافى، مجالس الذكر مارستان الذنوب، تداوى فيها أمراض القلوب، كما تداوى أمراض الأبدان في مارستان.

الذكر نزهة لقلوب المؤمنين، تتنزه فيها بسماع كلام الحكمة، كما تتنزه أبصار الدنيا في رياضها وبساتينها.

مجلسنا هذا حضرة في روضة الخشوع، طعامنا فيه الجوع، وشرابنا فيه الدموع، ونقلنا هذا الكلام المسموع، نداوي فيه أمراضًا أعييت جالينوس وبختيشوع، نسقي فيه ترياق الذنوب وفاروق المعاصي، فمَن شرب لم يكن له إلى المعصية رجوع، كم أفاق فيه من المعصية مصروع، وبرئ فيه من الهوى ملسوع، ووصل فيه إلى الله مقطوع، ما عيبه إلا أن الطبيب الذي له لو كان يستعمل ما يصف للناس لكان إليه المرجوع.

يَا ضَيعةَ العُمرِ إِنْ نَجَا السَّامعُ وَهَلكَ المسموعُ

يَا خَيبةَ المسعَى إِنْ وَصلَ التَّابعُ وَانْقطعَ المتبوعُ

ويروى أن ابن الجوزي -رحمه الله- خطب أيام غزو الصليبيين لديار المسلمين خطبة بليغة في الجامع الأموي بدمشق، وقد جاءت خطبته كجرس

الإنذار؛ حيث مال الناس إلى الدنيا آنذاك، وركنوا إلى لذائذ الحياة، وتركوا الجهاد في سبيل الله، قال -رحمه الله: أيها الناس، ما لكم نسيتم دينكم، وتركتم عزتكم، وقعدتم عن نصر الله، فلم ينصركم، وحسبتم أن العزة للمشرك، وقد جعل الله العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، يا ويحكم أما يؤلمكم، ويسجي نفوسكم مرآي عدو الله وعدوكم يخطو على أرضكم التي سقاها بالدماء آباؤكم؟ ويزلكم ويستعبدكم، وأنتم كنتم سادة الدنيا، أما يهز قلوبكم وينمي حماستكم أن إخوانًا لكم قد أحاط بهم العدو وسامهم ألوان الخسف، فتأكلون وتشربون وتنعمون بلذائذ الحياة وإخوانكم هناك يتسربلون باللهب، ويخوضون النار، وينامون على الجمر؟!

يا أيها الناس، إنها دارت رحى الحرب، ونادى منادي الجهاد، وتفتحت أبواب السماء، فإنْ لم تكونوا من فرسان الحرب، فأفسحوا الطريق للنساء يدرن رحاها، واذهبوا فخذوا المجامر والمكاحل، يا نساء بعمائم ولحى، أو فإلى الخيول فهاكم لجومها وقيودها، يا ناس، أتدرون مما صنعت هذه اللجم والقيود؟ لقد صنعها النساء؛ لأنهن لا يملكن شيئًا غيرها، هذه والله ضفائر المخدرات لم تكن تبصرها عين الشمس، صيانةً وحفظًا، قطَّعنها لأن تاريخ الحب قد انتهى، وابتدأ تاريخ الحرب المقدسة، الحرب في سبيل الله، ثم سبيل الدفاع عن العرض، فإذا لم تقدروا على الخيل تقيدونها فخذوها فاجعلوها زوائد لكم، وهذا الضفائر إنها من شعور النساء، ألم يبق من نفوسكم شعور؟! وألقي اللجم من فوق على رءوس الناس، وصرخ: ميدي يا عمد المسجد، انقضي يا رجوم، وتحركي يا قلوب ألمًا وكمدًا، لقد أضاع الرجال رجولتهم».

وما كانت إلا لحظات حتى تحرَّكت عزائم الرجال، وأدركوا خطورة الموقف، واجتمعوا صفًّا واحدًا لمواجهة عدو الله.

أخي خطيب الجمعة:

إنَّ خطبة الجمعة لها أهمية كبرى بين وسائل الدعوة المتاحة للدعاة، قد يتكاسل الناس عن المحاضرة، وقد يتخلفون عن الدرس، لكنهم لا يتخلفون عن الجمعة إلا الذين لا يصلون أصلاً؛ لأن المسلمين مأمورون جميعًا بحضور الجمعة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

ولذا؛ فقد تجد أمامك جمعًا غفيرًا من المسلمين، وربما تجد من بينهم مَن لا يدخل المسجد إلا يوم الجمعة، وستجد فيهم الصالح والطالح، والمفرط والمحافظ، والمتواضع والمتكبر، والمقبل والمعاند، بل ستجد منهم المتعلم والأمي، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، وغير ذلك من فئات المجتمع، فكيف تخاطب هؤلاء جميعًا بالأسلوب المناسب، وكيف تستغل هذا الموقف للأخذ بأيدي هؤلاء جميعًا إلى الطريق إلى الله ﷻ.

فبات من الواجب عليك -أخي الخطيب- أن تتعلم فن الدعوة؛ لتقدِّم تعاليم الإسلام في أبهى منظر وأجمل حلة.

ولنجاحك في الخطبة أسباب:

١- **التكلُّم باللغة العربية الفصحى:** ينبغي على الخطيب أن يحرص على أن يلقي خطبته بالفصحى قدر جهده؛ لأنها لغة القرآن، وشعار الإسلام، والحديث بالفصحى يضفي على خطبتك إشراقًا وعلى

كلماتك نورًا، وفي نفوس مستمعيك قبولاً.

٢-**التوسُّط في الإلقاء**: بحيث لا يكون كلامك سريعًا لا يفهم، ولا بطيئًا فيمله السامعون، ولتعط لكلٍّ موقف ما يلزمه، فإذا احتاج إلى انفعال أسرعت، وإذا احتاج إلى قناع أبطأت.

٣-**الاقتصاد في الخطبة**: فلا تكون طويلة مملة، ولا قصيرة مخلة، ولا تكون متشعبة الأفكار، كثيرة الشواهد، ركيكة المعاني، بل موجزة مقتصدة، وتلك هي السُّنة، فقد قال سيد الخطباء ﷺ: «**إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ**»(١)؛ لأن القصر والإيجاز وإيصال المعنى من أقرب طريق؛ دليل على الفصاحة والعلم والفقه.

٤-**ربط الخطبة بالواقع**: عليك أن تتحسس مشاكل مدينتك وتعالجها من فوق أعواد منبرك، تعايش الناس وتترك المنبر يجيب على تساؤلاتهم، فحينما تكون خطبتك منتزعة من الواقع تكون أقرب إلى قلوبهم وأوقع في نفوسهم.

٥-**المخاطبة على قدر الفهم**: فلا تخاطب العوام بمنطق علمي مرتفع ولا المتعلمين بالمثقفين بمنطق بدائي، بل تخاطب الناس على قدر عقولهم.

٦-**الترفع عن الغلظة في القول والبذاءة في اللسان**: فلا تحقر مستمعيك، ولا تقلل من شأنهم، ولا ترميهم بالجهل وقلة الفهم، ولا

---

(١) سبق تخريجه.

تقذفهم بالفسق والفجور، أو غير ذلك مما لا يليق بمكانة الداعية حتى لو كانوا كذلك، بل تتلطف بهم في الحديث، وترفق بهم في القول.

قال تعالى مبينًا سبب اجتماع الناس حول النبي ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

٧- **استثارة همم المدعوين بما يفتح قلوبهم:** كان تخاطبهم بـ (يا إخوة الإسلام)، (يا أيها المؤمنون)، (يا مَن آمنتم بالله ربًّا، وبمحمد نبيًّا، وبالإسلام دينًا)، وما شابه ذلك مما يفتح قلوبهم ويقرب نفوسهم، فإنَّ المحبة مفتاح القلوب؛ فهذا إبراهيم عليه السلام يذكر أباه برابطة الأبوة أثناء دعوته، فيقول: ﴿يَا أَبَتِ﴾ [مريم: ٤٢]، ويكرِّرها كثيرًا.

وهذا لقمان عليه السلام يذكر ابنه برابطة النبوة ليكون أدعى لقبول الموعظة، فيقول: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا هود عليه السلام يذكر قومه برابطة القرابة فيقول: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ [هود: ٥٠].

وربنا -تبارك وتعالى- يذكر المؤمنين بإيمانهم ليردهم وازع الإيمان إلى الاستجابة والطاعة، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٤][1].

٨- **الابتعاد عن الحركات الكثيرة:** ينبغي أن تتسم بالاتزان أثناء الإلقاء،

---

(١) جاءت في القرآن الكريم (٨٩) مرة.

فلا تتحرَّك أن تشير إلا في الموقف الذي يدعو إلى ذلك، وعليك بتجنُّب الحركات التي تسقط هيبتك من أعين الناس، مثل: كثرة بلع الريق، وفتل الأصابع، والسعال المتكلف، وكثرة الالتفات، وما شابهها.

٩- **حُسن المظهر**: ينبغي أن تصعد المنبر بالمظهر اللائق بالداعية، فلا تلبس ثيابًا رثة أو ممزقة، ولا تلبس ثياب المترفين الرقيقة الشفافة، فعليك أن تكون نظيف الثياب من غير تبرُّج، طيب الرائحة من غير إسراف، مهيب المنظر من غير تكلُّف.

١٠- **التحضير الجيد للخطبة**: لا تصعد المنبر إلا وقد حدَّدت موضوعك، ورتَّبت أفكارك، وانتقيت ألفاظك، حتى لا ترتج عليك العبارات، وتستعجم عليك الكلمات، فلا تتمكن من تبليغ دعوة مولاك.

ولا بأس بأن تستمع إلى أشرطة الخطباء المشهورين، والوعاظ المبرزين لتتدرب على طرق الإلقاء، ووسائل التأثير، وأساليب الإقناع.

١١- **لا تصعد المنبر وأنت ممتلئ المعدة**: لأنه إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وكسلت الأعضاء عن العبادة.

قال محمد بن واسع: «مَن قلَّ طعامه فهم وأفهم وصفا ورقَّ، وإنَّ كثرة الطعام ليثقل صاحبه عن كثير مما يريد».

وقال الشافعي: «الشبع يثقل البدن، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة».

تلكم هي أسباب نجاح الخطبة؛ فاحرصوا عليها إخواني الخطباء، وكونوا منها على ذكر دائمًا[١].

الخطيب المؤثر ضرورة من ضرورات العصر:

الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة ضرورة من ضرورات هذه الحياة لا تقل عن حاجة الإنسان إلى الطعام والشراب، بل هي من أعظم الضرورات على الإطلاق والعموم؛ إذ تتوقف عليها سعادة البشرية ونيل مكانتها وريادتها، بل يتوقف على تركها ذل الأبد وحزن الدهر.

وما قيمة الفرد إنْ فَقَدَ روحه وذاته، ولم يفقه سر وجوده، ولم يهتد إلى غايته، ولم يرشد إلى دربه، عندها ستخلو حياته من المعنى والمبنى.

وقد يجد الإنسان الطعام الجيد والشراب اللذيذ والفراش الوثير، بل قد تبسط مباهج الحياة بين يديه، لن تبدو حياته أشبه بحياة الأنعام، لكنه يفقد بعض ما ذكرنا أو كله إلا أنه يحيا بقلبه الحي المتجرد لخالقه وسيده.

وَلَستُ أُبالِي حِينَ أُقتل مُسلِمًا ... عَلَى أَيِّ جَنبٍ كَانَ فِي اللهِ مَصرعِي[٢]

والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة جعلت مكة عن بكرة أبيها تنساب في قناعة، فدخل أهلها في دين الله أفواجًا، بالدعوة إلى الله تحرَّرت الرقاب، وفكت القيود، وخلصت النفوس من أسر الشهوات ورق العبودية لغير الله، «إن الله ابتعثنا لنخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد،

(١) رسالة إلى خطيب للشيخ وحيد بالي: (مجلة التوحيد، السنة الرابعة والعشرون، العدد الثامن).
(٢) البيت من الطويل، وهو لخبيب بن عدي في ديوانه ص(١٥٠).

ومـن جـور الحكـام إلى عـدل الإسـلام، ومـن ضـيق الـدنيا إلى سـعة الـدنيا والآخرة»[(١)]، ولكن لن تجدي الدعوة إلى الله أثرها أو تحقق مقصدها على هـذا النحو إلا إذا وجد الداعية الناجح الذي يحملها ويعيش بها ولها، ويحمل لها في قلبه المكان الأسنى والمطلب الأسمى.

جوانب ثقافة الخطيب ومصادر أفكاره، وأهم المكونات التي تؤثر في إفرازه وإيجاده:

أما عن البيئة؛ فلا ينكر أحد أثرها بما هو واقع ومشاهد بكلِّ إنسان، ولكن تأثيرها على الداعية آكد وأظهر؛ إذ يتأثر الخطيب بواقعه ومحيطه ويظهر ذلك عليه في أسلوبه وتفكيره وكيفية معالجته لكثير من الأمور التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا ومؤثرًا ببيئته بما ينعكس ذلك على الدعوة ذاتها.

العوامل المعيشية:

وللعوامل الحيوية (المعيشية) تأثيرها على الخطيب؛ فهو أمر ذو بال، أن يكون لدي الداعي مصدرًا من الرزق طيبًا وميسورًا، يحول بينه وبين أسباب التبذل والخنوع للخلق أو التصنُّع لهم، حتى تبقى مكانته في قلوبهم، ومنزلته في نفوسهم، ومن هنا نناشد ولاة الأمور في كلِّ قطر من أقطار المعمورة أن ينزلوا الدعاة المكانة والمكان الذي يليق بهم ورفع مستوى المعيشة لـديهم وتوفير كل سبل الراحة ومطالب العيش؛ لأن الأمة بغير الدُّعاة الصـادقين النـاجحين أمة جوفاء، لا تسمن ولا تغني من جوع، فالعلماء هُمْ صمام الأمان لهذه البشرية، «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ».

---

(١) هذا من كلام ربعي بن عامر ﷺ لرستم قائد الروم.

أما العامل الوراثي؛ فلا نزاع عليه خاصةً إنْ كان الأبوان عظيمين في الصلاح والتقوى وحب العلم وتوقير العلماء، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وبالنسبة للعوامل الذاتية (أي: قدراته الخاصة، واستعداده النفسي)، فهذه لها تأثيرها من خطيب إلى آخر، فالخطيب المثابر الصابر والذي يديم النظر والقراءة والتحليل، وتعميق ما عنده من المعارف واللطائف ليقف على أرض صلبة، بخلاف الخطيب الذي يفتقر إلى تلك المعاني، فالأول يدفعه شوقه إلى ما عند الله العلي الأعلى، وطلبًا في مرضاته ورجاء أن تستغفر له الحيتان في البحر والنملة في الجحر، ورغبة أن تضع الملائكة أجنحتها عليه رضا بما يصنع، وهذا بخلاف الثاني.

ثقافة الخطيب:

أولاً: حفظ كتاب الله تعالى حفظًا مكينًا بحيث تصير الآيات له كما لو كان يقرؤها وينظر فيها.

ثانيًا: حفظ قدر كبير من أحاديث المصطفى ﷺ وبخاصة كتاب: (رياض الصالحين) للخطيب المبتدئ لما يتمبس به هذا الكتاب من سهولة العبارة وقلة الألفاظ، وحُسن التبويب، ودقة العرض بتجميع موضوعات الباب كل على حدة.

ثالثًا: النظر في القصص القرآني الكريم؛ إذ فيه مادة لطيفة لاستخلاص العبرة وربط الفكرة، خاصةً أن الناس يحبون هذا اللون من الأداء.

رابعًا: شحن الذهن بغزوات الرسول ﷺ وتحليلها وربطها بالواقع المعيشي.

خامسًا: النظر في حياة الصحابة أولئك الصفوة المختارة والفئة المنتقاة، وأخذ الأسوة عنهم، وربطها بحياة الناس سلبًا وإيجابًا.

سادسًا: الرغبة في معايشة بعض الكتب الأدبية والفكرية لطلاقة اللسان وسلاسة وسلامة العبارة، وجزالة اللفظ، وأخص بالذكر هنا كتب الرافعي وبخاصة كتاب (من وحي القلم)، وهو كتاب قوي في مادته، عذب جزل في عبارته، رصين في ألفاظه، قوي في بنائه، مشوق في عرضه، شهي في فكرته، مع متابعة ما كتبه شعراء الإسلام قديمًا وحديثًا، وبخاصة شعراء (الدعوة الإسلامية)، وبذلك يتمكن الخطيب من حضور الشاهد في زمانه وإيقاعه في مكانه، ذلك هو جزء من ثقافة الخطيب، مع ملاحظة أن الشرطين الأولين لا غنى عنهما البتة لأي خطيب كائنًا من كان، فما قوة الخطيب إذن إنْ لم يستطع أن يحفظ من كلِّ باب دوحة من الأحاديث التي تنمي ملكته، وتعضد فكرته، وتشبع وتقوم لسانه، وتهيج مشاعره.

قيمة الخطبة:

وما قيمة الخطبة إذا لم يحسن صاحبها فهم الآيات ومواطن العبر وسرعة الدليل الذي لن يسعفه إلا إذا كان حافظًا متقنًا ومعايشًا لما يقرأ؟

وما معنى أن يصعد الخطيب منبره، وهو لم يحط موضوعه إلا بشوارد الآيات وأنصاف الأحاديث، حتى إذا ما طرح الفكرة فبحث عن الشاهد أصيب بالعي والحضر وفأفأة منفرة، ما أغناه عنها لو أتقن عمله وصابر واجتهد في مواطن العلم والفهم.

ومن هنا:

فمطلوب منك -أيها الخطيب- أن تذكر الناس بآيات الله المقروءة والمنظورة، واعلمْ أن في آيات الكون عظة للمستبصرين وعبرة للمتوسمين.

والمطلوب منك أيها الخطيب:

مطلوب منك -أيها الخطيب- أن تتدبر ما تسمع من القرآن الكريم، فالقرآن الكريم إنما ننال بركته بقدر ما نتدبر منه، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

مطلوب منك -أيها الخطيب- أن تتفانى في عبادة ربك، فاجعلْ لنفسك وردًا من القرآن الكريم والذكر العظيم، فتعان به على أداء رسالتك والقيام بدورك، وتقرَّب إلى ربك بصيام النافلة، فهو خير معين لك على انكسار نفسك وخضوع جوارحك لقيوم السموات والأرض.

وإياك أن تنسى مطيتك إلى حور الجنان بقيام الليل، فتخلو بنفسك من شواغل الدنيا ومن كدر العيش، فتبتهل إلى الله العلي الأعلى أن يطلق لسانك بالحكم والعبر، وأن يرسل بصرك للنظر والفكر، وأن يجعل منك ينبوعًا ثريًا، وقطفًا نديًا للناس،كل الناس.

وليكن لك -أيها الخطيب- من آن لآخر مسيرة ذاتية تخطوها بين الأموات لتنظر إليهم في حال غربتهم ووحدتهم ووحشتهم وانقطاع أعمالهم، فتغسل عينيك بدموع العبرات، ومواجع الخطرات، عندها سيقوى عزمك، وتصح توبتك لترجع بهذا الزاد لترى ربك من نفسك خيرًا.

أيها الخطباء:

قد اصطفاكم الله لحمل دعوته ورعاية أمانته وصيانة عهده وتحقيق وعده، فعلِّموا الناس دين الله، وابسطوه بين أيديهم: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، فأروا الله من أنفسكم خيرًا، واعلموا أنكم ورثة الأنبياء[١].

وأخيرًا:

فهذا ما يسَّر الله ذكره، وجرى به القلم، وتيسر نقله عن الناصحين المخلصين، والله تعالى أسأل أن يجعلها موعظة محبٍّ لا تزوير خبٍّ، وأن ينفعني بها ومَن قرأها: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود: ٨٨].

وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله وسلَّم على عبده ونبيِّه محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

ربيع الزواوي

الإسكندرية ١٩/٧/١٤١٧هـ

الموافق ٢٨/١١/١٩٩٦م

* * *

(١) العدد (٣٦٢) من مجلة الوعي الإسلامي الكويتي، والمقال للشيخ علي مدني رضوان.

أهم مراجع البحث

١- كتاب الله تعالى.

٢- صحيح البخاري.

٣- صحيح مسلم.

٤- سنن أبي داود.

٥- سنن النسائي.

٦- سنن الترمذي.

٧- مستدرك الحاكم.

٨- صحيح ابن حبان.

٩- صيد الخاطر لابن الجوزي.

١٠- لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي.

١١- المجموع شرح المهذب للنووي.

١٢- تذكرة السامع لابن جماعة.

١٣- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي.

١٤- مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة.

١٥- تحفة الواعظ لأحمد فريد.

١٦- إصلاح المساجد للقاسمي.

١٧- ضباب على منار المسجد لمحمد الأمين الأنصاري.

١٨- مجلة الأصالة، الأعداد من(١-٦).

١٩- صفة خطبة الرسول ﷺ من صحيح السُّنة لعمرو عبد المنعم.

٢٠- مجلة التوحيد، العدد (٨)، السنة (٢٤).

٢١- مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، العدد (٣٦٢).

* * *

الباب السادس

بحوث تربوية للشباب

المقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإنَّ بعض شباب الصحوة الإسلامية المباركة حتى اليوم لا يملك تصورًا شرعيًّا سليمًا حول جماعة المسلمين، ذلك الحلم الغائب، وهذا الأمل المنشود، رغم كثرة من كتب في هذا الموضوع من العلماء المعاصرين والدعاة إلى الله تعالى.

وهذه التذكرة المختصرة وضعت خصيصًا لشباب الصحوة المباركة، كي يستفيدوا منها -إنْ شاء الله- ويحدِّدوا هدفهم، ويدركوا الطريق الصحيح، ولا يتعجلوا النصر قبل تحصيل أسبابه ومقدماته وشروطه، وحتى يعلموا أن هذه

الجماعات الموجودة في ساحة الواقع اليوم، إنما هي مرحلة مؤقتة في الطريق لقيام جماعة المسلمين، التي لها إمام، ولها شروط وأحكام، ويعلموا أن تلك الجماعات الموجودة سواء التي على الحق منها أو على بعضه ليست هي التي نصَّ عليها شرعنا الحكيم، أو أرشد بلزومها نبيُّنا الكريم ﷺ، خاصةً وأن بعض مَن قصر به فهمه للأسف يعادي ويوالي على تلك الجماعات.

ثم إني أعترف ولا فائدة من الإنكار أن هناك جماعات في واقع المسلمين اليوم ليست على شيء من الصواب إلا النزر القليل، وأنهم يضرون أكثر ما ينفعون، ويسيئون أكثر مما يحسنون، ويخطئون أكثر مما يصيبون، وأن هناك بعض تلك الجماعات معها بعض الحق، وأن بعضهم أقرب للحق من غيرها، ولكل هؤلاء أن يتحروا الحق ويبحثوا عنه، فإذا أدركوه فلا يتعجلوا الخُطا ولا يطول عليهم الأمد، فتقسوا قلوبهم أو يدب إليهم اليأس، فيسقط بعضهم وهو في منتصف الطريق، أو قبل ذلك بكثير، فإنَّ للنصر شروطًا ومقدمات إذا تحققت تنزل نصر الله تعالى، وحاشاه أن يتنزل على قوم ليسوا له أهلاً.

ثم ليدرك هؤلاء جميعًا هذا الهدف العظيم والغاية السامية، وليعلموا أن الخطر محدق بهم من كلِّ ناحية، وأن الكثير الآن يبغض الإسلام ويكره شرع الله تعالى، إلا مَن رحم الله وقليل ما هم، فيتنبهوا بعد غفلتهم، ويعلموا أن العدو لهم بالمرصاد، وأن أعداء الله تعالى لهم هدف من تعدُّد الصفوف وكثرتها، ومن تقسيم الشباب إلى فرق ونحل شتى، فلا يتحد لهم هدف، ولا تقوى لهم شوكة، ولا يجمع لهم شمل.

وليعلموا أن الطريق طويل شاق، وأننا ما زلنا في أول الطريق، وأن

الوصول إلى الهدف يحتاج إلى جهد متواصل، وعمل دائب مستمر، وسير بالليل والنهار، وألا يستعجلوا النصر والتمكين.

فاللهم مجري السحاب وهازم الأحزاب، يا ودود يا رحمن، خُذْ بنواصينا جميعًا، وأرشدنا إلى الصواب، ودلنا على الحقِّ والرشاد، واهدنا إليه، وثبِّتنا عليه، ووحِّدْ صفنا، واجمعْ كلمتنا، وحقِّق غايتنا، ويا حي يا قيوم، آمين، آمين.

كتبه:
ربيع عبد الرءوف عبد السلام صالح الزواوي
الإسكندرية في: ١٤١٤/٣/٦هـ.

فرحة وبشرى

إنَّ الصحوة الإسلامية المباركة اليوم، حديث الناس، كل الناس، والمؤمنون يسجدون لله شكرًا وهم يرون المساجد قد ازدحمت بالمصلين من الشباب، والشوارع وقد غصت بالملتحين من الرجال، والفتيات اللواتي يزينهن اللباس الشرعي الطويل الفضفاض، والكتاب الإسلامي وقد كَثُرَ رواجه، وزاد الإقبال عليه.

وأعداء الإسلام ينظرون إلى هذه الصحوة نظرة شكٍّ وريبة، ولهذا فهُمْ يُسخِّرُون كلَّ ما يملكون من دعاية وإعلام، لإعطاء صورة مشوهة عنها وعن حملتها، ويدبِّرون المؤامرات من أجل وأدها في مهدها، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومما يضاعف خوف وقلق أعداء الإسلام، أن هذا الجيل الذي عاد إلى كنف مولاه كان قد تربى في مدارس ومعاهد وجامعات دول تحمها أحزاب علمانية تحارب الإسلام، ولا تضطهد إلا الدعاء إلى الله.

ولقد كان الفضل في وجود هذه الصحوة لله أولاً وأخيرًا، فهو سبحانه الذي هتك أستار الظالمين، الذين كاد الناس يعبدونهم من دون الله.

ومن جهة أخرى قيَّض الله -جلَّ وعلا- لأمتنا دُعاة من الشباب، رفضوا الأفكار والعقائد المستوردة، وزهدوا في مغريات الدنيا وشهواتها، وتعلقت قلبوهم بكلِّ ما يرضاه الله ﷻ ويحبه، ولم يعد يرهبهم تهديد الظالمين ولا وعيدهم[1].

---

(١) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله: محمد نايف زين العابدين (بتصرف).

موقفنا من الصحوة

هذه الصحوة منا ونحن منها، عزها من عزنا، ونصرها من نصرنا، ونحن أسعد الناس بها، ولكن لا يجوز لقادر أن تكون مشاركته الفرح فحسب بهذه الصحوة، بل نريده فرحًا إيجابيًّا، يتحوَّل إلى كلمة بناءة، أو نصيحة هادفة، أو لفتة موفقة.

وليس ترشيد هذه الصحوة أمرًا يطيقه الآحاد من الناس، بل هو مسئولية الجميع، ونحن بحاجة إلى دعاة يملكون قلوبًا تحترق على واقع الإسلام والمسلمين، وعلى أوضاع الأمة في مشارق الأرض ومغاربها، ويعطفون على إخوانهم الصالحين، وأشداء على أعداء الله تعالى، يتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ونحن بحاجة إلى مَن يحس بآلام إخوانه المسلمين، فإذا سمع بمصيبة حلت بإخوانه تألم لهم، ولو كان لديهم بعض التقصير(١).

والمسلم يحرص كل الحرص على أن يكون فردًا من أفراد هذه الصحوة، وله دور فيها، أو ينفعها بدور ما، في فترة الأزمات والشدائد؛ لأن الصحوة في الفترات العصيبة من عمرها تحتاج إلى جهود متكاتفة، ورؤى واضحة تقود سيرها، وتحفظها من الشقاق والتمزُّق، ولا يكون ذلك -والله أعلم- إلا بالسير على الطريق الصحيح، ونبذ المخلفات التي غالبًا سببها الهوى وضعف النفوس.

---

(١) أخلاق الداعية: سلمان العودة.

فما أحوج المسلمين في هذه الفترات العصيبة من عمر الصحوة الإسلامية إلى رؤية واضحة تعرفهم أين يقفون، وكيف يتحرَّكون، وأي طريق يسلكون ولأي هدف يهدفون، متى يجب عليهم كف الأيدي وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، متى يهادنون ويصالحون، ومتى يجاهدون ويجالدون.

خاصة وقد صدر الناس مصادر شتى وانتهجوا مناهج متباينة، وسلكوا مسالك متناقضة، فمنهم مَن يظن أن المواجهة المسلحة مع الجاهلية الجهلاء من اليوم هو الطريق إلى الإسلام والمسلمين. ومنهم مَن يظن أن طريق البرلمان والمسالك السياسية هو الطريق إلى رفع راية رب البرية، ومنهم مَن يظن أن طريق التربية والإعداد هو الطريق إلى رضا ربِّ العباد، ورفع راية الإسلام على البلاد، ومنهم مَن يدعو بدعوة قاصرة عن ذلك، وليس له همة تدعوه إلى طلب عز الإسلام، ورفع راية الملك العلام، وإنما هو مصلح اجتماعي، وحسبه أن يستجيب الناس لدعوته إلى الخير.

ومنهم مَن همته أدنى من ذلك، فلا تشغله قضية الإسلام، ويستوي في قلبه وعقله التحاكُم إلى الرحمن التحاكُم إلى طواغيت الأرض اللئام، وإنما هو منهوم باللذات، ومشغوف بالشهوات، ليس له من الهمم العالية شيء، ولا من طلب الآخرة ظل ولا فيء[(١)].

ولما تعدَّدت وجهات النظر في الدعوة إلى الله، وفي طريق عودة الإسلام وجماعة المسلمين، أردت مشاركة إخواني في تحري الحق والصواب بهذه التذكرة.

---

(١) وقفات تربوية مع السيرة النبوية: أحمد فريد.

وأنت ترى اختلاف وجهات النظر في قضية عودة الإسلام، والنصر والتمكين، فكان لزامًا على كلٍّ في مكانه وبحسب قدرته أن يشارك ولو بقدر متواضع في ترشيد تلك الصحوة المباركة.

خاصة لما فيه الشباب من فقد لمعالم الطريق، وكثرة مَن يزعم صحة طريقته ومنهجه، ولا شكَّ أن هناك منهجًا واحدًا هو الذي حاز الصواب وضمن لأهله النجاح والفلاح، ألا وهو منهج الرسول ﷺ، خاصةً منهجه في الفترة التي قبل الهجرة من عمر دعوته المباركة ﷺ.

فهذا نداء إلى كلِّ مسلم يعقد العزم على أن يكون له دور في تجديد الدين في هذا العصر الذي نحتاج فيه جميعًا إلى شحذ هممنا، وبذل جهودنا، لتدخل دعوة الإسلام كل بيت، وتعم عقيدة التوحيد جميع الأرض -إنْ شاء الله.

الجيل الأول

لا شكَّ أن الجيل الذي ربَّاه رسول الله ﷺ كان ولا يزال منارة لأهل الأرض جميعًا، فإنهم تخرَّجوا على يد رسول الله ﷺ، والذين تربَّوا في هذه المدرسة، وقاموا بهذا المنهج النبوي المبارك هم خير أمة أخرجت للناس، والجيل الذي تفتخر به البشرية بنسبتهم إليها، الجيل الذي ضرب أروع الأمثلة في الجهاد والبذل والشجاعة والكرم والمروءة والدعوة والصبر، وسائر ما تمدح به الأفراد والشعوب.

الجيل الذي تربَّى بالإسلام وتربَّى للإسلام، فقاموا بدين الله ﷻ، وقام بهم الدين، وكان كل صحابي أسطورة في نفسه يستحق أن يفرد له مصنف،

فظهرت فيهم عظمة الإسلام، وما يفعله في النفوس البشرية، وكيف لا يكون كذلك وهو منهج الله ﷻ الذي ارتضاه لعباده.

فبأمثال مصعب بن عمير، وحمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن رواحة، وجعفر بن أبي طالب، وحرام بن ملحان، وعامر بن فهيرة، وغيرهم كثير ﭫ، يقوم الدين، ويمكن الله ﷻ لعبادة المؤمنين.

ونصر الله تعالى لا يتنزل على أناس متعاطفين مع الإسلام، يفضلون الإسلام على العلمانية والشيوعية والرأسمالية، وغيرها من ملل الكفر، وليس عندهم استعداد للبذل والتضحية لإقامة الدين ورفع راية رب العالمين، ولكنه يتنزل على أناس وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

حتى يتربى هذا الجيل بهذه المواصفات التي ذكرها الله ﷻ، يتنزل عليهم نصر الله، ويمكن لدين الله ﷻ ولعباده، وبذلك جرت سُنة الله تعالى، مع أنه قادر على إهلاك الكافرين، وإعزاز الدين بدون أسباب بشرية، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، كما أنه ﷻ قادر على هداية العباد دون بذل من الدعاة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، ولكنه تعالى جعل لكلِّ شيء سببًا.

كثيرٌ من الناس يظنون أن المعركة يمكن أن تبدأ مع الحكام الظالمين المبدلين للشرع المتين، ثم بعد ذلك يسعون في إصلاح نفوس الناس وتعبيدهم لله ﷻ،

وهذا المنهج مخالف للمنهج القرآني، وهو أن المعركة تبدأ مع النفوس، وذلك بتطهيرها من الشِّرك وتعبيدها لله ﷻ، وتزكيتها بالعبادات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

فوظيفة الدُّعاة تعبيد الناس لله ﷻ، وقد فهم الصحابة -رضوان الله عليهم- هذه الوظيفة، التي هي وظيفة الرسل وأتباعهم، فدخل ربعي بن عامر ﷺ على رستم قائد الفرس فقال: «إنَّ الله ابتعثنا لنخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

فهذا هو طريق الأنبياء وأتباعهم، وليس بالمواجهة مع الجاهلية من أول يوم، ولا بالمهاترات السياسية، ولكن بالدعوة والتربية الصحيحة، وبقيام الليل وصيام النهار، ثم بالبذل، والتضحية لرفع راية الوصول إلى الغاية.

وينبغي أن يكون واضحًا أمام الدُّعاة إلى الله ﷻ أن الطريق طويل شاق، وأن الدعوة تنتقل من مرحلة إلى مرحلة، وأن لكلِّ مرحلة من مراحل الدعوة عبوديتها اللائقة بها.

فحين كان الصحابة ﷺ بمكة مستضعفين ليس لهم دولة ولا شوكة، كانت العبودية في هذه الفترة هي الجهر بالدعوة وتحمُّل الإيذاء والاستهزاء، والتعذيب والتكذيب، وكانت العبودية في كف الأيدي وإقامة الصلاة وإيتاء

الزكاة.

ولما فتحت المدينة بالقرآن، وبايع الأنصار رسول الله ﷺ بيعة العبقة الثانية، وأمر النبي ﷺ الصحابة بالهجرة، صارت العبودية في ترك الأولاد والأموال والأهل والعشيرة، والفرار بالدين لتقوية شوكة المسلمين، وإقامة الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة.

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وأسس دولته وقويت شوكته، أذن الله ﷻ في الجهاد، فصارت العبودية في الجهاد والجلاد، وإراقة دماء الكفار وإزهاق أرواحهم حتى تحقق وعد الله ﷻ، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

فمعرفة مراحل الدعوة، والوقوف على فقه الدعوة في كلِّ مرحلة والعبودية المطلوبة فيها لازم ولا شكَّ لشباب الصحوة الإسلامية لزوم الماء للسمك، والهواء لسائر الأحياء[1].

التعجل طبيعة بشرية

إنَّ طبيعة التعجل والرغبة في جني الثمار، طبيعة بشرية متأصلة، قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:١١]، وقال ﷺ لخباب بن الأرت ﷺ بعد أن لاقى العذاب الشديد بمكة، فذهب يقول للنبي ﷺ: ألا تدعو لنا، ألا تستنصر لنا؟ فأخبره الرسول

(١) وقفات تربوية مع السيرة النبوية (بتصرف قليل).

ﷺ أن الدعاة إلى الله ﷻ لا بدَّ أن يمتحنوا ويبتلوا، وبشَّره بانتصار الإسلام وظهوره، ثم بيَّن له طبيعة البشر الغالبة، فقال: «وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[1].

والذين يستعجلون في زماننا، إما أنهم يتعجلون الصدام المسلح، ويظنون أنهم يقربون النصر، ويختصرون الزمان، حتى يمكن للإسلام وما دروا أنهم يؤخرون الدعوة إلى الله ﷻ، ويسلكون من الطرائق ما يخالف سُنة سيد الخلائق ﷺ، وإما أنهم يسلكون طريق البرلمان والطرق السياسية ويظنون أن هذا الطريق سهل قريب، يوصلهم إلى مقصودهم في أقرب وقت، ولا يحتاج إلى كثير بذل وتضحية، وإنفاق الأعمال في التصفية والتربية.

ونحن إذ ندعو إخواننا إلى معرفة مراحل الدعوة والعبودية الواجبة في كل مرحلة، ندعوهم أيضًا إلى الإيمان واليقين بظهور الدين، فإن الله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

إذا صار لله ﷻ جنود في الأرض، فلا بدَّ أن يتنزل عليهم نصر الله ﷻ، فواجب الدعاة مع تبليغ الدعوة، تربية هذا الجيل الذي يستحق التمكين، وترتفع به راية المسلمين.

واجب شباب الصحوة

إنَّ الواجب على شباب الصحوة إنْ كانوا في مرحلة كف الأيدي وإقامة

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٢٠٢)، والإمام أحمد (٥/ ١٠٩).

الصلاة وإيتاء الزكاة أن يهتموا بالتربية الإيمانية الجهادية، فليس معنى كف الأيدي أن تخلوا قلوبهم من حب الجهاد في سبيل الله، والتشوق إليه، والرغبة في بذل النفس والمال لله ﷻ[١].

عودة إلى المنهج النبوي الكريم:

لو عاد المنصفون من الإسلاميين إلى سيرة الرسول ﷺ، ودرسوا تلك المواقف الشريفة، سواء قبل الهجرة أو بعدها وتعمقوا في هديه -عليه الصلاة والسلام؛ لبان لهم أن لكلٍّ فترة حركتها وعبوديتها، فإنَّ في قصة بيعة العقبة الأولى دروسًا وعبرًا، تبيِّن كيف أن التربية الصحيحة قد تستغرق زمنًا طويلاً من أجل بناء مَن يحمل الدعوة ويبلغها، ولكنها بعد ذلك تثمر الثمرات الجليلة الكثيرة في زمن يسير، فهذا مصعب بن عمير ؓ الذي ربَّاه النبي ﷺ على الإسلام، وسقاه القرآن، كيف فتح الله به ﷻ.

وإني أتخيل أحيانًا رجلاً من الصحابة الكرام يبعث في زماننا هذا، كيف ينفع الله به، وكيف يفتح على يديه، وإنْ شئت قلت أحد علماء السلف الذين جمعوا العلم والعمل؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية أو تلميذه ابن القيم، لو بعث في زماننا وقام بالدعوة إلى الله ﷻ، فإني على يقين من أن النفع الذي يأتي منه، والخير الذي يساق على يديه من فتح البلاد وقلوب العباد بالإسلام، يكون أكثر من آلاف من الدعاة المعاصرين الذين يقضون أعمارهم في الدعوة.

والفرق بيننا وبين هؤلاء الأعلام هو العلم والتربية، والعلم إنْ كان لله ﷻ

---

(١) وقفات تربوية مع السيرة النبوية.

فهو أيضًا تربية، فظهرت بذلك بركة التربية التي يظن كثير من أصحاب الاتجاهات الإسلامية المعاصرة، أنها ليست بذات قيمة، وأن إنفاق أعمارهم فيها ليس فيه فائدة ولا عائشة، وأنها من باب تضييع الزمان، وأن الإسلام يمكن أن يقوم بأناس ما تربوا بالعقيدة الصحيحة وقيام الليل، وصيام النهار، كما تربى الصحابة الكرام(١).

درس من بيعة العقبة الثانية:

لعل أصحاب الفكر المتسرع الذين يظنون أن الإسلام يمكن أن يمكن بضربة خاطفة، يعتبرون بما حدث في هذه البيعة، وكيف أن الأنصار وهم أهل حرب ودراية، قد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يميلوا على أهل البوادي فيقتلونهم، فنهاهم ﷺ عن ذلك، وقال: «إِني لَمْ أُؤمرْ بِذَلكَ».

فتعجل الثمار قد يضيِّع الجهد المبذول، ولا تؤتي الحركة الإسلامية ثمارها، وتكون النتيجة خسارة الأفراد الموجودين وضياع دعوتهم في مقابل مصلحة متوهمة، وهذا شاهد لقول النبي ﷺ لخباب بن الأرت ﷺ: «وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»(٢).

بذلك ينادي الدعاة إلى الله:

إنَّ الدُّعاة المخلصين الراسخين منهم، ينادون بنفس منهج الرسول ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى، وفي الصبر على تلك المراحل، وعدم تعجل النتائج والنصر والتمكين، ولا يزالون ينادون بالتبليغ والتربية الصحيحة، فهي الطريق

---

(١) المصدر السابق.
(٢) سبق تخريجه.

الصحيح للعودة من جديد إلى دين الله تعالى ورفع راية الإسلام مرة أخرى في أرض الله.

لا بدَّ من جيل كالجيل الأول:

إنَّ الدعوة إلى الله مكلفة بواجب تبليغي وواجب تربوي، مقتدية في ذلك بالمنهج النبوي في فترة الدعوة الأولى بمكة، واجب تبليغ الحق للخلق كما هو بلا تغيير ولا تبديل، وواجب تربوي وهو إيجاد الجيل الذي يتربى على نفس ما تربى عليه الصحابة الكرام، وهذه التربية المطلوبة لإقامة القاعدة الإسلامية تهدف إلى إخراج نماذج فذة لا إلى مجرد إخراج مسلمين عاديين، نماذج تكون كالأعمدة الراسية في البناء لتحمل ثقل البناء فيما بعد[١].

ماذا تحتاج هذه القاعدة الإسلامية؟

هذه القاعدة تحتاج إلى عقيدة صافية، لا غبش فيها ولا بدع ولا خرافات، عقيدة كعقيدة السلف الأول، خالية من كلِّ ما علق بها خلال الأجيال من إضافات، كما تحتاج إلى تربية تحوِّل هذه العقيدة إلى سلوكية قائمة في عالم الواقع، كما تحتاج إلى ترسيخ أخلاقيات (لا إله إلا الله) حتى تصبح حقيقة سلوكية، كما تحتاج إلى الوعي السياسي بأحوال العالم المعاصر، وأحوال المسلمين في ظروفهم الراهنة، ومكائد الأعداء ومؤامراتهم الدائمة ضد الإسلام، كما تحتاج إلى الوعي الحركي الذي لا يتعجل الخُطا قبل أوانها، كما تحتاج إلى وعي فقهي يعرف به الفرد ماذا يأتي وماذا يدع[٢].

---

(١) واقعنا المعاصر: محمد قطب (بتصرف).

(٢) المصدر السابق (بتصرف).

هل هذه القاعدة موجودة؟

يجب أن يكون واضحًا في أذهاننا أن (القاعدة الإسلامية) وهذا البناء غير موجود في الحقيقة، برغم عواطف الجماهير، وكل حماستهم التي يبدونها حين يذكر الإسلام.

ويجب أن يكون واضحًا في أذهاننا كذلك أن المعركة بين الإسلام وأعدائه ليست معركة سريعة خاطفة، ولكنها معركة طويلة شاقة، قد تستغرق عدة أجيال، فينبغي للقاعدة التي تنشأ للقيام بهذا العبء الضخم، أن تربي لتكون طويلة النفس، شديدة الصبر، عميقة الإيمان بالله، عميقة التوكل عليه.

وحين تقوم هذه القاعدة بالمواصفات المطلوبة والحجم المناسب، سيغيِّرُ الله للناس؛ لأنهم يكونون قد غيَّروا ما بأنفسهم[(١)].

ولا بدَّ من فقه الواقع:

إننا شباب صحوة في طريقنا نحتاج إلى تبصرة بالواقع، تجعل الفرد منا يعلم أين هو من هذه العالم المملوء بالأحداث، خاصة بعد أن أصبح العالم كله بمثابة قرية صغيرة، نتيجة لما استحدث من آلات حديثة للاتصال المسموع والمرئي، وغير ذلك.

إننا نتألم عندما نرى أحدًا من المسلمين (أعني المهتمين بالدعوة إلى الله تعالى) ليس عنده بُعد نظر في فقه واقعنا المعاصر، وليس له تصور كامل لما يدور حوله، بل ولا يعرف حتى حلول المشاكل المطروحة على ساحة الواقع.

---

(١) المصدر السابق (بتصرف).

الداءوالدواء:

إنَّ المتأمل في واقع الأمة الإسلامية في العصور المتأخرة يتألم لما آلت إليه الحال، وما وصلت إليه من مستوى يندى له الجبين، وقد قلبت النظر في الواقع متلمسًا الأسباب، وباحثًا عن سبل العلاج، محاولاً المساهمة في الخروج من هذا الوضع إلى المكانة التي تليق بنا، نصحًا للأمة، وإبراءً للذمة.

وتوصلت إلى أن هناك أسبابًا عدة يضيق المجال بذكرها وتعدادها، وأبرزها بعد الأمة حكامًا ومحكومين عن هدى الكتاب والسُّنة، وما كان عليه سلف الأمة، وعن هذا السبب نشأت أسباب عدة، ساهمت في الوضع الذي نعيشه، وجعلتنا في مؤخرة الركب إنْ كنا مع الركب بعد أن كنا السادة والقادة، وحماة البيضة والدار، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أصبحنا عالةً على أعدائنا، وهمًّا على أمتنا، وأدرك أعداؤنا سر تأخرنا، ومكمن مصيبتنا وأساس بليتنا، فعاثوا في الأرض فسادًا، يتآمرون ويخططون، ونحن في غفلة عما يكاد لنا، انشغلنا بأنفسنا عن عدونا، وبدنيانا عن ديننا، فلا ديننا يبقى ولا ما نعمر، ولا أريد أن أحمل أعداءنا كل مصائبنا ومآسينا، ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فمنا الداء وعندنا الدواء بإذن الله، وما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء علمه من علمه، وجهله من جهله[1].

---

(١) انظر: رسالة: قل هو من عند أنفسكم: عبد العزيز الجليل (فقه الواقع).

ومن هذا المنطق وجدت أن جهلنا بواقعنا سبب رئيسي من أسباب مصيبتنا، وأيقنت أن فقه الواقع علم هجره الكثير من طلاب العلم ورواد الصحوة، وفقه الواقع علم أصيل تبنى عليه كثير من العلوم والأحكام، وفي ضوئه تتخذ المواقف المصيرية[(١)].

إذن؛ فعلى شباب الصحوة أن يتبصروا هذا الواقع الذي يعيشونه، وأن يتلمسوا المخرج من هذه العقبات، ويدرسوا واقعهم، ويتعرفوا على قضاياهم وكيفية علاجها في إطار إسلامي سليم، وإلا لو غفل أولئك عن فقه واقعهم لخسروا الكثير، ولأوتوا من هذه الثغرة، وعدوهم لهم بالمرصاد.

خطأ آخر:

كما بان خطأ مَن يلجئون إلى البرلمان، نبيِّن -إنْ شاء الله- خطأ مَن يتسرع الصدام المسلح، ونسى عقيدة أهل السُّنة والجماعة نحو الحُكام الظالمين، وتناسى فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضوابطه الشرعية، ونسى كذلك منهج الرسول ﷺ في الصبر على مراحل الدعوة إلى الله تعالى، وظن أن الانقلابات سببًا للإصلاح.

فنقول أولاً: نحن لا نرى الخروج على حُكام المسلمين مهما كانوا مسلمين، ولا نرى الانقلابات سببًا للإصلاح، بل لإفساد المجتمع.

ونعتقد أن السياسة جزء من الدِّين، والذين يحاولون فصل الدين عن السياسة إنما يحاولون هدم الدين، وانتشار الفوضى، وكذا ما شاع في بعض

---

(١) فقه الواقع: د. ناصر العمر (بتصرف).

البلاد الإسلامية: (الدين لله والوطن للجميع) دعوة جاهلية.

ونعتقد أنه لا عز ولا نصر للمسلمين حتى يرجعوا إلى كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، ونبغض الأحزاب الملحدة المعاصرة، وإنْ كنا نتمنى لكلِّ فرد فيها أن يثوب إلى رشده، ويتوب إلى ربِّه.

ونرى أن الناس ينقسمون إلى حزبين: (حزب الرحمن)، وهُمْ الذين تنطبق عليهم أركان الإسلام وأركان الإيمان غير رادين شيئًا من شرع الله تعالى، و(حزب الشيطان)، وهُمْ المحاربون لشرع الله تعالى، وننكر على الذين يقسمون الدين إلى قشور ولباب، ونعلم أن هذه دعوة هدامة.

وننكر على الذين يزهدون في علم السُّنة، ويقولون: ليس هذا وقته، وكذا مَن يزهد في العمل بسُنة رسول الله ﷺ.

ونرى تقديم الأهم على المهم، فالواجب على المسلمين أن يهتموا بإصلاح العقيدة، ثم بالقضاء على البدع والخرافات، ثم القضاء على الشيوعية، وغيرها من الأحزاب الهدامة، وذلك لا يكون إلا بالاتحاد والتمسُّك بالكتاب والسُّنة.

ونرى أن الجماعة التي تضم الرافضي والشيعي والصوفي والسني غير قادرة على مواجهة الأعداء؛ لأن هذا لا يكون إلا بأخوة صادقة واتحاد في العقيدة.

والدعوات الجاهلية كالقومية والعروبة ننكرها، ونعتبرها دعوات جاهلية من الأسباب التي أخرت المسلمين[1].

---

(١) هذه دعواتنا وعقيدتنا: مقبل الوادعي (بتصرف).

دع اليأس:

ذمَّ الله تعالى اليأس والقنوط في كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

فما عليك -أخي المسلم- إلا أن تستمر في الطريق، وإياك والكسل والركون إلى الدنيا، واعلمْ أن الله تعالى قادر على نصر المؤمنين وإهلاك الكافرين، ولكنها سُنة الله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ﴾ [الأنفال: ٤٢]، والدين سيقوم بنا أو بغيرنا، ولكن نحن لا نقوم إلا به، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

أين طاعة الله تعالى؟

إنَّ طاعة الله تعالى هي الطريق المؤدي إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، ولكن الكثير منا لا يعرف هذا الطريق بأكمله، والذي يعرفه سار فيه بضع خطوات ثم توقف، ولم يستطع التقدُّم، وذلك لأن معرفة الطريق وحده لا يكفي للوصول إلى الهدف، ولكن لا بدَّ من السير الدءوب في هذا الطريق، والانتباه إلى منحنياته ومنزلقاته، والإعراض عن المثبطين، وقبل ذلك كله؛ طلب العون والمدد من الله تعالى، هو الذي يكفل استمرارية السير في هذا الطريق.

وهذا الطريق كالصراط المستقيم، في بدايته خلق كثير، وفي نهايته عدد قليل، وبين البداية والنهاية يتهاوى الكثير.

فأصلح -أخي نفسك- وادع غيرك، فالمتأمل لأحوالنا يجد أننا تركنا نفوسنا

مهملة، وقلوبنا خربة، عشعش فيها الشيطان وباض وفرخ، وانشغلنا بغيرنا، أصبحنا كالبيت العفن، خارجه مزركش، وداخله نتن.

السجدة أصبحت بغير خشوع، والصلاة صارت بلا روح، والمصاحف تشكو هجرها، والكتب التي نتبارى على شرائها تشكو أكوام التراب التي تعلوها، السحر يئن من قلة القائمين.

ندعو الله؛ فلا نجد استجابة، ونذكره فلا نلمس لهذا الذكر آثرًا، لا يقيم أكثرنا من الطاعات إلا الصلوات المكتوبة، وإن حافظ عليها.

مَن منا يحاسب نفسه قبل النوم؟!

مَن منا يختم القرآن مرة على الأقل كل شهر؟!

مَن منا يصوم خلاف شهر رمضان كالإثنين والخميس؟!

مَن منا يقوم الليل، وكم ليلة قمناها بعد رمضان؟!

مَن منا يزور القبور للاعتبار؟!

مَن منا إذا ذكر الله خاليًا فاضت عيناه؟!

مَن منا لا يفتر لسانه عن ذكر الله؟!

مَن منا إذا أصبح لا ينتظر المساء، وإذا أمسى لا يتوقع في الصباح أن يكون من الأحياء؟!

مَن منا لا يفارق ذكر الموت قلبه؟!

مَن منا يحب لأخيه ما يحب لنفسه؟!

مَن منا غلب حب الله ورسوله حب ما سواهما؟![١].

مَن منا...؟! من منا...؟!

ثم ماذا؟

وكما أنت مطالب بإصلاح نفسك، فإنك أيضًا مطالب بدعوة غيرك، وإنقاذه من براثن الجاهلية التي كنت فيها أنت يومًا ما، أو كنت يومًا واحدًا من ضحاياها.

والدعوة إلى الله تعالى في هذه الأوقات أصبحت شيئًا ملحًا ضروريًّا، يستلزم منا كل جهد، خصوصًا بعدما وصلت إليه الأمة من حال.

فالمتأمل لحال الأمة في هذه الأيام يجدها أشتاتًا متفرقة، ففي عصرنا هذا نحيت الخلافة الإسلامية، وقسمت أمة الإسلام إلى أكثر من أربعين دويلة لا يطبق الإسلام في واحدة منها[٢].

إنَّ طريق التغيير ليس معقدًا كما يتوهم البعض، لكنه يحتاج إلى رجال يبيعون أنفسهم لله ﷻ، يسيرون في هذا الطريق وهم يحملون أرواحهم على أكفهم[٣].

فالمعركة بين الحق والباطل مستمرة، وأعداء الله في كلِّ عصر على وتيرة واحدة، وقلوبهم متشابهة فيما يرد عليها من الخواطر والشئون.

---

(١) طوق النجاة: د. مجدي الهلالي (بتصرف).

(٢) المصدر السابق نفسه (بتصرف).

(٣) المصدر السابق.

فيا كتائب الحق في كل مكان:

جرِّدوا أسنة العزائم والرد، واستعينوا على رد الباطل بالواحد الفرد، ليظهر جهل أعداء الحق، وفساد أقوالهم للناظرين، ولا عدوان إلا على الظالمين[(١)].

احذرهذاالخطر:

مما تهدد به أمتنا في هذه الآونة، خطر شديد يسمَّى (العلمانية)، وهذا الخطر اسمه لا يدل على خطورته؛ لأنه يهدف إلى غير مسماه، إنَّ العلمانية مذهب من المذاهب الفكرية التي ترمي إلى عزل الدين عن التأثير في الدنيا، فهو مذهب يعمل على قيادة الدنيا في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والأخلاقية والقانونية وغيرها، بعيدًا عن أوامر الدين ونواهيه.

واعلم اخي:

أنه لا علاقة للعلمانية بالعلم، كما يحاول بعض المراوغين أن يلبس على الناس، بأن المراد بالعلمانية: هو الحرص على العلم التجريبي والاهتمام به، حتى أن بعض السطحيين ربما يقتنع بذلك، وهي في الحقيقة تعني إنْ صحَّ القول أنها (اللادينية).

واعلمْ كذلك أن نشأة ذل الخطر كان بسبب ما جنته الدول الكافرة الغربية والأوروبية من كهنوت الكنيسة عندما كان يقف الفكر الكنسي في وجه العلم والتقدُّم، فلما قامت الثورات الصناعية التقدمية، ثار الكل في وجه تلك الكنائس، التي كانت قد بدلت الدين المنزل وأحالوه إلى طقوس كهنوتية، ومن

(١) مختصر عودة الحجاب: د. محمد إسماعيل المقدم.

هنا بدأ الناس يبحثون عن مهرب لهم من سجن الكنيسة ومن طغيانها، ولم يكن مخرجهم الذي اختاروه إذ ذاك إلا الخروج عن ذلك الدين الذي يحارب العلم، ويناصر المجرمين، والتمرُّد عليه، وإبعاده وطرده من كافة جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية والأخلاقية.

وكان لهذه العلمانية ثمار خبيثة في العالم الإسلامي كله؛ حيث تسرب الخطر إلى المجتمع الإسلامي، وكان له آثار سيئة منها:

١- رفض الحكم بما أنزل الله تعالى، وإقصاء الشريعة عن كافة المجالات.

٢- تحريف التاريخ الإسلامي وتزييفه.

٣- إفساد التعليم.

٤- إذابة الفوارق بين حملة الرسالة الصحيحة، وهُمْ المسلمون، وبين أهل التحريف والتبديل.

٥- نشر الإباحية والفوضى والتبديل.

٦- محاربة الدعوة الإسلامية.

٧- مطاردة الدُّعاة إلى الله.

٨- التخلُّص من المسلمين الذين لا يهادنون العلمانية.

٩- إنكار فريضة الجهاد في سبيل الله.

١٠- الدعوة إلى القومية أو الوطنية[١].

---

(١) العلمانية وثمارها الخبيثة: محمد الشريف.

ما واجبنا نحو الخطر؟

إنَّ واجبنا نحو هذا الخطر، يتحدَّد في كشفه للناظرين، حتى يعلموا خطط أعداء الله تعالى من الماكرين، والعمل على أسلمة المناهج التعليمية بحيث تصب كل المناهج العلمية في إطار خدمة الإسلام، وتنقية تلك المواد العلمية من الكفريات والضلالات المدسوسة بها، وأن نقرِّر في نفوس كل طوائف الناس أن الدين يشمل الدنيا والآخرة معًا، وأنه منهج حياة وآخرة، لا في المساجد وأماكن العبادة فقط.

إذن؛ لا بدَّ من العمل بهذا الدين ولهذا الدين، ولا بدَّ من دعوة الناس إلى ما يحبه الله ورسوله من الاعتقادات، والأقوال، والأفعال، ولا بدَّ من تحمُّل التبعات في سبيل الله.

وهذا خطر آخر:

إنَّ هذا الخطر منا وفينا نحن، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ألا وهو أكل لحوم العلماء، وأعني علماء الأمة المعاصرين، والعاملين المخلصين، وهذه بلية يلقيها الشيطان في روع مَن لا بصيرة له من طلبة العلم الطيبين، وهذا خطر عظيم يمزق صف تلك الصحوة المباركة؛ لأنه ضرب لها في صميم قلبها، كيف وهو ضرب لقادتها وحاملي رايتها، إنَّ هذه الصحوة اليوم بحاجة ماسة إلى ترشيد وتوجيه لكي لا تؤتى من داخلها:

فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا ... إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

إنْ لم تجد هذه الصحوة المباركة مَن يوجهها ويرشدها؛ فإنه يخشى عليها من

نفسها قبل الخوف عليها من أعدائها[١].

إنَّ مكانة العلماء في الإسلام مكانة عظيمة، مما يوجب علينا توقيرهم وإجلالهم، وقد تساهل الكثير في هذا الأمر، ووقع بعض طلاب العلم في علمائهم من حيث لا يشعرون، وقد يكون سبب ذلك -ولا حول ولا قوة إلا بالله- الغيرة أو الحقد أو الحسد أو الهوى أو التقليد أو التعصُّب أو التعالي أو غيره.

ولكن من الواجب أن نحفظ للعلماء مكانتهم، وفاعليتهم في قيادة الأمة، وأن نتأدب معهم، وأن نعلم أنه لا معصوم إلا مَن عصم الله، وهُمْ الأنبياء والملائكة، وأن ندرك أنه قد يقع الخلاف، وأنه واقع إلى قيام الساعة، فلا يكون ذلك تفريقًا لصفنا، إنما ينبغي أن تتسع صدرنا للخلاف كحال أصحاب الرسول ﷺ عند الخلاف، وكما كان عليه السلف -رضوان الله عليهم جميعًا، وأن نحمل تلك الأقوال والآراء على المحمل الحسن، وأن ننتبه إلى أخطائنا وعيوبنا نحن، وننشغل بها عن عيوب الناس[٢].

كما أنه من عقيدة أهل السُّنة والجماعة، كما يقول الشيخ السعدي -رحمه الله: «إنهم (أي: أهل السُّنة والجماعة) يدينون لله باحترام العلماء الهداة».

مـا الفَضـلُ إلا لِأَهـلِ العِلـمِ إِنَّهُـمُ ... عَـلى الهُـدى لِمَـنِ اِسـتَهدى أَدِلّاءُ

---

(١) لحوم العلماء مسمومة: د. ناصر العمر.
(٢) مستفاد من المصدر السابق بتصرف.

وَقَـدرُ كُـلِّ امرِئٍ مـا كـانَ يُحسِنُـهُ وَلِلرِجـالِ عَـلى الأَفعـالِ أسـماءُ[(١)]

فانتبه -أخي- لذلك المدخل وإلى تلك الثغرة التي تؤتى أنت منها فتضر نفسك، وتضر الصحوة كلها معك.

اِحفَـظ لِسـانَكَ أَيُّهـا الإِنسـانُ لا يَلـدَغَنَّكَ إِنَّـهُ ثُعبـانُ

كَـم في المَقـابِرِ مِـن قَتيـلِ لِسـانِهِ كانَـت تَهـابُ لِقـاءَهُ الأَقـرانُ[(٢)]

من عوائق الطريق

تواجه الصحوة الإسلامية عقبات عديدة وعوائق مختلفة على طريق الوصول إلى هدفها المنشود بإعلاء كلمة الله في الأرض، وتعبيد الناس لربهم وإلههم سبحانه، والتمكن للإسلام.

ومن هذه العوائق ما يكون من فعل أعداء الله من الكفار والمنافقين، وهذه رغم كثرتها وخطرها ليست بعوائق حقيقية؛ لأن الله ﷻ تكفل بهم بشرط تقوى المسلمين وصبرهم، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ولكن المشكلة الحقيقية تتمثل فيما يكون من أبناء الصحوة أنفسهم، ولقد كانت مشكلة الاختلاف الكبير بين الاتجاهات الإسلامية المتعددة في فهم

(١) البيتان من البسيط، وهما للإمام علي بن أبي طالب ﷺ في ديوانه، ص(٢٤٥).
(٢) البيتان من الكامل، وهما للإمام الشافعي في ديوانه، ص(٣٠٠).

الإسلام، وفي تطبيقه، وفي وسائل الدعوة ومنهاجها وأهدافها، وأولويات العلم الإسلامي من أعظم العوائق في طريق الصحوة، ومما كان له أكبر الأثر في انصراف كثير من المسلمين عن فصائل الصحوة الإسلامية كلها؛ لأنهم يرونهم يختلفون في الكثير والقليل الصغير والكبير، فيكون المبرر الشيطاني لدى الشخص غير الملتزم بأن الصواب هو الابتعاد عن الجميع حتى يتفقوا، وازداد الأمر سُوءًا بحدوث المعارك الكلامية، بل بالأبدان والسلاح وأحيانًا، بين الاتجاهات المختلفة مما أتاح الفرصة لأعداء الإسلام من الكفار والمنافقين لاستغلال هذا التطاحُن، وكما قالوا: تمكنوا من اللعب على وتر التناقُض بين الاتجاهات الإسلامية المختلفة لإضعاف الجميع، وقد كان لهم للأسف الشديد ما يريدون أو أكثر مما يريدون في معظم البلدان الإسلامية التي ظهرت فيها الصحوة -حفظها الله وبارك فيها وهدى أبناءها لسواء السبيل.

واندفع أكثر الاتجاهات الإسلامية في طريقه الذي يراه ملقيًا اللوم على مَن خالفه في التقصير والفشل، وزادت نبرة الحديث بين الإسلاميين حدة، واشتعلت حواراتهم ومجادلاتهم بعبارات نارية وقذائف ملتهبة على المخالفين، مما دفع بالبعض في محاولة لعلاج قضية الخلاف إلى نبذ العمل الإسلامي الجماعي جملة، للتخلُّص من خلافات الجماعات متأولاً حديث الرسول ﷺ لحذيفة رضي الله عنه: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[1]، على تلك الجماعات الإسلامية التي لا يشك هو ولا غيره في عملها من أجل الإسلام مع أن تأويل الحديث الذي لا

(١) رواه البخاري ومسلم.

إشكال فيه على أهل البدع؛ الدعاة على أبواب جهنم، وهم الذين يتمثلون في واقعنا في المنافقين الذين يصدون عن سبيل الله كالعلمانيين والقوميين والحزبيين، بالإضافة إلى أهل البدع كالخوارج والطرق الصوفية والروافض ونحوهم، مع أن هذا المسلك لم يغيِّر من الأمر شيئًا، بل ازدادت الخلافات على هذه المسألة، كغيرها من المسائل وتوقف العمل الإسلامي في كثير من المواطن والبلاد بسبب عدم حسمها أو بسبب الاقتناع بعدم مشروعية الاجتماع على الطاعات، فتعطلت تلك الطاعات التي لا يطيق الأفراد القيام بها، والتي لا يمكن إتمامها بأي صورة، إلا بالاجتماع حول قيادة واحدة وفهم واحد وعمل واحد.

واندفع البعض الآخر في سبيل علاج الأمر كما يظنه إلى التهوين من شأن الخلاف أيًّا كان نوعه، وجعل غايته وهدفه أن يجتمع كل مَن انتسب إلى الإسلام، سنيهم ومبتدعيهم في إطار شعار واحد ومنهج فضفاض واسع يتسع للتناقضات في فهم الإسلام والعمل به في إطار قاعدة سمَّاها (ذهبية) وهي: أن نجتمع فيما اتفقنا فيه، يعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه، ونسي في غمار حماسته الموقف الواجب الذي دلَّ عليه الكتاب والسُّنة وإجماع سلف الأمة من أهل البدع، أهل الفرق النارية التي أخبر بها رسول الله ﷺ، وحتى ظنَّ البعض إمكان التقارُب بين أهل السُّنة وبين شر أهل البدع كالرافضة أو غلاة الصوفية ونحوهم، بل ربما قبل التقارُب بين أهل البدع المعاصرة كالعلمانيين والحزبيين والديمقراطيين[1]، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) نقلاً عن مجلة (صوت الدعوة السلفية)، العدد التاسع، ص(١٢-١٣).

ضياع الرؤية المنهجية:

إنَّ المسلمين اليوم لا تنقصهم الإمكانات ولا يفتقرون إلى العدد، وهم يشكِّلون قوة لا يستهان بها، إذا استطاعوا جمع كلمتهم وتوحيد جهودهم وتنسيق أعمالهم.

إنَّ من أعظم ما أصيب به المسلمون على مر تاريخهم؛ إضاعة الرؤية المنهجية للبناء الحضاري، ما أوقعهم في شباك الرؤية التجزيئية، وغموض معالم المنهج، وتداخل أدواره، واشتباه الأسباب بالنتائج.

إنَّ الواقع الذي تعيشه أمتنا، والذي يمثِّل درك التفكُّك والضعف إنما أوصلتنا إليه مجموعة من الأسباب، كانت بدايتها داخل أنفسنا، وصنع أيدينا، فبعد أن فتحت الدنيا على هذه الأمة، وبسطت لها خيرات الأرض، أخذ حب الدنيا يراود القلوب، وما لبث أن ولجها وتمكن منها، ثم اتسعت هذه الدائرة، حتى أصبحت خلقًا ثابتًا ونهجًا مروقًا، فأوصل الأمة إلى مسالك الشح والظلم والكذب والتباغُض والقطيعة، ثم ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكثر الطامعون، وقل الناصحون، فأشرف للأمة داء التنازُع، فتنازعت الأمة في كتابها، وتنافست على الإمارة، وعلى حطام الدنيا، وأصيبت بإمارة السفهاء والمترفين، فقطعوا أرحامها، وسفكوا دماءها وضربوا بعضها ببعض، ولولا أن كان في الأمة بقية من أهل الحق، يعرفونه ويعملون به ويظهرونه، يحفظ الله بهم هذه الأمة، ويجدِّد لها دينها كلما فتر، ولولا هذه البقية التي تحمل للأجيال المتتالية صفاء الرسالة ونقاءها، والتي تمثل المؤشر الملموس على خلود الإسلام، واليقين بعودة دولته، إذًا لأتانا ما جاء الأمم العاصية من قبلنا من الهلاك، لكن

الله جعل عقوبة هذه الأمة بأيديهم، فضرب قلوب بعضها ببعض، وجعلها شيعًا وأحزابًا، وأذاق بعضهم بأس بعض، وفسدت ذات بينها، وتقطعت أواصرها، فكانت الحالقة التي تعصف بالناس إلى يومنا[1].

ثم بعد ذلك أصاب الصحوة الإسلامية خللاً شديدًا في عملها، وكان ذلك لعدة أسباب منها:

- الأمراض التي ورثتها الحركة من واقع الأمة، ولم تستطع التخلُّص منها.

- والانحرافات المتولدة عن الحركة، والتي ما زالت تعاني من افتقار المنهجية.

- أثر الاحتكاك غير المتكافئ لبعض الدعاة بالثقافات الأخرى.

ثم أدى ذلك إلى جملة كبيرة من السلبيات في صفوف الحركة الإسلامية منها:

١- **التنازع**: وأصاب هذا التنازع تلك الحركة حول حقيقية منهج السلف من مفهوم التوحيد والاتباع وحول عقيدة السلف في الأسماء والصفات، ثم في أصول فقهية كقضية التمذهب ثم تنازع حول الفقه السياسي للدولة الإسلامية ثم تنازع على القيادة، وأن كلَّ حركة هي التي تصلح لحمل الدعوة، وطريقها هو الأسلم والأصوب.

٢- **الفردية**: ولقد جنت تلك الفكرة على الصحوة العديد من الأضرار أبرزها قضية التفكُّك وكثرة الاتجاهات.

---

(١) في منهج الدعوة الإسلامية المعاصرة: أحمد سلام.

٣- **القصور:** وقد وقع القصور في الحركة الإسلامية حتى الآن في تناوُل معظم الجماعات للإسلام، فقصرت جماعات منها على الاهتمام على جوانب من الإسلامي وتضخيمها وزيادة الاهتمام بها على حساب جوانب أخرى، وقد وقع هذا الخلل في عمل جماعة اهتمت بتصحيح العقيدة وجوانب من أصول الأحكام وفروعها، وأهملت بعد ذلك التربية وتنظيم أمر التصحيح، تعلمًا وتعليمًا، كما أهملت التعرُّف على الواقع، وتنظيم التعامُل معه.

كما وقعت في هذا القصور جماعة أخرى، اهتمت بتحليل النشاط الفكري، وتتبُّع متغيرات السياسة وتحليلها، وربطت المفاهيم والنظم الإسلامية بالذهنية والغربية، وعرضت الإسلام من خلالها، وأهملت كذلك إعطاء العامل التربوي حقه من الجهد، فأوكلت كل الأدوار في عملية التغيير للنشاط الفكري والسياسي، واعتمدت تفاعلات الفكر والسياسة في المجتمع كطريقة تغيير متكاملة.

ووقعت في هذا الخلل كذلك جماعة ثالثة، انصرفت إلى التربية على الفضائل بعض العبادات الأساسية، والدعوة إليها، وربط الناس بالإسلام عن طريقها، وأهملت التعرُّف على العقيدة الصحيحة والتعريف بها، خلا الجهد الشخصي لكل فرد، كما أهملت المشاركة التامة في مشكلات المسلمين[١].

إنه من الطبيعي أن تختلف وجهات النظر في العمل في الصف الإسلامي، وفي الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى، ولذلك نشأت في ساحة الواقع جماعات

---

(١) المصدر السابق نفسه.

كثيرة، وجهود متعددة، فهذه الجماعات التي توجد على الساحة الإسلامية اليوم أمر قد يكون طبيعيًا ولا غبار عليه، ولكن أن يقتنع كل فرد في جماعة أن جماعته هي جماعة المسلمين؛ فهذا هو البلية الكبرى والطامة العظمى.

إنما الصواب أن يعلم كل فرد أن هذه الجهود وتلك الجماعات إنما هي مرحلة مؤقتة لقيام جماعة المسلمين، وهي فترة مرحلية مؤقتة تمر بها الأمة.

نصائح المخلصين

لقد نادى الدُّعاة المخلصون ولا يزالون بنبذ روح التفرقة وتمزيق شمل الأمة، والعمل على توحيد تلك الجهود، وتصحيح وجهات النظر، وترك التنازُع، والتباغُض، حتى لا نعطي الفرصة للمنافقين الذين يتربصون بأبناء الصحوة الإسلامية الدوائر.

يقول بعض الناصحين:

إخوتي في الله:

أعلم أنكم -إنْ شاء الله- متحمسون وغيورون، ولكن الغيرة والحماس كل منهما إنْ لم يهذب ويوجه؛ قد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.. عليكم أن تتريثوا فيما تقرءون وفيما تسمعون، ولو كانت دراستكم على أيدي المشايخ العاملين بعلمهم كان ذلك أفضل لكم بكثير.

وعليك أخي في الله:

أن تدرك أن الله يراك ويسمعك من فوقك، فراقب الله تعالى، ولا تقلْ ما لا يرضى الله تعالى، وابتعدْ عن التحزُّب وتفريق الإسلام، وبخاصة أنت -أيها

الأخ الداعية، فإنَّ تحزُّب الدُّعاة بلاءٌ على الإسلام والمسلمين.

ثم يقول: إنَّ انتماء الدعاة إلى بعض الجماعات، وتحزُّب الدعاة بلاءٌ وبلاء على الشباب، إذا كان الداعية الذي ينتظر منه أن يدعو عباد الله إلى الله، يحملهم على التحابب في الله وحده، إذا كان هذا الداعية انتمى إلى جماعة ما، إلى حزب ما، فصار ديدانه إرضاء ذلك الحزب، وتلك الجماعة، ودعوة الناس إلى ما عليه الحزب، إلى أناشيد الحزب، ناسيًا رب العالمين..

إلى أن يقول: إنَّ الدعوة إلى الانتماءات والتحزُّب أضرت بالمجتمع، وأضرت بشبابنا، وفرَّقت صفوفنا، فعلى الدُّعاة أن يراقبوا الله رب العالمين، ويرجعوا إلى ما كانوا عليه من وحدة، طالما أننا تجمعنا وحدة العقيدة، فلماذا نتفرَّق؟! إنما تفرقنا الأهواء[(١)].

ويقول آخر:

«اعلمْ -آخي- كما إننا نتألم على ماضي بعض المسلمين عندما كانوا يصلون الفرض الواحد عدة مرات، في عدة محاريب، خلف عدة أئمة؛ لأن هذا له مذهب غير هذا المذهب الآخر، فإننا نتألم اليوم من تلك الفرق والجماعات التي قسَّمت المسلمين، وفرَّقت شملهم، ولا أعني رعاع الناس، ولكني أعني الملتفين منهم حول الكتاب والسُّنة بفهم سلف الأمة -عليهم رحمة الله».

ويقول آخر [تعليقًا على نفس البلية السابقة]:

«لكن لئن ذهبت هذه البدعة عند بعضهم، فقد حلت محلها بدعة ذميمة

---

(١) الشيخ الجامي: في رسالة توزيع الثروات، ص (٢٥- ٢٦- ٢٧).

أخرى، ألا وهي التعصُّب للجماعة أو الحزب، وازداد الطين بلة، بطلب بعض الجماعات المبايعة لها، وهذه البيعات التي لا يعرفها الإسلام للجماعات والأحزاب؛ إذ هي بيعة بدعية زادوا بها شتات شباب المسلمين والبيعة المشروعة إنما هي للإمام الحاكم المسلم.

فهذا داعية كبير يقول عن جماعته: «إنها لا غيرها هي التي ينبغي أن يضع المسلم يده في يدها».

ويقول: «بهذا لا يسع مسلمًا أن يتخلف عن هذه الدعوة».

ويقول: «إنَّ البيت المسلم الكامل هو الملتزم بمبادئ (وسمَّى جماعته)؛ لأن ذلك هو الكمال الإسلامي المعاصر».

ويقول أيضًا: «إذا كانت الجماعة هذا شأنها فلا يجوز لمسلم الخروج منها، قال ﷺ: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ»، انتهى.

فالإسلام اليوم عند بعض الناس أصبح ينظر إليه من إطار حزبي، فمَن انتهى إلى هذا الإطار كان له ما لهم ولعيه ما عليهم وإلا فلا، وقد نتج عن ذلك قرارات من بعض الناس بمقاطعة بعض أهل السُّنة، بل حصل في مؤتمر لجماعة أن رفض لأمير جماعة إسلامية أخرى التحدُّث والمشاركة في المؤتمر مع السماح منهم لرجل هندوسي بإلقاء كلمة في المؤتمر، والأمثلة في هذا كثيرة، والصور متعددة للأسف، وتتفاوت من جماعة لأخرى، ومن فرد لآخر، إلا من رحم ربك؛ إذ أصبح المقياس مقياسًا حزبيًّا لا مقياسًا شرعيًّا نوالي فيه مَن والي الله، ونعادي فيه مَن عادى الله.

وقد يدعي رجل انتسابه لجماعة أو منهج حق لا غبر عليه، ولكن الرجل مخل بالتزامه الشرعي فيما أوجب الله عليه، وبالمقابل قد نجد شخصًا ينتسب لجماعة عليها ما عليها من ملاحظة في المنهج، ولكن الشخص ملتزم تعليم الإسلام وبالعقيدة الصحيحة، فالقضية إذن التزام بالإسلام وتعاليمه، وليست شعارات براقة ترفع وينادي لأجلها ويحب ويبغض فيها، وتطلب البيعة الحزبية المبتدعة في إطارها.

وفي المقابل حصلت تحالفات مع أهل الكفر والضلال في بعض الجهات بين الجماعات الإسلامية وفئات كافرة بالله أصلاً، كما حصلت تنازلات بل مشاركات خطيرة لأهل البدع والضلالات الخطيرة، لأجل المشاركة في انتخابات البرلمان، وقامت مسيرات شعبية في بعض البلاد تنادي بتطبيق الشريعة الإسلامية، ويرافق المسيرة هتافات بالاستغاثة بغير الله، وطلب المدد من غيره، كما قام أمير جماعة إسلامية في منطقة ما بوضع الكساء على أحد القبور[1]، التي لو رآها الإنسان لاقشعر بدنه مما آل إليه أمر المتسبين إلى الإسلام من الشِّرك والوثنية، حتى إنَّ ذلك القبر ليعظم كبيت الله، ويتسابق على الماء من هناك كماء زمزم، مع العلم أن الرجل ربما لا يعتقد تلك الاعتقادات، لكن يفعل مثل هذا لأجل كسب أصوات هذه الطائفة في الانتخابات التي عرف مصيرها وأشباهها.

فهل بهذا الطريق تنال الحكومة الإسلامية؟ وأين نحن من قول الله تعالى:

---

(١) طبعًا ضريح لبعض الآلهة.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

فالاستخلاف في الأرض والتمكين والأمن لا يكون إلا بالإيمان الحق بالله ﷻ، وبتحقيق العبادة لله -تبارك وتعالى، وترك الشِّرك بالله، وبهذا الاستعداد يمكننا مواجهة الكفرة والملحدين والصليبيين والباطنيين، حتى يتحقق وعد الله ﷻ[1]، انتهى.

إنَّ النصر آتٍ لا محالة، ولكن لحظة أن يستكمل المسلمون صلتهم بالله -تبارك وتعالى- ويوقفوا صلتهم بدينهم، وتصفو نفوسهم من الدخن، ويرتفعوا إلى مستوى التحديات التي تواجههم. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فلا تعجل أخي، ولا تضل الطريق، ولا تيأس ولا يطل عليك الأمد، وأثبت على ما علمت وادع إليه الناس، وإذا تحقَّق فينا ما أراده الله تعالى منا تنزل علينا من السماء النصر والتمكين والظهور على الكافرين.

وفي النهاية:

نخلص إلى عدة نقاط مهمة مجملها:

١- أن الله -تبارك وتعالى- يحب منا أن تعتصم جميعًا بحبله، ولا نتفرق؛ لقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ

---

(١) الاعتصام بالكتاب والسنة: دكتور/ عاصم بن عبد الله.

بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فهذا أمرٌ منه تعالى بالاجتماع والائتلاف وعدم الفرقة والاختلاف.

٢- التفرُّق والاختلاف وقع في الأمم الماضية، فقال تعالى: ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

٣- نهى الله تعالى نبيَّه -عليه الصلاة والسلام- عن سلوك طريقهم، فقال تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، ونهى الأمة جميعها عن سلوك طريقهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

٤- نصوص السُّنة النبوية تأمر بالتمسُّك بالكتاب والسُّنة، وتنهى عن الخلاف والفرقة.

٥- وقع الاختلاف في الأمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله لسبب طغيان العصبيات الحزبية على النصوص الحكيمة من الكتاب والسُّنة، وصارت الإخوة ليست على الإيمان، رغم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

٦- الجماعات الموجودة الآن، لا يلزم أي مسلم في أي مكان إلزامًا شرعيًا بالانضمام إليها والدعوات إلى مبادئها[1]، وليست هي جماعة المسلمين المجتمعين على بيعة إمام مسلم، ولا يأثم المسلم بمفارقتها.

(١) انظر: بند (٨) الآتي.

٧- هذه الجماعات منها ما هو على الحقِّ، ومنها ما هو على بعضه، ومنها ما هو يضر أكثر مما ينفع، وهذه مرحلة مؤقتة في طريق قيام جماعة المسلمين الذين لهم إمام ببيعة ويأثم المسلم بمفارقتها.

٨- على المسلم أن ينظر إلى أقرب هذه الجماعات أخذًا بالكتاب والسُّنة وعلى فهم مَن مضى من أئمة الدين، وعلى رأسهم أصحاب النبي ﷺ والأئمة المهتدون في كلِّ عصر، ويشاركها في طاعة الله -تبارك وتعالى، دون التعصُّب لها وتخطئة ما سواها.

٩- الإخوة الإيمانية هي أصل القضية، والولاء عند المسلم لله ورسوله وليس للأحزاب والأسماء: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

١٠- الجماعة الأخرى إنْ كان عندها بعض الخير والحق وبعض الخطأ، فأفرادها يحبون من جانب، ويبغضون من آخر، وأصل الإيمان هو أصل الموالاة، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

١١- نحن بهذا لا ندعو للائتلاف مع أصحاب المذاهب الباطلة؛ الكافرة كالرأسمالية والقومية والاشتراكية أو العلماني أو الوطنية أو الأحزاب المنافقين والزنادقة، ولا مع الفرق الضالة؛ كالخوارج والجبرية والقدرية الروافض، إنما ندعو إلى الائتلاف مع المخالف في بعض الأمور، من أهل السُّنة والجماعة، بل قد وقع علماء أفاضل من أهل السُّنة والجماعة في بعض التأويلات التي وافقوا

فيها بعض الطوائف كالأشاعرة مثلاً، وكان منهم أئمة فضلاء مثل ابن الجوزي، وابن حجر العسقلاني، والإمام النووي -رحمهم الله جميعًا، ووسع العلماء في كلِّ عصر ومصر تلك الهفوات البسيطة واستدركوها عليهم وبينوها فيهم، ولكن ما أخرجوهم عن مسمى أهل السُّنة والجماعة.

١٢- لا بدَّ أن يكون التعامُل مع هذا الشخص المخالف في نطاق الأخوة الإيمانية، فيكون العدل والإنصاف، وأدب الحوار، وإعطاء كل ذي حق حقه، وعدم تسفيه المخالف، والتثبت في الأخبار، وعدم نشر الشائعات بمجرد سماعها، وتقديم حُسن الظن، وترك الغيبة، وتذكر وحدة العقيدة والإيمان، وكثرة أعداء المسلمين المتربصين بجميع الإسلاميين.

١٣- الاختلاف سُنة كونية، ولكن لها حدود وأحكام وأبعاد وآداب، ودراسة التاريخ المنصف يبيِّن للباحث المخلص لو تدبر آداب هذا الخلاف، ووجهات النظر، وسعة الصدر للمخالفين ما داموا تسعهم أخوة الإيمان.

١٤- لا نتعجل الخُطا، ولا نضل الطريق، بل بالتربية الإيمانية الصبر والمثابرة وطل بالعلم لوجه الله -تبارك وتعالى، والصبر على الابتلاء، والحرص على تعبيد الناس لله تعالى، وليس للأسماء، ودراسة سيرة رسل الله تعالى وأنبيائه -عليهم السلام، وكذا تاريخ الأئمة المجاهدين العاملين المخلصين من هذه الأمة، ومعرفة عقبات الطريق ومنزلقاته، ومكر الشيطان والأعداء بالأمة، والأضرار التي يؤدي إليها الاختلاف والتفرُّق، وتوسيع الأفق العلمي والفهم الناضج المستنير، حتى تكون نظرة المسلم أوسع وأشمل من نظرته في قصر الأخوة على الحزب أو الجماعة، ومعرفة أن النصر لا يتنزل إلا على جيل حقَّق

الصفات التي خصها الله تعالى في حزبه المفلحون من الإيمان به تعالى وبالرسل والكتب واليوم الآخر والقضاء والقدر وبالملائكة والعمل الصالح، والاعتصام بحبله المتين وعدم التشاحن، وفهم الغاية من الخلق والتي لها أرسل الله تعالى جميع الرسل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فتحقيق العبودية لله -تبارك وتعالى- هو الهدف الأول، ولا بدَّ من أن يعيش المسلم عبودية وقته، فلا يفرط في عبودية بحجة أنه ضيَّع أخرى ليس لها وجود فرضه عليه الواقع الأليم، ويفرط في شيء من دينه بحجة عدم جدواه أو عدم أهميته، أو يستصغر من شأنه، ولا بدَّ من الثبات على طريق الله -تبارك وتعالى.

والمسلم الصادق يجتهد أن يكون محصلاً لوسائل هذا الثبات على الطريق والتي من أهمها:

١- الإقبال على كتاب الله -تبارك وتعالى- والاعتصام به؛ لأنه كتاب الله الذي ضمن الحق وحده، محفوظ من الزيادة فيه والنقصان، شمل المنهج الحياتي الكامل للعباد في حياتهم وبعد مماتهم، وهذا حبله المتين، ونوره المبين، وصراطه المستقيم، مَن اتبعه هداه الله وأنجاه، ومَن دعا إليه هدي إلى الصراط المستقيم، فهو يغرس في القلوب الإيمان، ويزرع فيها نور اليقين، ويرفع النفوس ويزكيها، ويرفع من الهمم، ويزيد العبد صلة بربه، ويرشد إلى الحق ويثبت عليه، ولذلك أنزله الله تعالى على رسوله مفصلاً حتى يثبِّت به فؤاده، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

٢- العمل الصالح؛ لأنه سبب لتثبيت الله تعالى للعبد في الحياة الدنيا وفي الآخرة، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى

﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وكان ﷺ إذا حزبه أمر هرع إلى الصلاة، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

٣- الثقة بنصر الله -تبارك وتعالى، وهذا لا يكون إلا بإيمانه بنصوص الوحي قرآنًا وسنةً بالنصر والتمكين والظهور في الأرض، وأن المستقبل لهذا الدين.

٤- ممارسة الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى؛ لأنها تجدِّد الصلة بالله وتذكر بالحق والتمسُّك بالهدي، فالدعوة تحرس صاحبها بقدر اجتهاده فيها، ولذلك أرشد الله تعالى نبيَّه ﷺ لتبليغ الحق والرسالة، وسوف يعصمه من الناس، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، والنفس إذا شغلت بالحق والخير، تزكت وانطلقت به تنشره، وإنْ شغلت عنه نسته، وشغلت صاحبها بالمعصية.

٥- الحرص على مجالسه الصالحين؛ لأنهم هُم القدوات المربون، ترتاح لرؤيتهم النفوس وتصفو بهم الأرواح، والنظر إليهم يذكر بالله، فدونك -أخي- العلماء الصالحون العالمون؛ عش في أكنافهم، وألزم مجالستهم، وإياك والوحدة والبُعد عنهم فتخطفك الشياطين، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

٦- سلوك الطريق المستقيم؛ الطريق الصحيح، طريق أهل الحق، طريق

أهل السُّنة والجماعة، والانخراط فيهم، والبُعد عن الأهواء والبدع، والحذر من أهل البدع والضلال.

٧- كثرة ذِكر الله -تبارك وتعالى؛ حيث استعان به يوسف ﷺ في الفتنة، فخرج منها سالمًا غانمًا الأجر والمثوبة، ولجأ إليه النبي ﷺ في بدر وفي الغار، ودعا الله تعالى إليه المسلمين، وهُمْ أحوج ما يكونون إليه، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ولجأ إليه إبراهيم عليه السلام في النار، فكانت بردًا وسلامًا، ولجأ إليه يونس عليه السلام في ظلمات بطن الحوت في جوف البحر، فأنجاه الله: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤]، وبه يخرج الله تعالى العبد من الظلمات إلى النور، فقال تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٢-٤٣].

٨- الدعاء؛ كان ﷺ طوال عمره يستلهم من ربه -تبارك وتعالى- الثابت على الحقِّ بهذا الدعاء: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ»[1].

ولجأ إليه كذلك ﷺ ليلة بدر؛ فتنزل نصر الله ونزلت الملائكة تدافع عن الذين آمنوا، قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩].

وندب الله تعالى الصالحين أن يقولوا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨]، وليقولوا: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ

(١) رواه الترمذي، وصحّحه الألباني.

﴿أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وبالدعاء أنجا الله يونس عليه السلام كذلك، قال تعالى عنه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ – ٨٨].

وبه أصلح الله لزكريا عليه السلام زوجه، وأعطاه الولد على الكبر، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩–٩٠]، وقال تعالى عنه أيضًا: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٨–٣٩].

فالعبد العاقل يستلهم العون من الله -تبارك وتعالى- على تلك الفتن التي تقابله في طريقه إلى الله، حتى ينجو، ويفوز بعد الموت.

* * *

خاتمة مهمة في أسباب النصر الحقيقية

لقد نصر الله تعالى المؤمنين في مواطن كثيرة؛ في بدر والأحزاب والفتح وحنين وغيرها، نصرهم الله وفاء بوعده: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

نصرهم لأنهم قائمون بدينه وهو الظاهر على الأديان كلها، فمَن تمسَّك به؛ فهو ظاهر على الأمم كلها: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

نصرهم الله؛ لأنهم قاموا بأسباب النصر المادية منها والمعنوية، فكان عندهم من العزم ما برزوا به على أعدائهم، أخذًا بتوجيه الله تعالى لهم، وتماشيًا مع هديه وتثبيته إياهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠]، ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]، ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].. فكانوا بهذه التقوية والتثبيت يسيرون بقوة وعزم وجد، وأخذوا بكل نصيب من القوة؛ لقول ربهم تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا

تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] من القوة النفسية والقوة العسكرية الظاهرة.

نصرهم الله؛ لأنهم قاموا بنصر دينه، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، ففي هذه الآية والتي قبلها، وعد الله ﷻ بالنصر مَن ينصره وعدًا مؤكدًا بمؤكدات لفظية ومعنوية، أما المؤكدات اللفظية؛ فهي القسم المقدر، لأن التقدير: والله لينصرن الله مَن ينصره، وكذلك اللام والنون في ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾، كلاهما يفيد التوكيد.

وأما التوكيد المعنوي؛ ففي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، فهو سبحانه قوي لا يضعف، عزيز لا يذل، وكل قوة وعزة تضاده فستكون ذلا وضعفًا، وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] تثبيت للمؤمن عندما يستبعد النصر في نظره لبُعد أسبابه عنده، فإنَّ عواقب الأمور لله وحده يغيِّر سبحانه ما شاء حسبما تقتضيه حكمته.

وكذلك في هاتين الآيتين بيان الأوصاف التي يستحق بها النصر، وهي أوصاف يتحلى بها المؤمن بعد التمكين في الأرض، فلا يغويه هذا التمكين بالأشر والبطر والعلو والفساد، وإنما يزيده قوةً في دين الله وتمسكًا به، وهذه الأوصاف هي:

١ - ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، والتمكين في الأرض لا يكون إلا بعد تحقيق عبادة الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ

ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

فإذا قام العبد بعبادة الله وحده، مخلصًا له في أقواله وأفعاله وإرادته، لا يريد بها إلا وجه الله والدار الآخرة، ولا يريد بها جاهًا ولا ثناءً من الناس، ولا مالاً ولا شيئًا من الدنيا، واستمر على هذه العبادة المخلصة في السراء والضراء والشدة والرخاء، مكّن الله له في الأرض.

إذن؛ فالتمكين في الأرض يستلزم وصفًا سابقًا عليه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وبعد التمكين والإخلاص يكون:

٢- إقامة الصلاة، بأن يؤدي الصلاة على الوجه المطلوب منه، قائمًا بشروطها وأركانها وواجباتها، وتمام ذلك القيام بمستحباتها، فيحسن الطهور، ويقيم الركوع والسجود والقيام والقعود، ويحافظ على الوقت، وعلى الجمعة والجماعة، ويحافظ على الخشوع؛ وهو حضور القلب سكون الجوارح، فإن الخشوع روح الصلاة ولبها، والصلاة بدون خشوع كالجسم بدون روح.

٣- إيتاء الزكاة: قال تعالى: ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ في ثاني صفاتهم، بأن يعطوها إلى مستحقيها، طيبة بها نفوسهم، كاملة بدون نقص، يبغون بذلك فضلاً من الله ورضوانًا، فيزكون بذلك أنفسهم، ويطهرون أموالهم، وينفعون إخوانهم من الفقراء والمساكين وغيرهم من ذوي الحاجات.

٤- الأمر بالمعروف: ﴿ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾، والمعروف كل ما أمر الله ورسوله من واجبات ومستحبات، يأمرون بذلك إحياءً لشريعة الله، وإصلاحًا لعباده، واستجلابًا لرحمته ورضوانه.

والأمر بالمعروف إيمان وتصديق يستلزم أن يكون الآمر قائمًا بما يأمر به؛ لأنه

يأمر به عن إيمان واقتناع بفائدته وثمراته العاجلة والآجلة.

٥- النهي عن المنكر: ﴿وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، والمنكر كل ما نهى الله عنه ورسوله من كبائر الذنوب وصغائرها مما يتعلق بالعبادة والأخلاق أو المعاملة، ينهون عن ذلك كله صيانةً لدين الله وحمايةً لعباده واتقاءً لأسباب الفساد والعقوبة.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعامتان قويتان لبقاء الأمة وعزتها ووحدتها، وحتى لا تتفرق بها الأهواء وتتشتت بها المسالك، ولذلك كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فرائض الدين على كلِّ مسلم ومسلمة مع القدرة، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فلولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتفرَّق الناس شيعًا، وتمزقوا كل ممزق، كل حزب بما لديهم فرحون، وبه فضلت هذه الأمة على غيرها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وبتركه ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

فهذه الأوصاف الخمسة متى تحقَّقت مع القيام بما أرشده الله إليه من الحزم العزيمة وإعداد القوة الحسية، حصل النصر بإذن الله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، فيحصل للأمة من نصر الله ما لم يخطر على بال، وإنَّ المؤمن الواثق بوعد الله ليعلم أن الأسباب المادية مهما قويت، فليست بشيء بالنسبة إلى قوة الله الذي خلقها وأوجدها؛ افتخرت عاد بقوتها وقالوا: مَن أشد منا قوةً؟! فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

وافتخر فرعون مصر بأنهارها التي تجري من تحته، فأغرقه الله بالماء الذي كان يفتخر بمثله، وأورث ملك موسى وقومه، وهو الذي في نظر فرعون: ﴿مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

وافتخرت قريش بعظمتها وجبروتها، فخرجوا من ديارهم برؤسائهم وزعمائهم بطرًا ورئاء الناس، يقولون: لا نرجع حتى نقدم بدرًا، فننحر فيها الجزور، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فهزموا على يد النبي ﷺ وأصحابه شر هزيمة، وسحبت جثثهم جيفًا في قليب بدر، وصاروا حديث الناس في الذل والهوان إلى يوم القيامة.

ونحن المسلمين في هذا العصر لو أخذنا بأسباب النصر، وقمنا بواجب ديننا، وكنا قدوة لا مقتدين، ومتبوعين لا أتباعًا لغيرنا، وأخذنا بوسائل الحرب العصرية بصدق وإخلاص؛ لنصرنا الله على أعدائنا كما نصر أسلافنا(١).

فهل حقَّقنا تلك الأسباب، أو عملنا على تحقيقها؟! أم أننا نخبط خبط

(١) مجالس شهر رمضان للشيخ العثيمين.

عشواء، ونستعجل الخُطا، ونتأخر النصر حتى يدب اليأس إلى قلوبنا؟!

وفي النهاية:

فليس غرضي من هذه الدراسة نقدًا لجماعة أو نقضًا لفكر معين، أو تقديمًا لحل أرى فيه كبير فائدة، لا، إنما غرضي الأساسي هو شحذ الهمم ولم الشمل الممزق، وتنبيه الذين يتمادون في تفريق الصف على حساب أهوائهم الشخصية، متناسين خلف تلك الضروب من الخلافات الشخصية أو قل حتى الخلافات الجماعية أو الفكرية البسيطة هموم وجراح الأمة بأسرها.

ولا نملك إلا أن نقول:

حسبنا الله ونعم الوكيل، ربنا أفرغ علينا صبرًا، وثبِّت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، اللهم انصر دينك وكتابك وسُنة نبيِّك -عليه الصلاة والسلام، اللهم انصر المسلمين في كلِّ مكان، وأصلح اللهم أحوالهم، واجمعْ شملهم، ووحِّد صفهم، واهدهم إلى صراطك المستقيم، وانصرهم على عدوك وعدوهم، وأصلح اللهم شباب هذه الأمة، ووفقهم اللهم للإيمان والعمل الصالح.. اللهم آمين، وصلى الله وسلَّم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بقلم الفقير إلى الله

ربيع عبد الرءوف عبد السلام صالح الزواوي

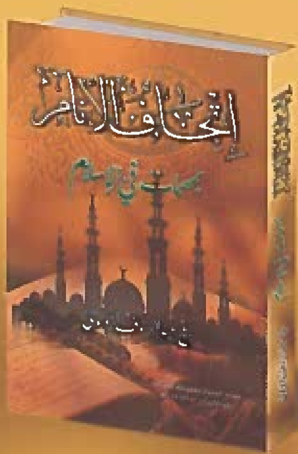
الإسكندرية ٤/٥/١٤١٥ هـ، الموافق الأحد ٩/١٠/١٩٩٤م

* * *

الفهرس

* * *

إتحاف الأنام
بمهمات في الإسلام



يشتمل هذا الكتاب على مجموعة مهمة من البحوث إسلامية كنت قد نشرت بعضها في كتيبات منفصلة صغيرة الحجم.منها ما تم طباعته أكثر من مرة لما كان لها من القبول عند القارئ بفضل الله وحمده.

واليوم نخرجها جميعا في هذا المجلد تحت عنوان (اتحاف الانام بمهمات في الاسلام) وذلك رغبة في جمعها في كتاب واحد. بعد النظر فيها وتمحيصها. والاضافة اليها. وتعديل بعض الفقرات... فما من مؤلف يؤلف كتابا إلا كلما نظر فيه غير وبدل واضاف وحذف. وهذا هو العمل البشري الذي يحاول ويسعى جاهدا الوصول الى الكمال. وهو محال من المحال. فسبحان من له الكمال. وله الجلال... لا نحصي ثناء عليه سبحانه هو كما أثنى على نفسه.

نسأل الله تعالى أن يعم به النفع. وأن يجعله لوجهه خالصا.... المؤلف

رقم الايداع: ٢٣٦٤٣/ ٢٠١٢م